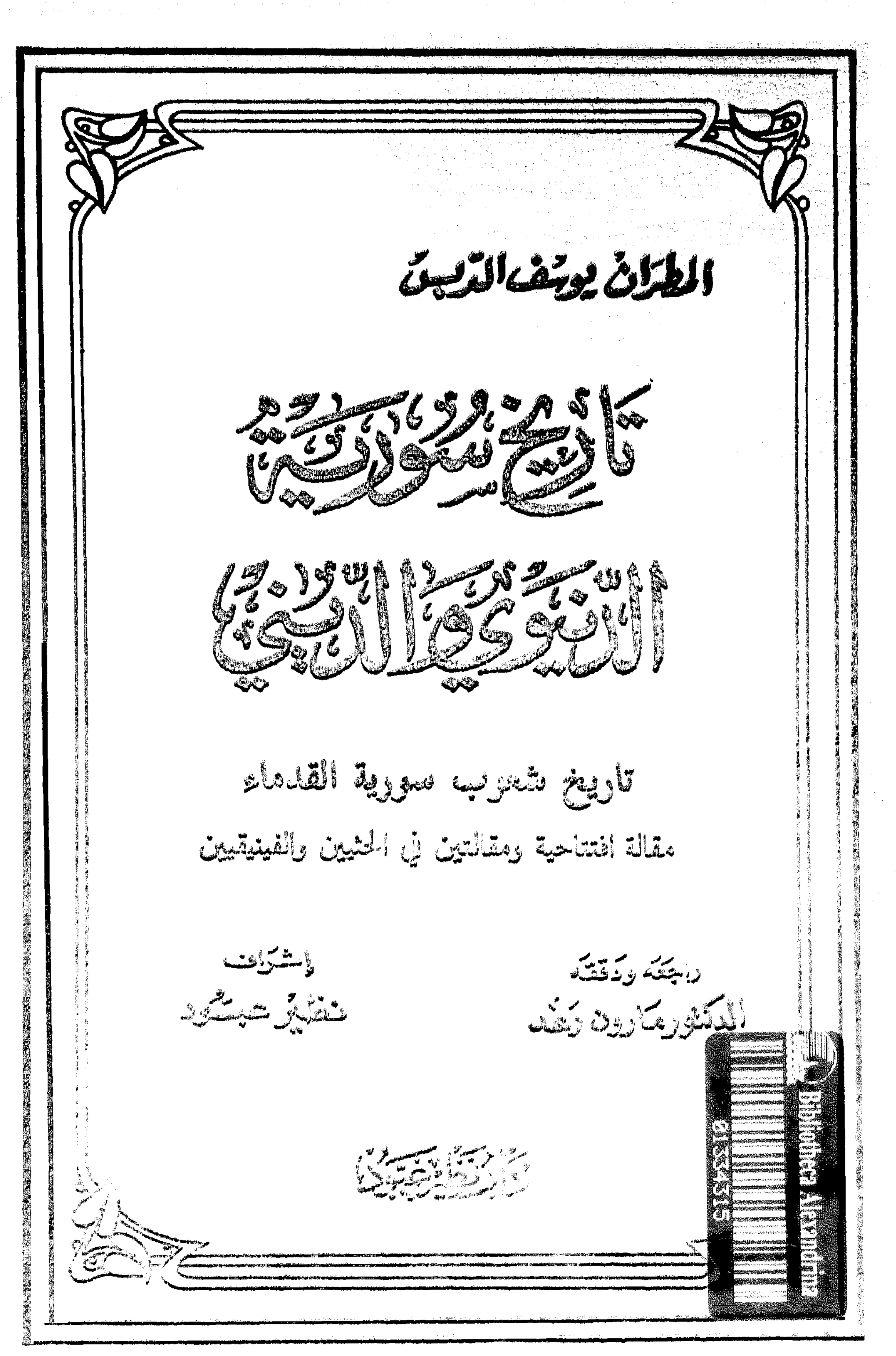


المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية الدنيوي والديني

تاريخ شعوب سورية القدماء

مقالة افتتاحية ومقالتين في الحثيين والفينيقيين

راجعه ودققه
الدكتور مارون رعد

إشراف
نظير عبود

دار نظير عبود

تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الجزء الأول

تاريخ شعوب سورية القدماء

مقالة افتتاحية ومقالتين في الحثيين والفينيقيين

راجعه ودققه

الدكتور مارون رعد

إشراف

نظير عبود

دار نظير عبود

١٩٩٤

ص.ب : ٨٠٨٦/١١ تلفون : ٩٣٦٧٧٢ـ ٩٢٤٧١٤

فهرس

الفصل الأول

لمعة في جغرافية سورية واسمها

الفصل الثاني

الخطوط المصرية والهيروكليفية والخطوط المسمارية ومن اكتشف رموزها

الفصل الثالث

خلق العالم والإنسان

الفصل الرابع

الفصل الخامس

شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر والحيّة ومعصية الإنسان

الفصل السادس

الآباء الأوّلون قبل الطوفان

الفصل السابع

الطوفان

الفصل الثامن

ابناء نوح وتفرّق أبنائهم في الآفاق

الفصل التاسع

برج بابل

الفصل العاشر

اللغة

الفصل الحادي عشر

لمحة في الكتابة

الفصل الثاني عشر

سكان سورية الأوّلون

مقالة في الحثّيين

الفصل الأول

أصل الحثّيين وموطنهم وما يظهر من تاريخهم في الكتاب المقدس

الفصل الثاني

تاريخ الحثّيين مأخوذاً عن الآثار القديمة

الفصل الثالث

تاريخ الحثّيين مأخوذاً عن الآثار المصرية

الفصل الرابع

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن آثار الآشوريين

الفصل الخامس

تاريخ الحثّيين مأخوذاً عن آثارهم

الفصل السادس

آثار الحثّيين الدالّة على توطّنهم آسيا الصغرى وولايتهم فيها

الفصل السابع

جاليات الحثّيين إلى بلاد اليونان وإيطاليا وقبرس

الفصل الثامن

غارة الحثّيين على مصر أي في الملوك الرُّعاة

مقالة في الفينيقيين

الفصل الأول

الكنعانيون

الفصل الثاني

اسم فينيقية وتخومها وأشهر مدنها

الفصل الثالث

الصيدونيّون واختراعهم الملاحة ومستعمراتهم وحالتهم السياسيّة

الفصل الرابع

الفينيقيّون في عصر سيادة صور إلى بناء قرطاجنة

الفصل الخامس

الفينيقيّون وملوك الآشوريين

الفصل السادس

الفينيقيون في مدة ملك الكلدان والفرس

الفصل السابع

تجارة الفينيقيين

الفصل الثامن

صناعة الفينيقيين

الفصل التاسع

اختراع الفينيقيين الكتابة بالحروف وفي لغتهم وعلومهم

الفصل العاشر

ديانة الفينيقيين

مقدّمة

«تاريخ سورية الديني والدنيوي» للعلّامة المؤرخ المطران يوسف الدبس مؤسس معهد الحكمة الشهير في بيروت. وقد طبع في المطبعة العمومية في بيروت سنة ١٩٠٣.

يتألف هذا الكتاب من تسعة مجلدات بالاضافة إلى مجلد عاشر يختص بالفهارس. وتكمن اهميته في مضامينه إذ تتناول موضوعاته فترات سحيقة في تاريخ لبنان وسوريا والعراق وفلسطين وقبرص تعود إلى ايام نوح والطوفان، بالاضافة إلى تاريخ اليونان والرومان والفرس والخلافة العربية منذ ظهور الاسلام مرورًا بمختلف الحقب التاريخية التي مرت بها الخلافة المذكورة بما في ذلك الوجود العربي في الاندلس والحكم الذي أقاموه هناك، وصولًا إلى تاريخ المغول والتتار والحملات الصليبية والسلطنة العثمانية، ومن ضمنها نظام الامارة في جبل لبنان وعهد القائمقاميتين، ونظام المتصرفية.

وبموازاة هذا التاريخ السياسي والعسكري والحضاري تطرق المطران الدبس إلى التاريخ الديني، فتحدث عن الشعب العبراني ونبوءات انبيائه، وأجرى مقارنة فيما بينها ليميز بين الصحيح والمزوَّر منها. ثم تحدث عن ظهور المسيحية واعمال الرسل، والصراعات العقائدية التي حصلت بين الكنائس الشرقية المختلفة على الصُعُد العقائدية والسياسية والمذهبية بما فيها الكنيسة المارونية أيضًا التي تمكنت من تأسيس أول بطريركية لها على يد مار يوحنا مارون في اواخر القرن السابع الميلادي، ولا تزال هذه المؤسسة مستمرة حتى اليوم كما أشار إلى بطاركة هذه الطائفة واساقفتها في كل عصر من العصور معددًا أبرز أعمالهم ومنجزاتهم على مختلف الصُعُد.

وبالاضافة إلى اهمية الكتاب من حيث مضامينه، فانه يكتسب اهمية كبرى

ايضًا تعود في الاساس إلى شخصية المؤلف، وعمق ثقافته، وموضوعيته وحبه للحقيقة، بالاضافة إلى تعمقه في اللغات السريانية واليونانية والعبرانية والفرنسية والعربية. لذا، نراه يستقي معلوماته من مختلف المصادر والمراجع العربية والاجنبية، ويقابل فيما بينها ويمحصها ويدقق فيها بغية الوصول إلى الحقيقة التي كان ينشدها حتى ولو كانت إلى جانب خصومه.

لقد اعادت «دار نظير عبود» طباعة هذا الكتاب بحلة جديدة بعد التدقيق في معلوماته، واصلاح بعض الهفوات الواردة في النسخة الاصلية والناجمة عن سوء الطباعة وذلك خدمة للدارسين والباحثين والمهتمين بالتاريخ. ونأمل بأن يجد فيه الجميع الفائدة المرجوة، ونكون عند حسن ظن القرّاء.

الدكتور مارون رعد

مقدمة

إنَّ جلَّ الغرض من كتابي هذا، لاسيَّما في جزئه هذا الأول الذي تمَّ بعون الله، وفي جزئه الثاني المعقود العزم على تأليفه؛ إنما هو جعل الاكتشافات الحديثة معروفة لدى عامَّة الشعوب المتكلِّمين باللغة العربية، لنفعهم وتقوية إيمانهم بواسطة هذه البيِّنات الحديثة المتسامية عن كل ردّ؛ وهي إنطاق الله الحجارة بصحة ما أوحاه لموسى وسائر مَنْ كتبوا الأسفار المقدَّسة.

ولمّا لم يكن لنا بالعربية حتى الآن كتاب، يشمل تاريخ وطننا سورية القديم والحديث، ويستحقّ الإركان إليه؛ أردتُ أن يكون كتابي على سبيل تاريخ تثبته تلك الآثار، لاعتقادي أنَّ هذا السَّبيل يُغري المطالع غير الإكليركي أيضاً بالمطالعة أكثر من أن يكون الكتاب دينيّاً أو لاهوتيّاً، فيعثر أثناء مطالعته تاريخاً على بيِّنات سديدة لا تردّ، تثبت له صحة رواية الأسفار المُنْزَلَة.

إنَّ مَنْ أراد أن يكتب تاريخ سورية القديم، انفسح له مجال الكلام ليتطرَّق إلى كل ما يلتحم بكلامه من تاريخ مصر، وبلاد الكلدان، وآشور، طبق نسق الكتاب المقدَّس؛ وهذه البلاد هي مواطن أكثر الاكتشافات الحديثة التي لم يكن لقومنا المتكلِّمين بالعربية إلا علم شائع بها، إذ لم يتصدَّ أحد قبل الآن أن يكتب فيها شيئاً بالعربية – اللَّهمَّ إلا فقرات قليلة في بعض الجرائد، أو شيئاً يسيراً في غيرها – مع أنَّ موضوع أكثر ما كشف عنه أجدادنا أو قدماء سكان بلادنا، وقسم كبير منها وُجِدَ في أرضنا. وقد بذلت اللجان العلمية الأوروبية وعمداء بعض الدول مبالغ جسيمة من المال في هذا السَّبيل، وغنم بهذه الكنوز سكان أوروبا على اختلاف جنسيّاتهم ولغاتهم، وكان ابناء اللغة العربية عن ذلك غافلين إغفالاً يُعَدُّ عاراً وخسراناً؛ فشئت أن أبذل كل ما يقدّرني الله عليه لنفع قومي أيضاً بهذه الكنوز التي أوجدَتْها عناية الله في هذا العصر، لشدَّة الحاجة إليها.

وقد كان لي داعٍ آخر لتأليف هذا الكتاب؛ وهو أنه ليس عندنا في اللغة العربية حتى الآن شيء من تفسير أسفار العهد القديم مطبوعاً - على ما أعلم - إلا تفسير المزامير، وقد كنتُ عُنيتُ بطبع تفسير الأناجيل - أخذتُه عن أفضل المفسّرين - ثم تفسير رسائل بولس والرسل، جعلتُ أحد كهنتي الخوري يوسف العلم يعتني بجمعه ثم تفسير رؤيا يوحنا لأحد علمائنا في القرن الماضي، ولم يتهيأْ لي إشهار شيء من تفسير أسفار العهد القديم، فمشيتُ الآن على كل القسم التاريخيّ في الكتاب المقدَّس من سفر التكوين إلى سفرَيْ المكابيين في تاريخ العبرانيين. وتطرّقتُ إلى كل ما يلتحم بكلامي من آيات الكتاب غير الاخباريّة، وتعمّدتُ بيان كل غموض، وحلّ كل إشكال، فكان لنا بذلك تفسير لجزء كبير من الأسفار المقدَّسة، وعلى المنوال الحديث بعض الاكتشافات.

أما ما تضمّنه هذا الجزء فهو أربع مقالات:

أولها مقالة إفتتاحيّة ضمَّنتُها ذكر تخوم سورية وجبالها وأنهرها وبحيراتها، وأشهر مدنها القديمة، ثم الكلام في خلق العالم والأبوين الأوّلين؛ ثم ذكر شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر، ومخالفة أبوينا. ثم ذكر الآباء قبل الطوفان والتطابق بعددهم العشريّ بين كلام الكتاب وآثار القبائل القديمة لاسيّما الكلدان. ثم ذكر نوح والطوفان ومباحثه. ثم ذكر برج بابل وبلبلة اللغة. ثم ذكر اللغات وأصليها العامّين وفروعهما، وتفرّق القبائل بحسب الأنساب التي ذكرها موسى. وأتيتُ في كلٍّ من هذه المواد على ما يثبتها علمياً أيضاً من آثار القبائل القديمة، ومن الصّفائح الكلدانيّة والمصريّة والفارسيّة وسائر ما اكتُشِف وتوصّلَتْ معرفتي إليه من آثار قدماء الشعوب. وبالجملة تضمّنتْ هذه المقالة كلَّ ما جاء في الفصول العشرة الأولى من سفر التكوين، واختتمتُ بذكر سكّان سورية قبل الطوفان وبعده.

وتلي هذه المقالة مقالة ثانية في تاريخ الحثيين الحديث النّشأة، مشيتُ فيها أولاً على جميع الآيات المقدَّسة التي جاء فيها ذكرهم - مبيّناً ما تنوّر بالاكتشافات من هذه الآيات الغامضة. ثم تتبّعْتُ تاريخهم عن الآثار المصريّة ثم عن الآثار الآشوريّة، ثم عن آثارهم هم أنفسهم، وألحقتُ ذلك بذكر جالياتهم وارتحالاتهم من سورية الشمالية إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان وغيرها، ثم بذكر الملوك الرُّعاة في مصر الذين يُرجَّح أنَّ أصلهم منهم، وما اكتُشِفَ من آثارهم مُعاوناً على فهم آيات

الكتاب الملاحظة استيزار يوسف في مصر وحصول المجاعة وتعيين مدة سنيّ عبودية بني إسرائيل فيها.

وأتبعتُ هذه المقالة بمقالة ثالثة في الفينيقيين، ذكرتُ فيها أصلهم ورجالاتهم، وما كان لهم من العلاقات مع المصريين والكلدان والآشوريين والفرس، ومع ملوك يهوذا وإسرائيل واتفاقهم مع داود وسليمان، ثم تجارتهم التي انبسطت في الآفاق، مع حروف كتابتهم وصناعتهم ومعبوداتهم وهياكلهم ومدافنهم وما جاء في نبوّات الأنبياء عنهم.

ولـمّا كانت المقالة الثانية في سكان شمالي سوريا وهم الحثيّون، والثالثة في سكان وسطها وهم الفينيقيون، تحتّم أن تكون الرابعة في سكان جنوبيّها أي فلسطين، وهم العبرانيّون. وفي تاريخ هؤلاء قد مشيتُ على كلّ القسم التاريخيّ من أسفار العهد القديم، من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين إلى سفري المكابيين، مبتدئاً من تاريخ ابراهيم ومنتهياً ببداية ملك اسكندر الكبير الذي به نهاية هذا الجزء.

وقد أوردتُ في هذه المقالة كل ما يثبت علميّاً صحة رواية مَنْ كتبوا بوحي الله من الآثار المصرية والبابلية والآشورية والفارسية وغيرها، وتطرّقتُ إلى كل ما يلتحم بكلامي من نبوّات الأنبياء، وآيات الكتاب المقدّس غير الاخباريّة، متعمّداً ما سبقت الإشارة إليه من الاعتياض بقدر الإمكان عن تفسير لأسفار العهد القديم.

وقد اعتمدتُ في ذكر هذه الآثار على علماء فضلاء مثل الأب فيكورو أحد كهنة سان سولبيس، والأب قيصر دي كارا اليسوعيّ، وفرنسيس لانرمان في طبعة كتابه الأخيرة، وغير هؤلاء من العلماء الثقة المتكلّمين في الآثار المصريّة والآشوريّة. وفي عزمي أنْ أُلحِقَ هذا الجزء بجزء ثانٍ، يشمل تاريخ سورية في عهد خلفاء اسكندر والملوك الرومانيين إلى ظهور الإسلام. فيدخل في طيّ هذا الجزء كلّ ما كان تاريخيّاً في سِفرَيْ المكابيين وأسفار العهد القديم كلّها على الأسلوب الذي اتّبعته في هذا الجزء، فيكون تاريخي علميّاً. وأُردفُ ذلك بجزء ثالث، يتضمّن تاريخ سورية منذ ظهور الإسلام إلى استيلاء سلاطيننا العثمانيين عليها في مبادي القرن السادس عشر، ثم الجزء الرابع في تاريخها في مدة سلاطيننا العثمانيين إلى اليوم.

فهذه خلاصة الغرض من كتابي وما حواه بالإجمال.

مقدمة الكتاب

حمداً لمن جعل آثار مَنْ سلف. عبرةً وحجّةً لِمَنْ خلف. سواءٌ اتّفق بعضهم مع البعض أَم اختلف. إذ برأ الكائنات من العدم. وكوّن آدم من تراب وحوّاء من ضلعه فكانت منهما الأمم. وغالبت إحداها أُخراها على متاع الدنيا وسؤددها. وعلى منتجع الأرض ومصدرها ومورِدها. وألف غيرهم الجار وصافاه. فشقي وسعد كلٌّ بما اصطفاه. لأنه تباركت أسماؤه رفع مَنْ أحسن المسعى بمنٍّ فضله. وخفض مَنْ ساءه بمنن عدله. وألهم إيداع الآثار والصحف ما كان للأوّلين. ليكونَ تبصرةً وذكرى للآخرين. فسبحانه من إلهٍ قسط حكيم رحيم.

أمّا بعد فيقول المفتقر إلى عفو ربه المطران يوسف الدبس، رئيس أساقفة بيروت المارونيّ إذا كان علم التاريخ على إجماله من أجلّ العلوم وأكثرها عائدة. وأكبرها فائدة. ومَنْ وعاه في صدره. أضاف أعماراً إلى عمره. فعلم المرء بتاريخ سلفه ووطنه أنفع وأولى. على أنَّ المؤلَّفات الشاملة تاريخ بلادنا نادرة لا تصل إليها أيدي العامّة وما تداولته منها أيدي الخاصّة. أُلِّفَ في سالف الدهور فلم يدركْ عصر التحقيق والتنقيب. ولم يستطع مَنْ أفضلوا بكتبه أن يستطلعوا ما كشفت عنه الاكتشافات الحديثة ولم يغنموا ما غنم أهل العلم في هذا العصر بكنوز رموز الخطوط الهيروكليفية. وحلِّ معميّات العلامات المسمارية.

ولذلك أصبح فقهاءُ وطننا حتى مَنْ عُدَّ فيهم عالماً، يفقهون تاريخ الأمم النائية. والبلاد القاصية. ويغضّون على تاريخ بلادهم. وعلم أحداث أجدادهم. وقد تعدَّدَت اللّجان العلمية الأوروبية وعمداء الدول فأكثروا من الاحتفار في أرضنا والتنقيب عن آثار قدمائنا. باذلين ألوف الألوف من الدراهم والدنانير في هذا السّبيل الأثيل ، فثروا بالكشف عن كثيرها واكتنزوا كنوز معارف جلٌّ عوارفها بيان تاريخ أجدادنا وما جرى في بلادنا. ونحن عن ذلك غافلون كأنَّه في ديار لم يكنها أحد منّا. فأعتمنا في ما علموا. ولم نعتثم بما غنموا. فبئس المسير والمصير. ولما كنت قد

وقفتُ كلّ ما وهبه الله لي من قوة ومعرفة على نفع مواطنيّ وابناء جلدتي، لم أتوقف عن أن تقحّمتُ مشاقّ هذا التأليف العذبة. ولو تكلّفت لها عرق القربة. واستأتيتُ من الكتب والمجلات العلميّة ما دار نفعه في خلدي. ولم يظاهرني فيه إلا جلدي وكدّي. وعلى ما عليّ من المهام الشاقّة وما تربق بعنقي من الفروض الحقة. وما تنازعت به حاجاتي أوقاتي. شددتُ له عن عمد عينِ مئزري واتّخذتُ الثبات مؤازري. وشمّرتُ عن ساق عزيمة. وإن كليلة. وساعد همة. وإن عليلة. واكلاً بعون مَنْ يقوّي الضّعيف. وينير الخسيف والكفيف. فكنتُ أسترقُ السّاعات وأسارق النّظر إليه. وأفترص الفرص بالانكباب عليه. هذا وقد كان داعٍ آخر إلى هذا التصنيف، ألا وهو أنَّ أسفار العهد القديم المُنْزَلَة لم يكن لها إلى اليوم في العربية من تفسير يوضح إبهام بعضِ آيها، ويحلُّ ما أُشكلَ منها، مع أنَّ ذلك مما هو للدين والعلم ضربة لازب. وقد كنتُ عُنيتُ بإذاعة تفسير الأناجيل وغيرها من أسفار العهد الجديد. ولم يتهيّأ لي أن أردفه بشيء من تفسير أسفار العهد القديم. فضمّنتُ هذا الجزء من كتابي ما يُزيل الإشكال ويجلو الإبهام عن كل ما جاء من القسم الاخباريّ في هذه الأسفار من سفر التكوين إلى سِفرَيْ المكابيين على أحسن منوال نسج عليه بعد الاكتشافات الحديثة، وقد تمهّد بها كثير من العقبات. وانحلَّ كثير من المعضلات. فترى في مقالتي الافتتاحية تفسيراً جليّاً لكل ما جاء في الفصول العشرة الأولى من سفر التكوين؛ وهي تنطوي على أعضل المشكلات، ثم ترى في مقالتي في العبرانيين، أني مشيتُ على كل ما كان اخبارياً في هذه الأسفار من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين إلى سِفرَيْ المكابيين (حيث الكلام في أخبار الإسكندر الكبير وخلفائه وهو مرجأ إلى الجزء الثاني).

واستطردتُ إلى بيان كل ما التحم بكلامي من آيات الكتاب النبوية وغير الاخبارية. وعليه فأرتجي أن يكون كتابي للمجتهد فيه ذا نفعين. ويصيب المستجهد فيه غرضين: دينيّاً وعلميّاً.

وقد أتممتُ بعون المنّان هذا الجزء الأول مضمّناً إياه مقالة افتتاحيّة من خلق العالم إلى تفرّق القبائل في آفاقه. وثلاث مقالات أخرى في أخصّ شعوب سورية القدماء، وصحيح أخبارهم منذ نشأتهم إلى عهد اسكندر الكبير. وجعلتُه في مجلّدين. وعقدتُ العزم أن أُتبِعَه بثلاثة أجزاء أخرى إن أقدَرَني الله؛ أعني أن

سيكون الجزء الثاني في تاريخ سورية في عهد اليونان والرومان من سنة ٣٣٠ قبل الميلاد إلى سنة ٦٣٠ بعده. والثالث في تاريخها في عهد الخلفاء وغيرهم إلى سنة ١٥١٥م؛ إذ طلعت على هذه الديار بدور سلاطيننا العثمانيين. والرابع في تاريخها أيام دولتهم الزاهرة وولايتهم الباهرة إلى العهد الحميدي - عهد عبد الحميد الغازي خان أيّد الله وأبّد أريكة سلطنته ما تتالى الملوان.

مقالة افتتاحية

قد ضمّنا هذه المقالة مباحث لا بدَّ من العلم بها لأنَّ بعضها ملازم الغرض؛ وهو تاريخ سورية أو جزء منه، وبعضها يمهّد السبيل إلى إدراكه أو ينزل منه منزلة الأساس من البناء. وعليه فتشتمل هذه المقالة أولاً على لُمعة جغرافية في سورية. ثانياً على كلام في الخطوط المصرية المعروفة بالهيروكليفية (أي الكتابة المقدسة) ثم في الخطوط الآشورية المعروفة بالمسمارية. وفي مَنِ اهتدى إلى مغزى هذه الرموز، وفتح هذه الكنوز لاعتمادنا عليها في تاريخ سورية القديمة كلما تيسّر لنا أن نستعين بها على إثبات الحقائق التاريخية. ثالثاً في خلق العالم وآدم وحواء وموقع الفردوس الأرضيّ. رابعاً في الآباء الأولين إلى نوح. خامساً في الطوفان. سادساً في ابناء نوح أصول سكان العالم في الدور الثاني. سابعاً في تفرّق قبائل هؤلاء في المعمور. ثامناً في أخذهم في تشييد الصرح العظيم في بابل وبلبلة ألسنتهم واللغة الأولى وأصول اللغات المعروفة الآن. تاسعاً على لمعة في الكتابة وكيف كانت أولاً ومَنْ أوجد الكتابة بالحروف. ثم نتخطّى إلى الكلام في شعوب سورية الأولين. ثم نتبع هذه المقالة بثلاث مقالات أخرى نتكلم فيها على أشهر قبائل سورية القديمة، ونذكر سائرهم ضمناً موصلين تاريخنا في هذا المجلد إلى أيام اسكندر الكبير.

على أن بعض هذه المباحث، وإن كان لا يجيء توًّا مصيباً الغرض في تاريخ سورية فليس من نكير أنه ملازم له وملتحم به التحام الفرع بالأصل، وأنه أقوم السُّبل إلى كتب تاريخ كامل راسخ في الصحة. ولا يخفى ما يتوفّر بذكر هذه المباحث من الفوائد الدينية والأدبية والعلمية، وما تتكفّل به هذه المقالة من الممالأة على كشف غوامض الفصول الأولى من التوراة. وقد جزّأنا هذه المقالة وما يليها إلى فصول والفصول إلى أعداد، رغبةً في زيادة التفصيل، وتيسيراً لوجدان المعاني المطلوبة.

الفصل الأول

لُمعة في جغرافية سورية واسمها

من أحسن ما جرى عليه المؤرّخون وأنفعه أنهم إذا شاءوا كتابة تاريخ بلاد قدّموا عليه كلاماً موجزاً في تخومها وجبالها وسهولها وأبحرها وبحيراتها وأنهرها وأشهر مدنها، توسُّلاً لإدراك تاريخها حقَّ إدراكه، وكلفاً بزيادة رسوخه؛ وكذا رأى الجغرافيون أن يشفعوا كلامهم بشيء من تاريخ البلاد التي يتصدّون لكتابة جغرافيتها. فالتاريخ والجغرافية علمان متقاربان متعاونان، فجرياً على عادتهم وتيقُّناً بنفع مأخذهم نقول:

عد ١

تخوم سورية

بسطت تخوم سورية تارةً، وضاقت أخرى، بحسب تقلُّب الأيّام والدول فيها. فكانت تشمل أحياناً ما بين النهرين وأرمينيا وبعض آسيا الصغرى وبعض بلاد العرب، وتضيق أحياناً عن هذه التخوم. والذي نتعمَّد الآن الكلام فيه يحدّه شمالاً آسيا الصغرى من خليج اسكندرونة إلى نهر الفرات، وشرقاً نهر الفرات والبادية إلى بلاد العرب، وجنوباً قسم من العربية يُسمَّى تيه بني إسرائيل إلى تخوم مصر، وغرباً البحر المتوسط المسمَّى بحر الروم أيضاً. وطولها المتوسط على هذه التخوم من الشمال إلى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر. وعرضها المتوسط من الغرب إلى الشرق نحو أربعمائة وخمسين كيلومتراً. وكان القدماء يقسمونها إلى سورية بحصر اللفظ، ويريدون بذلك قسمها الشمالي وبعض الشرقي، وإلى فينيقي ، وهي على الأصحّ من ارواد إلى جبل الكرمل مع بعض لبنان، وإلى فلسطين ، وهي ما يلي فينيقي إلى

الجنوب وإلى نهر الأردن. وكانوا يقسمون سورية أيضاً إلى كوماجان، وهي ما فيها حلب إلى نهر الفرات، وإلى سورية المجوَّفة، ويريدون بها السهول الواقعة بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي المسمَّى انتيلبنان (أي المقابل للبنان). ويعبّرون أحياناً عنها باسم سورية الأولى إلى الشمال، وهي ما فيها انطاكية، وسورية الثانية، وهي ما فيها حماه، وسورية الثالثة، وهي ما فيها دمشق وجبل لبنان؛ وهذه البلاد تشمل الآن القسم الأكبر من ولاية حلب وولايتي دمشق أو سورية وبيروت ومتصرفيَّتي لبنان والقدس الشريف.

عد ٢

جبال سورية

أشهر جبال سورية في الشمال؛ جبل اللّكام، وقد سمّاه اليونان آمانوس. ويبتدىء من آخر جبل طوروس في آسيا الصغرى، وينتهي على الصحيح في الشمال من مصب نهر العاصي على مقربةٍ من السويدية. ويبتدىء في جنوب مصب نهر العاصي جبلٌ شامخ يُسمَّى الجبل الأقرع وهو كاسيوس عند القدماء. ويمتد منه إلى الجنوب سلسلة تنتهي على مقربةٍ من دير الحميرا؛ وهذه السلسلة هي المعروفة بجبال النصيرية. ثم تبتدىء سلسلة جبل لبنان الممتدة إلى الجنوب الغربي إلى أن تنتهي في وادي الليطاني عند قلعة الشقيف. وتبتدىء سلسلة أخرى تمتد جنوباً إلى نواحي صفد والناصرة وتنحرف شرقاً إلى نابلس. وبين هذه الجبال وجبل الكرمل مرج ابن عامر. ويبتدىء جبل الكرمل عند حيفا ويمتد إلى الجنوب الشرقي فيتصل بجبل نابلس. ويمتد إلى الجنوب حتى جبل الشراة إلى جنوبي بحيرة لوط. ومن هذه السلسلة جبال اليهودية. وفي مرج ابن عامر جبل منفرد يُسمَّى جبل الطور.

وأما لبنان الشرقي فيبتدئ من الشمال على مرحلة من حمص. ويمتد إلى الجنوب الغربي، وبينه وبين لبنان الغربي سهول بعلبك وبقاع العزيز. وأعلى رؤوس الشرقي جبل الشيخ فوق حاصبيا، ويسمّي القدماء هذا الجبل حرمون، وتمتد منه شعبة إلى الجنوب الشرقي ثم إلى الجنوب الصريح، وتنتهي في محل يُسمَّى تل الفرس. وبين هذه الشعبة المسمّاة جبل حيش وبين جبل الشيخ وادي التيم الأسفل. وفي جنوب هذه الشعبة في شرقي الأردن جبل عجلون، وفي جنوبيه جبل الصلت

(السلط) الذي يسمّيه الكتاب جبل جلعاد. وفي جنوبي الصلت جبل البلقاء، وفي جنوبي هذا جبال موآب نحو الشرق من بحيرة لوط. وعند الطرف الجنوبي من هذه البحيرة سلسلتا جبال بينهما الغور الذي يؤدي السفر به جنوباً إلى أيلة على خليج عقبة الممتد من البحر الاحمر[1]. والحاصل أن في سورية سلسلتي جبال؛ إحداهما ساحلية تمتد من الشمال إلى الجنوب الغربي على قرب مُتباين من البحر فتنتهي في آخر اليهودية. والثانية داخلية تمتد من نواحي حمص شمالاً إلى آخر سورية جنوباً. وبين السلسلتين وحولهما السهول الخصبة الفسيحة. ويُضاف إلى هذه الجبال جبل حوران وجبل العلا في الجنوب الشرقي من حماه وجبل نبو في الشرق من بحيرة لوط.

عد ٣

أنهر سورية

أما الأنهر في سورية فأشهرها العاصي والأردن. فالأول مصدره ينبوع اللبوة، والينبوع الذي سمّاه أبو الفدا مغارة الراهب، وينابيع أخرى إلى الشمال من بعلبك. ويجري إلى الشمال مارًّا بجانب حمص، وفي حماه حتى يقرب من انطاكية فينحرف نحو الجنوب الغربي ويمر بين جبل اللكام والجبل الأقرع فيصبّ في بحر الروم عند السويدية.

وأما الثاني وهو الأردن فمؤلّف من عدّة ينابيع منها ينبوع حاصبيا ومياه بانياس وتل القاضي، وكلها تصبّ في بحيرة الحولة، وتجري منها إلى بحيرة طبرية، وتخرج الأمواه منها فتجري إلى الجنوب الغربي بتعاريج كثيرة فتصبّ في بحيرة لوط المسمّاة البحر الميت أيضاً. وتجتمع هناك أمواه أنهر أخرى من الشرق والغرب أعظمها اليرموك والزرقاء والنهر المعجب[2]. فتموت هذه الأمواه هناك أي لا يظهر لها مخرج فوق الأرض. وغاية الأمر أن في سورية نهرين كبيرين، مخرجهما في وسطها يجري أحدهما من الجنوب إلى الشمال فيصبّ في قرب تخمها الشمالي

(١) البحر الأحمر: سمّي بالبحر الأحمر لوجود الصخور المرجانية الحمراء، أو الوردية اللون.
(٢) نهر المعجب: اسمه نهر الموجب.

وهو العاصي. ويجري الثاني من الشمال إلى الجنوب ويصبّ في قرب تخمها الجنوبي وهو الأردن. ولا يبعد مخرج أحدهما عن مخرج الآخر إلا مرحلتين أو ثلاثاً.

وأما سائر الأنهر فهي نهر حلب منبعه قرب عينتاب ويجري إلى الجنوب فيمرّ في حلب ويُسمّى نهر قويق ويصبّ في أجمة [١] في جنوبي حلب، ثم نهر عفرين ونهر يغرا [٢] والنهر الأسود. منابعها في شرقي جبل اللكام ومصبها في بحيرة انطاكية [٣]. ونهر القنديل ويصب في البحر المتوسط بين السويدية شمالاً واللاذقية جنوباً. والنهر الكبير الشمالي مخرجه في جبال النصيرية ويجري إلى الجنوب الغربي ويصبّ في البحر المتوسط في جنوب اللاذقية. وفي جنوبيه نهر الصنوبر. ثم نهر المضيق. ثم نهر الروس. ثم نهر المسكين ثم نهر برغل. ثم نهر الملك ثم نهر السن أو الأبتر. ثم نهر مرقية .ثم نهر حسين. ثم نهر عمريت. ثم نهر الأبرش. ثم النهر الكبير الجنوبي، الذي يسميه القدماء الوتاروس وهو غير الأول. ومخارج كل هذه الأنهر أو الجداول في جبال النصيرية ومصبها في البحر المتوسط. ويليها جنوباً نهر عكار ثم نهر عرقا ثم النهر البارد. وأما الأنهر الجارية في لبنان فهي: نهر أبي علي وتجتمع فيه أمواه نهر رشعين، ومنبعها من سفح جبل الضنية في قرب زغرتا. وماء ينبوع جوعيت بين اهدن وجبال الضنية وماء ينبوع مار سركيس على جانب اهدن. وماء ينبوع قاديشا مخرجه بين بشري وأرز لبنان الشهير، فتمر هذه الأمواه في اطرابلس وتصبّ إلى الشمال من مينائها. ثم نهر الجوز ومخرجه على مقربة من كفرحلدا ويصبّ في شمالي البترون. ثم نهر ابراهيم وهو نهر أدونيس عند القدماء ومصدره مغارة أفقا، وتضاف إليه مياه ينبوع آخر في جانب العاقورة يعرف بينبوع الجوزات ويصبّ في الجنوب من جبيل. ثم نهر الكلب وهو ليكوس في كتب القدماء منبعه مغارة جعيتا وتجتمع إليه في مدة الشتاء أمواه عدة ينابيع في الجبل ويصبّ بين جونية وضبية. ثم نهر بيروت الذي يسمّيه بلينيوس ماغوراس (وهذا

---

(١) أجمة: مستنقع التخ (المطخ) وهذا النهر يفيض شتاء فيهدد بفيضانه المدينة، وفي الصيف يقطعه الأتراك لأعمال الري.

(٢) نهر يغر: اسمه النهر الأسود.

(٣) بحيرة انطاكية: اسمها بحيرة العمق المكوّنة من الأخدود الآسيوي الإفريقي.

الاسم وصف للإله بعل) ومصدره ينبوع الداشونية، وتجتمع إليه لاسيما في فصل الشتاء أمواه من جهة ترشيش وكفرسلوان ومن جهة حمانا وفالوغا ويصبّ في جانب بيروت الشمالي. ثم نهر الدامور وسماه بوليب داموراس واسترابون تميراس وهو مجتمع أمواه من الغابون ثم من ينبوع الصفا بالقرب من عين زحلتا ومن ينبوع القاع ومن وادي عين دارا ويصبّ في الجنوب من معلقة الدامور. ثم نهر الأولي وسمّاه القدماء بوسترانوس ومخرجه من ينبوع الباروك، ويجري إلى الجنوب الغربي، ثم يرتد نحو الغرب ويصبّ في شمالي صيدا ويسقي بساتينها، ويليه جنوباً نهر الزهراني ثم نهر الحيصراني ثم نهر أبي الأسود ثم النهر الليطاني. ومخرجه في قضاء بعلبك. ويجري في سهل البقاع ويمر تحت قلعة الشقيف ويصبّ في البحر في شمالي صور ويُسمَّى هناك نهر القاسمية. ثم نهر النعمان وهو بيلوس عند القدماء، وكان مشهوراً عندهم بصلوح رماله لاصطناع الزجاج، ومخرجه من تل الكرداني ومصبه في جنوبي عكا. ثم نهر المقطع الذي سمّاه القدماء والكتّاب (ملوك ٣ فصل ١٨ عد ٤ بمعرض قتل ايليا أنبياء بعل) قيشون. ومخرجه في الشرق من مرج ابن عامر ويجري إلى الشمال الغربي ويصبّ في قرب حيفا. ويليه جنوباً نهر الدخله ونهر المفجر ونهر الفلايك ثم النهر الأعوج ومخرجه في محل قريب من لد. وتصبّ هذه الأنهر في الشمال من يافا، وفي جنوبيها نهر روبين ثم نهر صقرير شمالي عسقلان.

وبقي نهر بردى، ومخرجه قريب من الزبداني، ويجري إلى الجنوب الشرقي وتُضاف إليه مياه عين فيجة، ويتشعَّب في غوطة دمشق ودورها وشوارعها ويصبّ في بحيرة المرج[1] إلى الشرق من دمشق. ثم النهر الأعوج غير المذكور آنفاً ومخرجه من سفح جبل الشيخ الشرقي ويجري إلى الجنوب الشرقي، ويصبّ في بحيرة هيجانة الآتي ذكرها خلافاً لما جاء في كلام بعضهم من أنه يصبّ في بحيرة المرج.

(١) المرج: هو اسم السهل الذي تتكوَّن في أخفض نقاطه بحيرة العتيبة التي ينتهي فيها نهر بردى، وبحيرة الهيجانة التي ينتهي إليها نهر الأعوج، وقد سمّي بالأعوج لكثر أنواعه وتعاريجه.

عد ٤

بحيرات سورية

أما بحيرات سورية، فمنها بحيرة انطاكية، يجتمع فيها ماء النهر الأسود ونهر يغرا ونهر عفرين المارّ ذكرها، ويخرج منها نهر يتصل بالعاصي قرب الجسر المسمَّى جسر الحديد. وبحيرة أفاميا[١] في الشمال الغربي من حماه يجتمع ماؤها من عدة آجام وبحيرات وذكرها أبو الفدا. وبحيرة حمص[٢] في الجنوب الغربي منها وهي مصطنعة من أمواه العاصي بِسدّ عليه، وتُسمَّى بحيرة قادس لأنَّ قادس القديمة كانت هناك وسترى ذكرها مرات في تاريخ الحثيين. ثم البحيرات المتكوّنة من أمواه الأردن، وهي بحيرة الحولة وبحيرة طبرية وهي المسماة في الإنجيل بحر الجليل. وبحيرة جاناشر ثم بحيرة لوط التي تُسمَّى البحر الميت. والبحيرة المنتنة وسطحها أوطأ من سطح البحر المتوسط نحو ألف وثلاثماية قدم. ثم بحيرة المرج في الشرق الجنوبي من دمشق وتُسمَّى البحيرة الشرقية وتصبّ فيها فضلة نهر بردى وغيره. ونحو الجنوب منها ثلاث بحيرات تُسمَّى الأولى منها بحيرة هيجانة وفيها مصبّ لنهر الأعوج كما مرّ، وتُسمَّى الثانية بحيرة بلع، والثالثة مضخّة برك.

عد ٥

مدن سورية

أشهر المدن التي نكتب تاريخها الآن كركميش المعروفة الآن بايرابولس على الجانب الغربي من الفرات، وقد تولاّها الحثيون من أقدم الأيام. ويليها حلب[٣] وتُسمَّى في الآثار القديمة كالب وحلبون، ويظهر أنها من بنايات الحثيين أيضاً

---

(١) أفاميا: هي قلعة المضيق الآن شمالي حماه على العاصي، والتي كان فيها دير الموارنة الشهير. أما البحيرة فتتكوّن من فائض مياه العاصي.

(٢) بحيرة حمص: هي بحيرة قطينة المكوّنة في فوهة بركان خامد، وتكوّنت من مياه العاصي بُني عليها سدّ كبير لأجل ريّ سهول حمص وحماه وعليه مشروع كهرباء.

(٣) حلب: كبرى المدن السورية، سمّيت حلب لأن ابراهيم الخليل كان يحلب فيها غنمه في الجمعات ويتصدّق به فيقول الفقراء حلبَ حلبَ فسمّيت حلب. وتشتهر باسم الشهباء. وفيها قلعة قديمة.

لوجود كثير من آثارهم فيها. ويليها نحو الجنوب على مسافة أربع مراحل حماه التي أسستها قبيلة الحمثى من ولد كنعان. ويليها في الجنوب على بعد مرحلة حمص، ويظهر أنها أحدث من حماه أو لم تكن ذات شهرة قديمة لسبق قادس إليها، وموقع هذه في الجنوب من حمص بجانب بحيرتها. والأظهر أن سكان قادس الأولين أراميون. ثم تغلَّب عليها الحثيون كما سترى في تاريخهم. وفي الجنوب الغربي من حمص على مسافة مرحلتين بعلبك ويظهر أنها كانت مدينة كهنوتية لعظمة الهيكل الباقية آثاره فيها. وضخامة الصخور المبنيّ بها سفله، مؤذنة بأنه من بنايات الفينيقيون أو شاركهم به الآراميون السكان الأولون لهذه الأنحاء على ما يظهر.

ويلي بعلبك جنوباً على بعد مرحلة دمشق. والأظهر أنها من بنايات الآراميين ولد أرام بن سام، حتى يقال إن تسميتها والبلاد التابعة لها شاماً نسبة إلى سام بن نوح. وقال أبو الفدا سُمّيت شاماً لأنَّ قوماً من بني كنعان تشاءموا أي تياسروا إليها لأنها عن يسار الكعبة. وقال آخرون سمُيت كذلك لبقع فيها بيض وحمر وسود تشبيهاً لها بالشامات. وأما تدمر فهي نحو الشرق من حمص على بعد تسعين ميلاً وينسب بناؤها إلى سليمان. ولعل المراد أنه زاد فيه وبنى فيها صرحاً أو حصناً.

وأما المدن الساحلية فمنها أنتراود أي طرسوس الحالية وجزيرة ارواد المقابلة لها، والظاهر أن سكانهما الأولين الأرواديون ولد ارواد من بني كنعان. ويليها جنوباً عمريت الشهيرة بأطلالها. ويليها جنوباً على بعد مرحلة عرقا في الجبل مسكن العرقى من ولد كنعان. ونحو الجنوب الغربي من عرقا على مسافة بضع ساعات طرابلس، وهي أحدث مما تقدّمها من المدن، إذ يقال بناها نزالة من ارواد وصيدا وصور في ثلاثة أحياء، ولذا سمّاها اليونان تريبولي أي المدن الثلاث. وفي جنوبيها على بعد ست ساعات البترون وينسب بناؤها إلى ايتوبعل ملك صور أو كاهنها في زمان أخاب ملك اسرائيل. ويليها جنوباً على بعد ثلاث ساعات جبيل. ويظهر أن سكانها الأولين آراميون تغلَّب عليهم الفينيقيون. ويلـ ها جنوباً على بعد سبع ساعات بيروت. ويظهر أنها كانت أولاً مستعمرة آرامية، ولكن تغلَّب عليها الفينيقيون من أقدم الأيام. ويليها في الجنوب على مسافة مرحلة صيدا وهي مسكن قبيلة صيدون بكر كنعان. ويليها جنوباً على بعد نحو ست ساعات صور. وهي في الأصل

مستعمرة صيدونية. ويليها جنوباً على مسافة مرحلة عكا وأقدم سكانها كنعانيون. ويليها نحو الجنوب الشرقي في الجبل على بعد نحو ست ساعات مجدّو. والأرجح أنها اللجون الآن على طرف مرج ابن عامر. وكانت محطة الحروب بين المصريين وسكان سورية. وفي جنوبيها على بعد نحو خمس ساعات السامرة وهي سبسطية الآن، بناها عمري ملك إسرائيل (ملوك ٣ فصل ١٦ عد ٢٤). وفي جنوبيها على بعد نحو عشر ساعات يابوس وهي أورشليم. بناها اليابوسيون والأموريون من ولد كنعان. وفي الجنوب الغربي منها على بعد مرحلة حبرون وهي المعروفة الآن بالخليل. وكانت تُسمّى في أقدم الأيام قرية أربع، نسبة إلى رجل اسمه أربع هو جد بني عناق فأخذها منهم الحثيون. ويليها غرباً على مسافة يوم غزة من مدن الفلسطينيين، ولكنها كانت قبلهم وقد ورد ذكرها في الآثار المصرية قبل أيامهم. وكان من مدن الفلسطينيين أيضاً عسقلان في شمالي غزة على ساحل البحر، ويليها شمالاً أيضاً اسدود.

وبقي المدن التي في شرقي الأردن وبحيرة لوط. فمن أشهرها راموت جلعاد وهي الصلت الآن. وفي جنوبيها الشرقي ربة عمون، وهي عمان الآن. وفي جنوبيها الغربي حشبون وهي حسبان الآن في شرقي جبل نبو. وفي جنوبيها عراعير وهي عراعر الآن. وفي جنوبيها رابة مواب وهي ربة الآن. وفي جنوبيها كيرمواب وهي الكرك الآن. وأول سكان هذه المدن الأخيرة الايميون والزمزميون من الجبابرة، ثم صارت موطناً للعمونيين والموابيين؛ وكان يتولاها في عصر موسى سيحون ملك الأموريين، وعوج ملك باسان فافتتحها موسى لبني إسرائيل (تثنية الاشتراع فصل ٢ و٣). وسترى في مساق هذا التاريخ ذكر هذه المدن كلها وغيرها، وإن شئت استقراء كل ما كان في كل منها أرشدك إليه الفهرست المعلّق في آخر هذا الكتاب.

عد ٦

اسم سورية

سمّى الكتاب المقدّس في العهد القديم سورية أرام نسبةً إلى أرام الخامس من ابناء سام بن نوح، لأنَّ كثيراً من سكانها الأقدمين من أعقابه. على أنَّ الكتاب

أضاف اسم أرام إلى أعمال عديدة، فقال أرام النهرين ويراد بها ما بين النهرين دجلة والفرات. وأرام دمشق ويراد بها مملكة دمشق. وأرام صوبا ويراد بها على الراجح سورية المجوّفة أي ما بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي. أو هي مملكة كانت بين دمشق جنوباً وحماه شمالاً. وأرام معكة ويظهر أنَّ المراد بها مملكة كانت في موقع حاصبيا ومرجعيون وبانياس وأرام رحوب ويظهر أنها كانت في محل الجولان الآن.

وأول من سمَّى هذه البلاد سورية اليونان مع أن أوميروس شاعرهم سمَّى سكانها آراميين. على أن هيرودت (الذي ولد سنة ٤٨٤ ق.م) هو على ما نعلم أول من سمَّى هذه البلاد سورية. وتابعه في ذلك سائر اليونان والرومانيون، ولكن ما الذي حملهم على هذه التسمية؟ ففيه للعلماء القدماء أقوال أقربها إلى الصحة قولان: الأول أنها سمّيت سورية نسبة إلى صور مدينتها البحرية الشهيرة. وقد عرف اليونان أهلها لكثرة تردُّدهم إلى بلادهم للتجارة فسمّوهم سوريين وبلادهم سورية بإبدال الصاد بالسين لعدم وجود الصاد في اللغة اليونانية. وكلمة صر بالفينيقية معناها الصخر أو السور، ويرى هذا الاسم منقوشاً على المسكوكات القديمة التي وجدت في هذه المدينة. والثاني أنَّ اليونان سمّوا هذه البلاد سورية نسبة إلى آسور أو أسيريّا بلاد الآشوريين لأن الآشوريين كانوا يتولّون أعمال سورية عند استفحال أمر اليونان، فنسبوا سورية إليهم مخفّفين اللفظة بحذف الهجاء الأول منها، والمبادلة بين السين والشين فاشية حتى في كلمة آشور وأسور. ونرى بعض قدماء اليونان وغيرهم يطلقون اسم سورية على ما بين النهرين أيضاً وعلى أرمينيا وبعض بلاد فارس، فكان اسم سورية مرادفاً لاسم اسيريا أي مملكة الآشوريين.

أما علماء هذا العصر الباحثون في الآثار فوافق بعضهم على ما رآه القدماء وخالفه بعضهم. قال مسبرو[1]: «إن توتمس ابن امنهوتاب الذي خلفه في الملك كان أول من اقتاد المصريين إلى فتح آسيا والبلاد التي وصلوا إليها بعد خليج السويس كانت تُسمَّى منذ حينئذٍ سورية». وقال في حاشية علَّقها على كلمة

(١) في التاريخ القديم لشعوب المشرق فصل ٥ صحيفة ١٤٧ طبعة ٤.

سورية إن اللفظة المصرية كسارو خُفِّفت فصارت سارو، ثم سورية. فهذا التخمين بعيد المرمى ضعيف المستند، وتعقبه الأب دي كارا[1]. وقال بروغش[2]: ما اسم سورية إلا مخفَّف اسيرية، شُمِّيت كذلك بعد أن دانت أعمال سورية على التعاقب لتجلت فلاصر الثاني (من سنة ٧٤٥ إلى سنة ٧٢٧ ق.م). ثم لسرغون (من سنة ٧٢٢ إلى سنة ٧٠٥ ق.م). وهذا كان بعد عهد توتمس بنحو ألف سنة على أنَّ الأب دي كارا[3] ردَّ رأي بروغش، ورأى الأولى نسبة اسم سورية إلى آسور أو آسوريم بن ددان بن يقشان بن ابرهيم الخليل من قطورة[4]. لحسبانه أنَّ الشعوب الذين ارتحلوا إلى فينيقية وأسسوا مدينة صور كانت مهاجرهم بلاد العرب الشمالية. وإنَّ اسم آسور أو آشور يُطلق على أحد أعمال بلاد العرب.

وفي الآثار المصرية ذكر شعب يُسمَّى آسور من جملة الشعوب حلفاء الحثيين سكان سورية الشمالية لمحاربة رعمسيس الثاني ملك مصر. وهذا كان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد إذ لم يكن لمملكة الآشوريين شيء من السطوة في سورية. وذكر الأب دي كارا مستنداً آخر لرأيه هو أنه قد وجدت صفيحة في سان بمصر، كتب عليها في ثلاث لغات اسم سورية؛ فكان في الهيروكليفية روثانو وفي اليونانية سورية، وفي لغة الشعب المصرية أسار أو آسور وليس من علماء الآثار المصرية من يمتري بأنَّ الروثانو يراد بهم سكان سورية الشمالية خاصة. ثم إنَّ هذا الاسم آشور أو آسور وجد مكتوباً بين اسماء القبائل التسع التي كتبت على جدار هيكل ادفو في مصر إنباءً بأن رعمسيس دوَّنها؛ ورعمسيس أحد ملوك الدولة التاسعة عشرة في مصر كان قبل استيلاء الآشوريين على سورية بقرون، وإنَّ هيرودت واسترابون وغيرهما من القدماء وبعض علماء هذا العصر أيضاً قالوا بارتحال قبائل عديدة من بلاد العرب أو من جانب خليج العجم إلى سورية منذ أقدم الأيام. وعليه فتسمية هذه البلاد سورية هي أقدم كثيراً من أيام علماء اليونان المعروفين. هذا ملخَّص ما قاله الأب دي كارا ونراه قريباً من الصحة.

---

(١) في كتابه الملوك الرعاة فصل ٩.
(٢) في تاريخ مصر.
(٣) في المحل المذكور آنفاً.
(٤) تكوين فصل ٢٥ عد ٣.

الفصل الثاني

الخطوط المصرية الهيروكليفيّة والخطوط المسماريّة ومن اكتشف رموزها

عد ٧

الخطوط المصرية

ترى في الخطوط المصريَّة صور دبابات وطيور وأعضاء بشريَّة، وغيرها من أشباه الأشياء الماديَّة. وقد انقضت السنون بل القرون ولم يهتدِ أحد إلى حلِّ هذه الرموز ولا إلى استخراج شيءٍ من هذه الكنوز الظاهرة للأبصار الخفيَّة عن البصائر.

ولما غزا القائد بونابرت (نابليون الأول) الديار المصرية سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠٠م، صحبه بعض العلماء للاستقصاء في الآثار المصرية، وإكساب العلم والصناعة شيئاً من التبحّر فيها. فكتبوا شيئاً كثيراً في حالة مصر القديمة والحديثة، وفي ما شاهدوه فيها. ونشرت حكومتهم ما ألَّفوه في كتاب موسوم برسوم مصر انطوى في تسعة مجلَّدات، وتكاملت طباعته سنة ١٨٠٩م وما يليها في باريس. إلا إنَّ هؤلاء لم يبلغوا المراد مما كتبه فراعنة مصر على آثارهم. على أنَّ ضابطاً من الجيش الإفرنسي يُسمَّى بوشار Bouchard عثر في رشيد على صفيحة كتب عليها بالهيروكليفيَّة واليونانيَّة، والصفيحة الآن في المتحف البريطاني. وقد أكثر العلماء من التفحّص عما كتب فيها فلم يفتح على أحد منهم، فكأنَّ الكشف كان محفوظاً لشاب إفرنسيّ يُسمَّى يوحنّا فرنسيس شامبوليون Champollion. ولد في فيجاك سنة ١٧٩٠م وتوفاه الله في باريس في ٤ آذار سنة ١٨٣٢م وكان ذا فكر ثاقب، ورأي أصيل صائب. أشغل ذكاءه المتوقّد أيّاماً متطاولة في التفحّص عما كتب في هذه الصفيحة وفي صفيحة أخرى كانت قد وُجدت في جزيرة الهائف في النيل

(على بعد أربعة كيلومترات نحو الجنوب من أسوان) مكتوبة باللغتين الهيروكليفيَّة واليونانيَّة معاً. وكان من التوفيقات الربّانيَّة أنَّ اسماء الأعلام تُكتب عندهم ضمن إطار يُحيطها من جهاتها الأربع، وقد كُتب في صفيحة رشيد اسم بتولمايس. وفي صفيحة الهائف اسم كلوبتر.

ووجد شامبليون في صفيحة أخرى اسم ألكسندروس (إسكندر) فأخذ يعارض الحروف الواقعة في هذه الكلمات بعضها ببعض فوجد مثلاً الحرف الأوّل من بتولمايس والحرف الرابع من كلوبترا واحداً. فعلم أنَّ تلك العلامة دالَّة على الباء. والثاني من بتولمايس والخامس من كلوبترا واحداً. فعلم أنَّ تلك العلامة بمثابة حرف التاء والثالث من بتولمايس وكلوبترا واحداً فهو الواو. والرابع من بتولمايس والثاني من كلوبترا وألكسندروس واحداً فهو اللام. والثامن من بتولمايس والأخير من ألكسندروس واحداً فهو السين. والسادس من كلوبترا والسابع من ألكسندروس واحداً فهو الراء. والأوّل من كلوبترا والثالث من ألكسندروس واحداً فهو الكاف. فكذا عرف بعض الحروف من هذه الكلمات وغيرها من غيرها إلى أن وجد مفتاحاً لقراءة هذه الخطوط. وكان قد درس اللغة القبطيَّة القديمة وبرع فيها، فأداه ثباته وذكاؤه إلى الشرف الوسيم بأن يكون أوّل مكتشف عن قراءة الخطوط المصريَّة، وأوّل من حلَّ رموزها وفتح كنوزها. فنشر سنة ١٨٤٢م كتابه المعنون «خلاصة نظام الكتابة الهيروكليفيَّة» ضمَّنه صور العلامات التي اكتشف عنها، وكيفيَّة التلفّظ بها. ووضع أصولاً لحلِّ ألغازها لم تزل راهنة يُعتمد عليها. ولم يُطل الله عمره بل توفّاه في الثانية والأربعين منه. ومن على فراش موته كان يُملي على أخيه كتابه في نحو اللغة المصريَّة. وقد أنبأتنا المجلّة الإفرنسيَّة المسمّاة الأرض المقدّسة في عددها المؤرَّخ في غرّة شباط سنة ١٨٩٢م أنَّ البعض في برلين نفسها عقدوا العزم على نصب تمثال إجلالاً لشامبوليون ذلك الفاتح الشهير، ومن بعد وفاة شامبليون تصدّى لتكملة عمله علماء كثيرون: منهم شرل لانرمان (Lenormant) ونسترلى هوت (Nester L'hote) من إفرنسة. وسالفوليني (Salvolini) وروزاليني (Rosellini) من إيطاليا. ثمَّ ليمان (Leemans) من هولندا. واسبورن (Asburn) وبيرش (Birech) من انكلترا. ولبسيوس (Lepsius) من المانيا. وبلَّغ هذا الفن شأوه عمنويل دي روجه (Em. de Rougé) ودي سولسي (de Saulsy) ومريات (Mariette) وشباس

(Chabas) وغيرهم من إفرنسة. وبروغش (Brugsch) ودوميكان (Dumichen)وغيرهم من المانيا. وبلايت (Blete) من هولندا. وكودوين (Coodwin) ولاباج (Lepage) من انكلترا وغيرهم. وتكامل هذا الفن حتى أصبح علماؤه يقرأون ما كتب على الآثار المصريَّة كما يقرأ الخبيرون باللغة اللاتينيَّة كتب شيشرون وغيره ممن كتبوا فيها قديماً.

ولهذه الكتابة المصريَّة ثلاثة فروع: الهيروكليفيَّة؛ وكان يكتب بها على الآثار الخطيرة ما يُراد تخليده. والهياراتكيَّة وهي موجزة الأولى ومشتقة منها علامة علامة، وكانوا يستعملونها في الحاجات العامّة والصكوك المدنيَّة والعلوم. ثمَّ الداموتيكيَّة وهي مختصر الفرع الثاني ومعناها العاميَّة، إذ كانت العامة تستعملها في أواخر أيّام المملكة المصريَّة. وما كُتب بهذه الفروع الثلاثة إن لم يكن اللغة القبطيَّة القديمة نفسها، فهو لا يختلف عنها إلا اختلافاً قليلاً. وفي هذه الكتابة عدا الحروف الهجائيَّة علامات أخرى كثيرة لفصل الكلام ولضبط المعاني كالدلالة على أنَّ الاسم مذكر أو مؤنث. وبعض العلامات يدلّ على هجاء كامل أو على حرفين معاً، وبعضها يدلّ على تصوّر لا على حروف كصورة الأرقام الهنديَّة عندنا. فمن ذلك أنَّك تجد في هذه الكتابة صورة إنسان ويده ممتدّة إلى فمه دلالة على فعل أكل، ورسم دائرة عبارة عن الشمس. ولذلك كانت هذه الخطوط عديدة كثيراً حتى أبلغها بروغش سنة ١٨٧٢م إلى ما يُنيف على ثلاثة آلاف علامة. ومن ثمّة قد انبعثت لغة المصريّين القدماء وكتاباتهم من أرماسها، ففتح لنا كنز معارف عديدة جادت على العلم عظيم الجدوى. وزادتنا بياناً وتيقّناً بصحّة ما رواه الكتاب المقدّس في محال عديدة، وأوضحت لنا آيات كثيرة كانت عثرة المدرك وحلَّت مشكلات رابكة كما سترى في كتابنا هذا.

عد ٨

الخطوط المسماريَّة

سُميت هذه الخطوط مسماريَّة لأنَّ هيئة حروفها أشبه بمسمار أو زاوية. ومن تلك المسامير ما هو عرضي وما هو عمودي مفرداً أو مكرّراً. وكذا الزوايا متعددة الهيئات، وكان أمرها مجهولاً كل الجهل، حتى كان بعض العلماء أنفسهم

يحسبون في أوائل القرن السالف أنَّها ليست كتابة بل نقوش، يتبيّن منها كم تؤلّف هيئة المسمار من الهيئات المختلفة المتباينة. ولم يُكتشف عن أنَّها تهجيات وتحلّ ألغازها إلا بعد سنين من الاكتشاف عن الكتابة الهيروكليفيَّة وإدراك رموزها. وكان يُكتب بالخطوط المسماريَّة بثلاث لغات الفارسيَّة والماديَّة والآشوريَّة، وأوّل من وُفّق إلى معرفة بعض حروفها باللغة الفارسيَّة هو العالم كروتفاند (Grotefend) من هانوفر في المانيا سنة ١٨٠٢م. فقد كان وجد في فرسبوليس (في الشمال الشرقي من شيراز في مملكة إيران) صفيحتان كُتب في إحداهما «داريوس الملك العظيم ملك الملوك ابن كيستاسف (أو هيستسب الكني) (Achéménides)[1] هو الذي بنى هذا القصر». وكُتب على الثانية «كسركس (في الأصل الفارسي كسايرسا، ولعلّه الذي يُسمّيه أبو الفداء وغيره من مؤرخي العرب كيخرسو) الملك العظيم ملك الملوك ابن الملك داريوس (دارا) الكيني».

فتكرار العلامات الدالّة على كلمة ملك وتروّيه بأن أحد هذين يخلو نصفه من كلمة ابن إذ لم يكن أبوه ملكاً، نبهاه إلى أنَّ الكلمة المكررة يُراد بها ملك وباقي الكتابة علَمُه. ولما كان يعلم أنَّ ذلك المحل من آثار الملوك الكينيّين، فأنبأه ذكاؤه وجدّه أنَّ الملكين إنما هما داريوس وكيخسرو. وكان بالتوفيق الربّاني أن أوتي إلى باريس بإناء من المرمر وُجد في مصر (وهو الآن محفوظ في متحف باريس) مكتوباً عليه بأربع لغّات من جملتها الهيروكليف المصري والمسماري الفارسي اسم كيخسرو أو كركس، وكان وجد شامبوليون هذا الاسم، فتيقَّن كروتفاند أنَّ حدسه إصابة وصدّقه العلماء في اكتشافه. إلا إنَّه لم يُوفَّق إلى الكشف التام عن هجاء هذه اللغة. واستمرَّ هذا الفن نحواً من ثلاثين سنة لم يتقدّم خطوة إلى أن اكتشف العالم اوجان بورنوف (Burnof) الإفرنسي والعالم لاسان (Lassan) الإلماني عن تهجيات أخرى، وحققا أنَّ ما كُتب في الصفيحتين المار ذكرهما إنما هو باللغة الفارسيَّة القديمة. على أنَّ الذي أكمل إحياء هذه الكتابة إنما هو العالم هينك

---

(١) الكلمة في الأصل الفارسي هاكا مانيزيا. وفي الإفرنسية كما رأيتها. وهذه الدولة سمّاها ابن خلدون في أخباره عن ملوك الطبقة الثانية من الفرس الكينية، لأن اسم كل واحد من ملوكها الأولين يبتدىء بكي. وسماها أبو الفدا في الفصل الثاني من تاريخه في ملوك فارس الكيانية. وقال إن كي معناه الروحاني أو الجبار.

(Hincks) من دوبلين في إيرلندا سنة ١٨٤٦م والعالم اوبر (Oppert) في باريس سنة ١٨٤٧م دون علاقة لأحدهما بالآخر.

والاكتشاف على مآل الخطوط المسماريّة في اللغة الفرنسيّة يسّر الاكتشاف على مآلها في اللغات البابليّة والآشوريّة والماديّة. واكتشاف العالم بوتّا (Botta) قنصل إفرنسة في الموصل عن موقع نينوى سنة ١٨٤٦م وما غنمه من الآثار، واكتشاف العالم هنري لايرد (Henry Layard) الإنكليزي من سنة ١٨٤٩م إلى سنة ١٨٥١م عن آثار أكثر من أن تُعدّ في كوينجك وفي نمرود، يسّرت للعلماء راولينسون وهينك وفكس تلبوت من انكلترا ودي سولسي واوبر من إفرنسة حلّ رموز هذه الكتابة واغتنام كنوزها. وظهر أنّ بعض علامات هذه الكتابة دالّة على تصوّر كامل كما مرّ في الهيروكليفيّة، وأنّ قسماً كبيراً منها يدلّ على هجاء تام، أي على حرف وحركته، وبعضها يدلّ على حروف معاً، فكان لنا بهذه الخطوط. أيضاً كنز توفّر النفع به للعلم والدين.

وقد قدّر الأب فيكورو (في كتابه المسمّى الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلّد ١ صفحة ١٧٦ طبعة ٤)[1] أنّ الآثار التي وجدها لايرد في المكتبة الملكيّة في نينوى لو تُرجمت برمتها لتألّف منها خمسماية مجلّد؛ حوى كلّ مجلّد خمسماية صفحة بقطع الربع. وهي مشتملة على كلّ فنّ، وعلم اللاهوت والفلك والتاريخ السياسي والتاريخ الطبيعي، وكتب أصول اللغة ومعجماتها والجغرافية وغيرها، وكلّها مطبوع في الآجر فضلاً عما وجده غير لايرد من الآثار، وفضلاً عما نُقش على الأبنية والصخور والمدافن. وسترى أهميّة هذه الاكتشافات عند مطالعة كتابنا هذا، فنُسدي الله حمداً لا ينقضي وشكراً لا ينتهي على ما منّ به في هذا العصر وقت معظم الحاجة إليه. وسنعلّق على هذا الكتاب مثالاً للخطوط الهيروكليفيّة والمسماريّة.

(١) J. Vigoureux, La Bible, et Les Découvertes Modernes.

الفصل الثالث

عد ٩

خلق العالم

ليس من تاريخ أقدم زماناً وأصدق إنباء من أسفار التوراة التي كتبها موسى بإلهام الله، فنعتمدها في كلامنا ونزيد ثبوتها بياناً بما ورد في كتب الأقدمين وبما جدّت علينا به الاكتشافات الحديثة. ففي مفتتح سفر التكوين: «في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خاوية خالية (وفي العبرانيّة توهو بوهو). وعلى وجه الغمر (بالعبرانيّة تهوم) ظلام. وروح الله يرفّ على وجه المياه»[1]. إلى أن قال: إنَّ الله خلق في اليوم الأوّل النور، وفي اليوم الثاني فصل المياه العليا والمياه السفلى، وفي اليوم الثالث خلق النبات والأعشاب والأشجار، وفي الرابع الشمس والقمر والكواكب، وفي اليوم الخامس الاسماك والطيور، وفي اليوم السادس خلق الدبابات والبهائم، ثمَّ الإنسان على صورته ومثاله؛ ذكراً وأنثى خلقهما. وفرغ من عمله واستراح في اليوم السابع.

وقال في كل مما مرَّ: «وكان مساء وكان صباح يوم أوّل» ثمَّ يوم ثان إلى الآخر. ثمَّ عاد في الفصل الثاني مفصّلاً كيف خلق الله الإنسان، فقال إنَّه جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ في وجهه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حيّة، وأوقع سباتاً على آدم فنام فاستلّ إحدى أضلاعه، وبنى الضلع التي أخذها من آدم إمرأة، وأتاه بها. فهذه خلاصة ما كتبه موسى في خلق العالم والإنسان، متعمّداً به لا أن يعلّم العبرانيّين علوم الطبيعة والجيولوجيّة (أي الكلام في الأرض وطبقاتها وتكونها) والفلك، بل أن يرشدهم بعبارة ساذجة يدركونها إلى الصحيح في خلق العالم والإنسان، وقاية لهم من فساد أذهانهم بما كان يعلّمه الوثنيّون من مصريّين وغيرهم من أحاديث خرافة في مادّة هي أوّل أركان الدين وأساس المعتقد الصحيح.

(١) إننا نعتمد في ذكر الكتاب المقدّس نسخته التي طبعت في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت.

فالآية الأولى الكريمة وهي «في البدء خلق الله السماوات والأرض» تأوّلها بعضهم بمعنى أنّها خلاصة موجزة لكلّ ما تبعها من الكلام في خلق العالم وما فيه. والأظهر أنَّ المراد بها خلق المادة الأولى أو عناصر المادة، ويُؤيّده قوله التابع أنَّ الأرض كانت خاوية خالية أي ليس فيها شيء إلا المادة وهي مشوّشة لا نظام لها. وقوله في البدء معناه قبل أن يكون شيء، وخلق (بالعبرانيّة بَرَا) أي أتى بالمادة من العدم إلى حيّز الوجود إذ لم تكن موجودة قبلاً. يضاد موسى بذلك الذين قالوا بأزليّة المادة وهو مستحيل لأنَّ المادة معلول، ولا معلول دون علّة، فيتحتّم وجود علّة خالقة لها ويستحيل أن تكون علّة لنفسها وإلا فتكون وتفعل قبل أن تكون. وقوله: إنَّ روح الله كان يرفّ على المياه بعد خلق المادة وقبل إيجاد النور؛ يُراد به الروح القدس أو الريح. فإنَّ اللفظ العبراني (رواح) يتناول المعنيين والثاني هو الأظهر، فكأنَّ موسى أراد أن يبيّن أنَّ الله جعل في ذرّات المادة التي خلقها حركة كحركة الريح كانت علّة لتكوّنها التابع كما سترى.

قد روى موسى أنَّ الله كوَّن العالم بستة أعمال سمّاها أيّاماً، وجعل كلاً منها مفصولاً عن الآخر بمساء وصباح. فكلمة (يوم) بالعبرانيّة لا يُعبّر بها دائماً عن اليوم الطبيعي المؤلّف من أربع وعشرين ساعة، بل كثيراً ما يُراد بها مجموع أيّام عديدة. فقد ورد في سفر التكوين نفسه (فصل ٢ عد ٤) «هذه مبادي السماوات والأرض إذ خُلقت يوم صنع الرب الإله الأرض والسماوات». ولا مريّة بأنَّ اليوم في هذه الآية عبارة عن مجموعة أيّام عديدة، ولا أقلّ من الستة أيّام التي ذكرها في الفصل الأوّل. ومثله قوله في سفر التثنية (فصل ٩ عد ٢٤) «منذ يوم عرفتكم ما برحتم معاصين الرب» ولا إشكال بأنَّ المراد باليوم هنا المدّة لا اليوم الطبيعي.

وأمثال هذا كثيرة في سائر الأسفار ونبوات الأنبياء، وقد حقق خبيرون باللغة العبرانيّة أنَّ ليس فيها لفظ يدلّ على اليوم والمدة والعصر إلا كلمة (يُوم)، ثمّ إنَّ اليوم الطبيعي مقياسه حركة الشمس، فلا مقياس له قبل إبداعها في اليوم الرابع، وإذا لم تكن الأيّام الثلاثة الأولى أيّاماً طبيعيّة فلا تكونها كذلك الأيّام التابعة. ولا نجهل أنَّ بعض الآباء قالوا بحسب حالة العلم في عصرهم إنَّ أيّام الخلق طبيعيّة، لكنَّ بعضهم الآخر وأشهرهم القديس أغوسطينوس وجميع علماء مدرسة الإسكندريّة الذين فسّروا الكتاب، والقديس توما الأكويني أثبتوا أنَّ الكلمات يوم

ومساء وصباح في الفصل الأوّل من سفر التكوين مجازيّة لا يُراد بها معناها الحقيقي بل العصر أو الحقبة أو المدّة. فقد عبّر موسى إذاً بكلمة يوم عن العصر الذي انقضى بين تكوّن كل من الكائنات التي ذكرها وبين ما تلاه. فغرضه من ذكر المساء نهاية ذلك التكوّن، ومن ذكر الصباح بداية تكوّن غيره. وأما كم هو مقدار تلك الأعصار أو الأحقاب فلم يتيسّر للعلماء إلى الآن تعيينه. وما دلّ عليه علماء الجيولوجيّة والفلك إنما هو أنّ تلك الأعصر كناية عن ألوف مؤلّفة من السنين.

عد ١٠

تكوّن الكائنات

وأما كيفيّة تكوّن الكائنات فما على المؤرخ الكلام فيها لأنّ ذلك من مواد علميّ الجيولوجية والفلك. على أنّنا نلخّص شيئاً منه كلفاً بتوفّر الفوائد وبياناً للمطابقة بين اكتشافات العلم وما كتبه موسى. فالمذهب الذي يُسلِّم به عامة العلماء بهذا الفن أنّ الذرات (التي سمّاها بعضهم الأثير لفظ يوناني) أي مبدأ المادة ومبدأ تكوّن السماء والأرض خلقها الله أوّلاً. وقد أنبأتنا اكتشافات الأب ساكي اليسوعي وغيره أنّ التركيب الكيماوي في الأجرام السمويّة والأرضيّة واحد في أصله وجوهره.

وكان الظلام في البدء عاماً طبق ما قال موسى وعلى وجه الغمر ظلام. وجعل الله في عناصر المادة قوّة التجاذب، فوُجدت مراكز للجذب في نقط عديدة من الفضاء؛ فكانت مبدأ لكرات سديميّة أي ضبابيّة ومبدأ للحركة. ثمّ إنّ حركة هذه الكرات في داخلها نحو مركزها ودورانها على محورها أصدرت شيئاً من الحرارة، واشتداد الحرارة تدريجاً أصدر النور، وعند تكاثف الكرات إنبعثت من جوانبها أنوار تُضيء. ثمّ تجزّأت فكانت أجزاؤها كواكب، وانتهت بأن جعلتها الحرارة ملتهبة. والأرض كوكب من هذه الكواكب، وإلى حالتها هذه أشار موسى بقوله كانت الأرض خاوية خالية، وأبان هذا التكوّن بقوله إنّ الله خلق في اليوم الأوّل النور وفصل بين النور والظلام.

ثمَّ إنَّ الكرة الأرضيَّة بعد انتقالها من الحالة الغازيَّة إلى حالة سائل ملتهب إبتدأ وجهها يتجمّد بواسطة البرد، وتكوّن حولها جلَد مظلم مشبع ببخارات معدنيَّة ومائيَّة، وبمقدار ما كان يتواصل البرد كانت المواد المتطايرة حول الكرة تتجمّد تباعاً الثقيلة منها أوّلاً. على أنَّ ما كان منها أكثر خفّة، كبخار الماء الذي كان في أعلى الفضاء، تكاثف بمماسته للأنحاء الأكثر برودة، فتكوّنت منه قبّة من سحاب كثيف فوق الكرة، وانبسط الجَلد كما نراه في الفضاء المتوسّط بين هذا المحيط الهوائي المطروق من الأرياح وبين وجه الأرض؛ وهذا هو معنى فصل المياه العليا عن المياه السفلى بواسطة الجلد الذي ذكر موسى أنَّ الله صنعه في اليوم الثاني[١]. أو المراد بهذا على قول آخرين تجمّد قسم من الأبخرة المائيَّة المسمّاة المياه السفلى وفصلها عن المياه التي لبثت في حالة البخار فسمّاها مياهاً علويَّة.

على أنَّ الجوّ لم يكن حينئذ نقيّاً حتى يمكن أن يصل إلى الأرض نور كافٍ إلا لإنماء النبات فيها. فإنَّ النور ضروريّ لنمو النبات، فإذ صلحت الأرض لذلك في العصر الثالث جعلها الله فيه تنبت نباتاً يبذر بذراً، طبق ما قال موسى إنَّ الله خلق النبات في اليوم الثالث. على أنَّه قد تبيّن لعلماء الجيولوجية من الآثار التي اكتشفوا عنها أنَّه لم يكن في هذا العصر الثالث كلّ أنواع النبات، بل ما كان منها أقلّ احتياجاً إلى النور والحرارة. ولم يكن نبات هذا العصر زاهياً بألوانه، بل كان أكثر نموّا وضخامة. وباقي النبات أوجده الله بعد ظهور الشمس والقمر في العصر الرابع. وذكره موسى هنا قبل وقته مستطرداً لئلا يتكلّم مرّتين على خلق النبات. وطالما اعترض الكفار على تاريخ موسى قائلين كيف ينمو النبات دون الشمس وقد وُجد قبلها. ويكفي مؤونة ردّ زعمهم ما قاله العالم بفاف[٢]: «إنَّ النبات لا يحتاج الشمس، بل يكفيه النور والحرارة وليس من يمتري بوجدانهما قبل الشمس». وقد اختبر بعض العلماء إنماء بعض النبات فكفاهم له ضوء كبير من الغاز.

قد ذكر موسى أنَّ الله خلق في اليوم أي العصر الرابع الشمس والقمر والكواكب. وذهب بعض العلماء إلى أنَّ الشمس كانت في الأعصر السالفة كجرم منير ولكن لم تكن أشعّتها تصل إلى الأرض لعدم صفاء الجوّ. وحيث إنَّ موسى

(١) كودا في الدروس الكتابية Godet Etudes Biliques I Seric. p. 406.

(٢) في كتابه في خلق العالم Phaff Schop Fungsgeschichte pag 745.

كان يكتب تاريخ الأرض لم يذكر إبداع الله لها إلا عند اتصال أشعّتها إليها وانتفاعها بها. على أنَّ فهم كلام موسى بحسب ظاهره وحرفيّته لا يُضاد العلم بشيء. قال العالم بفاف (في المحلّ المارّ ذكره): « إنَّ شمسنا كوكب حقيقي ثابت وعليه فظهورها بمنزلة كوكب ممتاز عن غيره يحتمل ان كان مع ظهور سائر الكواكب الثوابت، وليس في علم الفلك ما يعترض به على هذا المذهب... فلا محلّ هنا إذاً للبحث في تناقض بين علم الفلك والكتاب».

لما كان النبات الذي وُجد في العصر الثالث امتصّ كميَّة كبرى من الأُكسيد أي الحامض الكربوني، وجاءت أشعّة الشمس في العصر الرابع تزيد الحرارة والنور فتنقّي الجوّ، وصلحت الأرض للحياة الحيوانيّة، فأبدع الله حيوانات البحر والطيور أوّلاً طبق قول موسى إنَّ الله خلق في اليوم أي العصر الخامس زحافات البحر والحيتان العظام والطيور.

وقد قسّم علماء الجيولوجية عصر التوليد هذا إلى ثلاث مدد: المدّة الثانويَّة وهي عبارة عن العصر الخامس في كلام موسى، والمدّتان الثالثة والرابعة وهما عبارة عن العصر السادس في كلام موسى، وطبقات الأرض تُثبت هذا التقسيم إثباتاً قاطعاً. وأخص ما يُستدلّ به على المدّة الثانويَّة طبقات صخور تُرى في محال عديدة وفيها بقايا حيوانات بحريَّة ظاهرة وكثيرة. وقد وُجد في طبقة الأرض هذه بقايا زحافات كبيرة هائلة حتى كان طول بعضها عشرين متراً، واكتُشفت فيها أيضاً بقايا طيور كبيرة من نوع النعام، ولم يوجد البتّة أثر لطائر قبل هذه المدّة؛ كلّ ذلك مصداق لما كتب موسى. ثمّ إنَّ هذه المدّة الثانويَّة لم يوجد فيها شيء من الآثار لذوات الأثداء أي البهائم والوحوش، وتلك بيّنة أخرى قاطعة على صحّة كلام موسى أنَّ الله أوجد البهائم والدبابات والوحوش في اليوم أي العصر السادس الموافق بداية المدّة الثالثة في كلام علماء الجيولوجيّة.

وقد اكتشف في طبقة الأرض المنسوبة إلى هذه المدّة بقايا بهائم وذوات أربع في محال عديدة، وبعضها كبير الهيكل كثيراً. ووُجد في طبقة الأرض عند الانتقال من المدّة الثالثة إلى الرابعة بقايا ذوات أثداء قريبة من ذوات الأثداء في أيّامنا. ولا توجد آثار مؤكدة لبقايا الجسم الانساني إلا في طبقة الأرض المنسوبة إلى

المدّة الرابعة الموافقة لآخر اليوم أي العصر السادس الذي أنبأنا موسى أنَّ الله خلق الإنسان فيه.

وعليه فتاريخ موسى مطابق لما اكتشفته العلوم الطبيعيَّة طباقاً تاماً من حيث الجوهر. ولما كان موسى لم يتعمّد أن يكتب إلا تاريخ الإنسان إبتدأ تاريخه من خلق الإنسان لا من خلق المادّة الأولى، واكتفى بالإشارة إلى إبداعها وإلى تكوّن سائر الكائنات دون أن يتعرّض لذكر كمية السنين التي مرّت بها قبل خلق الانسان، وقد مرّ أنَّ العلماء مُجمعون على أنَّها ألوف مؤلفة من السنين.

عد ١١

خلق الإنسان

اننا نراه تعالى استعمل نوعاً مخصوصاً في خلق الإنسان. فاجتزأ بمجرد الأمر في خلق سائر الكائنات بقوله ليكن نور ولتكن نيرات ولتنبت الأرض نباتاً إلى الآخر. وأما في خلق الإنسان فكأنَّه عقد مشورة إذ قال لنصنع إنساناً على صورتنا ومثالنا وليتسلّط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض. فما ذلك إلا لأنَّه جعله مترفّعاً على الكائنات الأرضيَّة متسلّطاً عليها، كأنَّ الأرض وما سُخّر لها خُلقت له.

ثمَّ عاد إلى الكلام في تكوينه في الفصل الثاني من سفر التكوين فقال: «إنَّ الرب الإله جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الإنسان ذا نفس حيَّة» مبيّناً بذلك أنَّه مؤلّف من جزئين ترابي وهو الجسد وروحاني وهو النفس؛ جزء كوّنه من تراب وجزء بسيط أكسبه إيّاه بنفخة في أنفه نسمة الحياة، وسمّاه بعد ذلك آدم، ومعنى الكلمة أحمر مأخوذاً عن آدمه بالعبرانيَّة ومعناها التراب الأحمر الذي جبله منه كأنَّه ليتذكر دائماً أنَّ أصله من تراب. ثمَّ قال الكتاب: «إنَّ آدم لم يوجد له عون بإزائه فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فاستلّ إحدى أضلاعه وسدّ مكانها بلحم، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم إمرأة، فأتى بها آدم فقال: ها هذه المرأة عظم من عظامي ولحم من لحمي»، وسمّى الكتاب المرأة حوّا، ومعناه الحياة، لأنَّها والدة الأحياء في البشر. وما أحسن ما قال

القدّيس توما إنَّ الله لم يأخذ حوّا من رأس آدم لئلا تدعي أن تدبره وتتسلّط عليه، ولا من رجله لئلا يحتقرها ويعتدّها جارية له، بل أخذها من وسطه ليعتبرها ويحبّها كجزء من جسمه.

زعم الكاردينال كايتانوس[١] أنَّ كلام الكتاب في تكوين حوّا من إحدى أضلاع آدم إنما هو مجازي لا تاريخ حقيقي، وعلّل رأيه بأنَّه لو كان هذا الكلام تاريخيّاً وضعيّاً لأدّانا إلى القول بأحد محالين؛ إما أنَّ آدم كان مسخاً لزيادة ضلع في تركيب جسده، إما أنَّ جسده كان بعد أخذ الضلع ناقصاً غير كامل. وقد كان أوريجانوس جنح إلى مثل هذا التفسير (في ردّه مزاعم شلسوس)، فالكنيسة لم تحرم حتى الآن القول بمقال كاتيانوس لكنَّ آباءها مجمعون على خلافه. فقال القديس إيرونيموس[٢] «إنَّ الله جبل آدم وكوّن حوّا من جنبه». وقال القديس أغوسطينوس[٣]: «إنَّ كلام موسى في سفر التكوين ليس البتّة مجازيّاً أو من باب الكناية كنشيد الإنشاد، بل هو إيراد أخبار وضعية مقروناً بالسذاجة والأمانة كأخبار سفر الملوك. ومن الضلال الفظيع الزعم أنَّه لا يورد تاريخاً وضعيّاً إلا بعد ذكر الطرد من الفردوس الأرضي». على أنَّ برهان الكردينال كايتانوس قاصر ضعيف المستند. نقول هذا على إجلالنا لمقامه وعلمه أفلا يقدر الله على ذلك؟ فهذا هو المحال حقيقة. وأخذ ضلع من جسد آدم لا ينتج منه أنَّه كان مسخاً ولا أنَّه أمسى بعد ذلك ناقصاً، إذ صرّح الكتاب بأنَّه شدّ مكان الضلع بلحم ومن يعلم قدر ما أخذ الله من جسد آدم[٤] ؟

عد ١.٢

إثبات إبداع الله للعالم والإنسان بالآثار القديمة

إذا تبصّرنا في آثار كلّ القبائل القديمة لاسيّما بعد الاكتشافات الحديثة، ألفينا عندها التقليد الدال على خلق العالم والإنسان كما جاء في الكتاب، وإن مشوباً

(١) مجلد ١ صفحة ٢٢ من تأليفه المطبوعة في ليون.

(٢) في تفسيره رسالة فيليمون.

(٣) في تفسيره الحرفي لسفر التكوين.

(٤) ملخص عن الوجيز الكتابي للأب فيكورو عد ٢٨٦ Vigoureux Manuel Biblique.

بحكايات وأقاصيص أدخلها الجهل وعبادة الأوثان على التقليد الصحيح. ولما كان موسى من ذريّة ابراهيم، وابراهيم هاجر أرض الكلدانيّين آتياً إلى أرض الكنعانيّين، واستودع ذريّته التقليد الصحيح في خلق العالم وما تبعه كتبه موسى كما تلقّاه من أجداده. فلهذا، إذا عارضنا ما كتبه موسى بما اكتشف من آثار الكلدان القديمة العهد، وجدنا ما كتب في بابل وبلاد الكلدان في خلق العالم وما يليه، شديد المطابقة لما كتبه موسى؛ وكأنّه لا فرق بينهما إلا في بعض الشوائب المشار إليها، وإلا من حيث التعليم بوحدانيّة الله في كتب موسى وبالشرك في ما كتبه الكلدان في آثارهم، حتى أذهلت هذه المطابقة آباء الكنيسة وهم لم يكونوا يعلمون من تقليد الكلدان إلا ما كتبه باروز الكاهن البابلي في اليونانيّة في عصر خلفاء إسكندر، كاشفاً عن تاريخ بلاده منذ خلق العالم، فكيف الآن وقد اكتشف عن آثار عديدة أنبأتنا ما كان تعليم المدارس الكهنوتيّة على ضفاف الفرات ودجلة، وظهر لنا منها أنّ تكوين العالم كان في ستّة أيّام، وأنّ المخلوقات كُوّن بعضها بعد بعض في النظام نفسه الذي كتبه موسى. وقُصّت علينا أخبار الطوفان وبلبلة الألسن وتفرّق الأمم كأنّها وأخبار موسى سواء، إلا من حيث الوحدانيّة والشرك والتباين في الاسماء والتشوّش ببعض أقاصيص وثنيّة، حتى قال فرنسيس لانرمان[1]: إنّه يحق لنا أن نرى أحد أمرين؛ إما أنّ ما كُتب في سفر التكوين نسخة عن التقليد الكلداني، نقّاها موسى بإلهام الله من ضلال الشرك ومذهب الحلول (أي انتشار الإله في كلّ موجود). إما أنّ تعليم سفر التكوين وتعليم كهنة الكلدان نسختان عن أصل واحد عام هو التقليد الأولى حُفظت الأولى منهما بعناية الله سالمة، وشيبت الثانية بأحاديث خُرافة وأقاصيص أدخلها كهنة الأوثان تمكيناً لمزاعمهم ولم يتمكّنوا من اخفاء الأصل وإن شوّهوه.

وأوّلاً إنّ الآثار الكلدانيّة عند ذكرها خلق السماء والأرض تذكر السماء قبل الأرض كما في رواية موسى. ومما يستدعي الإلتفات أنّه وُجدت آثار كُتب عليها بثلاث لغّات الفارسيّة والسوسيّة والأشوريّة ما يتعلّق بخلق العالم. ولكلّ من هذه الكتابات ترجمة حرفيّة عن الأخرى إلا في كلمة «بوميم» التي هي في الفارسيّة

(١) في التاريخ القديم للمشرق مجلد ١ صفحة ١٩ طبعة ٩ F. Lenormant Hist. Aneinne de l'Orient.

بمعنى الأرض، فإنّك ترى تجاهها في الأشوريَّة كلمة دالّة على السماء في آثار عديدة كُتبت بهذه اللغات الثلاث معاً. فأثبت تعدد الكتابات على نمط واحد أنَّ الأمر لم يكن اتفاقاً ولا سهواً، بل غرضاً مقصوداً. ولدى التفحّص عن وجهه وُجد أنَّ الفرس يُسمّون هرمزدا أبا الأرض والسماء، والآشوريّين يعتقدون الإله خلق السماء أوّلاً ثمّ الأرض. فالمترجم الفارسي أبى مجاراة الآشوريّين في معتقدهم. ومهما يكن فذلك دليل صريح على أنَّ إلهاً خلق العالم. ثمّ قد مرّ بك أنَّ قول الكتاب: «وكانت الأرض خاوية خالية» هو في العبرانيَّة توه وبوه أي عديمة النظام، وأنَّ الظلام من قوله: «وعلى وجه الغمر ظلام» هو في العبرانيَّة تهوم.

فقد وُجد في آثار الآشوريّين كلمة بوه مراداً بها آلهة الغمر أي البحر، أو آلهة الكاؤس أي التشوّش وعدم النظام؛ فكأنّهم سمّوها بذلك للدلالة على قدمها أو على معاونتها في انتظام ذلك البوه. وقد وُجد أيضاً في بعض آثار الكلدان تسمية إحدى معبوداتهم تهوم أو تهومتي؛ ومعنى الكلمة عندهم الغمر أو مجتمع الماء والبحر واللجّة. ولنأت إلى ما هو أكثر بياناً؛ أنَّ باروز المار ذكره قال في تاريخه إنَّ أوناس الذي جعله أوّل إنسان كتب كتاباً قال فيه إنَّه كان زمان لم يكن فيه إلا ظلام وماء إلى أن يقول: «وكانت امرأة اسمها أوموركا تولّت الخلق يُسمّيها الكلدان تهوت (أو تهومت) وفي اليونانيَّة الغمر. وبينما كانت الأشياء في هذه الحال أتى بالوس (الإله) فشقّ المرأة (أي البحر أو المياه) نصفين؛ فكانت الأرض من نصفها السفلي والسماء من نصفها العلوي. وفسّر باروز ذلك بقوله هذا كلام مجازيّ، يتبيّن منه خلق العالم والكائنات من مادة رطبة... كذا ميزبالوس وهو الذي يُسمّيه اليونان ثاؤس (الله) النور من الظلام وفصل السماء عن الأرض ورتب العالم... وكوّن الكواكب والشمس والقمر والسيّارات الخمس. وقد جاءت آثار الأشوريّين والكلدان وصورهم مصداقاً لما كتبه باروز في تاريخهم.

وأوضح مما مرّ ما ترجمه العالم جرج سميت[1] عن بعض صفائح الآجر في مكتبة نينوى التي اكتشف عنها لايرد ونشره في أواخر سنة ١٨٧٥م، فإنه عثر في هذه المكتبة على صفائح يظنّ أصلها إثنتي عشرة صفيحة كُتب عليها تاريخ خلق الكائنات. ولسوء البخت لم تخلُ إحداها من تشويه على أنّ الباقي وافٍ بشيء من

(١) J. Smith The Chaldaen. Accaunt Of Gencsis p. 29.

المقصود. وقد كُتب على هذه الصفائح في عهد آشور بانيبال ملك آشور لنحو سنة ٦٧٠ق .م لكنّ المكتوب نسخة عن نصوص أكثر قدماً مأخوذة من بلاد الكلدان، وقد برهن سميت أنّ النصوص الأصليّة كُتبت من أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد، حتى يترجّح أنّ هذا التقليد الذي حفظه لنا الكتبة الآشوريّون أقدم من أيّام موسى بل من أيّام ابراهيم أيضاً. وقد نظّم سميت ما وجده في هذه الصفائح في أقسام؛ فجعل في الأوّل منها الكلام في الكاؤس أي الغمر وعدم الانتظام ومولد الآلهة. وفي الثاني تأسيس الغمر. وفي الثالث خلق الأرض. وفي الرابع إبداع الأجرام السماويّة. وفي الخامس إبداع الحيوانات الأرضيّة. وفي السادس وهو مؤلّف من ثلاث صفائح خلق الإنسان. وفي السابع وهو مؤلّف من عدّة فقرات الحرب بين الآلهة والأرواح الشرّيرة. وهاك ما كُتب أوّلاً ويظن لتكسر الصفائح أنّه من الصفيحة الأولى «إنه كان وقت لم يكن يُسمّى فيه ما فوق سماءً ولا ما تحت أرضاً، فالغمر غير المتناهي كان أصلها (أي أصل السماء والأرض)، والغمر الذي تولّد منه كلّ شيء كان كاؤس (أي عديم النظام) فاجتمعت الأمواه معاً وكان حينئذ ظلام دامس ولا شيء من النور، وكانت ريح عاصفة... ولم يكن اسم تسمّى» ثم يفصل موالد الآلهة. وما أحرى هذا الكلام أن يكون شرحاً لآيات سفر التكوين «وكانت الأرض خاوية خالية وكان على وجه الغمر ظلام وكان روح الله يرفّ على المياه».

على أنّ الصفائح الثلاث التابعة الأولى لم تزل مفقودة، ويترجّح أنها تشتمل على تاريخ إبداع النور ثم الجلد أو الرقيع ثم تيبيس الأرض وإبداع النبات. ووُجدت فقرة موجزة يتبيّن منها جعل الأرض يابسة كُتب فيها: «وعندما وضعت دعائم الأرض فسمّيتها أساس الأرض...أنت جمّلتِ السماء». ثم أنّ ما كُتب في الصفيحة الخامسة يطابق ما كتبه موسى في مبدعات اليوم الرابع. فإنّ هذه الصفيحة تُنبئنا بإبداع الكواكب والقمر والشمس لتكون علامات تفصل بين الفصول والأيّام والسنين كما جاء في سفر التكوين، ودونك ما كُتب فيها أنّ الإله: «قسم المنازل وهي سبع عدداً على الآلهة الكبار وعيّن الكواكب لتكون مراكز للدوائر السبع، وخلق مدار السنة وقسّمه إلى عشرات وجعل لكلّ من الإثني عشر شهراً ثلاثة كواكب من يوم بداية السنة إلى نهايتها، وأعطى الإله نيبير منزلته لتجدد الأيّام في حدودها كي لا

تقصر ولا تنتهي... وعهد إلى نانار (القمر) أن ينير الليل وجعله يتجدد ليخفف ظلام الليل ويديم النهار. ففي كلّ شهر تتمّ (أيّها القمر) دائرتك وفي مبتدئها يستحوذ الليل فلا ترى القرون (كأنه يُريد جوانب القمر)... وفي اليوم السابع تكمل الدائرة من اليمين إلى الشمال ولكن يبقى النصف منه محجوباً بالظلام، وفي وسط الشهر تكون الشمس في أعماق السماء عند بزوغك... فاطلع وغب بحسب الشرائع الأبديَّة». وترى القمر هنا مُفضّلاً على الشمس كما في سائر أقاصيص الآشوريّين، فإنّ الإله أور أو سين أي القمر عندهم مُقدّم على الإله شماش أي الشمس.

وقد وُجدت فقرة يُظنّ أنها من بقايا الصفيحة السابعة تُطابق ما قيل في الكتاب عن مبرؤات اليوم السادس، وهي: «وفي هذا الزمان أبدع الآلهة باجتماعهم... ثم كوّنوا مخلوقات حيّة... حيوانات البريّة ووحوش البريّة ودبابات البريّة» فترى تقسيم الحيوانات إلى ثلاثة أصناف طبق ما قيل في الكتاب (تك فصل ١ عد ٢٥) «فصنع الله وحوش الأرض بحسب أصنافها والبهائم بحسب أصنافها، وكل دبابات الأرض بحسب أصنافها». وأما الفقرات التي موضوعها خلق الإنسان فهي مفقودة أو مشوّهة حتى لا يمكن تحصيل معنى أكيد لها، ومع هذا حَسِبَ سميت أنه استطلع منها على خطاب القاه الله على الإنسان الأوّل والمرأة الأولى، حضّهما به على العمل بما فُرض عليهما وأوصاهما بالمحافظة على البرارة والتُقى. وروى لانرمان[1] أنه وُجدت فلذة من آجرّ يُظنّ أنها من الصفائح المذكورة (المحفوظة كلّها في المتحف البريطاني) كُتب عليها أنّ أيّا إله الفهم السامي وربّ الحكمة هو الذي «صوّر بيديه الجبلة البشريّة لتكون خاضعة لها للآلهة وهو إله الحياة البارة والمرشد إلى التقوى وهو الذي يُحيي الموتى... والرحيم الذي به الحياة».

ثم إنّ اسم آدم في الآشوريَّة «ادمي أو ادمي» عن العبرانيَّة. وقد وُجد في آثار آشوريَّة كثيرة ذكر يوم السبت أو السابع من الأسبوع موصوفاً بأنه يوم راحة لا يحلّ فيه عمل طبق ما جاء في التكوين (فصل ٢ عد ٣)، وتسمّيه هذه الآثار ساباتو كما يُسمّيه العبرانيّون، وبعضها يفسّر الكلمة بمعنى يوم راحة القلب. والحاصل أنّ الآثار الكلدانيَّة تُطابق نصّ موسى في خلق العالم والكائنات ولا

(١) مجلد ١ من تاريخه القديم للمشرق المارّ ذكره صفحة ٢٣ طبعة ٩.

تخالفه إلا بما شوّهه الجهل أو الشرك وعبادة الأوثان ولننظر في آثار غيرهم من القبائل.

إنّ الآثار المصريَّة أيضاً يظهر منها ما يُطابق كلام موسى في إبداع العالم. فقد نشر العالم شباس سنة ١٨٥٧م ترجمة ترنيم لازوريس أحد معبودات المصريِّين. يُقال فيه إنّ أزوريس هذا «صنع هذا العالم بيده أمواهه ورقيعه ونباته وجميع ماشيته وطيوره وأسماكه ودباباته وذوات الأربع فيه». فالتعداد تام ويخلو عن الإنسان فقط لأنّ المصريّين ينسبون خلق الإنسان إلى الإله توم أو كوم كما سترى بعيده[١]. وهاك مقابلة بين كلام موسى وآثار المصريّين أوردها العالم مريات في مقالة كتبها في أمّ الإله أبيس ونشرها سنة ١٨٥٦م فقال: «إنّ المصريّين، رغبةً في الدلالة على مجموع آلهتهم، استعملوا كالتوراة (في كلمة ألوهيم) تعبيراً دالّاً على الجمع، وللمفرد في هذا التعبير المحلّ الأوّل، إذ من وراء الجمع إله وحيد يُراعى به تعداد قوّاته ككلمة الوهيم في التوراة». ولكن حيث يقول العبراني في الإله غير المتناهي: «إنّ الرب الإله (الوهيم) خلق بالمفرد». يقول المصري لما لا يُخفى من مبدئه: «إنّ الرب الآلهة خلقوا» بالجمع. على أنّ الإله الوحيد عند المصريّين ليس الإله الوحيد عند اليهود، فموسى لاستمساكه بتصوّر الإله العظيم يُصرّح بدون خوف بقوله يهواه ألوهيم خلق، والكهنة المصريّون يروغون ولا يمكنهم أن يقولوا إلا إنّ الرب الآلهة خلقوا لاعتبارهم الرب بمنزلة مجموع آلهة أخرى. ويتّفق الفريقان على أنّ العالم مخلوق، وأنّ الرب خالق، وإن اختلفا في تصوّره واسمه وعدده.

وقد تبيّن من آثار مصريَّة عديدة أنّ المصريّين الأقدمين اعتقدوا أنّ الإله السامي توم أو خنوم (ومعناه مصوّر الكائنات وباريها) كوّن الإنسان من تراب. وترى في هيكل دندرة صورة ناتئة تصلح أن تكون لما ورد في العدد السابع من الفصل الثاني من سفر التكوين من أنَّ الرب جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ فيه نسمة الحياة. فتشاهد في تلك الصورة الإله خنوم جالساً على كرسي ويده الواحدة على رأس غلام يكوّنه والأخرى على رجليه، وتجاه الإله الآلهة جاثية تقدّم إلى أنفه رسم صليب في أعلاه حلقة أو ممسك وهو رمز الحياة في عرفهم. وذكر لانرمان[٢] صورة أخرى في هيكل أسنه تمثّل الإله خنوم جالساً على كرسي ورافعاً يديه

(١) ذكر ذلك الأب فيكورو في معجم الكتاب في كلمة أدم.

(٢) في كتابه التاريخ القديم مجلد ١ صفحة ٢١ طبعة ٩.

وأمامه شخصان على عنقيهما عقد الملك، وتجاهه الآلهة بيدها رمز الحياة، وهو الصليب تُدنيه من أنفيهما. وكثيراً ما ورد في آثارهم أنّ الإنسان كُوّن من طين النيل. ومن تقليداتهم المقرّرة أنّ مبدأ الأشياء الماديّة كلّها هو السائل الأوّلي أي الأمواه السمويّة.

ومن تقليدات الفينيقيين التي أوصلتها إلينا فقرات سنكونياتون تسليمهم بإنسان أوّل وامرأة أولى أوجدهما الريح كلبياس وعرسه باهو (هو مشوّش ما ورد في الكتاب عن الغمر توه وبوه وعن روح الرب الذي كان يرفّ على المياه) وأنّ اسم المرأة أيون (يظهر أنه ترجمة اسم حوّاء أي الحياة) وأنها «هي التي اخترعت الأكل من ثمر الشجر» وفي فقرة أخرى «إنَّ الإنسان كُوِّن من الأرض ومنه تناسل الناس»[١].

ومن تقليدات اليونان الأقدمين أنّ الإله بروماثه هو الذي كوّن الإنسان من أربعة عناصر لاسيّما التراب والماء. وعلى قول آخرين من قدمائهم أنّ بروماثه لم يُكوّنه بل وهبه الحياة بواسطة نار أُخذت من السماء[٢]. وأما الفرس فمن معتقداتهم أنّ أهورمزدا الإله الصالح العظيم خلق العالم والإنسان في ست مدد متتالية مجموعها سنة مؤلّفة من ٣٦٥ يوماً، وآخر ما صنعه إنما هو الإنسان، وإنّ الإنسان الذي برز من يدي الخالق ولا عيب فيه يُسمّى «كايومريتان» أي الحياة المائتة[٣].

ومن معتقدات أهل الصين أنّ هوانكتى الروح القديم هو الذي خلق الإنسان أوّلاً وكوّن الرجل والمرأة. وفي عبارة أخرى من كتاب تعليمهم الديني أنّ مينهوا يبّس التراب الأصفر وكوّن منه الإنسان، وأنّ هذا هو الأصل الحقيقي للنوع البشري؛ هذا ما رواه الأب كو في مقالة كتبها في الصينيّين نقلاً عن علمائهم القدماء. وقد جمع عالم صيني في هذه الأيّام كلّ ما عثر عليه هناك من الآثار الدالّة على الآلهة القدماء، فكان من جملته أنّ كائناً سامياً خلق الإنسان الأوّل، وأنّ لباسه كان محزماً من أوراق الشجر. روت ذلك المجلّة العلميّة الموسومة بالدروس الدينيّة سنة ١٨٩٠م صفحة ٤٨٠[٤].

(١) فيكورو في معجم الكتاب ولانرمان في المحل المذكور صفحة ٢٠.
(٢) فيكورو في المحل المذكور من معجم الكتاب ولانرمان صفحة ٢٤ من المجلد المذكور.
(٣) لانرمان صفحة ٢٥ من المجلد المذكور.
(٤) Etudes Religieuses.

بل إنّ القبائل الهمجيّة نفسها وسكّان أميركا الأوّلين وجدت عندهم آثار دالّة على ما كتبه موسى في خلق العالم والإنسان. فقد وجد في برونستون (في بنسيلفانيا من أعمال أميركا الشماليّة) صخر نُقش عليه صور عديدة منها صورتا رجل وامرأة، وبيد المرأة ثمر (تاريخ الفصاحة والصناعة مجلّد ٩ صفحة ٢٨٠). ووجد في جزيرة جافا (إحدى جزائر السند) صخر قديم منقوش عليه صورتا رجل وامرأة متمسّكين بأغصان شجرة عليها ثمر وحيّة ملتفّة على جذعها (مجلّة الجمعيّة الآسياويّة في لندره في حزيران سنة ١٨٣٢م). وفي البارو في جنوب أميركا يُسمّى الإنسان الأوّل الذي أبدعته القدرة القديرة على كلّ شيء «الباكاسكا» أي التراب المتنفّس. ومن معتقدات قبيلة المنداان في أميركا الشماليّة أنّ الروح العظيم كوّن صورتين من تراب وييّسهما وجعل فيهما نفساً بنفخ فمه؛ وسُمّيت الأولى منهما الإنسان الأوّل والثانية قرينة أو رفيقة. وقبيلة التهتين هناك تعتقد أنّ الإله العظيم كوّن الإنسان من تراب أحمر[1]. والحاصل أنّ ابناء آدم أينما حلّوا تركوا آثاراً دالّة على أصلهم كما كتبه موسى، وإن شوّهت الأيّام والجهل وعبادة الأوثان هذه العقائد.

---

(١) لانرمان صفحة ٢٢ من المجلد المذكور وفيكورو في معجم الكتاب في كلمة أدم.

الفصل الرابع

عد ١٣
محل الفردوس الأرضي

جاء في سفر التكوين (ف ٢ عد ٨ وما يليه): «وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً وجعل هناك الإنسان الذي جبله... وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة. ومن ثم فيتشعَّب فيصير أربعة أرؤس، اسم أحدها فيشون؛ وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد، هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون؛ وهو المحيط بجميع أرض الحبشة (كذا في نسخة الآباء اليسوعيين، والأولى أن يقال أرض كوش أو الكوشيين لما سترى). واسم النهر الثالث حداقل (كذا في نسخة الآباء اليسوعيين، واسمه في الآثار القديمة حيدقلا أو هيدقلا). فلفظة حيد أو هيد معناها النهر أي نهر داقل. وفي السريانية ܕܩܠܬ دِقلَت دجلة) وهو الجاري في شرقي آشور. والنهر الرابع هو الفرات.

قال كلمت[1]: قلّما وُجِد صقع في العالم لم يدَّعِ بعضهم أنَّ موقع الجنة كان فيه. فتعدَّدت الأقوال فيما إذا كان في آسيا أو إفريقيا أو أوروبا أو أمريكا أو في بلاد التتر أو على شاطيء الكنج أو في الهند أو الصين أو جزيرة سيلان أو أرمينيا أو تحت خط الاستواء أو فيما بين النهرين أو سورية أو بلاد فارس أو بابل أو بلاد العرب أو فلسطين أو بلاد الحبشة حيث جبال القمر، أو على مقربة من لبنان أو في لبنان الشرقي أو دمشق. انتهى. أما نحن فلا نتصدّى للتفحُّص عن هذه المدَّعيات كلها ولا عمّا يقوله كلٌّ من القائلين بها، ولا نسلّم لمَن قال إنَّ من تقليدات الموارنة أنَّ موقع الفردوس الأرضيّ كان في ناحية إهدن، فما ذلك من تقليداتنا ولا نعتقد

---

(١) معجم الكتاب في كلمة فردوس.

نحن ولا غيرنا من علماء الموازنة هذا التقليد صحيحاً أو عامّاً. وما أتى في كتب بعض علمائنا من ذلك جيءَ به مفاكهة أو توسّعاً بإيراد ما كتبه بعض علماء أوروبا في هذا الشأن. فجلّ ما نتعمّده هنا أن نبيّن أنّ هذه الأقوال العديدة لا يظهر لنا منها قريباً من الصدق إلا قولان؛ يجعل أحدهما موقع الفردوس الأرضيّ في ما بين النهرين، والثاني في أرمينيا. ولما كان الكتاب صرّح بذكر النهرين الشهيرين دجلة والفرات، ولم تكشف الآثار ما يخالف هذا الظاهر، تعيَّن أن يكون محل الفردوس الأرضيّ في الأنحاء التي فيها هذان النهران؛ إما من حيث منبعهما في أرمينيا وإما من حيث مجراهما في ما بين النهرين إلى الخليج العجمي.

قال العالم أنري راولينسون إنَّ موقع الفردوس الأرضيّ بابل أو إحدى ضواحيها، وأسند قوله إلى بعض بيِّنات محلية منها؛ أنَّ هذه المعاملة سمّيت مراراً في الآثار القديمة «غان دونياس» أي جنة دونياس، فغان تقرب من الكلمة السريانية ܓܢܬܐ ومعناها جنة أو حديقة، ودونياس اسم إله عندهم. وهذا التعبير يقرب من غان ادن أي جنة عدن. ومنها أنَّ نهرين من أنهر الفردوس الأربعة أي دجلة والفرات يسقيان سهول بابل الخصبة. ومنها أنه وُجِد في مكتبة آشور بانيبال في نينوى تسابيح قديمة في اللغة الأكادية والآشورية تفيض بذكر حديقة مقدَّسة مغروسة في أريدو، وهي أبوشارين الآن على مقربة من بابل.

وقد جدَّد راولينسون بقوله هذا مذهب السيد هوا أسقف افرانش[1] في فرنسا الذي نشر كتاباً مخصوصاً في موقع الفردوس الأرضيّ طبع في باريس سنة ١٦٩١م. وتابعه غيره من العلماء في هذا المذهب على أنَّ الذي عني بتأييد هذا المذهب إنما هو فريدريك داليتش[2] معلم اللغة الآشورية في كلية لبسيك، وأفرد له كتاباً مخصوصاً طبع في لبسيك سنة ١٨٨١م جدَّ فيه ليثبّت أنَّ مهد النوع البشريّ كان في السهول التي بُنيت فيها بابل بعد ذلك. ومن براهينه أولاً: إنَّ دجلة كان في أقدم الأيام يلتحم مع الفرات في شمالي بابل مسافة طويلة ثم ينفصل عنه في جنوبها. ثانياً: إنَّ فيشون وجيحون ليسا نهرين حقيقة بل قناتان كبيرتان، وإنَّ اسم ناهار الذي يُسمَّى به الفرات وفروعه الثلاثة بالعبرانية. واللفظ

---

(١) Huet évêque d'Avranche de Situation du Paradis Terrestre.

(٢) Frédéric Delitysch.

المرادف له في الآشورية والبابلية نهرو، وفي الآرامية السريانية ܢܗܪܐ نهرا، وفي العربية نهر. كل هذه الألفاظ تحتمل معنى القناة أيضاً. ثالثاً: إنَّ أرض كوش التي جاء في الكتاب أنَّ جيحون كان يسقيها، يُراد بها أرض الدولة العيلامية التي كانت تلي بابل في أقدم الأيام. وورد في الآثار القديمة ذكرها مسمّاة كاسي أو كاشي. فإذاً يرد في الكتاب اسم كوش دالاً على شعبين؛ أحدهما في إفريقية يُراد به الحبشة وما جاورها، والثاني في آسيا من حيث خرج نمرود بن كوش وملك في بابل (تك فصل ١٠ عد ١٠). قلنا إنَّ بني كوش بن حام كانوا أولاً في آسيا قبل أن يرتحلوا إلى إفريقية، ولا بد أن يكون قد بقي منهم بقية في مهاجرهم الأصلية، فحقٌّ لموسى أن يُسمّي بلادهم بلاد كوش. وهذا ما يجعلنا نرى أنه كان الأولى أن يترجم النص العبرانيّ في نسخة الآباء اليسوعيين بكلمة كوش بدلاً من كلمة الحبشة.

ومن براهين داليتش على مذهبه أنَّ أرض حويلة (أرض الرمل) التي ورد في الكتاب أنَّ فيشون كان يسقيها يُراد بها الأرض المتاخمة الفرات من برية سورية، وأنَّ الذهب والمقل وحجر الجزع توجد في أنحاء بابل. فحويلة على الضفَّة الغربية من الفرات، وكوش على ضفَّته الشرقية. فالفرات إذاً هو الذي يسقي جنة عدن بأرؤسه الأربعة التي يضحي كلٌّ منها نهراً مستقلاً مع دجلة، وتحت بابل قناتان كبيرتان من أمواه الفرات، وكلٌّ منهما نهر يُسمَّى أحدهما بالأكوباس، يسقي مدينة أور التي خرج منها إبراهيم، ويصبّ في الخليج العجميّ وهو فيشون على رأي المؤلّف، والثاني هو شطّ النيل كما سمَّاه العرب؛ وهو نهر أيضاً يتفجَّر من الفرات، وهو جيحون على رأيه، ويسقي أرك التي ذكرها سفر التكوين (ف ١٠ عد ١٠)، ثم يلتحم مع الفرات. وهناك بلاد كوش والمدن الأربع التي كانت لنمرود ابنه؛ وهي بابل وأرك وأكد وكلنه، كما أنبأنا سفر التكوين في المحل المذكور آنفاً. وقال داليتش، استدراكاً لما يرد عليه من أنَّ اسمَي بالاكوباس وشط النيل لا شبه بينهما وبين اسمَي فيشون وجيحون. إنه لا يلزم أن نتناسى أنَّ هذه الأعلام عرضة للتغيُّر والنقل، وأنَّ شط النيل كان اسمه في اللغة البابليّة أرحتو وهي قريبة من ـــ أرُحُو الطريق. ولكن كان يُسمَّى في اللغة السوماريَّة كاحان، وذكره سنحاريب مرات وتبيَّن من كلامه أنه نهر تسير فيه السفن. والعلامة «كا» في هذه اللغة تحتمل لفظ

«كو» فيصير الاسم كوحان، وهذا لا يبعد عن كلمة جيحون، والكلمة بيشان وبيشانو في الآشورية معناها قناة. فربما سمَّى الكلدان بالاكوباس بيشان أي القناة علماً له. والفرق بين بيشان وفيشون ليس كبيراً، وبدل الباء بالفاء مستفاض؛ فهذه خلاصة مذهب داليتش[1].

على أنَّ الأب فيكورو تعقَّب داليتش بمذهبه هذا منددّاً به، وقال إنه نظريّ لا يطابق حقيقة نص موسى، لاسيما من جهة النهرين فيشون وجيحون اللذين جعلهما داليتش فرعين عن الفرات، وذكرهما موسى أولاً كأنهما أصلان ولم يذكر الفرات إلا في المحل الرابع، وأنَّ سهول بابل يسمّيها الكتّاب شنعار لا عدن. وأخيراً إنَّ الإنسان الأول طُرِدَ ونسله من الفردوس الأرضيّ وحُرِّم عليه الدخول إليه، وسهول بابل استمرَّت دائماً معمورة مأهولة من أقدم الأيام إلى نهاية مملكة الفرس. وصرَّح فيكورو أنه يرى الأقرب إلى الصدق مذهب القائلين بأنَّ الفردوس كان في جهة أرمينيا، ولم يورد أدلَّته في كتابه المُسمَّى الكتاب والاكتشافات الحديثة بل في كتابه الآخر الموسوم بالوجيز الكتابي[2]، وهوذا ملخَّص ما قاله في هذا الكتاب عد ٤٨٧ إنَّ الطوفان والإنقلابات العديدة التي شوَّهت وجه بعض الأرضين يحتمل أن تكون بدَّلت هيئة المكان الذي كان فيه الفردوس الأرضيّ فجعلت، المبحث مشكلاً يتعسَّر حلّه. على أنَّ القول الذي يظهر أقرب إلى الحقّ إنما هو قول مَنْ جعلوا الفردوس في أرمينيا في تلك الهضاب التي ما برحت من أخصب الأرضين في المعمور. وأخصّ مَنْ بثَّ هذا المذهب ودافع عن صحته كلمت (في مقالته في الفردوس وفي معجم الكتاب). ويؤيده أنَّ الفرات ودجلة منبعهما في هذه الديار. ومصدر دجلة على بعد نحو من ساعة عن الفرات في الشمال من ديار بكر. وأما فيشون فهو إما النهر الذي سمّاه القدماء فاش أو فاس. ويحتمل أن يكون النهر المُسمَّى الآن ريون، ويجري من الشرق إلى الغرب، ويصبّ في البحر الأسود. وأما نهر كور الذي سمّاه القدماء كورش، ومنبعه في نواحي الفرس غير بعيد عن المنبع الغربي للفرات، ويصبّ في بحر الخزر المُسمَّى بحر قزوين أيضاً بعد أن تختلط

---

(١) ملخص عن الكتاب والاكتشافات الحديثة للأب فيكورو مجلد ١ صفحة ٢١٤ إلى ٢١٨ طبعة ٤ .

(٢) Manuel Biblique.

مياهه بمياه نهر أركس الآتي ذكره. وحويلة التي يسقيها فيشون هي اقليم كولشيد الواقع بين جبل قاف شمالاً والبحر الأسود غرباً والمشهور بالمعادن الثمينة، كما في الكتاب. وأما جيحون فهو النهر المُسمَّى الآن الرس وكان القدماء يسمّونه أرَكْس ويسمّيه العرب جيشون أو جيحون الرس، والفرس جيون، ومنبعه في جوار المنبع الغربي للفرات، ويصبّ مع نهر كور في بحر الخزر، وأرض كوش التي يحيط بها على ما في الكتاب هي بلاد الكوسيين أو الكوشيين Roscéns الواقعة بين بلاد فارس جنوباً وجبل قاف شمالاً. وفي وسط هذه البلاد بحيرة تُسمَّى إلى اليوم كوتشا؛ فهذا ما قاله الأب فيكورو في الوجيز الكتابي، وهو أشبه بما رواه كلمت في معجم الكتاب في كلمة فردوس.

وليس لمثلنا أن يرجِّح أو يضعف أقوال مثل هؤلاء العلماء الأعلام، لاسيما لقصر يدنا عن الكتب اللازمة مطالعتها في هذه المسائل الغامضة، لكننا على مزيد إجلالنا للأب فيكورو واعترافنا بطول باعه، وكثرة مطالعاته، نرى تنديده بقول مَنْ زعموا أنَّ الفردوس كان في نواحي بابل قاصراً وغير سديد، لاسيما أنَّ برهانه الأخير بأنَّ سهول بابل استمرَّت معمورة يمكن عكسه على القول الذي رآه أشبه بالحق بأن يقال بأنَّ الإنسان خسر المحل الأوَّل وحُظِّر عليه وعلى نسله الدخول إليه، والحال أنَّ أرمينيا استمرَّت دائماً معمورة، فلا تصلح أن تكون هذا المحل الأوَّل. وليس من غرضنا أن نرجِّح القول الأوَّل على الثاني بل إننا أيضاً نراه محتملاً.

عد ١٤

تقليدات القبائل في شأن الفردوس الأرضي

حفظت أكثر قبائل المعمور ذكر الفردوس الأرضيّ، وأقوى شاهد لذلك ادِّعاء كل منها أنَّ هذا الفردوس كان في أرضها كما رأيت في العدد السابق. وقد مرَّ بك ذكر الحديقة المقدَّسة التي كان يجعلها الكلدان القدماء في اريدو ويترنَّمون بوصف جمالها. وجعل كثيرون مهد البشريّة على الجبال الشامخة في آسيا الوسطى بجانب ينابيع الأنهر الكبرى. فزعم الهنود أنَّ الأربعة أو الخمسة الأنهر الكبرى كانت تجري من شمال الجبل المقدَّس وهو حملايا (أو هملايا) وتسقي

جهات العالم الأربع رواه لوكان في كتابه في تقليدات البشر[1] مجلد ١ صفحة ٩٨. واعتقد الإيرانيون القدماء أنَّ في أعلى جبال بلادهم ينبوع تجري منه أمواه محيية منحدرة من السماء، فتصدر الخصب في الأرض كلها، رواه لوكان أيضاً في المحل المارّ ذكره. ووصف الصينيون المحل الذي كان مهداً للبشرية بأنه جبل في وسط سهل خصب في آسيا الوسطى. وفي هذا الجبل جنة يهبّ فيها أبداً النسيم العذب. وموقع هذه الجنة عند أبواب السماء المغلقة، والأمواه الجارية فيها غزيرة وصفراء ومصدرها يُسمَّى منبع عدم الميتوتة، ومن شرب منه لا يموت، ويتفرع إلى أربعة أنهر، تجري نحو الجهات الأربع. روى هذا أيضاً المؤلف المذكور، وأطال في تعداد هذه التقاليد، وأسهب الأب داراس[2] في تاريخه البيعيّ (مجلد ١ صفحة ١٤٤) بإيراد تقليدات الصينيين والهنود، واليونان والفرس، واليابونيين والمنغول، وقدماء المكسيك في شأن الفردوس الأرضيّ. ونكتفي بهذا الإجمال حبّاً بالإيجاز وتفادياً من ملل المطالع.

---

(١) H. Luken Traditions de L'humanité.

(٢) L'abblé Darras, Histoire Eccelésiastique.

الفصل الخامس

شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر والحية ومعصية الإنسان

إننا نثبت أولاً ما جاء في الكتاب في هذا الأمر، ونتبعه ببيان المراد به بموجب التعليم الكاثوليكي، ثم نؤيّده بذكر تقليد القبائل القديمة وآثارها.

عد ١٥

شجرة معرفة الخير والشر وشجرة الحياة

جاء في سفر التكوين (ف ٢ و٣) «وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة حسنة المنظر وطيبة المأكل، وشجرة الحياة في الجنة وشجرة معرفة الخير والشر... وأمر الرب الإله الإنسان قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، فإنك يوم تأكل منها موتاً تموت...» وكانت الحية أحيَل جميع حيوان البرية فقالت للمرأة: أيقيناً قال الله: لا تأكلا من جميع شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه كيلا تموتا! فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا إنما الله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتصيران كآلهة عارفين الخير والشر. ورأت المرأة أنَّ الشجرة طيّبة للمأكل وشهيّة للعيون، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت بعلها أيضاً منها فأكل، فانفتحت أعينهما فعلما أنهما عريانان، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما مئزراً. ثم يقول: إنَّ الربَّ ظهر لآدم فوبَّخه على صنيعه. فاعتذر بأنَّ امرأته أعطته فأكل من ثمر الشجرة. واعتذرت المرأة بمكر الحيّة بها. فقضى الربُّ عليهما وعلى نسلهما بالموت، وبمشقة العمل لتحصيل معاشهم، وعلى المرأة بمقاساة مشاقّ الحبل والولادة، وعلى الحيّة بأكل التراب والسلوك على صدرها.

وصنع الربّ لآدم وامرأته أقمصة من جلد وكساهما، وأخرجهما من جنة عدن ليحرث الأرض التي أخذ منها، وأقام شرقي جنة عدن الكروبين، وبريق سيف متقلّب لحراسة طريق شجرة الحياة. فهذا ما جاء في الكتاب.

ذهب مفسّرو الكتاب وآباء الكنيسة الكاثوليكية، أنَّ شجرة معرفة الخير والشرّ لم تُسمَّ كذلك لخاصة جوهريّة بها بل لوصيّة الله ونهيه عن الأكل منها. ولما كان لأكل ثمرها من النتيجة، ونجتزىء عن التطويل بما قاله القديس يوحنا فم الذهب في تفسيره سفر التكوين وهو: «يحقّ لكلٍّ أن يسأل قائلاً: أية قوة كانت في هذه الشجرة لتفتّح ثمارها عقل مَنْ يأكل منها؟! ولِمَ سُمِّيت شجرة معرفة الخير والشرّ؟... إنَّ أعين آدم وحواء لم تنفتح لأكلهما من ثمر هذه الشجرة فإنهما كانا قبلاً يبصران، بل لاقترافهما المعصية بأكلهما منه. فلما خالفا النهي الإلهيّ خسرا النور الذي كان يجلِّلهما إذ جعلا نفسيهما غير أهل له». وكذا أُجيب على السؤال الثاني وهو لِمَ سُمِّيت هذه الشجرة شجرة معرفة الخير والشرّ قائلاً: زعم بعض الحمقى أنَّ آدم لم يكن يميِّز بين الخير والشرّ إلا بعد أن أكل من الثمر المحظور أكله وتلك حماقة متناهية... فمَنْ يجسر أن يزعم أنَّ الإنسان لم يعرف الخير والشرّ إلا بعد أكله الثمر المنهيّ عنه، وهو قد كان من قبل مملوءاً من الحكمة (كما أثبت الكتاب)... فيقال: إنَّ الكتاب نفسه سمَّى الشجرة شجرة معرفة الخير والشرّ. أجل وما على هذا من نكير. ولكن كل مَنْ له شيء من إلمام بأساليب كلام الكتاب أدرك بأقلّ تكلُّف ما يُراد بهذا التعبير فلِمَ تُسمَّ الشجرة بهذا الاسم؟ لأنها أولت الإنسان معرفة الخير والشرّ؛ بل لأنها كانت وسيلة للمعصية فعرَّفت الإنسان بجريمته وبالعار الذي ألحقته به. فمن عادة الكتاب أن يتخذ لبعض الأشياء اسماً من بعض أحوالها، فسمَّى هذه الشجرة شجرة معرفة الخير والشرّ لأنها كانت مزمعة أن تكون وسيلة للخطيئة أو الفضيلة. «والحاصل أنها سُمِّيت بما آلت إليه لا بما كانت عليه».

وأما شجرة الحياة فهي شجرة أعدَّها الله في الفردوس لحفظ حياة آدم ونسله لو أطاع وصيته، بأن لا يأكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشر. وزعم قوم أنَّ شجرة الحياة هي شجرة المعرفة نفسها، مخرجين قول الكتاب: «شجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشرّ». بمعنى أنَّ في وسط الجنة شجرة الحياة أو شجرة معرفة الخير والشرّ، كأنَّ لهذه الشجرة اسمين وقالوا إنَّ حرف العطف في العبرانيّة

يتحمَّل معنى التقسيم والتفسير أيضاً. إلا إنَّ الأظهر والأطبق لنص الآية المذكورة وغيرها أنهما شجرتان؛ ولا وجه لجعل الله للأمرين شجرة واحدة. وزعم بعضهم أنَّ شجرة معرفة الخير والشرّ كانت من طائفة التفاح. واستدلّوا على ذلك بقول نشيد الانشاد (ف ٨ عد ٥): «لقد نبهتك تحت شجرة التفاح هناك وضعتك أمك». وفي بعض النسخ: «هناك فقدت أمك بارارتها» والصحيح أنه لا يمكن القطع بنوعه.

ومهما يكن من هذه المباحث فإنَّ الله نهى آدم وحوا عن الأكل من ثمر هذه الشجرة اختباراً لطاعتهما، وليعلما أنه ربهما وخالقهما، وأنَّ العالم لم يوجد من نفسه بل هو خالقه ومدبّره، فيلزمهما الإذعان لأمره خاصة لأنه سلّطهما على كل ما في العالم. ولا يبتغي منهما بدلاً من ذلك إلا الخضوع له والاقرار بإحسانه. فمثله مثل مالك كريم، سلَّط رجلاً على ملكه ولم يطلب منه بدلاً إلا ما يتبيَّن به أن الملك للمولى، وأنَّ المنتفع تحت إمرته، فحظَّر الله على آدم وحواء الأكل من ثمر شجرة واحدة تقريراً لسلطته، وهدَّدهما بأليم العقاب إن عصيا أمره[1]، وأطلق لهما حرية العمل ان ينقادا طائعين، أو يعصيا متكبّرَين ليكون لهما وسيلة للاستحقاق. فالله صالح طبعاً لكنه بغامض حكمته لم يشأ أن يسعد أحداً أو أن يشقي أحداً دون سعي إرادته، ومجده ثابت في كل حال. فمَنْ سعد أو خلص مجّد رأفته. ومَنْ شقي أو هلك هلك بإثمه ومجَّد به عدله. ثم إنَّ بعض المواهب التي أتيها الإنسان كانت تفوق طبعه؛ فهو لتركُّبه من عناصر ماديّة كان متعرِّضاً طبعاً للإنحلال والموت والأمراض، فعصمته من ذلك لو لزم الطاعة لم تكن من خواصّ طبعه بل تفوقه. وكذا الوحم والوصب والطلق في ولادة المرأة تلازم طبعها وعصمتها منها تفوقه. فكانت العصمة إذاً من الموت والأمراض والأوجاع هبة مجانيّة من فضل الله لا يقتضيها طبع الإنسان. وكانت تركة سعيدة يشترك بها أبناؤه لو احتفظ الأب عليها، فلما زلَّ وعصا أمر الله، خسر المواهب المجانيّة الممنوحة له كرماً بشرط طاعته، وأضاع ما كان مزمعاً أن يبقى ملكاً لبنيه، فصرنا نولد جميعاً بعد ضياع هذا الإرث أو الملك ولا حقّ لنا به، لأنَّ والدنا أضاعه قبل ولادتنا. فهذا أحسن أسلوب لبيان الخطيئة الأصلية واتصالها بنا. ورأى بعض الآباء أنَّ النوع البشريَّ لم يخسر بآدم المواهب الفائقة طبعه فقط بل

(١) ملخص عن كلام فم الذهب في خطبته ١٦ في سفر التكوين.

جرح أيضاً بالمواهب الطبيعية، وكلها آلاء كرم الله يوليها مَنْ شاء وكيف شاء.

عد ١٦

الحية

زعم أوريجانوس وغيره من علماء مدرسة الإسكندرية أنَّ كلام الكتاب في إغواء الحيّة لحواء مجازيّ، يُراد به أنَّ إبليس أغرى امرأة أن تأكل من الثمر وتطعم زوجها بإنشائه في عقلها وإرادتها الرغبة في أكل الثمر المحظور لا بكلام الحيّة إحدى العجماوات.

وقد جدَّد الكردينال كايتانوس هذا المذهب بقوله لم يكن هذا كلاماً شفاهيّاً بل أُريد به الإغواء الباطن، إذ جعل إبليس في مخيّلة المرأة هذا الفكر السيئ. وكذا يلزم أن تفهم هذه المحاورة كلّها بين الحيّة والمرأة، وقد نزل عقاب الحيّة منزلة تاريخ. وليس من الحكمة أن يُفهم بحسب حروفه. فهذه معانٍ مجازيّة لا تُحسب كالأقاصيص بل تجلّ كأسرار، وتنطوي مجازاً على ما يختصّ بالإيمان (ملخص عن مجلد ١ من تآليفه صفحة ٢٥). على أنَّ الكنيسة لم تنهَ عن القول بمذهب هؤلاء كأنه مخالف لعقائد الدين. ولكن أبى سائر الآباء واللاهوتيون إلا المخالفة له. وما أحسن ما قاله بوصوا في هذا الشأن (في خطبة على الأسرار)[١]. لنا أن نقول إنَّ ظاهر كل شيء هنا يدلّ على مجاز. فحيّة عجماء تتكلّم، وامرأة تسمع لها، ورجل مستنير كامل يغترُّ بتجربة غير شديدة. والنوع البشريّ برمّته يقع معه في وهدة الإثم ويستحوذ عليه الموت. ذلك كله يظهر غريباً ولكن تزول الغرابة إذا نظرنا إلى الحيّة، ليس من حيث هي حيوان غير ناطق، بل من حيث هي آلة لدهاء إبليس الذي دخل بسماح الله في جسم هذا الحيوان. وأية غرابة في ذلك والله نفسه كان يظهر للإنسان بهيئة محسوسة... فالإنسان مؤلّف من جسد ونفس فلله أن يجعله يعرفه بكليهما؛ بالروح والحس. وكذا كان الملائكة يتراءون للناس بهيئة يريدها الله. فلم تنذهل إذاً حواء عند سماعها الحيّة تكلّمها، كما لم تنذهل عند رؤيتها الله يظهر لهما بهيئة محسوسة. «ومما ينبّه إليه أنَّ نصَّ الكتاب لم يقل حيّة بالنكرة بل الحيّة بالتعريف، فذاك دليل على أنَّ الكلام ليس في حيّة كسائر الحيّات، بل في حيّة

(١) Bossuet, Elévation Sur Les Mystères.

مخصوصة يُراد بها إبليس لاتخاذه إياها آلة للمكر. ولو لم يكن للحيّة مدخل في إغواء حواء لما نسب هذا المكر إليها، إذ لم تكن الحيّة في عرف الأقدمين ولا في عرف المتأخرين مثالاً للدهاء بل للحكمة أو غير الدهاء من المعاني.

عد ١٧

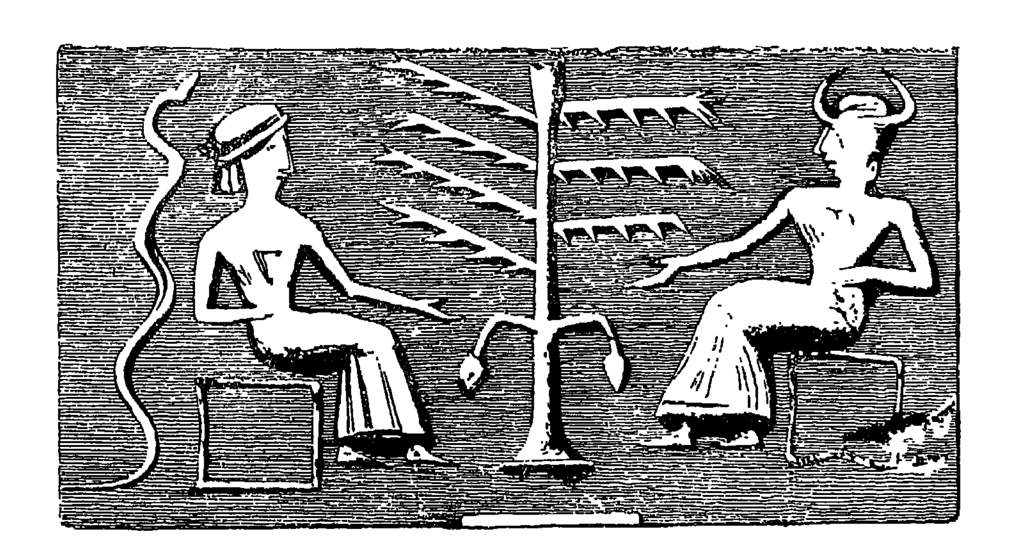
آثار القبائل القديمة الدالّة على ما في الكتاب بهذا الباب

إننا نجد عند أكثر القبائل آثاراً تنبئنا باعتقادهم شجرة حياة وشجرة معرفة الخير والشرّ، ومعصية الإنسان الأول ونسبتها إلى الحية – وإن كنّا لم نجد حتى الآن أثراً مكتوباً للكلدان مشعراً بما كان معتقدهم بهذه الأمور. فقد وجدنا في آثارهم صوراً عديدة يتبيَّن منها اعتقادهم ذلك، ولا يمكن تأويل مغزى تلك الصّور ورمزها إلى غير ما كتبه موسى؛ ومنها صورة الشجرة المقدَّسة الآشورية الكلدانية التي وجدت على قصر في نمرود، حيث تُرى صورة شجرة وعلى جانبيها ملكان أو كاهنان



الشجرة المقدّسة عند الآشوريين والكلدان نقلاً عن صورة في القصر الكائن في الشمال الغربي من نمرود

بملابسهما الحبريّة، دلالة على إجلال الشجرة ومن فوقها دائرة ذات أجنحة كانت في عرفهم كناية عن الإله السامي (انظر في مثالها صورة عد ٣). وقد اكتشفت في هذا القصر صورة أخرى هي الآن في المتحف البريطاني، ترى على جانبيها ملاكين مجنَّحين جاثيين إجلالاً لهذه الشجرة، يمدّ كلٌّ منهما يده بكل وقار نحو ثمرة منها ليجنيها أو ليذبَّ عنها ويحرسها. وأكثر بياناً مما مرَّ الصورة التي نقلها العالِم فالكس لاجار[1] (في كتابه المعنون الأبحاث في عبادة ميترا). ثم إنَّ العالِم سميث (في كتابه آثار الكلدان عن التكوين) اكتشف[2] عن أثر بابليّ حيث ترى شجرة عن جانبيها رجل وامرأة يمدّ كل منهما يده إلى ثمرتين فيها. ومن وراء المرأة حيّة منتصبة إلى رأس المرأة كأنها تلقّنها شيئاً. وهذه الصّورة الآن في المتحف البريطاني. ومَنْ رآها قضى بأنها تمثّل - ولا جرم - ما رواه موسى في وسوسة الحيّة لحواء وأكلها مع آدم من شجرة معرفة الخير والشرّ.



صورة وجدت في بابل تمثل بلا مراء وسوسة الحية لحوا
وأكلها من الثمر المحظور وإطعامها آدم صفحة ٤٨.

(١) Felix Lajard Recherches Sur Le Culte de Mithra

(٢) .Smith Chaldaean of Genesis. P. 91

إنَّ الأريانيين[1] (وهم سكان كل البلاد الواقعة بين فارس والهند) كان التقليد العام عندهم قبل انقسامهم إلى إيرانيين وهنود، أنَّ الإنسان الأول كان اسمه عند سكان إيران (ايما) وعند الهنود (ياما). والفريقان يقولان إنه ابن السما لا ابن الإنسان. وها هوذا ما كتب في الكتاب الذي يسمّونه ماسكيا ومسكيانا: «كان الإنسان كان أبو العالم كانت السماء معدَّة له بحيث أن يكون متواضع القلب، ويعمل بحسب الشريعة متذلّلاً، وبشرط أن يكون بارّاً في أفكاره صادقاً في كلامه، مستقيماً في أعماله، وأن لا يلجأ إلى الديوا (ابليس ولعلّ الأصل من ܕܝܘܐ الأرامية بمعنى ابليس). وكان مفروضاً على الرجل والمرأة في هذه الحال أن يسعى كلٌّ منهما بالحظ للآخر». وكذا كانت بداية بدء أفكارهما وأعمالهما... وقالا أولاً: إنَّ اهورمزدا أوجد الماء والأرض والأشجار والبهائم والكواكب والقمر والشمس. وكل خير يصدر عن أصل طاهر وثمرة صالحة، ثم غلب الكذب على ذهنهما، فغيَّر استعدادهما وجعلهما يقولان إنَّ انكرمانيوس (إله الشر) إنما هو الذي أوجد الماء والأرض والأشجار والحيوانات وكلّ ما مرَّ ذكره، فخادعهما منذ البداية بما يتعلَّق بإبليس. وما انفكَّ هذا القاسي يمكر بهما حتى النهاية، فصار كلاهما لتصديقهما هذا الكذب أشبه بالشياطين، وتستمرّ أنفسهما في الجحيم إلى انبعاث الأجسام، وأكلا (ثماراً) مدة ثلاثين يوماً، واتَّشحا مطارف سوداء، وذهبا بعد ذلك يصطادان فوجدا عنزاً بيضاء، فامتصَّا الحليب من ضرعها، فطاب لهما كثيراً فازداد الديوا (ابليس) الكذّاب جسارة، فقدَّم لهما مرة ثانية ثماراً فأكلاها. فلم يبقَ لهما إلا منفعة واحدة من مائة منفعة كانت لهما... وظهر لهما بعد مدة خروف وأرشدتهما الآلهة السماويون إلى إيجاد النار باحتكاك الأخشاب. فأضرما ناراً وشويا الخروف وأكلا اللحم واكتسيا بالجلود».

فتأمل كيف تشفّ هذه الرواية عما ورد في سفر التكوين عن حالة البرارة التي أبدع الله بها آدم وحواء وعمّا أمرهما به، وعن إغواء إبليس وخسارة ما كان لهما من المواهب، وعن اقتيات الإنسان أولاً بالثمار، وعدم اغتذائه باللحم أولاً وعن اكتسائه بجلد البهيم. روى ذلك لانرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلد ١ صفحة ٣١ و ٣٢ طبعة ٩).

---

(١) Aryas.

وقد روى لانرمان أيضاً (صفحة ٣٤) أنَّ آثار الإيرانيين أنبأتنا بوجود رسم شجرة الحياة عندهم. وترى في آثارهم تارة شجرة واحدة منبتها في وسط المنبع المقدَّس الذي يسمّونه اردويسورا، وتارة شجزتين (أي شجرة الحياة وشجرة المعرفة) طبق ما جاء في الكتاب عن شجرتي الفردوس. وترى في آثار الهنود أيضاً رسم شجرة الفردوس مسمّاة (هاوما) أي شجرة الحياة. وفي بعض آثارهم صورة أربع شجرات، منبتها على أربعة جوانب جبل مارو المقدَّس. وأقدم اسم لبابل في لغة أقدم سكانها هو «تين تيركي» تأويله مكان شجرة الحياة. وعن الأب فيكورو (في كتابه المعنون الكتاب والاكتشافات مجلد ١ صفحة ٢٢٨ طبعة ٤): أنَّ الفرس كانوا ينقشون على فصوص خواتمهم صورة الشجرة المقدَّسة البابلية مع أنه لا يعرف لها مثال في النبات، واستمروا على ذلك من عهد الملوك الكينين (المارّ ذكرهم أي منذ القرن الثامن قبل الميلاد) إلى عهد ملوك الدولة الساسانية.

وقد وجد العالِم شسنولا في أحد المدافن القديمة في دالين (هي ايداليون القديمة) في وسط جزيرة قبرس وعاءً من صنع الفينيقيين في القرن السابع أو السادس قبل الميلاد، وقد رسمت عليها صورة شجرة في أسفل جانبيها شبه عنقودين، وحيّة كبيرة تدنو من الثمرة مادّةً عنقها لتقتطف من الثمر. وهذا الوعاء محفوظ في متحف الصنائع في نيويورك. وقد علَّق لانرمان صورته على كتابه المذكور صفحة ٣٧؛ وهذا يدلّ بلا امتراء على أنَّ الفينيقيين أيضاً كانوا يعتقدون شجرة الفردوس ووسوسة الحيّة لحواء. بل إنَّ رانان نفسه لم يتردَّد عن أن يسلّم بوجود هذا التقليد عند الفينيقيين، منقاداً إلى ذلك بما جاء في فقر سنكوياتون التي ترجمها إلى اليونانية فيلون الجبيليّ؛ وهو أنَّ الإنسان الأول وأيون التي يُراد بها حواء «اخترعت الاقتيات بثمار الشجر».

وقد وجد مثل هذه التقليدات عند السكانديناف (وهم قبيلة هاجرت من أقدم الأيام من آسيا وتوطَّنت أسوج ونروج في شمالي أوروبا). ففي كتاب معتقداتهم القديمة الذي ترجمته السيدة دي بوجا إلى الإفرنسية ونشر سنة ١٨٤٠م ما ملخَّصه: «إنَّ ايدهونا غير المائتة كانت تسكن مع براجي في اسكرد في وسط العالم في الفردوس محرزة كمال البرارة، فسلَّم إليها الآلهة حراسة ثمار عدم الميتوتة. على أنَّ لوكي المحتال علّة كلّ شرّ وممثّل المبدأ الشرّير خدعها بثمار أخرى

قال: إنه رآها في غابة وأغراها باتّباعه فتتبّعته لتجني منها، فخطفها جبّار، فلم تبقَ السعادة بعد ذلك في اسكرد». ومن البيِّن أنَّ هذه الرواية أيضاً تشفّ عما كتبه موسى في هذا الشأن وإن داخلها بعض التشوّش. (روى ذلك لانرمان في المحل المذكور صفحة ٣٢).

وكثيراً ما نرى في آثار مصر شجرة الحياة مصوَّرة على المدافن خاصة. فكأنَّ التقليد أنبأهم أنَّ شجرة الحياة حُظِّر الوصول إليها، فلا وسيلة لجني ثمرها في هذه الأرض بل في عالم آخر. ولا نشاهد هذه الشجرة السريّة مفصولة البتة عن مياه الحياة. ونشاهد في آثارهم أيضاً أنَّ الحيّة اباب تخاصم الإله رع (يُراد به الشمس) عند تنظيمه العالم، فيقتلها الإله هار أو هاروس. (وقد علَّق لانرمان في كتابه المذكور صفحة ٣٩) صورة هذا البطل أو الإله مأخوذة عن هيكل أرفو في مصر. فتراه وبيده رمح يسحق به رأس الحيّة . وهذا يشفّ عمّا جاء في الكتاب: «واجعل عداوة بينك (الضمير للحيّة) وبين المرأة ونسلك ونسلها فهو يسحق رأسك». ومن هذه الآثار أنَّ الملك الأرضيّ الذي افتتح به الإله (رع) وجود العالم والبشر، كان عصراً ذهبيّاً لم يكن للأسف والحسد فيه من أثر. وكان المصريون إذا أرادوا التعبير عن شيء لا مثيل له قالوا لم يكن له من مثيل من عهد الإله رع. ولا ريب أنَّ في هذا إشارة إلى ما قاله الكتاب في حال البرّ التي كان فيها آدم وحواء.

وأثبت لانرمان أيضاً (في صفحة ٣٦ من المجلد المذكور) صورة أخذت عن مدفن في متحف الكابيتول (الكمبيدوليو) في رومة رُسم فيها الإله بروماثه جالساً. وقد أقام بيده الشمال على ركبتيه صورة بشريّة، رسم هيكلها وبيمناه المنقاش ليرسم خطوطها، وبجانبه سلّة ملأى تراباً وصورة أخرى تامة. ومينرڤا الإلهة تضع على رأس الصورة التي بيد الإله طائراً ذا أربعة أجنحة رمزاً على الحياة. ويرى في طرف الصّورة الإنسان الأول والمرأة الأولى عريانيين بجانب شجرة يقتطف الرجل من ثمارها إلى غير ذلك من الرموز الدالّة على خلق الإنسان وتنفّسه واستحواذ الموت عليه، وتناوله من شجرة معرفة الخير والشرّ. ويقدَّر أنَّ هذه الصّورة نُقشت في القرن الأخير قبل التاريخ المسيحي.

الفصل السادس

الآباء الأولون قبل الطوفان

عد ١٨

قايين وهابيل

لم ينبئنا الكتاب كم كانت المدة التي أقام فيها آدم في الفردوس. وأوّل ما ذكره من أحداثه بعد طرده منه أنه عرف امرأته حواء، فحملت وولدت قايين وقالت رُزقت رجلاً من عند الرب. فمعنى كلمة قايين قنية وثمرة، وقد وردت في الكتابات القديمة في نينوى وبابل بمعنى مَنْ يقتني عبداً. وربما كانت منها كلمة قنّ بالعربية بمعنى الرقيق، أو كان بذلك أثر للّعنة التي استحقّها قاين لقتله أخيه. وعن ابن الأثير في الكامل: «إنّ أهل العلم مختلفون في اسم قابيل. فبعضهم يقول قين، وبعضهم يقول قائن، وبعضهم يقول قاين وبعضهم يقول قابيل».

ثم قال الكتاب: «عادت (حوا) فولدت أخاه هابيل». وفسّر الربّيون هابيل بمعنى البخار أو الهبلة بلغة العامة، وبمعنى الباطل والغمّ والحداد. وفي العربية هبلته أمه؛ بمعنى ثكلته. وتسوّلوا إلى ذلك بأنّ مقتل هابيل كان لذويه علّة الغمّ والحداد. على أنّ إطلاق هذا الاسم عليه كان قبل مقتله لا بعده. ومع هذا قال أهل العلم بهذا التفسير لعدم وجدانهم غيره. ومَنْ جعلوا معنى هابيل الباطل وجدوا له مسنداً في قول الجامع: «باطلة الأباطيل وكلّ شيء باطل». فالكلمة في العبرانية هابيل، وكأنه لقصر حياته زال كالبخار أو كالشيء الباطل.

على أنّ كثيراً من الآثار الآشورية أنبأنا أنّ كلمة هابيل ترد بمعنى ابن أو ولد من الفعل هَبَل وَلَدَ (ولعلّ أصل اللفظ حبل) فهابيل بمعنى المولود. قال بذلك اوبر

في كتابه الدروس الآشورية ص ٣٥ [١] وترى كلمة هابال أو أبال في مركب أعلام كثيرة أشورية مثل أشور بان هيبال أي ابن آشور. وكذا سرد أنابال. وقال العالم سيلام في كتابه بيان العهد القديم بالعلوم الأشورية صفحة ١٠ [٢]: «من البيّن أنَّ كلّ اللغات السامية إلا الأشورية أضاعت كلمة هبلو بمعنى ابن. فثبوت هذه الكلمة في تاريخ التكوين دالّ دلالة وضيحة على قدم هذا التاريخ». (ملخّص عن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو مجلد ١ صفحة ٢٤٠ إلى ٢٤١ طبعة ٤).

وكان هابيل على رعاية الماشية، وقايين على حراثة الأرض. ومنه تبيَّن أنَّ هاتين الصناعتين المتوقّف عليهما معاش الإنسان كانتا معاصرتين له من بدئه، وعمل بهما آدم كحكم الله عليه أن يأكل خبزه بعرق جبينه، وعنه أخذ أبناؤه. وقد أوعز آدم إلى ابنيه أن يقدِّما تقدمةً للرب. فقدَّم قايين من ثمار الأرض، وهابيل من أبكار غنمه وسمانها. فتقبَّل الرب تقدمة هابيل بإنزال نار سماويّة عليها كما في ترجمة تاودوسيون. وعليه أكثر الآباء والمفسّرون أو بعلامة أخرى ولم يتقبَّل تقدمة قايين، فشقَّ ذلك على قايين ونكده، وأضمر الغدر بأخيه، فاستدعاه إلى الصحراء ووثب عليه فقتله. فظهر له الرب مؤنِّباً قاضياً عليه بأن يكون طريداً شرّيراً لا تعطيه الأرض غلَّتها. فأدرك جريمته وارتاع قائلاً خطيئتي أعظم من أن تغفر. وتوهَّم أنَّ كلّ مَنْ وجده يقتله. فقال له الرب: مَنْ قتل قايين فسبعة أضعاف يُقاد به ليثبت الانتقام له وينهي غيره عنه، وجعل الله فيه علامة كيلا يقتله كلّ مَنْ وجده. وقد أجمع المفسّرون على أنه لا بدَّ أن كان لقايين آثام سابقة اقتضت رذل الله تقدمته. وعلى أنَّ ما حمله على قتل أخيه إنما هو حسده له لإيثار الله له عليه. لكنهم لم يجمعوا على الذريعة التي توسَّل بها لقتله. فلأهل العلم بذلك تخمينات لا يمكن إبلاغها درجة من التوكيد العلميّ لعدم المسند لها. منها قول أبي الفدا في تاريخه: «وقيل بل كان لقابيل أخت توأمة وكانت أحسن من توأمة هابيل. وأراد آدم أن يزوِّج توأمة قابيل بهابيل وتوأمة هابيل بقابيل. فلم يطب لقابيل ذلك فقتل أخاه هابيل وأخذ توأمته». وكذا ورد في الكامل لابن الأثير وفي غيره من كتب العرب. وعنها أخذ سعيد ابن بطريق البطريرك الإسكندري هذه القصة في تاريخه العربي. وذكرها

(١) Oppert Etudes Assyriennes.

(٢) Sillem Das Alte Testament Im. Lichte Der Assyrischeen Forschungen.

أيضاً ابن العبري في تاريخ الدول عن مثوديوس، وسمّى توأمة قاين قليميا، وتوأمة هابيل ليوذا. بل روى ابن الأثير أنَّ هذا الخصام بين ابنَي آدم كان قبل تقدمتهما. فقال آدم لقاين يا بنيّ لا تحلّ لك توأمتك. فأبى أن يقبل كلامه. فقال له أبوه: قرِّب قرباناً ويقرِّب أخوك هابيل قرباناً. فأيكما قبل الله قربانه فهو أحقّ بها. فقرّبا القربان فكان ما رأيت وفرَّ قاين بتوأمته.

قال القديس ايرونيموس (في تفسيره فصل ٢٧ من نبوّة حزقيال) إنَّ من تقليدات العبرانيين أنَّ مقتل هابيل كان في صحارى دمشق، وينسب مدفن هناك إلى هابيل ولكن هذا لا وسيلة لإثباته. وذهب بعض الآباء أنَّ هابيل لم يتزوَّج. وفي التاريخ الإسكندريّ أنه قتل قبل زواجه. وقال غيرهم بل تزوَّج فلم يعقب. ومهما يكن فموسى لم يذكر له عقباً. ويرجِّح هذا قول حواء بعد ولادة شيت: «أقام الله لي نسلاً آخر بدل هابيل» (تكوين ف ٤ عد ٢٥). فيتلخَّص منه أنه لم يكن لهابيل نسل. على أنَّ فم الذهب وغيره من الآباء أثبتوا زواجه بقولهم إنَّ الضرورة دعت أن يتزوَّج بأخته. وفسَّر بعضهم قول الكتاب إنَّ دمه ينادي أو يصرخ من الأرض بمعنى أنَّ ذريَّته تطلب الانتقام من قاتله والله أعلم.

أما قاين فأقام بعد مقتل أخيه في أرض سمّاها الكتاب أرض نود. ووصفها بأنها شرقي عدن فيتعلَّق تعيّنها بتعيين عدن. وقد رأيت ما في ذلك من الخلاف. وأما العلامة التي جعلها الله له كيلا يقتله كلّ مَنْ وجده ففيها أقوال. والذي قال به أكثر الآباء إنَّ هذه العلامة كانت ارتجافاً في كل أعضائه نشأ عن مناخس ضميره وارتياعه من جنايته. وقال بعض علماء هذا العصر إنَّ العلامة كانت اسوداد جسمانه وجعلوه أصل السودان. وجنح لانرمان نفسه إلى شيء من هذا المذهب كما سترى في كلامنا على الطوفان. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك١ ف ٣) أنَّ قايين ازداد شرّاً على شرّ وعكف على السلب والنهب، وأدخل الخداع والمكر في العالم. ولم يذكر مسنداً لقوله، وليس في الكتاب إشارة إليه. وأما في شأن موته فيقال إنَّ لامك أحد أحفاده قتله اتفاقاً ظانّاً إيّاه وحشاً، وأنه عرف بعد خطإه فقال لامرأتيه: عادة وصلَّة ما جاء في سفر التكوين (ف ٤ عد ٢٣): «إني قتلت رجلاً لجرحي وفتىً لشدخي. إنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف، وأما للامك فسبعة وسبعين. وقال بعضهم بل قتل نفسه أو مات تحت ردم بيت سقط عليه. (معجم الكتاب

لكلمت في كلمة قاين). ولا يُعلم كم كانت سنوّه. فقال بعضهم ثماني مائة سنة، وغيرهم نحواً من سبعماية، وآخرون إنها ستماية وثماني وثمانون سنة. والله أعلم.

قد عثر بعض الجوّالين في هذا العصر على آثار وتقليدات عند أمم بربرية مؤذنة بأنَّ مصدرها قتل قايين هابيل أخاه. منها ما رواه هومبولد (المجلد ١ من كتابه في منظر جبال كورديلار في أمريكا)[١] عن أثر في المكسيك يمثّل امرأة تخاطبها حيّة وعلى جانبهما رجلان يعتدي أحدهما على الآخر. وقال هذا العالم في ذلك: إنَّ هذه الصورة مثال للمرأة مع الحيّة، وهي في عرف أهل المكسيك أم النوع البشري. ومن تقليداتهم أنها ولدت رجلين توأمين. فصورة رجلين عريانين بجانبها يعارك أحدهما الآخر تذكّرنا بقايين وهابيل. وروى العالم دومون دورفيل (في كتاب سفره في استرولاب السفينة التي سافر فيها)[٢]: أنَّ أخصَّ معبودات أهل زولاندا إلهان أخوان قتل أكبرهما أصغرهما وأكله. وأنه وجد في جزيرة تونكا (من جزر الأوقيانوس) تقليداً بأنَّ أحد آلهتهم كان له ابنان أصغرهما مجمّل بالحكمة، وقد اخترع كثيراً من الصنائع والمعارف. وأما الأكبر فكان مكسالاً لعّاباً يعدو إلى هنا أو هناك أو ينام ويذري بأعمال أخيه إلى أن صادفه يوماً في الصحراء فقتله. فانحدر إليه أبوه محتدماً فسأله لِمَ قتلت أخاك؟ أما كان لك أن تعمل كأعماله؟ قبّح الله صنعك. (عن معجم الكتاب لكلمت في كلمة قاين).

عد ١٩

شيت

جاء في سفر التكوين (ف ٤ عد ٢٥): «وعرف آدم امرأته أيضاً فولدت ابناً وسمّته شيناً». وقال بعيده إنّ مولد شيت كان لسنة ١٣٠ لآدم، وفي الترجمة السبعينيّة لسنة ٢٣٠ له. وقد ضبط أبو الفدا كلمة شيت بالثاء المثلّثة وكذا في الكامل لابن الأثير وفي تاريخ ابن خلدون، وفسّر ابو الفدا الكلمة بمعنى هبة الله. والأظهر تفسير لانرمان لها (في مجلد ١ من تاريخه ص ٤٣) بمعنى أساس

(١) De Humboldt, Vue Des Cordillieres to 1.

(٢) Dumont d'Urville Voyage, de l'Astrolabe an 1832 tom lv par 1.

وأصل فهي تقرب من كلمة ܫܬܐܣܬܐ (الأساس والأصل) في اللغة السريانيّة أخت العبرانيّة إن لم نقل بنتها أو أمّها. وشيت كان أصلاً لجميع بني آدم الذين ذكرهم الكتاب إلا ذريّة قايين. وقد سمّى سفر التكوين (في ف ٦ عد ٢) ذريَّته ابناء الله لعملهم بسنّة الله، وسمّى ذريَّة قايين بنات الناس لانحرافهم عن جادة الحق والبر وعكوفهم على الشهوات والمعاصي.

وولد آدم وحوّاء بعد مولد شيت بنين وبنات آخرين ذكر الكتاب إجمالهم، ولم يُصرّح بأسمائهم ولا تعدادهم إذ قال: «وغاش آدم بعد ما ولد شيتاً ثماني مئة سنة، ولد فيها بنين وبنات. فكانت كلّ أيّام آدم التي عاشها تسعماية سنة وثلاثين سنة ومات» (تك ف ٥ عد ٤ و ٥). وكان ولد قبل شيت بنات زوّجهنَّ باخوتهنَّ بسماح الله وحكم الضرورة، وتزوّج شيت أيضاً بأخت له سمّاها القديس أيبفانيوس (في أرطقة ٣٩) أوريا، فولد له وعمره ماية وخمس سنين ابنه أنوش. وفي كتب المؤرّخين العرب ومنهم أبو الفدا في التاريخ «تقول الصابية إنه ولد لشيت ابن آخر اسمه صابي ابن شيت وإليه تُنسب الصابية» وعاش شيت بعدما ولد أنوش ثماني ماية وسبع سنين ولد فيها بنين وبنات؛ فكانت أيّام شيت تسع مئة سنة واثنتي عشرة سنة ومات» (تك ف ٥ عد ٧ و ٨).

عد ٢٠

ذريّة قاين

أما ذريّة قايين فقال فيها الكتاب (تك ف ٤ عد ١٧): «وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت أخنوخ، ثم بنى قرية فسمّاها باسم ابنه أخنوخ» وسمّاه ابن الأثير في الكامل حنوخ بالحاء المهملة. وسترى أنّ أحد أعقاب شيت يُسمّى بهذا الاسم أيضاً. وأما القرية أو المدينة التي بناها وسمّاها باسم ابنه أخنوخ أو حنوخيه فلا يعرف موقعها، فيتيقّن أن يكون في شرقي عدن حيث أقام قايين كما قال الكتاب. غير أنّ شرقي عدن بل عدن نفسها غير مُتّفق على موقعها، وكلمة شرقي تتناول كثيراً من البلاد إلى الشرق، فلا تحقيق مع هذا. نروي ما قال بعضهم.

ذكر بتولمايس مدينة تُسمّى أحنوختا في سوسيانا وهي الآن خورستان الواقعة بين بلاد فارس شرقاً وبلاد آشور غرباً وخليج العجم جنوباً. وفي الكتاب المنسوب

لباروز، وعنه أخذ ادريكوميوس أنّ مدينة حنوخ كانت إلى الشرق من لبنان في نواحي دمشق. وعند غيرهم أنها كانت في بلاد العرب الحجريّة. والصحيح أنّ موقعها غير معروف كما مرّ.

ثم إنّ أخنوخ بن قاين ولد عيراد، ولا يعرف شيء من أخباره إلا اسمه. وعيراد ولد محويائيل وهذا ولد متوشائيل. وجعل ابن الأثير هؤلاء الثلاثة اخوة ابناء حنوخ خلافاً للتوراة، وسمّاهم غيرد ومحويل وأتوشيل. ومتوشائيل ولد لامك وشهره الكتاب بأنه اتخذ امرأتين معاً، ويُظن أنه أوّل من أدخل في العالم عادة الزواج بأكثر من امرأة واحدة. وكان اسم أولى امرأتيه عادة، واسم الثانية صلة، (وفي كلام ابن الأثير عدى وصلى بالقصر). فولد له من الأولى يابل ويوبل، ومن الثانية توبل قايين وبنتاً اسمها نعمه (تك ف ٤ عد ١٩ إلى عد ٢٣). وقال يوسيفوس (ك ١ من تاريخ اليهود ف ٢): إنه ولد للامك من امرأتيه ستة وسبعون ابناً، لكنّ الكتاب لم يذكر إلا ثلاثة بنين وبنتاً كما رأيت. وقال لامك ذات يوم لإمرأتيه: «اسمعا قولي وانصتا لكلامي إني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي، أنه ينتقم لقاين سبعة أضعاف، وأما للامك فسبعة وسبعين» (تك ف ٤ عد ٢٤)، وتقليد العبرانيّين ما قدّمناه أي إنّ لامك قتل قاين خطأً. وقال بعض المفسّرين بل قتل رجلاً آخر، فإنّ ذريّة قاين اعتادت مثل هذه الفظائع.

وقال الكتاب في يابل ابن لامك: إنه «أبو ساكنيّ الخيام ومتّخذي المواشي»؛ فكلمة أب في مثل هذا التعبير في الكتاب يُراد بها الأوّل أو البادىء بطريقة ما، فيكون المعنى أنّ يابل أوّل من اعتاد الارتحال والسكنى تحت الخيم، ورعاية المواشي كرحل أيّامنا. وأما يوبل فقال الكتاب فيه إنه (أبو كلّ عازف بالكنارة والمزمار) أي أنه أوّل من أدخل فن الضرب بالبونج والبنج والعزف بالكنارة والمزمار. وأما أخوهما لأبيهما توبل قايين فقال الكتاب: إنه «أوّل صقيل لجميع المصنوعات النحاسيّة والحديديّة»، أي أوّل من اخترع صنع الآنية والأدوات من النحاس والحديد. وقد أثبتت الاكتشافات الحديثة أنّ أوّل العمل في المعادن وما يُصنع منها كان في آسيا. وأثبتت المجلّة المعروفة بالكاثوليكيّة[1] التي تُطبع في لوفان (البلجيك) في أحد فصولها في آب سنة ١٨٧٨ (في صفحة ١٢٠ إلى صفحة ١٣٨) أنّ صناعة

(١) Revue Catholique de Louvin.

العمل في المعادن ابتدأها توبل قايين هذا (فيكورو في الموجز الكتابي عد ٢٩٣ ومعجم الكتاب لكلمت في الكلم المذكورة) ولم يذكر الكتاب غير هؤلاء من ذريّة قايين.

عد ٢١

ابناء شيت إلى نوح

قد مرّ أنّ شيتاً ولد أنوش وعمره ماية وخمس سنين، فكان مولد أنوش لسنة مائتين وخمس وثلاثين لآدم على ما في العبرانيّة، وقال الكتاب (تك ف ٤ عد ٢٦): «وحينئذ (أي في أيّام أنوش) أبتدي بالدعاء باسم الله». وفسّر كثيرون هذه الآية بمعنى أنّ أنوش وضع نظاماً لعبادة الله الخارجيّة، وللصلوة العامة إذ كان يجتمع بذويه فيسبّحون الله ويشكرونه. وذهب كثير من الربيين أنّ عبادة الأوثان ابتدأت في عهد أنوش فترجموا الآية: «وحينئذ أُبتدئ باحتقار اسم الله» أي شرع بعض الناس يُسمّي المخلوقات والأصنام آلهة. ويُمكن ترجمة الآية «وحينئذ أُبتدي بالتسمية باسم الله» ليكون المعنى أنّ الناس الصلّح طفقوا يُسمّون أنفسهم ابناء الله أو عبيد الله تمييزاً لهم عن الأشرار، فيكون هذا تمهيداً لما قاله موسى بعد ذلك (ف ٦ عد ٢): «لما رأى ابناء الله (أي نسل أنوش الصحيح المعتقد) بنات الناس» أي نسل قايين الأشرار. وعن بعض المؤرّخين العرب أنّ شيثاً جعل ابنه أنوش سيّداً متسلّطاً، وحبراً على الناس بعده وأنه أوّل من أقام المحاكم، وأوّل من أوصى بالصدقة. وعاش أنوش تسعين سنة إلى أن ولد قينان، وعاش بعد ما ولده ٨١٥ سنة، ولد فيها بنين وبنات فكان مجمل سنيه ٩٦٥. وفسّر لانرمان (مجلّد ١ صفحة ٤٣) اسم أنوش بمعنى إنسان.

فولد إذاً قينان لسنة ٣٢٥ لآدم ولم يُنبئنا الكتاب شيئاً من أخباره، إلا إنه ولد مهلائيل لسبعين سنة من عمره، وإنه عاش بعدما ولده ٨٤٠ سنة ولد فيها بنين وبنات؛ وأنّ مجموع سنيه كان ٩١٠ سنين. وإذا أضفنا إلى سنيّ آدم المار ذكرها سبعين سنة عمر قينان حين ولادته وجدنا مهلائيل ولد سنة ٣٩٥ لآدم. وفسّر لانرمان (في المحلّ المذكور) كلمة قينان بمعنى خليقة (وأظنّ الأولى تفسيرها بقنية أو مقتنى) وكلمة مهلائيل بمعنى تسبحة الله. وعن ابن الأثير عن هاشم ابن الكلبي أنّ

مهلائيل أوّل من بنى البناء، واستخرج المعادن، وأمر أهل زمانه باتخاذ المساجد، وبنى مدينة بابل في العراق ومدينة السوس بخورستان. وهذا مما يورد ولا يُمكن إثباته إذ لا سبيل إلى اقامة البيّنة عليه.

وولد مهلائيل يارد لسنة ٦٥ من عمره وعاش بعدما ولده ٨٣٠ سنة ولد فيها بنين وبنات فكانت كلّ سنيه ٨٩٥ سنة، وإذا أضفنا ٦٥ سنة إلى سنيّ آدم السابقة وجدنا يارد وُلد سنة ٤٦٠ لآدم. ولم يُنبئنا الكتاب من أخبار يارد إلا إنه عاش ١٦٢ سنة إلى أن ولد أخنوخ (أو حنوخ) سنة ٦٢٢ لآدم وعاش يارد بعدما ولد أخنوخ ٨٠٠ سنة ولد فيها بنين وبنات ومات وله من العمر ٩٦٢ سنة وسمّاه المؤرّخون العرب يرد أيضاً وفسّر لانرمان اسمه بمعنى انحدار أو ذريّة.

وأخنوخ هو الذي يُسمّيه المؤرّخون العرب ادريس، وقد جاء في التوراة أنّ أخنوخ ولد متوشالح لسنة ٦٥ من عمره، وأنه سلك مع الله بعدما ولده ثلاثماية سنة ولد فيها بنين وبنات وأنّ كلّ أيّامه كانت ٣٦٥ سنة ولم يوجد بعد لأنّ الله أخذه (تك ف ٥ عد ٢٤). وفهم بعض المفسّرين الآية الأخيرة بمعنى أنّ أخنوخ مات موتاً طبيعيّاً، لكنه لم يُدرك سنيّ سائر الآباء الأوّلين إذ عاش أقلّ من جميعهم ٣٦٥ سنة. فكأنّ الله أراد أن يقيه الفساد فأماته قبل الوقت المعتاد في تلك الأيّام. إلا إنّ أكثر الآباء والمفسّرين على أنه لم يمت بل حجبه الله عن مرأى الناس كما فعل بإيليّا بعده، ويُؤيّد هذا القول بولس الرسول: «وبالإيمان نقل أخنوخ لكي لا يرى الموت، ولم يوجد بعد لأنّ الله نقله، إذ قبل نقله شهد له بأنه أرضى الله» (عبرانيّة ف ١١ عد ٥). وقال فيه ابن سيراخ (ف ٤٤ عد ١٦): «أخنوخ أرضى الله فنقل» وزادت النسخة اللاتينيّة العاميّة «إلى الفردوس» أي الأرضيّ، ولا وُجود لكلمة الفردوس في اليونانيّة. وفهم القديس إيرونيموس بذلك أنه نقل إلى السماء، وكذا يعتقد المؤرّخون المسلمون العرب. فقد جاء في تاريخ أبي الفدا «وأما حنوخ وهو ادريس فإنه رُفع لما صار له من العمر ثلاثماية وخمس وستّون سنة رفعه الله إلى السماء».

ويعزى إلى أخنوخ سفر لم تثبته الكنيسة الكاثوليكيّة بين الأسفار المقدّسة، على أنّ القديس يهوذا الرسول قال في رسالته (عد ١٤): «وقد تنبأ على هؤلاء (الأئمّة) أيضاً أخنوخ سابع آدم (أي السابع بعده) حيث قال: هوّذا يأتي الرب في ربوات

قديسيه ليجري القضاء على جميعهم، ويحج جميع المنافقين منهم على كلّ أعمال نفاقهم التي نافقوا بها». فكان هذا للمفسّرين معضلة يعسر الإهتداء لوجهها. أخذ الرسول هذه الآية عن كتاب لأخنوخ كان في صدر النصرانيّة أم عَلمَ ذلك بتقليد أو وحي خاص؟ والأظهر أنّ الرسول قرأ هذه الفقرة في سفر أخنوخ أو في كتاب اشتمل عليها، وهو لاستنارته بالإلهام الإلهي استشهد بها بما أنها حقيقة وإن لم يكن السفر برمته قانونيّاً. على أنّ المشاهير الآباء لم يعتبروا من هذا السفر منزلاً إلا هذه الفقرة لإثبات يهوذا الرسول لها في رسالته المعدودة من الأسفار الموحاة. وفسّر لانرمان (في المحلّ المذكور) كلمة أخنوخ بمعنى المبتدي.

وأما متوشالح بن أخنوخ فكان مولده سنة ٦٨٧ لآدم، ونبأنا الكتاب أنه عاش ١٨٧ سنة إلى أن ولد لامك. وعاش بعد ولادته ٧٨٢ سنة ولد فيها بنين وبنات فكانت سنوه ٩٦٩ سنة، وإذا أضفنا سنيّ عمره إلى سني آدم حين مولده، كان مجموعها ١٦٥٦ سنة هي سنة الطوفان بحسب النسخة العبرانيّة واللاتينيّة العاميّة، فيكون قد مات سنة الطوفان قبل حدوثه. وفسّر لانرمان اسمه بمعنى رامي السهام، والظاهر من المقاربة بين العبرانيّة والسريانيّة أنّ الكلمة مركّبة من ܡܝܬ مات و ܫܠܚ أرسل أو بعث. ولذا جعل بعضهم تأويل اسمه مات فأرسل الطوفان لما مرّ من أمر وفاته سنة الطوفان سمّاه موسى بهذا الاسم. وأما لامك بن متوشالح ويُسمّى لمك أيضاً فولد سنة ٨٧٤ لآدم، وعاش ١٨٢ سنة إلى أن ولد نوحاً وعاش بعد ولادته ٥٩٥ سنة، فكان مجموع سنيه ٧٧٧ سنة، فإن أضفنا هذا المجموع إلى سني آدم حين ولادته، وجدنا أنّ موته كان ١٦٥١ خمس سنين قبل الطوفان وقبل موت والده متوشالح. وفسّر لانرمان كلمة لامك بمعنى الشاب السمين القوي.

وأما نوح ففسّر الكتاب اسمه بمعنى الراحة والتعزية، وإذا أضفنا سنيّ مولد أبيه إلى سنيّ ولادته نوحاً، وجدنا أنّ مولد نوح كان سنة ١٠٥٦ لآدم. وأنبأنا الكتاب (تك ف ٥ عد ٢٢) أنه كان ابن خمسماية سنة لما أخذ يلد ابناءه ساماً وحاماً ويافث. ثم إنه كان ابن ستماية سنة لما كان ماء الطوفان على الأرض (تك ف ٧ عد ٦ و ١١) وعليه فكان الطوفان سنة ١٦٥٦ لآدم، هذا بحسب الأصل العبراني والترجمة اللاتينيّة العامية وغيرهما من النسخ، على أنّ النسخة السامريّة أنقصت شيئاً من سني الآباء إلى أن ولدوا. فكان الطوفان بموجبها سنة ١٣٠٢ لآدم وزادت

النسخة السبعينية في عداد تلك السنين فكان الطوفان على موجبها سنة ٢٢٤٢ لآدم، وسنضع جدولاً يتبيّن منه هذا الفرق بين النسخ ومواطنه.

قد رأيت أنَّ جميع الآباء إلا نوحاً ولدوا وآدم في الحياة، وأمكنهم أن يعاشروا ويتلقوا عنه الأخبار الصحيحة عن إبداع العالم وما علَّمه الله إيّاه. وكثير منهم لاسيما متوشالح ولامك عاشروا نوحاً سنين متطاولة، فسلَّموا إليه ما تسلّموه من آدم. ولما كان نوح قد عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة (تك فصل ٩ عد ٢٨)، أمكن ابراهيم أن يعيش معه نصف قرن ونيّفاً بحسب الأصل العبراني. ويتلقَّى عنه التقليدات الصادقة، ولا أقل من أن يتلقّاها عن سام ابنه بحسب الترجمة السبعينية، وتبلغ إلى اسحق ويعقوب ثم موسى بسلسلة متصلة قليلة الحلقات كما سترى.

عد ٢٢
طول حياة الآباء الأولين

إنَّ طول حياة الآباء قبل الطوفان إلى نيّف وتسعماية سنة، كان من قرونٍ مشكلاً توفَّرت الأقوال في حلِّه. ومنذ زمان القديس أوغوسطينوس كان يحاول بعضهم إيجاز هذه المدد المتطاولة، زاعمين أن ليس المراد بالسنة إلّا ستة وثلاثون يوماً، على أنَّ موسى لم يقل كلمة تجعل اللبس في أنَّ المراد بسنيّ الآباء غير المراد بالسنة في باقي كلامه، بل إنَّ ذكره الشهر السابع والعاشر (تك ف ٧ عد ١١ وف ٨ عد ٤) هو نصّ صريح على أنَّ الشهر يختلف عن السنة التي تتألف لا أقلّ من ثلاثماية وستين يوماً. وما أحسن ما قاله القديس اغوسطينوس (كتابه في مدينة الله راس ١٥) في هذا الصدد وهو أنَّ شيثاً ولد ابناً وعمره ماية وخمس سنين. وقينان ولد ابناً وعمره سبعون سنة. فلو كانت السنة ستة وثلاثين يوماً لنتج ما هو مستحيل بيّن، أي إنَّ شيثاً ولد وعمره نحو من عشر سنين، وقينان ولد وعمره نحو من سبع سنين. فالمراد إذاً بسنيّ عمر الآباء سنون حقيقية، وإنَّ الآباء قبل الطوفان كانوا طويليّ الأعمار لحكمة من قبل الله، يظهر لنا من مقاصدها السامية نماء النوع البشريّ والتكمّل بالمعارف، والمحافظة على ما علَّمه الله آدم بالتقليد كما رأيت قبيله. وقد جعل الله بنية هؤلاء الآباء قويّة تتحمَّل كرور هذه السنين، وعاونت على ذلك

صيانتهم بالبرارة والاعتدال وتنكّبهم كل إفراط. وقال يوسيفوس (في ك ١ في تاريخ اليهود فصل ٣ إنَّ الله أطال عمر هؤلاء ثواباً لفضائلهم وتوسُّلاً للتكمّل بالمعارف والعلم... وكلّ مَنْ كتبوا التاريخ يونانًا كانوا أو غيرهم، يشهدون لما قلته. فإنَّ مانيتون الذي كتب تاريخ المصريين، وباروز الذي كتب تاريخ الكلدان، وموكوس واستيوس وهيروم المصريّ الذين كتبوا تاريخ الفينيقيون قالوا هذا القول نفسه. واسيود وأكرتا واكوسيلاس وايلانيك وايفور ونيقولاوس رووا أنَّ الأولين كانوا يعيشون حتى ألف سنة».

فيقول جاحدوّ التنزيل إنَّ طول العمر بهذا المقدار مخالف للطبع، ومضاد علم التشريح (الفيسيولوجيا). لكنَّ هذا العلم لا مستند له إلا ما يشاهد في الحال الحاضرة، ومعتمده في تحديد عمر الناس إنما هو الاختبار والمعاينة لتركيب الأجسام الآن، فلا تمتدّ نتائجه إلى ما لا يرى الآن. فلو سلّمنا بأنَّ تركيب الأجسام الآن يستحيل معه البلوغ إلى عمر الآباء قبل الطوفان لما نتج منه ما يخالف قول الكتاب في الآباء الأولين. هذا وكثيراً ما وجد في هذه الأعصر أشخاص تجاوزوا العمر المعتاد وبلغوا إلى ماية وخمسين أو مايتي سنة أيضاً من عمرهم. فروى بريشارد[١] أمثلة كثيرة؛ منها: أنَّ رجلاً اسمه توما بار من شروب على تخوم بلاد غال[٢] اشتهر بطول عمره وبلغ منه ١٥٢ سنة. فرغب كرلس الأول ملك إنكلترا في أن يراه فأشخصوه إلى بلاطه. وأراد بعضهم الاحتفاء به والإيلام له فأفرط في المآكل فمات متخوماً، فشرّحه الطبيب هرفاي الشهير، فوجد أمعاءه وباقي أعضائه الرئيسيّة على تمام السلامة، وقضى أنه يمكنه أن يعيش سنين عديدة لولا التخمة التي أصابته. وحقّق الجوّالون في هذا العصر أنَّ طول الحياة ليس نادراً في العرب سكان صحارى افريقية. ويكثر وجود أفراد يتجاوزون المائية من سنّهم في البلاد الباردة كروسيا وغيرها. وربما كان الهواء قبل الطوفان أصلح منه للصحة بعده فضلاً عمّا يوجد من البون الكبير بين المعيشة والأشغال قبلاً والآن. (عن الوجيز الكتابيّ لفيكورو عدد ٢٩٤ بتصرف).

---

(١) Prichard.

(٢) Thomas Parr Du Comté de Shrop.

عد ٢٣

التطابق بين عدد الآباء قبل الطوفان في الكتاب وبين عددهم في آثار القبائل

من المستغرب أننا نجد عند أكثر القبائل القديمة عشرة آباء أو ملوك أولين طبق عدد الآباء العشرة الذين ذكرهم الكتاب من آدم إلى نوح. وتزول الغرابة إذا تذكّرنا أنّ أصل الناس واحد، وأنّ التقليد الذي أودعه موسى سفر التكوين حفظته هذه القبائل بآثارها يمازجه شيء من التشوّش، أو تغيّر الاسماء من جري كرور الأعوام واختلاف اللغات والجهل وعبادة الأوثان. فقد نبأتنا تقليدات الكلدان تتابع عشرة آباء قبل الطوفان سمّتهم ملوكاً. ونظم فرنسيس لانرمان (في مجلد ١ من تاريخه صفحة ٤٣ طبعة ٩) عن فقر لباروز أسمائهم في جانب اسماء العشرة الآباء قبل الطوفان في جدول اختلفت فيه الاسماء، وتطابق العددان في الكتاب والآثار. وروي أنّ ابيدان (هو كاتب يونانيّ كتب تاريخ بعض شعوب آسيا في عهد خلفاء اسكندر) جمع من تقليدات الآشوريين ما يتبيّن منه أنّ هذه القبيلة كان فيها في بدء أمرها قبل بناء نينوى عشرة أبطال تولّوا تدبيرها. ومن معتقدات الإيرانيين القدماء أنه قام فيهم عشرة ملوك يسمّونهم باشدّين، أي رجال السنّة القديمة. ويقولون إنهم كانوا يقتاتون بشراب يسمّونه (هوما) أي شراب عدم الميتوتة، إشارة إلى طول أعمارهم.

واعتقد الهنود وجود تسعة آباء يسمّونهم (براهمديكاس) ويضيفون إليهم براهما أصلهم وأولهم. ويسمّون الكلّ (البيتريس العشرة) أي الآباء العشرة. وقال الجرمانيون والاسكنديناف (سكان أسوج ونروج القدماء) بعشرة جدود (لأودين معبودهم). واعتقد الصينيون عشرة سلاطين اشتركوا بالطبع الإلهي قبل بزوغ أنوار الأعصر التاريخية. ومن تقليدات العرب تتابع عشرة ملوك من قبيلة (عاد)، وهم مع قومهم أوّل مَنْ سكن شبه جزيرتهم بين البحر الأحمر والخليج العجميّ. وعدَّ سنكونياتون عشرة مواليد للآباء الأوّلين عند الفينيقيين، أولهم بروتوكونوس أي المولود الأول وأيون أي حواء. ذكر هؤلاء الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٢٤١ طبعة ٤). وروى لانرمان (في التاريخ القديم مجلد ١

صفحة ٤٣ و ٤٤ طبعة ٩) ما رواه فيكورو، وزاد عليه أنَّ ابيدان المارّ ذكره آنفاً، عدَّ عشرة أبطال عند الأرمن القدماء تقدَّموا أرام (بن سام بن نوح) جدّ هذه القبيلة على مذهبه الذي تابعه به علماء مدرسة الرها وغيرهم. وأنَّ المصريين اعتقدوا أنَّ الآلهة حكموا في الأرض في الأعصر الأولى للبشريّة. على أنَّ فقر مانيتون التي تكلَّم فيها على هذه الأعصر الأولى بلغت إلينا مشوَّهة، لا يُهتدى بها إلى توكيد عدد هؤلاء الحكام. لكنَّ البابير التاريخيّ الكائن الآن في متحف تورين، يُستنار منه أنَّ الآلهة الذين تولّوا سياسة الناس في البدء كانوا عشرة طبق تقليدات سائر الأمم. فهذا التطابق في عدد الآباء العشريّ في الكتاب، وفي آثار هذه القبائل كلّها يستحيل أن يكون مصادفة واتفاقاً ولا وجه له إلا إنه عن مصدر واحد، هو التقليد الأولي الذي استودعه موسى سفر التكوين والقبائل آثارها.

إنَّ التقليد البابليّ في عهد باروز كان يجعل لولاية الملوك الذين حكموا قبل الطوفان مدداً مديدة من السنين، يقسمونها إلىماية وعشرين مدة، ويسمّون كلاً منها (ساراً). وجعل باروز كلّ سار منها ثلاثة آلاف وستماية سنة. فكان عدد السنين معظماً كثيراً. على أنَّ سويداس (وهو مؤلِّف يونانيّ يظنّ أنه كان في القرن التاسع أو العاشر بعد الميلاد)، أفادنا في معجمه أنَّ السار في عرف البابليين عبارة عن ثماني عشرة سنة وستة أشهر. فالماية وعشرون ساراً تساوي في عرفهم ٢٢٢٢ سنة، لأنَّ السار يساوي ٢٢٢ شهراً قمريّاً، فيتألَّف منها ثماني عشرة سنة وستة أشهر، فإذا ضُربت في ماية وعشرين كان الحاصل ألفين ومايتين واثنتين وعشرين سنة. وعليه فكان للسار استعمالان أحدهما فلكيّ يساوي ٣٦٠٠ سنة، والآخر مدنيّ يساوي ١٨ سنة وستة أشهر. وعلى مقال سويداس يلزم اعتبار الماية والعشرين ساراً قبل الطوفان بحسب الاستعمال المدنيّ. وإذا حسبناها كذلك وجدنا بين تاريخ الكتاب وتاريخ الكلدان تطابقاً أو تقارباً مدهشاً، لاسيما أننا نتوصَّل إلى ذلك بطريقتين مختلفتين فتؤدّينا كلتاهما إلى نتيجة واحدة. فالطريقة الأولى أساسها السنة التي ولد فيها أحد الآباء ابناً، كما هي في سفر التكوين. والثانية أساسها المدة التي حكم فيها كلّ من الملوك العشرة عند الكلدان قبل الطوفان. فهذه الأعداد تؤدّينا على مباينتها إلى ظهور الاتفاق بين نصّ الكتاب والآثار الكلدانية، كما سترى في الجدول التابع الذي يكشف لك أيضاً عن الفرق الكائن بين نسخ الكتاب العبرانية

والسامرية والسبعينية، وعن مواطنه كما وعدنا آنفاً بذلك وهاك الجدول:

الآباء قبل الطوفان	عن النسخة العبرانية والعامية	السامرية	السبعينية	عدد المدات	مجموعها مضروبة في ١٨ سنة ونصف	اسماء ملوك الكلدان قبل الطوفان
آدم ولد شيتاً	١٣٠	١٣٠	٢٣٠	١٠	١٨٥	الورروس
شيت	١٠٥	١٠٥	٢٠٥	٣	٥٦ ١/٢	الأباروس
أنوش	٩٠	٩٠	١٩٠	١٣	٢٤٠ ١/٢	المالون
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠	١٢	٢٢٢	امينون
مهلائيل	٦٥	٦٥	١٦٥	١٨	٣٣٣	امكالروس
يارد	١٦٢	٦٢	١٦٢	١٠	١٨٥	داونوس
اخنوخ	٦٥	٦٠	١٦٥	١٨	٣٣٣	ادورنكوس
متوشالح	١٨٧	٦٧	١٦٧	١٠	١٨٥	امابسينوس
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨	٨	١٤٨	اتيرتس
نوح سنة الطوفان	٦٠٠	٦٠٠	٦٠٠	١٨	٣٣٣	كيسوترس
١٠	١٦٥٦	١٣٠٢	٢٢٤٢	١٢٠	١٢٢١	١٠

فالظاهر من هذا الجدول أنَّ مجموع السنين الحاصل من المابة والعشرين ساراً مدد ملوك الكلدان إلى الطوفان محسوبة على مذهب سويداس، يوافق عدد السنين التي خلت من خلق الإنسان إلى الطوفان بموجب النسخة السبعينية. وليس من فرق بينهما بسوى إحدى وعشرين سنة مع أنَّ النسخة السبعينية تزيد على العبرانية ٥٨٦ سنة، وعلى السامرية ٩٤٠ سنة. والكنيسة لم تقطع في القول بشيء من هذه الأعداد ولو كان الاتفاق بين الكتاب وآثار غير الكلدان لربما أمكن تخريج وقوعه على المصادفة. ولكن وقوعه في آثار الكلدان الذين كثيراً ما تساوت تقليداتهم

وتقليدات العبرانيين يصوّب لنا حسبان هذا التطابق حقيقيّاً واقعيّاً. انتهى ملخَّصاً عن فيكورو (في مؤلفه الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٢٤٥ طبعة ٤).

عد ٢٤

الجبابرة

جاء في سفر التكوين (ف ٦ عد ١ وما يليه): «ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات رأى بنو الله بنات الناس أنهنّ حسناوات، فاتخذوا لهنّ نساء من جميع من اختاروا... وكان على الأرض جبابرة في تلك الأيّام. وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس، وولدن لهم أولاداً أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر». وقد مرّ أنّ المراد ببني الله ابناء شيت وأنوش الذين ابتدأوا يدعون باسم الله، واستمرّوا يحفظون سننه، وأنّ المراد ببنات الناس ذريّة قايين الذين سلكوا طريق الإثم. وقد ورد ذكر الجبابرة في آيات أخرى عديدة من الكتاب بعد الطوفان أيضاً؛ كجبابرة بني عناق الذين ذكرهم جواسيس موسى في أرض الموعد (سفر العدد فصل ١٣ عد ٣٣)، وكعوج ملك باشان (نشيد فصل ٣ عد ١١)، وكجليات الذي صرعه داود (ملوك ١ فصل ١٧ عد ٤). وقد وافقت آثار القبائل وتقليداتها آيات الكتاب في ذكر الجبابرة فقال باروز سنداً إلى تقليدات الكلدان إنّ الأناس الأوّلين كانوا ذوي قامة وقوّة عجيبتين؛ وإنه استمرّ مثل هؤلاء بعد الطوفان أيضاً. وترى الآثار الكلدانيّة تعبّر عن الجبابرة بكلمة (كبرو) أو (جيبور) كما يعبّر الكتاب عنهم. وترى آثار اليونان وأشعار شعرائهم طافحة بذكر الجبابرة وأعمالهم. ومن تقليداتهم أنّ جنوب جزيرة رودس وجزيرة كوس كان أوّل سكانهما من الجبابرة. وروى مار أباس كاتينا مؤرّخ الأرمن حروب هؤلاء الجبابرة في أرمينيا وما بين النهرين. وقد فشا في كتب العرب وآثارهم وصف الجبابرة في قبيلتي عاد وثمود وبني عناق والعمالقة. وترى مثل ذلك في آثار المصريّين والهنود وغيرهم من القبائل العريقة في القدم (روى ذلك لانرمان في تاريخه مجلد ١ صفحة ٤٧، وفيكورو في الكتاب والاكتشافات مجلد ١ صفحة ٢٤٦). وما من ناكر أنه وجد ويوجد في بلادنا وغيرها أعضاء بشريّة تتجاوز في طولها وضخامتها أعضاء البشريّين في هذه الأيّام.

على أنّ كلمة الجبابرة في الأصل العبراني في آية التكوين هي نوفل أو نيفليم، ومعناها رجل مرعب أو قدير. وترجمها أكويلا في اليونانيّة بكلمة معناها الرجال المحاربون أو المعتدون، وسيماخوس بكلمة معناها الرجال القساة أو المحبّو الاعتداء، والسبعينيّة بجيكاس أو جيبور ومعناه الرجل القدير المحارب؛ ولذلك ذهب بعض العلماء القدماء والحدثاء، أنّ الجبابرة الذين ذكرهم الكتاب كانت شهرتهم باعتدائهم وشراسة أخلاقهم، وآثامهم أكثر منها بقوّتهم وطول قاماتهم. على أنّ الأكثرين من الآباء والعلماء علموا بأنه كان جبابرة امتازوا لا باعتدائهم وسطوهم فقط بل بقوّتهم وطول قاماتهم أيضاً. وقد أسهب كلمت (في معجم الكتاب في كلمة جبابرة) بإيراد الحجج الدامغة، والبيّنات الوضيعة على وجود جبابرة ضخام الجثث طويلي القامات، دلّت عليه بقايا أجسامهم العديدة. فضلاً عن آيات عديدة من الكتاب لا يمكن تخريجها إلى معنى الاعتداء والمعاصي، وفضلاً عن شهود عدل من المؤرّخين، وعما ذكرناه من آثار القبائل، بل لا يمكن أصحاب الزعم المضاد أن يقيموا نكيراً على أنه يوجد في هذا العصر، وقد وُجد في كلّ عصر، أناس غير عاديّين في طول قاماتهم وقوّتهم. ووجود بقايا بشريّة لا تزيد على أعضاء أهل عصرنا لا يثبت ـ ولو مهما كثرت تلك البقايا ـ أنه لم يكن جبابرة، بل يقتصر إثباتها على أنه لم يكن كلّ الناس جبابرة. وعلى كلا الرأيين يبقى صدق الكتاب كاملاً سالماً. فإن فهم بالجبابرة قبل الطوفان الأثمة وأصحاب المعاصي، أو طِوال القامات والمقتدرون فسيّان في صدق الكتاب، وربما كان المعنى الأوّل أنسق وأكثر التحاماً مع كلام الكتاب في انزال الله الطوفان عقاباً لمعاصي الأشرار. وأيُّ محال في وجود أشخاص غير عاديّين قبل الطوفان أو بعده، وقد وُجد مثل هؤلاء في كلّ عصر بالنسبة إلى سائر أهله؟

الفصل السابع

الطوفان

عد ٢٥

رواية الكتاب خبر الطوفان

جاءنا سفر التكوين في الفصول السادس والسابع والثامن والتاسع منه بأخبار الطوفان وما تعلّق به. فكانت الخلاصة أنه لما فسدت الأرض أي أهلها أمام الله وملئت إثماً وجوراً، استاء الله من الناس استياءً عبَّر عنه الكتاب بالندم والأسف على أنه خلقهم وعزم أن يمحوهم من الأرض، مع ما أبدعه من الحيوان والطير إلا نوحاً وأسرته، فأمره أن يصنع فلكاً ويقسمه إلى طبقاتٍ ومواضع، ويطليه من داخل ومن خارج بالقار، ويجعل طوله ثلاثماية ذراع وعرضه خمسين، وعلوّه ثلاثين ذراعاً؛ والذراع عبارة عن نصف المتر في أيامنا على الصحيح، وأن يدخل الفلك بأهله أي امرأته وبنيه ونسائهم، وأن يدخل معه من الحيوانات الطاهرة سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً، ومن الحيوانات الغير طاهرة اثنين ذكراً وأنثى مع ما يلزم من العلف والقوت. فصنع نوح كما أمره الرب. وفي سنة الستماية من عمره في السابع عشر من الشهر الثاني (الذي يظهر أنه تشرين الثاني)؛ تفجّرت حينئذٍ عيون الغمر العظيم، وتفتّحت كوى السّماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة حتى حمل الماء الفلك، وكثرت المياه حتى غطّت جميع الجبال الشّامخة التي تحت السّماء كلّها، وعلت على الأرض خمسة عشر ذراعاً[1]، تغطّت الجبال فهلك كلّ ذي جسد يدبّ على الأرض والطير والناس كافة. وتعاظمت المياه على الأرض ماية

(١) الذراع: ٦٨ سم.

وخمسين يوماً فأرسل الله ريحاً على الأرض، فتناقصت المياه وانسدَّت عيون الغمر وكوى السَّماء، واحتبس المطر، واستقرَّ الفلك في السابع عشر من الشهر السابع (نيسان على ما مرَّ) على جبال أراراط. ففتح نوح كوَّة الفلك بعد مدَّة، وأطلق الغراب فجعل يتردَّد إلى أن جفَّت المياه، ثم أطلق الحمامة فلم تجد مستقرّاً لرجلها فرجعت إليه. ثم أطلقها بعد سبعة أيام فعادت وفي فيها ورقة زيتون خضراء. فعلم أن قد جفَّ الماء. فخرج نوح وامرأته وبنوه ونسوتهم من الفلك في السابع والعشرين من الشهر الثاني، فتكون مدة اقامتهم في الفلك سنة وعشرة أيام. وخرجت أيضاً الحيوانات. وبنى نوح مذبحاً وقدَّم عليه ذبيحةً للرب من الحيوانات الطّاهرة والطير. فتقبَّل الرب ذبائحه ووعده بأن لا يكون طوفان آخر مثل هذا على الأرض. وقال له ولبنيه انموا واكثروا واملأوا الأرض. وفرض عليهم بعض السّنن، وأباحهم أكل لحم الحيوان والطّير، وجعل القوس في الغمام علامة لعهده معهم.

فهذه خلاصة ما في الكتاب في هذا الباب. وجعله القوس في الغمام علامة لعهده لا ينتج منه أنَّ هذه القوس لم تكن قبلاً، فتكوُّنها طبيعيّ كلما وقعت أشعة الشَّمس على غمام غير متكاثف. فقد جعل تعالى ما كان علامة لما سيكون من أنه لا يسمح بحصول طوفان كهذا في ما بعد، كما يجعل أحد الصخور الكائنة في محلّ علامة وتخماً لملك مالك.

عد ٢٦
مباحث في الطوفان وأولاً أعامّاً كان أو خاصّاً

أعمَّ الطوفان الأرض كلّها وأباد الناس على آخرهم إلا نوحاً وأهله، أم اقتصر على المعمور حينئذ فقط ولم يعمّ الأرض بكليّتها؟ ذلك مبحث اعتاص أمره على الآباء والعلماء، فكان لهم فيه ثلاثة أقوال. أوّلها قول بعض الآباء والعلماء إنّ كلام الكتاب على إطلاقه أي أنّ الطوفان عمَّ الأرض كلّها لا المأهولة حينئذ فقط، بل ما كان منها أهلاً للسكنى أيضاً. والثاني قول بعضهم إنّ كلام الكتاب ليس على إطلاقه، بل يلزم قيده بالأرض المأهولة حينئذ فقط. وعلى القولين أنّ الناس أجمع بادوا بالطوفان لا يُستثنى منهم إلا نوح وأهله الذين ذكرهم الكتاب. والثالث قول قوم من أهل العلم المتأخّرين من أنّ الطوفان لم يبد الناس كافة. وبالأولى أنه لم يعمّ

الأرض كلّها. وأقام كلٌّ من أصحاب هذه الأقوال حججاً وبيّنات على مدَّعاه. فمن حجج أصحاب القول الأوّل أنّ نص الكتاب صريح «بأنّ المياه غطّت جميع الجبال التي تحت السماء كلّها»، وأنها أهلكت «كل ذي جسد يدبّ على الأرض من الطير والبهائم والوحوش وجميع الزحافات التي تزحف على الأرض والناس كافة»، ومن حججهم أيضاً أنّ جميع القبائل حفظت ذكر الطوفان وافترضته عاماً، ومنها أيضاً على زعمهم وجود الأودية والجبال في كلّ أرض، فينسبون وجودها إلى الطوفان، ومنها وجود الصدف وبقايا الحيوانات البحريّة في الجبال. على أنّ هاتين الحجّتين الأخيرتين قاصرتين؛ فإنّ الجبال كانت قبل الطوفان وهذا ثابت بنص الكتاب نفسه، ووجود الجبال يستلزم طبعاً وجود الأودية، وأما وجود البقايا البحريّة في الجبال فيسهل تخريجه بأنّ هذه البقايا من قبل الطوفان في الأعصر الأولى لتكوّن العالم. ومع هذا فقد استمسك بهذا القول أكثر القدماء، وكثير من الحدثاء أيضاً ومن جملتهم كلمت في معجم الكتاب في كلمة طوفان وبرجيا في معجم اللاهوت في هذه الكلمة.

ولأصحاب القول الثاني بأنّ الطوفان لم يعمّ الكرة كلّها حجج، أولاها أنّ كلام الكتاب الدال على التعميم لا يُفهم دائماً على إطلاقه. مثلاً جاء في سفر التكوين نفسه (فصل ٤١ عد ٥٤) «وشمل الجوع جميع وجه الأرض... وقدم أهل الأرض بأسرها إلى يوسف ليمتاروا، لأنّ الجوع كان شديداً في الأرض كلّها». ليس من قائل أنّ مجاعة مصر حينئذ عمّت البسيطة كلّها، بل كانت مقصورة على مصر وما جاورها من البلاد. وجاء في سفر تثنية الاشتراع (فصل ٢ عد ٢٥): «وأنا في هذا اليوم أبدأ بإيقاع ذعرك وخوفك على وجه الأمم الذين تحت السماء» ومن يقول إنّ خوف موسى وقع على وجه كل الأمم التي تحت السماء. وجاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٤): «وكانت كلّ الأرض تلتمس مواجهة سليمان لتسمع حكمته»، ومن يفهم كلمة الأرض هنا على إطلاقها. وفي الأبركسيس (فصل ٢ عد ٥) أنه كان في عيد البنديكستي في أورشليم «يهود رجال أنقياء من كلّ أمّة تحت السماء». ومن البيّن أنّ التعميم في هذه الآيات كلّها لا يفهم على إطلاقه. فأيّ الموانع إذاً من فهم قول التكوين في الطوفان على غير إطلاقه.

وحجّتهم الثانية أنّ من الأصول المفروضة لتفسير الكتاب أن في نصّه العصر

الذي كُتب فيه وكيفيّة فهم الكتاب والمكتوب إليه معنى كلامه. ففي وقت الطوفان لم تكن الأرض ملأى بالسكان فلم يفهم نوح ولا موسى بالأرض كلّها الكرة برمتها كما عُرفت الآن بعد الاكتشافات عن أميركا وغيرها، بل فهما من ذلك الأرض المأهولة حينئذ ويؤيد هذه الحجّة أنّ الداعي إلى الطوفان إنما هو إهلاك الناس الأثمة، ولم يكن حينئذ أناس على وجه البسيطة بإطلاقها. وحجّتهم الثالثة أنَّ مذهبهم أسلم من النقد وأعون على ردّ الاعتراضات الواردة على الطوفان. ومن جملتها كيف استطاع نوح أن يجمع كلّ الحيوانات من أقاصي الأرض، وكيف وسعتها فلكه مع أعلافها سنة، وكيف أتى بالحيوانات التي كانت الأبحر المحيطة (الأوقيانوس وهو متعدّد) تفصل بينه وبينها، وكيف أمكن الحيوانات التي تعيش في الجزر أن تعود إليها بعد الطوفان. فكلّ هذه الاعتراضات لا يبقى لها قوام ولا محلّ إذا سلّمنا بأنَّ الطوفان لم يشمل إلا الأرض المعروفة حينئذ، وبأنه لم يدخل السفينة من الحيوانات إلا ما كان في الأصقاع المأهولة حول نوح، ولا يبقى مشكل في جمعها ولا في وسع الفلك لها، ولا تبقى حاجة إلى القول بسلسلة معجزات لنقل الحيوانات من وراء الأبحر المحيطة وردّها إلى هنالك وإلى الجزر الشاسعة. فقد أنزل الله الطوفان ليبيد الناس لشرّهم ولم يكن لازماً من وجه أن يبيد أنواع الحيوان كلّها. وأيّة حاجة لله أن يوحي إلى نوح وجود حيوانات لم يكن عرفها ولا سمع بها. ولا يلزم الالتجاء إلى المعجزات الخارقة الطبع في ما يمكن بيانه دون خرق شرائع الطبيعة . فالحيوانات العائشة في البلاد غير المأهولة بالناس استمرّت في مواطنها، ولم تحتج النجاة بالفلك إذ لم يتصل الطوفان إليها على هذا المذهب.

إنَّ للطبيعيين معضلات أخرى منها أنَّ الماء الذي على الكرة كلّها لا يكفي لتغطية كلّها، فيلزم عندهم لذلك قدر من المياه فوق قعر البحر يساوي عمقها علوّ أعلى الجبال كحملايا الذي يساوي ارتفاعه نيّف وثمانية آلاف وخمسماية متر. فمن أين الماء ليغمر الأرض كلّها ويرتفع خمس عشرة ذراعاً فوق الجبال العالية. ومنها أنَّ تغطية سطحَي الكرة معاً مستحيلة مع حفظ شرائع الطبيعة الحالية فيلزم خرقها من أوجه. ومنها أنَّ الاسماك العائشة في المياه العذبة يميتها ماء البحر الملح. ولم يذكر الكتاب أنَّ نوحاً أدخل فلكه نوعاً من الحيوانات التي تعيش في الماء. فمن أين الآن الاسماك التي تعيش في الماء العذب؟ فهذه المعضلات وإن التمس لها

أصحاب القول الأول أوجهاً لبيانها كأنَّ الأرض كانت مغطّاة بالماء قبل ظهور اليابسة، وإنَّ في قلبها مستودعات ماء يسلّم بوجودها بعض علماء الجيولوجية، وإنَّ حالة الجوّ كانت في أيام نوح غير ما هي في أيامنا. إلا إنَّ هذه الأوجه لا تزيل الإشكال، ويضطرّ أصحاب القول الأول أن يعزوا كلّ ذلك إلى قدرة الله القادرة على كلّ شيء بخرقها شرائع الطبيعة وإبدائها معجزات عديدة معاً. فإذا سُلِّمَ بالقول الثاني إنَّ الطوفان لم يعمَّ من الكرة الأرضيّة إلا ما كان مأهولاً زالت هذه المعضلات بالاهتداء إلى وجهها، ولم تبقَ حاجة إلى قدر الأمواه اللازمة لتغطية الأرض بكمالها، بل يكفي المطر العرمرم، وفيضان أمواه البحر في بعض الأماكن، وانفجار أحواض الماء التي في قلب الأرض كما أشار الكتاب. ولا يتغطّى حينئذٍ سطحا الكرة معاً، وتبقى أمواه عذبة يعيش بها السمك غير البحريّ.

إنَّ هذا القول الثاني لا يضادّ الإيمان ولا وسمته الكنيسة الكاثوليكية بسمة ضلال، فقد بُحث في هذه المسألة في رومة سنة ١٦٨٥ بداعي كتيّبات نشرها اسحق فوسيوس[1] يثبت بها أنَّ الطوفان لم يكن عامّاً. فأكثر مجمع فحص الكتب التحرّي في هذا الشأن واستوضح العلاّمة مابيلون الشهير[2] ما يراه في أقوال فوسيوس هذه. فأثبت أنها لا تخالف الكتاب بوجه من الوجوه، بل هي أعون على تفسيره. وأورد بعض ما أوردنا آنفاً، واستشهد بأقوال بعض الآباء لرأيه. فلم ينهَ هذا المجمع حينئذٍ ولا الكنيسة بعداً عن اتّباع هذا المذهب.

وأمّا القول الثالث بأنَّ الطوفان لم يهلك الناس كلّهم أيضاً، فقال به بعض أهل العلم عن عهد قريب زاعمين أنَّ بعض قبائل المنغول في الصين والأحباش والسودان هي من أصل قبل الطوفان. وممّن قالوا بهذا المذهب العالِم دي كاترفاج والعالِم شويال الذي جعل (في المجلة تاريخ الفلسفة المسيحية في كانون الأول سنة ١٨٧٦) قاين أصلاً لذريَّة السودان وأنَّ الطوفان لم يهلكها. وجنح فرنسيس لانرمان(في تاريخ المشرق مجلد ١ صفحة ٥٦ وفي موجز هذا التاريخ) إلى هذا المذهب بحجَّة عدم وجود أثر للطوفان عند السودان خلافاً لسائر الأمم. وقد دافع عن هذا المذهب

---

(١) Ysac Vossius وهو عالم الماني شهير ولد سنة ١٦١٨ وتوفي سنة ١٦٨٩.

(٢) Mabillon وهو أحد مشاهير رهبانية القديس مبارك ولد سنة ١٦٣٢ وتوفي في باريس سنة ١٧٠٧.

العالِم أوماليوس دي هالوي البلجيكي في خطبة ألقاها في المجتمع العلميّ في البلجيك سنة ١٨٦٦م وتابع هؤلاء بعض العلماء الألمانيين الكاثوليكيين. وصرَّح الأب بالينك اليسوعيّ البلجيكيّ بأنَّ هذا المذهب يمكن تأييده، وإن لم يتمسَّك هو به لأنه قال (كما ورد في مجلة الدروس الدينية في نيسان ١٨٦٨م): «ليس من قصدنا أن ندافع عن هذا المذهب إذ لا نرى الدفاع عنه لازماً في حالة العلم الحاضرة، لكنَّنا لا نندِّد بمَنْ يظنُّ هذا المذهب سيتغلَّب يوماً ما». على أنَّ ما صرَّح الكتاب به إنما هو أنَّ الله أراد أن يغرق جميع الناس لأنَّ جميعهم غرقوا في لجَّة الإثم ما خلا نوحاً وأهله. وصرَّح بطرس الرسول (في رسالته الأولى فصل ٣ عد ٢٠) أنه خلص بالفلك «نفر قليل أي ثمانية أنفس». وقال أيضاً (رسالته ٢ فصل ٢ عد ٥): «ولم يشفق على العالم القديم وإنما وقى نوحاً كارز البرّ وهو ثامن ثمانية وأتى بالطوفان على عالم المنافقين» (ملخص عن الوجيز الكتابي لفيكورو عد ٣٢٣).

عد ٢٧
هل يثبت علم الجيولوجية[1] حصول الطوفان

وضع الأب فيكورو في كتابه الوجيز الكتابيّ (عد ٣٢٢) فصلاً في هذا المبحث؛ فنلخِّص هنا ما كتبه هناك. قال ظنَّ علماء الجيولوجية الأوَّلون أنهم وجدوا حججاً بيِّنة تثبت نصّاً تغريق جزءٍ من الأرض على الأقلّ بطوفانٍ حصل في العصر التاريخيّ، أي بعد أن أهلت كرتنا بالبشر. على أنَّ عامَّة العلماء هجروا هذا القول الآن لأنه لا يظهر قريباً من الصدق أنَّ طغيان ماء على سطح الأرض سنة واحدة يترك فيها آثاراً يمكن تحقيقها بعد قرونٍ، وتمييزها عن آثار طغياناتٍ أخرى سابقة. فقالوا أولاً إنَّ بين طبقة الأرض المعروفة عندهم بالثالثة وبين أرضنا الآن في أكثر أنحاء البسيطة طبقةً مؤلَّفة من حصى وتراب خزفيّ ورمل بحريّ وحصى ملساء، فاعتبروا ذلك راسباً من ماء الطوفان، وسمّوا طبقة الأرض هذه طوفانيّة. أما علماء الجيولوجية الآن فيسمّون هذه الطبقة طوفانيّة، لكنَّهم لا يرون أنَّ طوفان سنةٍ كوَّنها، بل هي نتيجة طغيانات وثورات عديدة جرت بحسب سنن الطَّبيعة في

(١) معنى اللفظة الكلام في الأرض وهذا علم يبحث عن تكوّن الأرض وطبقاتها إلى غير ذلك من متعلّقاته.

قرون. ولا يبعد أن يكون طوفان نوح من فواعل هذه الإنقلابات لكنه ليس الفاعل الوحيد بها، بل يلزم اعتزاء كثير منها إلى الأعصر الأولى قبل خلق الإنسان.

قالوا ثانياً: إنَّ ممّا يثبت الطوفان الصخور الدخيلة أي الصخور الكائنة في غير مواطنها منتقلة من محلٍّ إلى آخر. ويُرى مثل هذه الصخور في إنكلترا والمانيا وروسيا ثم في آسيا على جبال حملايا، وفي لبنان وطورسينا ومحالٍّ أخرى عديدة. فحسب هؤلاء العلماء أنَّ هذه الصخور حملها ماء الطوفان من مواطن أصلها إلى مواطنها الحاضرة، ولكن تعسَّر على علماء هذه الأيام أن يصدّقوا بنقل ماء الطوفان صخوراً كبيرة تبلغ مساحة بعضها أربعين ألف قدم مكعَّب من محالٍّ بعيدة إلى مواضعها الحالية، ولاحظوا أنَّ سطوحها غير ملساء وزواياها غير مكسَّرة، كما كان يلزم أن تكون لو قلبها الماء في مسافاتٍ من حيث كانت إلى حيث استقرَّت. ولذا رأوا الأولى نسبة نقلها إلى انقلابات في الأعصر الأولى، ولم يروا بها بيّنة قاطعة في إثبات طوفان نوح. ثالثاً أثبت كثير من العلماء الأوَّلين حصول الطوفان النوحيّ بما يرى في بعض المغاور والكهوف في أنحاء كثيرة من بقايا عظام بشريّة يخالطها أحياناً بقايا عظام حيوانات، ونسبوا ذلك إلى الطوفان. ولا ننكر أنه يحتمل كثيراً أن يكون بعض هذه البقايا من مفعولاته بل ليس لعالم أن يجزم بخلاف ذلك، إلا إنه لما كان ممكناً أن تكون لهذه البقايا عللٌ أخرى كطغيانات خاصّة، وكسكنى الناس الأوَّلين في المغاور. فلا يمكن أن تكون إحداها حجّة قاطعة تجيء مثبتةً الطوفان النّوحيّ.

وعليه فعلم الجيولوجية يثبت الطوفان ضمناً، ولا يناقضه البتّة فإنه يظهر جليّاً أنه قد طرأ على سطح الكرة انقلابات وثورات مسبّبة عن حركة الأمواه بعد أن وُجدت الحيوانات والإنسان. ويلزم أن يكون الطوفان النّوحيّ من جملة العلل التي بدَّلت وجه الأرض. وإن لم تكن طبقة الأرض الطوفانيّة كلّها من مفاعيل الطوفان، فلا أقلّ من أن يكون بعضها، وإن لم يكن الطوفان ناقلاً كلّ الصخور الدخيلة فلا أقلّ من أن يكون ناقلاً بعضها. والحاصل أنَّ علم الجيولوجية يؤيّد الطوفان وإن لم يثبته إثباتاً قاطعاً لوجود علل أخرى تصدر ما كشف هذا العلم عنه. وقد أجاد الكاردينال ويزمن الشهير بإثبات الطوفان بهذه الآثار في خطبه الشهيرة في العلاقات بين العلم والدين الموحى. وترى خلاصة من كلامه في الحواشي المعلّقة على معجم

اللاهوت لبرجيا في كلمة طوفان إلا إنَّ ذلك كان قبل الاعتبارات الأخيرة التي ذكرناها.

عد ٢٨
آثار الأقدمين الدالَّة على الطوفان

ليس كالطوفان أمر أجمعت آثار الأقدمين من كلّ قبيلة على تبيانه. ونبدأ بآثار الكلدانيين فهم أقرب القبائل من الأصل الذي رواه موسى عن أجداده الذين عاشوا في بلاد الكلدان. فمن آثار هؤلاء ما هو قديم وما هو أقدم. فنجتزىء من الأقدم بما اكتشف عنه في مكتبة آشور بانيبال التي وُجدت في نينوى ونُقل أكثر صفائحها إلى المتحف البريطانيّ. فمن ذلك اثنتا عشرة صفيحة من الآجرّ خُطَّت عليها أشعار عُقد بعضها على تاريخ الطوفان. وكان في هذه المكتبة ثلاث نسخ من هذه الصفائح لكنها مشوَّهة مكسَّرة. فأُرسل العلامة جرج سميت على نفقة الجريدة الإنكليزية (دالي تلغراف) إلى بلاد الكلدان للبحث، علَّه يجد فقرات أخرى من هذا التاريخ تملأ فارغ ما سقط من النسخ التي في المتحف البريطاني، فوفِّق إلى وجدان ما كاد يجعل نسخة هذا المتحف كاملة. والنسخ الثلاث خُطَّت بأمر ملك نينوى في القرن السابع قبل الميلاد، لكنَّها أُخذت عن أصلٍ متناهٍ في القدم، حتى لم يتردَّد سميت بأن يثبت أنَّ هذا الأصل كتب لا لأقلّ من القرن السابع عشر قبل الميلاد، فهو أقدم من موسى. مستدلًّا سميت على ذلك باستعمال كتاب آشور بانيبال أحرفاً قديمة جدّاً في كلمات صوّروها على الأصل، ربما لعدم إدراكهم معناها، ثم باختلاف الرواية بين بعض فقرات النُّسخ الثلاث، حتى يظهر أنَّ بعضها عن أصل أقصى قدماً.

أما موضوع هذه الأشعار فتاريخ بطل يُسمَّى ايزدوبار كان مشهوراً بالصيد والمحاربة. ولم يكن يملك أولاً إلا على بابل وضواحيها إلى أن انبسط حكمه، فعمَّ كلّ ما بين دجلة والفرات من جبال أرمينيا شمالاً إلى الخليج العجمي جنوباً. وقد حسب سميت وفريدريك داليتش وفرنسيس لانرمان؛ أن ليس هذا البطل إلا نمرود الذي ذكره سفر التكوين (فصل ١٠)، مستدلّين بأنه كان يتولّى كنمرود بابل وأرك وشورپاك ونيبور. فالمدينتان الأوليان تطابق الكتاب والآثار في اسميهما. ونيبور على

قول كاتبي التلمود هي اكلنه التي ذكر الكتاب أنها من مملكة نمرود وليست شورپياك إلا أكد مدينة نمرود الثالثة. وقد وصفه الكتاب بأنه كان جبّاراً أو صيّاداً، كما وصف الأثر ايزدوبار. ففي الصحيفة الحاوية الكلام في الطوفان يقال إنَّ ايزدوبار سمع برجل نجا من الطوفان والموت اسمه هزيزدرا (ويظنّ أنَّ أصل الاسم عزيزدورا - لقرب هذا الاسم من لفظ سريانيّ يُراد به قديم الأيام). فعزم أن يراه، فتوصَّل إليه بعد مشاقّ لاعتزاله في محلّ بعيد صعب المسلك، وسأله عن أخبار الطوفان. فيجيبه عزيزدورا عن سؤاله في الصحيفة الحادية عشرة، قاصّاً عليه أخبار الطوفان كما في الكتاب، حتى يمكن في فقرات عديدة وضع الروايتين الواحدة في جانب الأخرى ليظهر الطِّباق. وهاك ترجمة هذه الأشعار عن فيكورو في مؤلَّفه الكتاب والاكتشافات الحديثة، وعن لانرمان في تاريخه القديم للمشرق مؤثرين

صورة ازدوبار
نقلاً عن تمثال في متحف اللوفر في باريس
ويظن انه نمرود

ما كان منهما أظهر. «فكلّم عزيزدورا أزدوبار قائلاً: هاأنذا أنبئك يا أزدوبار بتاريخ منجاتي (من الطوفان)، وأطلعك على ما قضى به الآلهة. إنَّ مدينة شورِيباك (المارّ ذكرها) التي تعرفها والواقعة على الفرات هي مدينة قديمة ولم يكن أهلوها يكرّمون الآلهة، وكنت أنا وحدي خادماً متعبّداً للآلهة العظام. فدعا (أنوا) الآلهة، فعقدوا مشورة، فعرض عليهم (بعال) إنزال طوفان، فرأى رأيه (نابو وتركال ونينيب)، وأثبت أمرهم الإله (هيا) ربّ الحكمة غير المدركة. فسمعت أنا بالرؤيا (أو الحلم) القضاء المبرم وقيل لي: يا رجل شورِيباك...

دع بيتك واصنع لك فلكاً، وكمله عاجلاً فإني سأبيد كل ما فيه نسمة حياة، وأدخل كل ما فيه نسمة حياة في الفلك واجعل طول الفلك الذي تصنعه ستماية ذراع، وعرضه ستين ذراعاً وكذلك ارتفاعه، واطلقه في لجة الأمواه وغطه بسقف. ولما سمعت هذا قلت (لهيا): يا سيدي إذا صنعت الفلك الذي أمرتني بصنيعه سخر مني الشبّان والشيوخ. ففتح (هيا) فاه وقال لي: أنا عبده. إن سخروا منك فقل لهم: مَنْ احتقرني حلَّ عليه العقاب، فإنَّ الآلهة تذبّ عني... فإني أدين من علا ومن سفل. ولا توصد الباب إلى أن يأتي الزمان الذي أنبئك به، وحينئذٍ أدخل داخلاً وأوصد باب الفلك... وأدخل إليه قمحك، وأثاثك، وذخائرك وأموالك وخدّام امرأتك وخادماتك، وخادميك وحيوانات البرية، ووحوش البرية وكل ما أجمعه وأرسله إليك، فليكن محفوظاً داخل

فقال الله لنوح: قد دنا أجل كل بشر... فهاآنذا مهلكهم مع الأرض. اصنع لك فلكاً من خشب قطرانيّ واجعله مساكن... وكذا تصنعه ثلاثماية ذراع طوله وخمسون ذراعاً عرضه وثلاثون ذراعاً سمكه. وتجعل طاقاً للفلك وإلى حد ذراع تكمله من فوق (تك ف ٦ عد ١٣ وما يليه).

وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل، وضمّه إليك فيكون لك ولهم مأكلاً (ف ٦ عد ٢١).

باب الفلك... وفي اليوم الخامس ارتفع جانباه (أي الفلك)... وصنعت سقفه وأكملته، ودخلت داخله في السادس وقسمته في السابع إلى طبقات (لا يعلم اليوم أم الشهر هو المراد باسماء العدد هذه). وأقمت المساكن الداخلة في الثامن وفتحت أحواضاً لجمع الماء، وسددت كل ثقب يدخل الماء منه، وصببت ثلاث سارات (اسم مكيال أو وزن) من القار على خارجه، وثلاث سارات على داخله... وثلاثة آلاف وستماية حمّال كانوا يحملون على رؤوسهم صناديق الزاد، وحفظت ثلاثة آلاف وستماية صندوق مؤونة لأسرتي. «ثم يصف ما اذّخره وما أدخله السفينة من مقتنى وذخائر، وحيوانات إلى أن يقول: «إنَّ الإله شمش (أي الشمس) قال لي في السماء أنزل المطر من السماء مدراراً فأدخل السفينة وأطبق الباب. فقد دنا الحين المعيَّن فكان هذا الطوفان الذي قال إنه سيكون في المساء فخفت ذلك اليوم، ودخلت السفينة وأقفلت الباب، وسلَّمت السفينة إلى الربّان. فكان في أفق السماء ظلام حالك، وأرعد بين (إله العواصف)، ومشى نابو وشارو (الإلهان) فزلزلا الجبال والبطاح، وجرَّ نرغال القدير العصيف وراءه، وأجرى اذار الأقنية دون انقطاع... فبلغ طوفان الإله بين السماء، وانقلب كل نور ظلاماً، فباد عن وجه الأرض كل موجود حيّ «إلى

فتدخل الفلك أنت وبنوك ونسوة بنيك معك ومن كل حيّ... من الطير بأصنافها ومن جميع البهائم بأصنافها (عد ١٨ وعد ٢٠).

واجعل الفلك مساكن، واطلِه من داخل ومن خارج بالقار (ف ٦ عد ١٤).

وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض... في ذلك اليوم تفجَّرت عيون الغمر العظيم، وتفتَّحت كوى السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. فعلت المياه خمسة عشر ذراعاً على الأرض، وتغطَّت الجبال فهلك كل ذي جسد يدبّ على الأرض من الطير والبهائم والوحوش، وجميع الزحافات التي تزحف على الأرض والناس كافة» (تك ف ٧ عد ١٠ و١١ و١٢ و٢١).

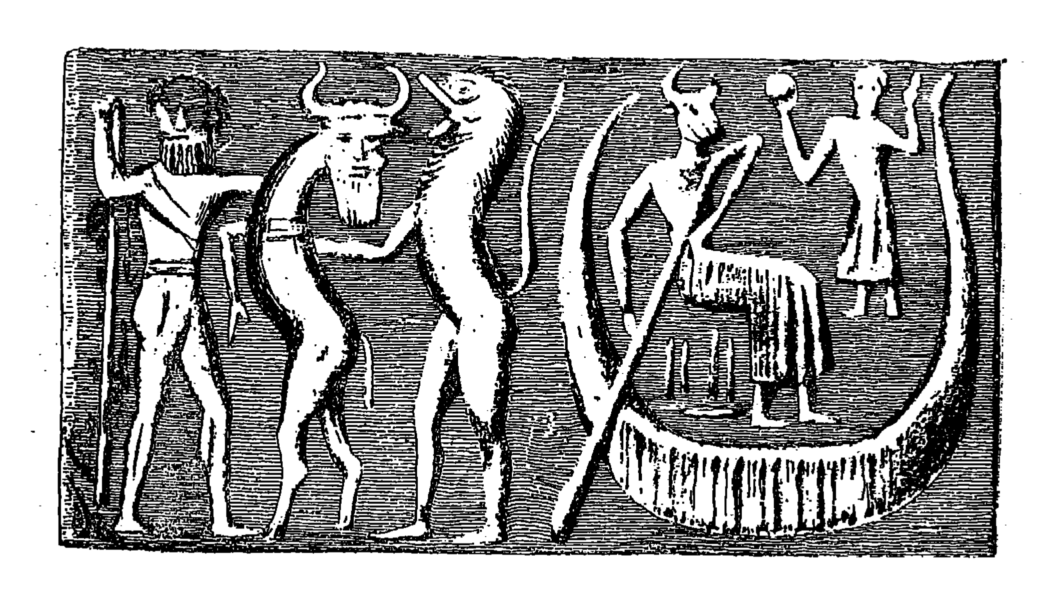
وذكر الله نوحاً. فتناقصت المياه... واحتبس المطر من السماء

أن يقال»: وفي اليوم السابع احتبس المطر وسكن العصيف الشديد الذي كان دمَّر الأرض كزلزال... فتفرّست حزيناً في البحر... والجثث تخفق كالقصب... وتولَّتني الكآبة فجلست وبكيت وفاضت مدامعي على خدي، وأشرفت على البلاد فلم أجد يابسة بل صارت بحراً. وقد حُمِلَ الفلك إلى ما فوق بلاد نيزير فأوقف جبل نيزير الفلك فلم يتجاوزه. ففي اليوم الأول... إلى السادس استمرَّ جبل نيزير على ما كان عليه، وفي اليوم السابع أخرجت حمامة وأطلقتها، فذهبت الحمامة وعادت فلم تجد محلاً تقرّ عليه فعادت، وأخرجت خطافاً وأطلقته فعاد إذ لم يجد محلاً يستريح به. فأخرجت غراباً وأطلقته فذهب، ورأى الجثث التي على الماء فأكل واستقرَّ عليها ثم لم يعد. وأخرجت أيضاً الحيوانات، وسرحتها إلى الأرياح الأربع، وقدَّمت ذبيحة وجعلت نار الذبيحة على قمة الجبل، ورتبت الآنية سبعة سبعة فاشتمَّ الآلهة رائحة الذبيحة الطيّبة، واجتمعوا فوق مقدم المحرقة. «ويستتبع عزيزدورا كلامه إلى أزدوبار قائلاً إنَّ الآلهة ارتضوا بمحرقته إلا الإله الأكبر الذي ترجم فيكورو اسمه بكلمة ايل أو ايلو، وترجمها لانرمان بكلمة بعل أو بعال؛ فهذا أظهر السخط على الآلهة لأنه بقي بعض الإنسان حيّاً فخاطبه هيا قائلاً: «كيف لا ترضى يا أمير الآلهة؟

وكانت المياه تتراجع عن الأرض (ف ٨ عد ١ وما يليه).

واستقرَّ الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال أراراط... وفتح نوح كوَّة الفلك التي صنعها وأطلق الغراب، وجعل يتردَّد إلى أن جفَّت المياه عن وجه الأرض. ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاضت المياه عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامة مستقرّاً لرجلها فرجعت إليه... ولبث سبعة أيام أخر، وعاد فأطلق الحمامة فعادت إليه وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء (ف ٨ عد ٧ وما يليه).

فخرج نوح وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه، وجميع الوحوش والدبابات والطيور... وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من جميع البهائم الطاهرة، ومن جميع الطير الطاهرة، فأصعد محرقات على المذبح فتنسَّم الرب رائحة الرضى (ف ٨ عد ١٨ إلى عد ٢١).



صورة عزيزدورا وازدوبار نقلاً عن صفيحة في المتحف البريطاني ويظن ان الأول نوح والثاني نمرود صفحة ٨٥.

ورجل الحرب وقد أنزلت الطوفان؟ فأوقر الأثيم إثمه والشرّير شرّه ولتأخذك الشفقة على الإنسان كيلا يباد وكن رحيماً... وبدلاً من أن تنزل الطوفان بعداً مُرْ تأتِ الأسد فتنقص البشر وبدلاً من الطوفان... مُرْ تأتِ مجاعة فتدمّر بعض البلاد. وبدلاً من أن تنزل طوفان آخر مُرْ يكن الوباء فينقص الناس... فخمد غضب أمير الآلهة، وصعد ايلو إلى السفينة وأخذ بيدي وأقامني وأقام امرأتي وأدناها منه وتحوّل نحونا وقام في وسطنا وباركنا. وعزيزدورا هو رجل عرضة للموت إلى الآن.

وقال الرب في نفسه: لا أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الإنسان... ولا أعود أهلك كل حيّ كما صنعت. وأبداً ما دامت الأرض. فالزرع والحصاد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل (ف ٨ عد ٢١ وعد ٢٢).

فكلّ من طالع هذه الرواية دُهش، ولا جرم بما يراه من مماثلتها لما جاء في الكتاب من حيث النسق والمبنى والاتفاق في أكثر المعاني، وإذا استثنيت تعدد الآلهة فيها لأنّ كاتبها من المشركين وبعض المباينة في الأعداد كعدة أيّام الطوفان، وأذرع السفينة وذكر ربّان لها وخادمين وخادمات لنوح وامرأته، وُجدت بين سائر أجزاء الرواية وبين كلام الكتاب ما يشبه الطباق التام، ولا عبرة للإيجاز والإطالة إذ لم ينشأ عنهما خلاف في الخبر. وأما تسمية الكتاب الجبل الذي استقرّت عليه السفينة اراراط، وتسمية الرواية له نيزير فيمكن حملها على أنّ لذاك الجبل اسمين. ومهما يكن فهذه الرواية التي سبق عهدها موسى قد نزلها العلماء حتى الملحدون منهم منزلة بيّنة قاطعة لإثبات حصول الطوفان إثباتاً علميّاً بغير طريقة الوحي أيضاً.

ومن الآثار الكلدانيّة القديمة الدالّة على الطوفان، نجتزئ بذكر ما رواه باروز عن النصوص المقدّسة في بابل، وضمّه إلى تاريخه الذي كتبه إلى اليونان. فبعد أن فرغ من كلامه في الملوك التسعة الذين كانوا قبل الطوفان قال إنه في زمان العاشر منهم كان الطوفان طبق ما جاء في الكتاب عن الآباء التسعة من آدم إلى نوح. وفي زمان العاشر منهم وهو نوح كان الطوفان. وهاك ترجمة نص باروز: «إنّ كيسوثروس (عزيزدورا) ملك ثمانية عشر ساراً (كما مرّ)، وعلى عهده حصل الطوفان العظيم الذي جاء تاريخه في النصوص المقدّسة هكذا. إنّ كرونوس (الإله هيا) ظهر له في الحلم وأنذره بأنه سيهلك الناس أجمع بالطوفان في الخامس عشر من شهر داشيوس، وأمره أن يأخذ البدء والوسط والنهاية من كلّ ما كُتب، وأن يفرّ إلى مدينة الشمس إلى شيبارا، وأن يبني فلكاً يدخل إليها مع أسرته وأصدقائه الأعزّاء، وأن يُعدّ في الفلك زاداً مأكولاً ومشروباً، وأن يُدخل إليها أيضاً الحيوانات والطيور والدبابات ويتأهّب للسفر... فأطاع كيسوثروس وبنى فلكاً طولها خمس غلوات (الغلوة في عرف العبرانيّينماية وخمس وعشرون خطوة) وعرضها غلوتان، وجمع كلّ ما أُمر بجمعه، وأدخل الفلك امرأته وأولاده وأصدقاءه الأعزّاء. فنزل الطوفان. ولما شرع الماء ينضب أطلق بعض الطيور، وإذ لم تجد هذه قوتاً ولا محلاً تستقرّ فيه عادت إلى الفلك. وبعد أيّام أطلقها ثانية فعادت إلى الفلك أيضاً والوحول على أرجلها. وأطلقها ثالثة فلم تعد الطير بعد فعلم أنّ الأرض جفّت، وفتح كوّة في أعلى السفينة، فرأى فلكه استقرّ على جبل. فنزل هو وامرأته وبنوه

والربّان، فسجد على الأرض ونصب مذبحاً، وقدّم عليه محرقات للآلهة وتوارى مع من صحبه. وأما من لبثوا في السفينة، فلما رأوه لم يعد، نزلوا إلى الأرض ينشدونه فسمعوا صوتاً من السماء يأمرهم أن اتّقوا الآلهة... وقد رست فلك كيسوثروس في أرمينيا وجزء منها باقٍ في جبال كورديا (كردستان الآن) ومن يحجّون إليه يأخذون شيئاً من القار ينتزعونه من بقاياها ويستعملونه وقاية من مفاعيل السحر».

انتهى مترجماً عن التاريخ الشرقي للانرمان (مجلد ١ صفحة ٥٨) وعن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو (مجلّد ١ صفحة ٢٥٠)، ولا حاجة إلى أن نقول شيئاً في المماثلة الكائنة بين هذه الرواية وما جاء في الكتاب في هذا الصدد؛ فهي بيّنة مصرّحة، بل نأتي إلى الكلام في آثار غير الكلدان.

إنّ مؤلّف المقالة في الآلهة السوريّة أنبأنا بما كان عند الآراميّين من أخبار الطوفان، كما كانت تُروى في هيكل إيرابوليس الشهير قال: «خبّر الكثيرون أنّ باني هذا الهيكل هو دوكليون سيسيتاس، وهو الذي حصل في عهده الطوفان الأكبر، وقد سمعت ما يرويه اليونان أيضاً من قصّة دوكليون؛ فيحدّثون أنّ ذريّة البشر الحاليّة ليست الأولى، بل كانت ذريّة قبلها هلك أناسها كلّهم، ونحن من ذريّة ثانية أصلها دوكليون، ثم نمت وكثرت بكرور الأيّام. أما الناس الأوّلون فيُقال إنهم كانوا ذوي كبرياء وقحة ارتكبوا المعاصي، ولم يكونوا يبرون إيمانهم ولا يعملون بسنن الضيافة ولا يترأفون بالمعوزين، فعوقبوا لآثامهم بداهية طامة؛ فقد انجرفت بغتة أمواه هائلة من الأرض وانهمرت من السماء عليهم أمطار غزيرة، وخرجت الأنهر عن مجاريها، وتجاوز البحر حدوده فغطى الماء كلّ شيء، وهلك الناس كافة. ونجا دوكليون وحده سالماً ليكون أصلاً لذريّة حديثة جزاءً لفضيلته وتقواه. وهاك وجه نجاته؛ فقد دخل مع أولاده ونسائهم في تابوت كبير كان له، ولجأت إليه في أثرهم خنازير وخيول وأسود وحيّات، ومن كلّ حيوانات الأرض فقبلهاكلّها عنده. وألهمها ذاوُس (الإله) كلّ مدّة اقامتها في التابوت وداداً متبادلاً، جنّبها أن يسطو بعضها على بعض، واستمرّت على ذلك في التابوت ما دامت الأمواه في طغيانها؛ فهذه أخبار اليونان عن دوكليون. على أنّ أهل إيرابوليس يزيدون على ما يتابعون اليونان فيه قصّة أخرى عجيبة؛ هي إنّه فُتح في بلادهم وهدة فسيحة غامضة ابتلعت مياه الطوفان على آخرها. فأقام دوكليون حينئذ مذبحاً

ودشّن هيكلاً لهارا (الآلهة) حذاء الوهدة. وقد رأيت أنا هذه الهواءة الواقعة تحت الهيكل، فإذا هي حجرة ضيّقة، ولا أعلم إن كانت قبلاً وسيعة فضاقت الآن، وذكراً للحدث الذي يروون خبره يحتفلون في العام مرتين بجلب ماء البحر إلى الهيكل ولا ينقله الكهنة فقط، بل يأتي جمّ غفير من الحجّاج من سورية كلّها ومن بلاد العرب، وعبر الفرات حاملين الماء، فيصبّونه في الهيكل فيجري إلى الهواءة فتبتلع على صغرها أمواهاً غزيرة. وينسبون سرّ ذلك إلى سنّة دينيّة افترضها دوكليون تخليداً لذكر الطوفان وإحسان الآلهة إليه؛ فهذا هو التقليد القديم في هذا الهيكل».

وللهنود في الطوفان تقليد يشفّ عن تاريخ الكتاب له ويحاكي تقليد الكلدان. وأقدم الروايات عندهم جاءت في آثارهم المسمّاة «ساثاباتا برهمانا» القديمة العهد، وأوّل من ترجمها مكس مولر وهي: «جيء ذات صباح يوم إلى مانو (هو في عرف الهنود أصل البشر) بماء ليغتسل، فعلقت بيده بعد الاغتسال سمكة ناجته قائلة نجّني فأنجّيك. فقال: بم تنجّيني؟ قالت سيكون طوفان عرمرم يهلك الخلائق كلّها فأقيك منه. فقال: وكيف أنجّيكِ أنا؟ قالت: كلما كنا صغاراً تعرّضنا لخطر كبير؛ فالسمك يبتلع السمك، فضعني أوّلاً في إناء فإذا كبرت فاحتفر حوضاً وألقني فيه، وإذا تناهيت في الكبر فاطرحني في البحر المحيط أنجُ من الهلكة. ولما كبرت السمكة بلّغت مانو أنّ الطوفان سيأتي سنة تبلغ هي معظم الكبر. وقالت إصنع لك فلكاً واسجد لي، وإذا غزرت المياه فادخل الفلك فأقيك... فصنع مانو الفلك وسجد للسمكة، ولما أتى الطوفان دخل الفلك فوافته السمكة تشقّ الماء، فأوثق فلكه بذنبها فعبر بهذه الوسيلة فوق جبل الشمال، فقالت له السمكة قد أنجيتك. فأوثق السفينة بشجرة كيلا يقلبها الماء. فنزل مانو عندما تناقص الماء؛ وهذا ما يُسمّى نزول مانو على جبل الشمال. وأباد الطوفان كلّ الخلائق إلا مانو فبقي حيّاً». فمهما يكن من الخرافات التي اشتملت عليها هذه القصّة، فيتحصّل منها صراحة اعتقاد الهنود حصول الطوفان، إذ يفسّرونها بأنّ أحد الآلهة أخذ صورة سمكة، فأنجى مانو وهو نوح عندهم من الطوفان. واتخاذ الآلهة صورة السمك أمر مستفاض عند القدماء، وترى كثيراً من صور الآلهة القديمة مؤلفة من هيئة بشر وسمك. وأصل ذلك اعتقاد القبائل العام؛ انّ وجود الكائنات ابتدأ بالماء أي بالغمر الذي كان عليه الظلام، وكان روح الرب يرفّ عليه والأرض خاوية خالية كما في الكتاب. وللهنود آثار

أخرى عديدة تدلّ على اعتقادهم حصول الطوفان، ذكرها لانرمان (مجلد ١ فصل ٤ في الطوفان) أضربنا عن إثباتها لنوسّع محلاً لغيرها.

ومن معتقدات أهل الصين أنّ (فحًا) الذي يعزون إليه أصل حضارتهم، نجا من الطوفان العظيم مع امرأته وبنيه الثلاثة وبناته الثلاث (رواه فيكورو في الوجيز الكتابي عد ٣٢١). ومن تقليدات الإيرانيّين القديمة المودعة في كتبهم المقدّسة الحاوية تعليم زورواستر (يسمّيه العرب زاردشت)، أنّ هرمزدا إله الخير أنذر (إيما) أوّل البشر، أنّ طوفاناً سيخرب الأرض ويبيد ما عليها، وأن يشيّد ملجأً منه جنّة مربّعة يحيطها بأسوار، ويُدخل إليها أصول البشر والحيوانات والنبات وقاية لها من الهلكة. فنزل الطوفان. فلم ينجُ منه إلا جنّة إيما وكلّ ما كان في داخلها، وأرسل هرمزدا طائراً يبشّره بالنجاة. فهذه الرواية تخالف غيرها من حيث وسيلة النجاة، وتطابق ما سواها في حلول الطوفان والنجاة منه. وقد مرّ ذكر معتقد اليونان الطوفان، ويُزاد عليه أنّ أهل أتينا كانوا يحتفلون لذكر الطوفان، ونجاة دوكليون منه بحفلة يسمّونها (إيدروفوريا)؛ أي حفلة الماء، وهي أشبه بما كان يصنعه أهل إيرابوليس في سورية كما مرّ؛ أي إنه كان تجاه هيكل ذاؤس الأولمبي وهدة في الأرض يقولون إنها ابتلعت ماء الطوفان، وذكراً لذلك يجتمعون في بعض الأيّام فيصبّون أمواهاً في تلك الوهدة مدوفاً بها طحين وعسل. وهذا مشعر بتطرّق هذا التقليد من سورية إلى بلاد اليونان. (عن لانرمان في التاريخ الشرقي مجلّد ١ صفحة ٧٣).

ومن أقاصيص الفينيقيين في آلهتهم أنّ (بون) الذي يعبّرون به عن البحر، قد تغلّب على (داموروس) الذي هو الأرض في عرفهم. وكان قدماء مدينة أباميا في آسيا الصغرى، يعتقدون أنّ مدينتهم كانت مهبط سفينة نوح، وينازعهم في ذلك سكان قونية، وقد ضرب كهنة أباميا في نحو القرن الثاني للميلاد نقوداً نُقشت عليها صورة السفينة مفتوحة، وصورة الأب الذي نجا من الطوفان مع امرأته يتناول حمامة آتية إليه بغصن زيتون، وعلى وجه الصكة الآخر صورة شخصين خارجين من السفينة ليمتلكا الأرض، وقد كُتب على السفينة اسم نوح بصورته اليونانيّة تلقّوها عن النسخة السبعينيّة.

ومما يُدهش، وجداننا في أميركا نفسها آثاراً دالّة على الطوفان أقرب مما سواها

لما جاء من أخباره في التوراة، وتقليدات الكلدان حتى أقرّ بعض البرهانيين أنفسهم بهذه المقاربة. والأظهر أنّ تقليد الطوفان تطرّق إلى هنالك مع من هاجروا من آسيا مجتازين بجزر كوريل إلى أميركا الشماليّة. ونجتزىء من هذه الآثار بذكر التقليد الذي وُجد عند سكان المكسيك قبل اختلاط الأوروباويّين بهم؛ فإنّ (كوسكس)، الذي يسمّيه بعض قبائلهم (تزبى) أيضاً، يعتقدون أنه نجا من الطوفان بسفينة دخل إليها مع امرأته وولده وكثير من الحيوانات، والحبوب المستلزمة لحياة الإنسان، ولما أمر الإله الأكبر بأن ينضب الماء، أطلق طائراً يقتات بالجيف فلم يعد لكثرة ما غطى الأرض منها، فأطلق طيوراً أخرى فلم يعد منها إلا الحمام حاملاً بمنقاده غصناً مورقاً، فعرف أنّ الشجر عاد يورق. ووُجدت عندهم صور تمثّل الطوفان والسفينة ونجاة البعض بها والطير الحاملة الغصن المورق.. وفي المكتبة الواتيكانيّة درج قديم، أوتي به من أميركا يشتمل على أربع صور رمزيّة، تشخّص أربعة أعصر في العالم سابقة هذا العصر، والعصر الرابع منها ينتهي بطوفان هائل عاد به كل الناس سمكاً ما خلا رجلاً وامرأته، خلصا بسفينة مصنوعة من خشب السرو. ويشار إلى أنّ هذا الطوفان كان آخر داهية خرّبت الأرض. ومن تقليدات سكان جزر فيدجي أنّ وطنهم بعد أن أهل بولد الرجل الأوّل والمرأة الأولى، حلّ فيه مطر عرمرم غرق الأرض برمتها، ولكن قبل أن تغشى الأمواه أعلى الأعالي أقبلت سفينتان فأنجتا ثمانية أشخاص (فيكورو في الوجيز الكتابي عد ٣٢١).

أما الآثار المصريّة فلم تنبئنا إنباءً صريحاً بالطوفان، بل صرّحت بإبادة الآلهة للناس عقاباً لمعاصيهم وعتوهم. ولما كان طغيان الماء في بلادهم حياة لها ومنبعاً لثروتهم أضربوا عن ذكر طوفان الماء، واكتفوا بذكرى إهلاك الآلهة للبشر إلا قليلين منهم. ومن هذه الآثار ما كُتب على مدفن ساتي الأوّل في طيبة (تاب) وترجمه إدوار نافيل ونش سنة ١٨٧٥م؛ ومحصله أنّ الإله (رع) استدعى سائر الآلهة، وأعلمهم بما يجدّف به الناس عليه وعليهم، وما يركبون من المعاصي وحضّ على إهلاكهم. فأسرعت آلهة فقتلت الناس على الأرض، فخمد غضب الإله (رع) بعد مقتلهم. وأخذ يأسف على ما أمر به، فقُدّمت له ضحية عظمى فسُرّ بها ورفع يده وأقسم أنه لا يُبيد الناس بعداً. وما من منكر للمقاربة بين هذه الرواية وخبر الطوفان في غير طوفان الماء والسفينة لاعراض المصريّين عن ذكره لما مرّ. ولولا خشية ملل

المطالع لأطلنا الكلام في هذا الباب، ومن أحبّ هذا التطويل فليطالع الفصل الرابع من المجلّد الأوّل من التاريخ القديم للمشرق للعلّامة لانرمان (من صفحة ٥٥ إلى صفحة ٩٢ من الطبعة التاسعة)، فإنه استقرى هناك آثاراً وتقليدات أخرى عديدة، وأثبت أنّ تاريخ الطوفان لا تخلو قبيلة من أثره إلا السودان خاصة، وهذا ما جعله يجنح إلى التسليم بقول من زعموا أنّ الطوفان لم يعمّهم وأنهم من ذريّة قايين كما رأيتَ آنفاً.

عد ٢٩
مستقرّ السفينة ومهد البشر بعد الطوفان

جاء في الكتاب (تك ف ٨ عد ٤): «استقرّ التابوت... على جبال أراراط»، وفي رواية باروز المارّ ذكرها، أنّ سفينة كيسوثروس استقرّت في أرمينيا. وقال لانرمان (في كتابه المعنون موجز تفسير باروز صفحة ٢٩٩[1] ما ملخّصه): «إنّ النص البابلي الأصلي الذي أخذ عنه باروز لا بدّ من أنه حوى كلمة أراراط كما في التكوين، لأنّ اسم أرمينيا المتعارف والمستطرق في الآثار المسماريّة إنما هو أورارطي أو أرارطي»، وهذا الاسم يعرفه العبرانيّون، ويجهله الجغرافيّون اليونان واللاتينيّون. والقدّيس إيرونيموس لخبرته باصطلاحات العبرانيّين ترجم أراراط بأرمينيا في الآية المارّ ذكرها وفي سائر الآيات التي حوت هذا الاسم. والكتاب لم يُعيّن جبلاً بل بلاداً، إذ لم يقل جبل أراراط بالمفرد بل جبال بالجمع، فكان مؤدّى كلامه أنّ السفينة استقرّت في أرمينيا، وعلى ذلك مشى تقليد عامة القبائل. على أنّ بعض أهل العلم في هذا العصر رأوا خلاف ذلك، ومنهم لانرمان (مجلد ١ من تاريخه الشرقي صفحة ٩٢ طبعة ٩) فإنه قال إذا تحرّينا آيات الكتاب لزمنا أن نهجر القول بأنّ أراراط في أرمينيا، لأنّ الكتاب قال بعيد ذلك (تك ف ١١ عد ٢) إنّ بني نوح ارتحلوا من المشرق نحو المغرب، فوجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا فيها، وشنعار هي أرض بابل. وعليه فيلزم أن يكون الجبل الذي استقرّت السفينة عليه سلسلة جبال الهند وكوش حيث محلّ يُسمّى أرياورتا (أي الأرض المقدّسة)، أو في

(١) Lenorman Essai de Commentaire de Berose.

الجبال التي يخرج منها نهر الهند المسمّى هندوس. وأقام على قوله بعض الحجج؛ منها تقليدات الهنود والفرس الذين هم من أقدم الأمم، وقد حفظوا ذكر الأعصر الأولى على سلامته، ومن تقليداتهم. أنّ أصل البشر كان مقرّه جبل مارو، وهناك مهبط الآلهة. وقال الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلّد ١ صفحة ٢٥٣) لا ننكر على هذا القول درجة ما من احتمال الصحّة لأنّ الكتاب لم يصرّح إلا بذكر أراراط، وكثيراً ما يسمّى محلّ أو جبل باسمين. ومن عادة المهاجرين أن يسمّوا أماكن وجبالاً وأنهراً باسماء آلفوها في مهاجرهم الأولى. على أنّ ورود اسم أراراط في أسفار الأنبياء المتأخرة كأسفار موسى المتقدّمة يؤيّد القول بأنّ أراراط في أرمينيا، ويزيد أيضاً إجماع تقليدات العبرانيّين والأرمن وغيرهم على أنّ السفينة استقرّت في أرمينيا، وهذه التقليدات صريحة، وليست أقلّ اعتباراً من تقليدات الهنود والفرس. انتهى مقال فيكورو. فإن لم يحقّ لمثلي أن يكشف عن رأيه بين هؤلاء العلماء الأعلام، فيحقّ له أن يعارض أقوالهم بعضها ببعض آنفاً فأقول إنّ لانرمان نفسه مهّد لرأيه الذي لخّصناه آنفاً بقوله: «إنّ بعض العلماء في صدر النصرانيّة آثروا الاعتماد على رواية باروز، بجعلهم مهبط السفينة في الجهّة الجنوبيّة في جبال أراراط نفسها؛ أي في جبال كورديا وهي كردستان الآن في الشمال الشرقي من آشور، وجبل نيزير الذي ورد ذكره في أشعار أزدوبار الآنفة الذكر؛ هو القسم الجنوبي من هذه السلسلة، وقد ذكره آشور نزيربال أحد ملوك آشور في إحدى كتاباته القديمة متكلّماً في غزوته لهذا الجبل قائلاً إنه اجتاز بنهر الزاب السفلي سائراً أبداً نحو المشرق». وعليه فإن لم تكن أرمينيا مع ما اتصل بها من جبال كردستان في الشرق الصريح من أرض شنعار، فلا أقل من أن تكون في الشمال الشرقي منها؛ وهذا بيّن وصرّح به لانرمان نفسه، فيصحّ إذاً أن يُقال إنّ المسافر منها إلى شنعار يسير من المشرق إلى المغرب كقول الكتاب: «ولما ارتحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار»، وعليه فما الحاجة «إلى التوغّل في الإتّجاه نحو الشرق للتفتيش عن قمّة عالية جداً كالتي قرّت عليها السفينة، ليتّصل المفتش إلى سلسلة الهند وكوش، أو إلى الجبال التي فيها منبع الهندوس»؟ كما يقول لانرمان (في المحل المذكور نفسه). فعلى إجلالي المزيد لهذا العلّامة المفضال على العلم؛ لا أرى حججه كافية لهجر التقليد الذي حفظته عامّة القبائل، وأيّده آباء وعلماء قدماء وحدثاء. ويطابق الكتاب اختلاف الرواية في الاسم فالأقرب إذاً إلى

الصواب كثيراً أنّ مستقرّ الفلك النوحيّة ومهد البشر بعد الطوفان، كانا في أرمينيا أو في الجبال المتصلة بها.

عد ٣٠
تتمّة أخبار نوح بعد الطوفان

.لم ينبئنا الكتاب من أخبار نوح بعد نجاته من الطوفان، إلا أنه عاد «يحرث الأرض» كما كان يصنع آباؤه، «وغرس كرماً». ولا يُفهم منه أنّ شجر الكرم لم يكن قبل الطوفان، بل ذكره الكتاب تمهيداً لخبره أنّ نوحاً شرب من الخمر فسكر غير عالم قوّة الخمر، والأظهر أنّ استعمال الخمر لم يكن معروفاً قبل الطوفان، وأما بعده فهو عند الساميّين أقدم منه عند اليافتيّين على ما روى العالم بولس كلاتز في مقالته في الكرم والخمر عند الساميّين واليافتيّين القدماء المثبتة في مجلّة اللغات الرومانيّة الصادرة في تموز سنة ١٨٧٠م[1]. واتبع الكتاب الخبر بأنّ نوحاً تكشّف داخل خبائه فسخر حام من عرية أبيه، وأخبر أخويه وهما خارجاً، فأخذا رداء ومشيا مستديرين وغطّيا عرية أبيهما، وأوجههما إلى الوراء. ولما علم نوح بعد إفاقته ما صنع حام فقال: «ملعون كنعان عبداً يكون لعبيد اخوته. وقال: تبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً له ليرحب الله ليافت ويسكن في أخبية سام، ويكون كنعان عبداً له». لا يُعلم لما لعن كنعان بن حام بدلاً من أبيه، والأظهر أنّ الإبن كان شرّيراً، واشترك في جرم والده، فلعنه جدّه واللعن للإبن يقهر الأب أيضاً. وهذه أوّل مرّة ورد فيها ذكر العبد في الكتاب على ما قال القدّيس أغسطينوس (في كتابه في مدينة الله ف ١٩). وكلام نوح هذا نبوّة جاءت الحوادث مصداقاً لها. فإنّ بني حام وإن فازوا بنجاح كبير وسريع، وأدرك بعضهم الحضارة قبل غيرهم كما كان المصريّون والفينيقيون والحثّيون، إلا إنهم لطّخوا شرفهم بوحول معاصيهم، وفساد أخلاقهم، وافتضحوا بخلاعاتهم وشركهم، وكلّ ما كان عند اليونان الرومانيّين من الشرك، والمعتقدات السيّئة قد تلقّوه عن الحاميّين أو عمن تلقّاه عنهم، ولذا تغلّب عليهم بعد ذلك الساميّون، وانتزعوا ما كان لهم من الولاية،

---

(١) M. Paül Glaise La Vigne et le Vin Chez les Semites.

والسطوة في بلاد الكلدان وآشور وسورية، ثم في مصر والحبشة أيضاً. وقهرهم اليافتيّون في الهند وبلاد فارس وفي مستعمرات الفينيقيين في أوروبا وغيرها. وحتى اليوم لا تجد في القبائل الحامية دولة مستقلّة معزّزة. وأما بنو سام فنالوا البركة والنماء، وتقوّوا كما مرّ على ابناء عمّهم حام، وحفظ العبرانيّون منهم وديعة الوحي المقدّس والإيمان الصحيح. ونما اليافتيّون وبلغوا أوج الحضارة، وأقبلوا بواسطة الساميين إلى معرفة الإله الحق والدين الصحيح، واشتركوا في بركتهم، وصحّ فيهم لذلك القول إنهم يسكنون في أخبية سام. وما أحسن ما قال فم الذهب في هذا الشأن (خطبة ٢٩ في التكوين): «أرى أنّ نوحاً بمباركته ساماً ويافث أراد أن يعبّر عن دعوة ذريّتيهما إلى الإيمان، فأراد بسام اليهود لأنه جدّ ابراهيم وأمة اليهود، وأراد ببركة يافث دعوة الأمم فإنه قال بهذه البركة. (ليرحب الله ليافث ويسكن في أخبية سام)، وهذا تمّ بالأمم؛ فقوله: ليرحب، يشير إلى الأمم كافة. وقوله: يسكن في أخبية سام، يدلّ على أنّ الأمم تنعم مشتركة بما أُعدّ لليهود». فيعد نوح بني يافت بالسعة في أملاكهم والمنافع الماديّة، ثم بالاشتراك في منافع بني سام الروحيّة. وأنبأنا الكتاب أخيراً أنّ نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاثماية وخمسين سنة. وسيأتي أنه يكون على ذلك قد بقي حيّاً في بعض سنيّ ابراهيم.

الفصل الثامن

ابناء نوح وتفرّق أبنائهم في الآفاق

عد ٣١

أهميّة الأنساب التي ذكرها موسى

قال الكتاب: «وكان بنو نوح الذين خرجوا من التابوت ساماً وحاماً ويافث، وحام هو أبو كنعان، ومنهم انبثّ الناس في الأرض» (تك ف ٩ عد ١٨ و ١٩). ثم ذكر موسى (في الفصل العاشر من هذا السفر) أنساب بني نوح وبني أبنائهم مبيّناً ذريّاتهم، وأيّ البلاد قطنوا في المعمور المعروف حينئذ، فكان لبيان هذه الأنساب أهميّة كبرى من وجوه؛ أخصّها أنّ ذلك أقدم بيّنة على أنساب أقدم الشعوب، فهو محور تدور عليه مقالات النسّابين، ومصدر يرجع إليه كلّ من يتكلّمون في أصول الشعوب القدماء ومواطنهم، سواء كانوا ممن اعتقد التوراة والتنزيل أو ممن كذّبوا بالكتاب أيضاً. ولا مراء بأنّ هذه البيّنة منذ عهد موسى على أقلّ نسباتها؛ أي منذ نحو خمسة عشر قرناً قبل التاريخ المسيحي. ولا يُعرف حتى الآن أثر تبيّن منه أنساب القبائل القديمة، يشاكل ما رواه موسى بقدمه واتساع اشتماله، بل يظهر أنّ الأنساب التي ذكرها موسى تلقّاها عن تذكّرات أو تقليدات سبقت أيّامه، وقد حفظتها ذريّة عابر، وأتى بها ابراهيم من بلاد الكلدان إلى فلسطين وتطرّقت باسحق ويعقوب وذريّته إلى موسى. وعلى ذلك أدلّة؛ أوّلها أنّ النظام الجغرافي للشعوب التي ذكر موسى نسبها مركزه بلاد الكلدان لا مصر ولا فلسطين. ثانيها أنّ بعض المواطن التي عيّنها موسى لبعض الشعوب كان طرأ تبدّل على سكّانها يوم كتب التوراة، كما يتبيّن من الآثار المصريّة وغيرها. ثالثها أنه وصف بعض المدن بأنها كانت عامرة زاهرة بمجدها مع أنها كانت في أيّامه خربة

أو ساقطة عن مجدها، ولا وسيلة له لعرفان ما كانت عليه قبله إلا تذكّرات أو تقليدات سابقة، فتعيّن أنه أخذ تلك الأنساب عن آثار سابقة عصره. وقد علّق العالم بورداي Dr Bourdais مقالة مهمّة في المجلّة المعروفة بالمجلّة الكتابيّة Revue Biblique في عددها الثالث في تمّوز سنة ١٨٩٢م، بيّن بها بإسهاب وفقاهة أنّ الأحد عشر فصلاً من سفر التكوين - خاصة هذه الأنساب - أخذها موسى عن مفكّرات قديمة كتبها الآباء الأوّلون قبل أن شخص ابراهيم إلى فلسطين، واتصلت بابراهيم ونسله إلى موسى.

ثم إنّ هذه الأنساب أساس وطيد للمباحث التاريخيّة عن أصول القبائل القديمة وعلاقات النسب بينها. وكلّ ما تقدّم العلم بهذه الأمور بواسطة الاكتشافات الحديثة، والمعارضة بين لغّات هذه القبائل ازدادت رواية موسى ثبوتاً وبياناً علميّاً. فقد جاءت الخطوط الهيروكليفيّة المصريّة، والمسماريّة الكلدانيّة مصداقاً لما كتبه موسى في التكوين. حتى اعتقد العالم أبار في كتابه مصر وأسفار موسى[1] على إنكاره الوحي أنّ موسى أخذ عن المصريّين ما كتبه في أنساب بني حام. وقال العلّامة شارل شابل[2]: «كلما تقدّم العلم بأصول اللغات والتاريخ جاءت القبائل - التي ذكر موسى أنسابها - معروضة إحداها بعد الأخرى على أبصار المؤرّخ، مؤدّية بنظامها الجميل التكريم والتوقير للعلم السامي الذي حبا الله به كاتب السفر المقدّس» (كتابه المعنون الدفاع عن صحّة رواية موسى في التكوين).

عد ٣٢
هل ذكر موسى أنساب البشر كلّهم؟

من المعلوم أنّ البشر ينقسمون من حيث اللون والشكل والهيئة إلى ثلاثة أو أربعة أقسام، سمّوها أنواعاً توسعاً لأنّ البشر كلهم نوع واحد لاشتراكهم جميعاً بالخواص الجوهريّة المميّزة لنوعهم. وأوّلها النوع الأبيض ويسمّونه القوقاسي نسبة إلى قوقاس، وهو جبل قاف لامتياز أهل نواحيه خاصّة ببياض البشرة، وحسن استدارة القحف، ولين الشعر ورقّة الأنف، إلى غير ذلك من مميّزات هذا النوع الذي منه

(١) Eber Acgypten Und Die Bûcher Moses t. 1p. 55.

(٢) Charle Schocbel L'authenticite Mosaique Dans la Genese.

أكثر سكان أوروبا ومستعمراتهم، وسكان آسيا الغربيّة وسواحل افريقيا الشماليّة. والثاني الأصفر وهو يمتاز بصفرة البشرة، وقلّة الشعر وخشونته، واستواء الوجه، وانخفاض الجبهة وضيقها، وفطس الأنف، وضخامة الشفتين، وقصر القامة، ومنه أهل الصين والهند ويابان وشمالي بلاد المسكوب، والمجيار في أوروبا وبعض سكان شمالي أميركا. والثالث الأسود وهو يمتاز بسواد البشرة، وجعودة الشعر وسواده، وانخفاض الجبهة، ومقدم القحف، وفطس الأنف وبروز الفك الأعلى عن مساواة الوجه، واتساع الفم. ومنه أكثر سكان افريقيا في أواسطها وجنوبها. والرابع وقد ألحقه بعضهم بالثالث، وهو الأحمر أو النحاسي ويمتاز باللون النحاسي أو الزيتوني، وبغيره من سمات النوعين الثاني والثالث، ومنه سكان جزائر البحر المحيط، وجزيرة ماداكسكار والأحباش وأكثر سكان أميركا الأصليّين. فمن كلّ هذه الأنواع يظهر أنّ موسى اكتفى بذكر أنساب النوع الأوّل الأبيض وحده، وقد أثبتت المجلّة المعنونة التمدّن الكاثوليكي Civilta Cattolica (في عددها الصادر في ١٥ شباط سنة ١٨٧٩م) مقالة فاضت بالبرهان على أنّ موسى لم يتعرّض لذكر أنساب النوع الأصفر أو الأسود أو الأحمر، لأنّ غرضه لم يكن أن يبيّن أصل كلّ الشعوب الذين تتألّف منهم البشريّة، بل الشعوب الذين يعرفهم العبرانيّون ويهمهم أن يعرفوهم. وأما السودان الذين في افريقيا فلا جرم أنّ العبرانيّين كانوا يعرفونهم عند اقامتهم في مصر، وكان للفراعنة معهم حروب قبل عهد موسى أيضاً، وكانوا يشخصون منهم أسرى إلى مصر. وكان العبرانيّون يرون صورهم على آثار مصر، وقد تواتر ذكرهم في بابيرات وخطوط مصريّة قديمة مسمين نحشى أو نجاشى، ومع هذا لا نرى موسى أتى بذكر أصلهم، إذ لم تكن لهم علاقة مع تاريخ العبرانيّين لا في عهد موسى ولا بعده.

فمن أيّ أصل تفرّع الشعوب الذين لم يذكر موسى أنسابهم؟ هذا مبحث آخر لا يعتاص علينا الإهتداء إلى وجهه. فقد جاء في الكتاب أنّ نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة، فلا مانع من القول أنه ولد في هذه المدّة أولاداً غير سام وحام ويافث، كانوا أصولاً لشعوب أخرى. وكذا قال الكتاب في سام بعد ذكر ولادته أرفخشاد: «وعاش سام بعد أن ولد أرفخشاد خمس مئة سنة ولد فيها بنين وبنات» (تك ف ١١ عد ١١). ويبيحنا الكتاب أن نقول مثل ذلك في

حام ويافت، أعني أنهما ولدا أولاداً غير من ذكرهم لهما، فكان هؤلاء أيضاً أصولاً لشعوب أخرى لم يذكرهم موسى لعدم ذكره آبائهم. وذكر لانرمان (في موجز تاريخه القديم للمشرق مجلّد ١ صفحة ١١٠) وجهاً آخر لذلك قال لا يمنعنا الكتاب من أن نسلّم أنّ بعض الأسرات المتشعّبة من ابناء نوح الثلاثة، انفصلت عن الأصل العام في المدّة التي بين الطوفان وتشييد صرح بابل، (وليست أقلّ من مئة سنة). وقبل التفرّق العام الذي دعا إليه بلبال الألسن، فعاشت معتزلة كلّ العزلة عمن سواها، فاكتسبت هيئة مخصوصة بها. ولم يحفل موسى بذكرها إذ كان غرضه أن يكتب أنساب الشعوب الذين تفرّقوا في الآفاق بعد أن أقاموا مجتمعين في شنعار، فكانوا أصولاً لأكثر سكان آسيا وأوروبا وقسم من سكان افريقيا، وهؤلاء هم القسم الأهمّ والأشرف من النوع البشري. وترك موسى للنسابين المتأخّرين أن يستوضحوا باكتشافاتهم ومباحثهم عن أنساب من لم يُصرّح بنسبهم. (انتهى ملخّصاً عن الوجيز الكتابي لفيكورو عد ٣٣٢ وعن الفصل المثبت في المجلّة المارّ ذكرها).

عد ٣٣

الأنساب التي ذكرها موسى وأوّلاً في بني حام

ذهب بعض أهل العلم أنّ الأعلام التي ذكرها موسى في أنسابه تعيّن أفراداً، وذهب غيرهم أنها تعيّن قبائل أو شعوباً. والصحيح أن بعضها علم لأفراد مثل سام وحام ويافت وغيرها، وبعضها علم لقبائل مثل مصرائيم ولوديم والجرجسي والأموري وغيرها. وقد ضاق ذرع العلماء ومفسّرو الكتاب دون التوفيق بين أعلام الأفراد والقبائل والبلاد التي ذكرها موسى، وبين أسمائها الآن كلفاً بالحصول على علم واضح بها. على أنّ الاكتشافات الحديثة ومعارضة اللغات والاطّلاع على رموز الخطوط الهيروكليفيّة والمسماريّة، انجلى بها كثير من هذه الأنساب ومواطن أهلها، فتيسّر إدراكها من جهة وجاءت من أخرى مصداقاً لما ورد في الكتاب، وما بقي منها غامضاً، يرجى بتقدم العلم بهذه الاكتشافات كشف النقاب عن غموضه. وهذه خلاصة ما كتبه موسى في هذه الأنساب ومواطن أهلها.

قال: «هؤلاء مواليد بني نوح سام وحام ويافت، ومن وُلد لهم من البنين بعد

الطوفان». وذكر بنو يافت أوّلاً على أنّ لانرمان في تاريخه القديم لشعوب المشرق والأب فيكورو في الوجيز الكتابي، وفي الكتاب والاكتشافات الحديثة ذكرا نسب بني حام أوّلاً بناءً على أنّهم أوّل من ابتعد عن المركز العام وشيّد ممالك قديمة، فنقفو أثرهما مبتدئين بأنساب بني حام، ثم أنساب بن سام، خاصّة وأنّ لنا وجهاً ليس لهذين العالمين، وهو أنّ كلامنا في تاريخ سورية وأكثر سكانها القدماء حاميون وساميّون. وقبل أن نأتي إلى التفصيل نقول بالإجمال إنّ ذريّة حام كان منهم الكوشيّون، وكانت مساكنهم في بابل على شطوط بحر عمان إلى الحبشة، والمصريّون ومساكنهم مصر، والفوطيّون ومساكنهم شمالي افريقية على سواحل البحر أو جنوب العربيّة وبعض شرقي افريقية، والكنعانيّون ومساكنهم شمالي سورية وفينيقية، وكل ما هو بين البحر المتوسط والبحر الميت. وذريّة سام كان منهم العيلاميّون والآشوريّون والعرب سكان البلاد المنسوبة إليهم، والعبرانيّون والآراميّون سكان سورية حيث دمشق وما يليها، وذريّة يافث كان منهم الماديّون والفرس واليونان، والترك والصقالبة والتتر، وغيرهم من الشعوب الذين اجتازوا إلى أوروبا وغيرها. ولنأتِ إلى التفصيل.

قال الكتاب (تك ف ١٠ عد ٦): «وبنو حام كوش ومصرائيم وفوط وكنعان». قد أنبأتنا الآثار الهيروكليفيّة أنّ المصريّين وإن لم يسمّوا أنفسهم حاميّين، فقد سمّوا وادي النيل حامي في كثير من آثارهم إيذاناً بأصلهم، وإن تأوّل المتأخرون منهم كلمة حامي بمعنى الأسود أو الأزرق، زاعمين أنّ وادي النيل سُمّي بذلك للونه. ثم إنّ أوّل ابناء حام كوش، وترى الآثار المصريّة تُسمّي سكان الحبشة كوش، وتصف وليّ العهد في مملكة مصر بحاكم كوش أو واليها. قال لانرمان (مجلد ١ صفحة ٢٦٦ من تاريخه القديم) ما محصله إنّ اسم كوش في سفر التكوين كاسمه عند الجغرافيّين، يُطلق على مجموع كبير من الأمم يقرب بعضها من بعض كلّ القرب بالهيئة الطبيعيّة، وإن اختلفت هذه الأمم لغة. وكانت بلادهم ممتدّة على شاطئ بحر عمان في الشرق من افريقيا إلى مصبّ نهر الهندوس. ولنا على ذلك بيّنة بما ذكره الكتاب عن ابناء كوش متّبعاً فيه نظاماً جغرافيّاً كاملاً، مبتدئاً به من المغرب إلى المشرق فإنه قال: «وبنو كوش سبا وحويلة وسبتا ورعمه وسبتكا» (عد ٧). فبلاد سبا جعلتها بعض نسخ الكتاب متّصلة بمصر والحبشة. وجعل

استرابون موقع مدينة سبا على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر وفي الشمال من بوغاز باب المندب «وحويلة». وفي كلام ابن خلدون جويلا وهي بلاد الحويليّين، وكانوا يسكنون شاطئ الخليج العربي من جهة مصر، وحويلة هذه غير حويلة الواقعة في مساكن الساميّين في بلاد ذريّة يقطان. وأما «سبتا» فاسمه أشبه باسم مدينة ساباتا أو سابوتا التي صارت بعداً عاصمة سكان حضرموت في طرف بلاد العرب الجنوبي «ورعمة». (وفي الترجمة السبعينيّة وترجمة القدّيس إيرونيموس رغمه بالغَين المعجمة). يظهر أنّ ذريّته أقامت على الشاطئ الغربي من خليج العجم، فهناك مرفأ يُسمّى رغمه ويسمّيه العرب برجام، ويؤيّده قول الكتاب «وبنو رعمه شبا وددان» (عد ٧) فهناك جزيرة من جزائر البحرين تُسمّى داذان. وأما شبا ففي اسمه غموض ويمكن أن يكون المراد به شعب أشاب الذي جعل الجغرافيّون مساكنه على شاطي بحر عمان، وذكر بلينيوس هناك شعباً سمّاه شبا. وفي تاريخ ابن خلدون «ومن ولد رعما شاو وهم السند وداذان وهم الهند». وبقي من ولد كوش هؤلاء سبتكا (وفي كلام ابن خلدون سفخا)، ولم يتحقق بعد موقع موطن بنيه، بل كان فيه تخمينات بعيدة المرمى أقربها إلى الصدق، أنّ هذه القبيلة توطّنت كرمانيا المسمّاة الآن كرمان أو لايستان على أطراف بلاد فارس في الجنوب الغربي من أفغانستان حيث ذكر الجغرافيّون نهراً سمّوه ساييس وشعباً سمّوه سابا.

وقد أنبأنا الكتاب أنّ نمرود أيضاً من ولد كوش. وقاطعنا سلسلة الأنساب مشغلاً إيّانا بعدّة آيات، ذكر فيها ملك نمرود وأوصافه والمدن التي وليها أو بناها، فتحتّم علينا أن نتابع الكتاب بشرح ما رواه لأهمّية هذه المملكة الأولى والمدن الأولى في العالم ولتواتر ذكرها في الأسفار المقدّسة.

عد ٣٤

نمرود والمدن التي وليها والتي بناها

أنبأنا الكتاب أنّ بني كوش لم يهاجروا بأجمعهم من أرض شنعار بل بقي منهم بقيّة فيها وفي جوارها. وجاءت الآثار المسماريّة تزيد ذلك ثبوتاً وبياناً، إذ ظهر منها أنه وجد في أقدم الأيّام شعب يُسمّى كاشي، أقام في أنحاء بابل في الشمال الغربي من بلاد عيلام، وهاك كلام الكتاب: «وكوش ولد نمرود وهو أوّل جبار على

الأرض... وكان أوّل مملكته بابل وأرك وأكّد وكلنه في أرض شنعار (تك ف ١٠ عد ٨ إلى عد ١٠). فنمرود كلمة آشوريّة تأويلها العاصي أو المتمرّد، وهو أوّل من أقام مملكة بعد الطوفان. وقد روى العالم أبار (في كتابه المارّ ذكره الموسوم بمصر وأسفار موسى صفحة ٥٨)، والعالم شباس (في كتابه المسمّى سفر مصري صفحة ٢٢٣ إلى ٢٢٥)[1] أنّ آثار مصر حفظت ذكر نمرود. وذهب سميث وكثيرون من أهل العلم في الآثار الآشوريّة إلى أنّ أزدوبار البطل المارّ ذكره في الأشعار التي روينا أكثرها في كلامنا على الطوفان هو نمرود. وقال الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة صفحة ٢٩٤): «ومهما يكن من أمر الاسم فما اكتشف من الآثار الآشوريّة جاء مؤيّداً ما رواه موسى عن هذا الغازي. فإنّ الحاصل من رواية سفر التكوين أنّ ذريّة حام جدّ نمرود هي أوّل من حكم على الأرض بعد الطوفان، وأنّ هذه الدولة الحامية امتدّت سلطتها من الجنوب إلى الشمال. فإنّ نمرود حكم في بابل أوّلاً ثم غزا بلاد آشور فدوّخها بسلاحه». والآثار الآشوريّة تؤيّد كل ذلك كما سترى. وقال لانرمان (في موجز تاريخه القديم مجلد ١ صفحة ٩٩): «أجمع العلماء الآن أنّ شاطي دجلة وبلاد فارس الجنوبيّة، وقسماً من الهند نفسها توطّنها أوّلاً ولد كوش، وحكموا فيها قبل أن يأتيها ابناء سام ويافث».

وأما المدن الأربع التي جعلها الكتاب أركان مملكة نمرود، وهي «بابل وأرك وأكّد وكلنه»، فاثنتان منها؛ أي بابل وأرك، سمّتها الآثار الآشوريّة بالاسم نفسه الذي عرفها به موسى؛ ومن هذه الآثار ما رويناه آنفاً من أشعار أزدوبار. وموقع بابل على ضفّة الفرات، وسيجيء الكلام فيه عند الكلام في الصرح البابلي. وأما أرك فكان قول عامة العلماء إنها الرها المسمّاة الآن أرفا استناداً إلى شهادة كثير من مشاهير القدماء منهم القدّيس إيرونيموس، والقدّيس افرام شمّاس كنيسة هذه المدينة والترغوم (الترجمة) الأورشليمي. على أنّ بعض المتأخّرين أخذوا في العدول عن هذا القول إلى القول بأنها البلدة المسمّاة الآن وركا أو ورقه الواقعة على ضفّة الفرات السفلى في الجنوب الشرقي من بابل لتسمية النصوص المسماريّة هذا المحلّ أركو أو أورك، وتسمية المؤلفين اليونان له أوركوا. وقد وُجد في خراباتها قِطع آجرّ كُتب

---

(١) Chabas Voyage d'un Egyptien p. 223.

عليها اسم هذه المدينة بعلامة قرأها أوبر أركو، وقرأها غيره روتكى، ومعناها مدينة القمر. ومن تخمينات راولينسون القريبة من الصواب، أنّ اسم أرك ليس إلا مكسر يارح كلمة ساميّة معناها القمر، ويظهر أنها كانت مقبرة عامة فقلَّ أن يوجد لوركا شبيه بكثرة المدافن وبقايا العظام البشريّة.

وأما أكّد فلا تجد في حطام القدماء إلا اسمها في الأسفار المقدّسة. وأما الآن فقد وجد اسمها في كثير من الكتابات المسماريّة القديمة والحديثة مدلولاً به؛ تارة على مدينة، وتارة على بلاد، وأخرى على شعب. وأما المدينة فكانت نحو الشمال الشرقي من بابل على مقربة من شيبار المسمّاة الآن ابو حابور. وأما بلاد أكّد فكأن يُراد به القسم الشمالي من مملكة بابل، كما كان يُراد بسومير أو شومير قسمها الجنوبي. وشعب أكّد ذهب كثيرون، منهم هنري راولينسون، أنه كان يُراد به الحاميّون الذين توطّنوا أوّلاً أرض شنعار. ومن الآثار التي ذُكرت بها أكّد كتابة سنحاريب المنقوشة في بافيان، حيث ذُكر ملكاً لأكّد كان في عهد تجلت فلاصر الأوّل ملك نينوى نحو سنة ١١٣٠ق.م فقال: «أخذ جنودنا الآلهة التي كانت تسكن هناك وكسروها وغنموا بكنوزهم... وآلهة الهيكل التي كان أخذها مردوخ نادين أخي ملك أكّد من تجلت فلاصر وجلاها إلى بابل، رددتها أنا من بابل من بعد ٤١٨ سنة وركزتها في محلّها الأوّل»؛ أي في هيكل نينوى. وهذه الكتابة تدلّنا على أنّ أكّد كانت ذات سطوة وصولة من أقدم الأيّام حتى قبل عهد تجلت فلاصر الأوّل.

وبقي كلنه؛ فقد قال أكثر مفسّري الكتاب وأهل التدقيق بأنّ موقعها على الضفّة الشرقيّة لدجلة في مملكة بابل في الجنوب الشرقي من بغداد، حيث أُقيمت بعد ذلك قطيسفون وهي المدائن تجاه سلوقية. ولا يمكن القطع بذلك لكنه كالموكّد، ويُؤيّده التقليد الكلداني القديم. وقد اعتمده أوسابيوس القيصري، والقدّيس إيرونيموس، والقدّيس افرام، وأبو الفرج ابن العبري، ويزيده تأييداً أنّ البلاد الواقعة فيها قطيسفون، كان يُسمّيها اليونان كلنوتيس أي بلاد كلنة. والآثار المسماريّة لم تنبئنا حتى الآن بما يُثبت هذا القول أو يُخالفه. انتهى ملخّصاً عن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو، وعليه فالمدن الأربع في العراق العربي.

وجاء في الكتاب بعد ذلك (تك فصل ١٠ عد ١١) «ومن تلك الأرض (يريد أرض شنعار) خرج آشور فبنى نينوى وساحات المدينة وكالح، وراسن بين نينوى وكالح، وهي المدينة العظيمة». قال فيكورو (مجلد ١ من الكتاب والاكتشافات صفحة ٣٠٩) إنّ قول الكتاب ومن تلك الأرض خرج آشور فبنى نينوى، يتحمّل معنيين؛ فقال بعضهم إنّ الكلام في شخص غير نمرود وهو آشور، وإنّ هذا بنى نينوى فاستمسكوا بظاهر اللفظ. وقال غيرهم ما هذا الكلام إلا تتمّة تاريخ نمرود، فلا يُراد بآشور رجل بل بلاد ، ومعنى الآية عندهم خرج نمرود من تلك الأرض إلى بلاد أشور فبنى نينوى الخ.

وقول هؤلاء أَثبت وهو الذي يقتضيه المعنى ومساق الكلام، وليس فيه تكلّف إلا لتقدير حرف الجر؛ أي خرج إلى آشور أو تعدية خرج بنفسه. وكذا رأي لانرمان (مجلّد ٤ من تاريخه القديم صفحة ٦٤) قائلاً: إنّ تقليد الساميّين بجملته يُثبت ذلك وإنّ أرض نمرود من قول ميخا النبيّ (ف ٥ عد ٦) «فَيرعون أرض آشور بالسيف، وأرض نمرود بمداخلها»؛ يُراد بها بلاد الكلدان وبلاد آشور معاً. وأنّ النبي يعتبر نمرود باني بابل ونينوى، وهذا أطبق لما سترى من الآثار. وترى أبداً اسم آشور في الكتاب علماً لأحد ابناء سام، ولبلاد، لكنه ورد في الآثار علَماً لمدينة مخصوصة ولبلاد ولإله ليس هو إلا أشور ثاني ابناء سام، ألّهوه على جاري عادتهم وباسمه سُمّيت البلاد التي هي الآن الجزيرة. فنمرود من ذريّة حام ولِيَ قومه أوّلاً، ثم خرج من الجنوب إلى نحو الشمال فوليَ بلاد آشور وسكانها الساميّين. ومما يُثبت ذلك وجداننا لغة نينوى ساميّة كلغة بابل إلا في اختلافات طفيفة، ثم تصريح تقليدات نينوى بأنّ أصلها كلداني بابلي، فإنك تجد على شواطئ دجلة والفرات الطباق التام في المعتقد والمعبودات، ونوع عبادتها وفي اللغة والكتابة وأنواع الحضارة والعادات. وقد برهن العالِم فيكتور بلاس[1] (في كتابه في نينوى وآشور مجلّد ١ صفحة ٢١٤) هذا الأمر ببناء المساكن في آشور بالآجرّ، مع أنّ الحجارة في جهات الموصل حيث كانت نينوى يسهل استحضارها بخلاف جهات بابل، فلا وجه للبناء بالآجرّ في آشور وعلى هيئة أبنية بابل إلا استمساك المرتحلين من بابل إلى نينوى بعادات مهاجرهم الأولى، وعليه فالحضارة الآشوريّة بنت الحضارة البابليّة الكلدانيّة.

(١) Victor Place. Ninive et l'Assyrie.

إنّ اسم نينوى معناه في لغتهم المسكن أو المدينة، وهي أوّل مدينة بنيت في بلاد آشور بعد الطوفان، ولكن تغلّبت عليها منذ أقدم الأيّام مدينة راسن الآتي ذكرها. ثم سقطت راسن من ذرى عظمتها، فخَلفتها نينوى في دورها الثاني؛ وإلى هذا الدور تعزى الآثار المسماريّة الوارد بها ذكر نينوى. وقد بيّنت الآثار الآشوريّة أنّ موقع نينوى كان في المحلّ المسمّى الآن كوينجيك في الشرق الجنوبي من الموصل.

وأما مدينة كالح فموقعها في محل نمرود الآن في جنوبي الموصل، فلم تكن في الشمال من نينوى في جوار خرشباد كما توهّم بعضهم، بل في الجنوب من نينوى حيث الآن خرابات نمرود كما حققت ذلك اكتشافات لايرد، فإنه وجد هناك كثيراً من الكتابات والآثار الدالّة عليها. وكانت هذه المدينة عاصمة الملك في عهد سلمناصر الأوّل، وبنى فيها هو وبعض خلفائه قصوراً شاهقة، ووجد في خراباتها تمثال سلمناصر الثالث. روى ذلك الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٣٠٠ و ٣١٢). وقال أوبر[١] (في رحلته في ما بين النهرين مجلد ١ صفحة ٣٠٩) إنّ موقع كالح كان في محلّ خرابات نمرود، وهذا أمر غنمه العلم من الآثار ولم يحدث فيه بعد خلاف.

وأما راسن فقد صرّح الكتاب بأنّ موقعها بين نينوى وكالح أي بين نمرود وكوينجيك، لا على ضفة النهر بل في داخليّة البلاد على مسافة ست ساعات من خرشباد. ويُرجّح أن يكون موقعها حيث الآن كَرَكوش على ما روى أوبر في المحلّ المذكور. وكانت هذه المدينة عاصمة آشور بعد نينوى في دورها الأوّل كما مرّ؛ ولذا وصفها الكتّاب بأنها المدينة العظيمة. فالوصف لها لا لنينوى، كما توهّم بعض المفسّرين، بل لا يمكن عوده على نينوى إلا بتعسّف ظاهر. وعليه فوصف راسن بالمدينة العظيمة – مع أنها دُمّرت منذ أقدم الأعصر – دليل ساطع على قدم تاريخ موسى. فعظمة راسن أقدم كثيراً من عهد عظمة نينوى في أيّام ملوكها الآشوريّين المعاصرين ملوك يهوّذا واسرائيل. وكفى بهذا مؤونة لرد مزاعم بعض المندّدين الألمانيّين الذين وهموا أنّ أنساب موسى كتبت في عهد ملوك اسرائيل.

(١) Opport Expédition en Mesopotamic.

عد ٣٥

مصرائيم بن حام وأعقابه

ولنعد إلى الأنساب التي أشغلنا الكتاب عنها بذكر نمرود وملكه ومدنه. قد سمّى الكتاب ابن حام الثاني «مصرائيم»، وتجده يُسمّي أبداً وادي النيل مصراً والآثار الآشوريّة تسمّيه مُصُر أو مِصِر، والفارسيّة مودريا بإبدال الصاد بالدال. والاسم في العبرانيّة بصيغة المثنى أو الجمع لقسمة هذه البلاد من أقدم الأيّام إلى مصر العليا ومصر السفلى. ثم ذكر الكتاب ابناء مصرائيم فقال: «ومصرائيم ولد لوديم»، وذريّة لوديم هم المصريّون بحصر اللفظ وكانوا الفصيلة المتغلّبة، ويُسمّون أنفسهم لوت أو روت، وإبدال اللام بالراء مستفاض عندهم وأكثر منه إبدال التاء بالدال وعكسه؛ فتكون لوت بدلاً من لود كتسمية الكتاب لهم «وعناميم». وقد كثر في الآثار المصريّة ذكر عانو مراداً بهم شعب مشتت في أكثر أنحاء وادي النيل، وقد حفظ اسمهم أيضاً في اسماء بعض المدن في مصر. فإنّ اليبولى ودندره كان اسمهما عان في لغتهم، وكان لبطنين من هذه الفصيلة نوع من الاستقلال سكن أحدهما في شبه جزيرة سينا، والآخر في بلاد النوبة، وسمّتهما الآثار المصريّة عانوكنس ولعلّهما المقصودان في كلام موسى. ومن كلام ابن خلدون: «ومن ولد مصر عناميم وكان لهم نواحي الإسكندريّة» وابن مصرائيم الثالث «لهابيم»، ولا إشكال بأنّ المراد بهذا الاسم سكان ليبيا وهي البلاد الواقعة في غربي مصر وتُسمّى الآن المغرب. على أنّ اسم ليبيا كان يشمل قديماً كلّ الأعمال الواقعة في الغرب من مصر إلى بوغاز جبل طارق. فمسكن هؤلاء يلزم حصره على المغرب الشرقي وهو من برقة إلى تخوم مصر، وشعب هذه الأعمال تُسمّيه الآثار المسماريّة لابو، ولا يُخفى القرب بين لهابيم أو لابيم بالتخفيف. ولابو «ونفتوحيم» ويُراد بهم سكان بلاد منف واسمهم في الآثار المصريّة الكهنوتيّة «نافتاح» أي ملك الإله فتاح أحد معبوداتهم. «وفتروسيم» وهم سكان الصعيد واسمهم في لغة مصر القديمة بتورس، ومعناه البلاد الجنوبيّة «وكسلوحيم»، وفي عرفان هذه الفصيلة غماضة ناشئة من عدم وجود اسم يقرب من هذا لا في الآثار المصريّة ولا في الآثار المسماريّة؛ ولذا كان في هؤلاء لأهل العلم أحداس ضعيفة المبنى. على أنّ النسخة السبعينيّة لا تُسمّيهم كسلوحيم كما في العبرانيّة، بل هسمونيم ومعناه سكان بلاد النطرون

(أحد الأملاح سلفات الصود معرب)، وفي اللغة المصريّة هِسمِن. ولا يُخفى أنّ في غربي مصر السفلى عملاً يُسمّى وادي النطرون، فيه بعض بحيرات يُستخرج منها هذا الملح. والآثار المسماريّة تُسمّي هذا العمل مالوحي أي بلاد الملح. وعليه فيظهر أنّ هذه الفصيلة أقامت هناك، والأظهر أنّ موسى لم يُعيّن هذا العمل وحده بل أراد سكان شطوط مصر البحريّة من ليبيا إلى فلسطين.

وقد أتبع الكتاب كلامه في كسلوحيم بقوله: «الذين خرج منهم الفلسطينيّون وكفتوريم». قلنا وفي النسخة السريانيّة: «وخرج من هناك الفلسطينيّون والكفتوريّون». والخبير يعلم كم عنّت هذه الآية العلماء والمفسّرين في تفسيرها، وكم تضاربت الأقوال فيه وفي أصل الفلسطينيّين قبل الاكتشافات الحديثة. وأما الآن فنقول: سيجيء ما كشفته الآثار المصريّة عن أصل الفلسطينيّين من أنهم قدموا إلى مصر من جزيرة إكريت وغيرها من جزر الأرخبيل، وما جاورها من البلاد نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فأسرهم المصريّون وأقاموهم في البلاد التي سُمّيت فلسطين نسبة إليهم، وهم من قبيلة البلاسج أصلاً، وبين الاسمين مقاربة ظاهرة؛ فعلى القراة أنّ الفلسطينيّين وكفتوريم خرجوا من الكسلوحيم تكون إشارة إلى أنّ الغزاة الآتين من الشمال اختلطوا بالسكان القدماء الحاميين في مصر، فخرج من الكسلوحيم الفلسطينيّون لا ولدوا منهم. على أنّ قراءة نسختنا السريانيّة «ومن هناك خرج الفلسطينيّون» هي أظهر وأنسب لتأدية المعنى، ولبيان الحقيقة التي كشفت لنا عنها الآثار المصرية، إذ يتبيَّن منها أنّ الفلسطينيين خرجوا من بلاد الكسلوحيم التي هي الشطوط المصرية على البحر المتوسط، حيث أسر الغزاة وجلوا إلى فلسطين. وقد كان من تقليدات عامة العلماء أنّ البلاسج الأولين؛ ومنهم سكان اكريت وما جاورها من الجزر واليابسة هم من ذريّة يافث ومن أعقاب ابنه ياوان أبي اليونان على أنّ الأب دي كارا ينشر الآن فصولاً متتالية (في المجلة المعنونة بالتمدُّن الكاثوليكي)، يبيِّن بها أنّ البلاسج الأولين من قبيلة الحثيين ولد حث بن كنعان. وعليه فيكون الكسلوحيم والفلسطينيون جميعاً من ذريّة حام؛ فهم ابناء أعمام: الأولون من ولد مصرائيم، والثانون من ولد كنعان أخيه. وسترى تفصيل هذه الأمور في كلامنا على الحثيين وعلى بني إسرائيل وحروبهم مع الفلسطينيين.

وأما كفتوريم أو الكفتوريون على ما في نسختنا السريانية فنسبتهم إلى كفتور؛

وهي جزيرة اكريت، وقد ورد اسم هذه الجزيرة ونسبة الفلسطينيين إليها في آيات عديدة من الأسفار المقدّسة فكأنّ الغزاة المارّ ذكرهم آنفاً كان قسم كبير منهم من اكريت فخصّه موسى بالذكر.

عد ٣٦

فوط بن حام

وأما فوط الثالث من ابناء حام ويُسمّى بوت وبونت أيضاً. فلم يذكر الكتاب أعقابه ولا جرم إن كان له ذريّة فأين أقامت؟ قال فيكورو (مجلد ١ من الكتاب والاكتشافات صفحة ٢٩٠) ذهب كنوبل وكايل وغيرهما أنّ هذه القبيلة توطّنت ليبيا. وذهب أبار (في كتابه مصر وأسفار موسى مجلد ١ صفحة ٦٣) أنها توطّنت بعض بلاد العرب وسومال الواقعة في الجنوب من خليج عدن، وفي الشرق من الحبشة، على ما ظهر من اكتشافات ماريات الآتي ذكرها. وأما لانرمان فبعد أن ذكر (مجلد ١ من تاريخه القديم صفحة ٢٧١) أنّ مواطن هذه القبيلة لا يبعد إن كانت في ليبيا، جنح إلى قول أبار بأنها كانت في بلاد العرب وسومال. وقال: إنّ من تقليدات أهل سومال الآن أنهم من أقارب أقدم الشعوب الذين توطّنوا اليمن وحضرموت، وحرّر رأيه بأنّ هذه القبيلة انقسمت إلى فصيلتين يفصل بينهما السودان. فمساكن إحداهما في سومال وجوارها على الشاطئ الشرقي من افريقيا. ومساكن الثانية في ليبيا ممتدّة في شمالي قارة افريقيا من تخوم مصر حتى الأتلنتيك وجزائر كاناريس فيه.

على أنّ الذي أطال وأجاد في ذكر قبيلة فوط هو الأب دي كارا (في الفصل الثامن من كتابه في الملوك الرّعاة). وملخّص ما قاله إنّ المصريين القدماء كانوا يسمّون بلاد العرب الجنوبية فوطاً، وإنّ اكتشافات ماريات في الكرنك (مصر) عن جريدة الأسماء الجغرافية أفادتنا أنّ أرض فوط - التي كان يحصرها أهل العلم بالآثار المصرية في العربية السعيدة واليمن - تمتدّ إلى قسم من قارة افريقيا وهو ما يقابل مضيق باب المندب إلى أرض الحبشة، أعني سومال. وذكر أنّ أحد ملوك مصر المسمّى سنكسارا من الدولة الحادية عشرة أرسل قائداً اسمه حانو إلى بلاد فوط ليأتيه ببعض حاصلات هذه البلاد، وأنّ الملكة ماكارا ابنة توتمس الأول أحد

فراعنة الدولة الثامنة عشر أرسلت قائداً آخر إلى بلاد فوط ونقش تاريخ سفره على جدران دير البحارى (مصر)، وأنّ رعمسيس الثالث أحد فراعنة الدولة العشرين أرسل جيوشاً تغزو بلاد فوط، وكتب تاريخ هذه الغزوة في بابير مصريّ. والمتحصّل من كل ما ذكر في هذه الآثار، أنّ بلاد فوط ليست في قارة آسيا وحدها ولا في قارة افريقيا فقط، بل هي في القارتين معاً؛ قسم في اليمن وما جاوره من العربية وقسم في افريقية لجهة الحبشة أي في سومال المارّ ذكرها.

عد ٣٧

كنعان بن حام وذريّته

بقي من ولد حام كنعان والكلام في ذريّته أهمّ منه في غيرها لأنّ ابناء كنعان توطّنوا ديارنا هذه. قال فيكورو (مجلد ١ من الكتاب والاكتشافات ٢٩٣) لم نجد اسم كنعان حتى الآن في الآثار الآشوريّة مع أنها أكثرت من ذكر البلاد التي سكنها أبناؤه. وكان الآشوريّون يُسمّون هذه البلاد «مات أحارى»؛ وتأويله البلاد التي إلى الوراء أو البلاد الغربيّة. فكان من عاداتهم أنهم إذا أرادوا تعيين الجهات الأربع التفتوا إلى جهة مشرق الشمس فسمّوا الشرق الأمام والغرب الوراء. وقد فصّل في كتابه لنبيرار الثالث أحد ملوكهم ما تشتمل عليه هذه البلاد؛ فإنه ذكر الأعمال التي تؤدّيه الجزية فقال من جملتها: «أرض أحارى كاها» أعني أرض صور وأرض صيدا وأرض عمري (أي مملكة إسرائيل)، وأرض ادوم وأرض بلاسطاف (أي فلسطين) حتى إلى بحر مغرب الشمس» (رواه أوبر في كتاب رحلته بين النهرين مجلد ١ صفحة ٣٣٣). قال الكتاب: «وكنعان ولد صيدون بكره»، وتوطّنت ذريّته في صيدا وما جاورها وسمّتها باسمه. وسنفرد مقالة خاصة بتاريخ الفينيقيين نسهب فيها الكلام في صيدا وصور وما يليهما. «وحثّا» ومواطن الحثّيين البلاد التي بين العاصي والفرات وجبل اللكام، وفصيلة منهم سكنت حبرون أي الخليل الآن وجوارها قبل أن يأتيها ابراهيم. وسنفرد لهذه القبيلة الكبرى مقالة مخصوصة أيضاً تريك ما كان لها من السطوة، وامتداد السلطة والحروب مع المصريّين والأشوريّين. ولم يكن في حطام المؤرّخين شيء من هذه الأمور قبل الكشف عن كنوز الكتابات الهيروكليفيّة والمسماريّة، وقبل الاهتداء إلى الآثار الحثيّة منذ بضع سنين فقط.

«واليابوسيّون» أي ولد يابوس وقد سكنوا أوّلاً المحلّ الذي سُمّي بعداً أورشليم، «والآموريّون وكانوا يسكنون جبل افرائيم ويهوّذا عند استيلاء بني اسرائيل على أرض الموعد، وكانوا قد امتدّوا حتى غربي البحر الميت وعبروا قبيل عهد موسى الأردن، وشيّدوا مملكة باسان وحشبون. وفي الآثار المصريّة ذكر لفصيلة أموريّة تسكن جهة قادش وعند منبع العاصي في الشمال من بعلبك. «والجرجاشيّون» وكان مركزهم في عبر الأردن، وتمتد بلادهم إلى الجليل وجبل الكرمل على الأظهر، وجاء ذكرهم في الآثار المصرية – ويظنّ أنّ بحيرة الجرجسيين (وهي بحيرة طبرية) تُنسب إليهم. «والحويّون» ويظهر من الكتاب عند كلامه في استيلاء بني إسرائيل على فلسطين أنهم كانوا يسكنون في جوار جبل حرمون (جبل الشيخ الآن). وقد ترجم اسمهم في الترجمة (الترغوم) الأورشليمية بالطرابلسيين، كأنهم بعد أن طردهم يشوع بن نون من فلسطين ارتحلوا إلى طرابلس أو أنحائها. «والعرقيّون» وكانوا يسكنون عرقا وجوارها في عمل عكار في الشمال من طرابلس إلى النهر الكبير. «والسينيّون» وكانوا يسكنون مدينة سين في الشمال من عرقا. كذا روى لانرمان في المجلد الأول من تاريخه (صفحة ٢٧٤). ولا يبعد أن تكون أملاك هذه الفصيلة توصّلت إلى نهر السن بين جبلة شمالاً والمرقب جنوباً. لكن لانرمان قال في المجلد السادس (صفحة ١٢٠) إنهم كانوا يسكنون في جبل لبنان وإنّ استرابون ذكر مدينة اسمها سينا أو شينا واقعة في هذا الجبل فوق البترون، ولا يُعرف محلّها إلى الآن. (والإرواديّون) وهم سكان جزيرة ارواد وما قابلها في اليابسة خاصة طرسوس وعمريت. «والصماريّون» قصبتهم سيميرا وذكرها استرابون بين المدن الواقعة بين النهر الكبير في عكار جنوباً واللاذقية شمالاً فقال: «ارتوسيا (طرسوس) وسيميرا». وفي معجم الكتاب لكلمت أنّ موقعها بين النهر الكبير جنوباً ونهر مرقية شمالاً. وهناك بلدة تدعى صمرة وناحية تسمّى ناحية زمرين أو صمرين. «والحماتيّون» وهم سكان حماه على العاصي وباسمهم سمّيت. فكان هؤلاء بين الحثيين في الشمال والآراميين في الجنوب.

عد ٣٨

ابناء سام

فرغ موسى من ذكر أنساب بني حام فأخذ في تنسيب بني سام متّبعاً فيه نظاماً جغرافيّاً مرتّباً فقال: «وبنو سام عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام». فعيلام

سمّيت باسمه البلاد التي سكنها أعقابه؛ والكلمة في اللغة السامية تأويلها البلاد المرتفعة أو الجبلية، فيظهر أنها سمّيت كذلك تمييزاً لها عن سهول بلاد الكلدان. وكان الآشوريون والعبرانيون يسمّون هذه البلاد سوسيانا؛ وموقعها بين دجلة وبلاد فارس وهي خورستان الآن ومنها الأهواز. ويظهر من بعض الآثار المسمارية ومن بعض صور تمثّل حروب ملوك نينوى في بلاد عيلام؛ أنّ العيلاميين اختلطوا من أقدم الأيام بقبائل أخرى ولكن استمرّت السيادة لهم. وأما «آشور» ثاني ابناء سام فإليه يُنسب الآشوريون. وبلاد أشور وهي الجزيرة كما مرَّ - أي القسم الشمالي من بين النهرين. ومن كلام ابن خلدون عن ابن اسحق «أنّ بني آشوذ (آشور) هم أهل الموصل وبني غليم (عيلام) أهل خورستان ومنها الأهواز». وقد رأيت آنفاً ما بين الكلدان البابليين والآشوريين من وحدة اللغة والمعبودات والحضارة إلى غير ذلك، مع كون أولئك حاميين وهؤلاء ساميين، وهيئات القبيلتين الظاهرة من صور قديمة تدلّ صريح الدلالة على أنهما من ذرّيتين. كل ذلك يزيد صحة الكتاب ثبوتاً علميّاً أيضاً. وقد توهّم يوسيفوس وغيره أنّ العيلاميين هم الفرس سكان فارس وهو خطأ ظاهر لأنّ الفرس يافثيون والعيلاميين ساميون بلا مراء.

والثالث من بني سام «أرفكشاد» ويروى أرفخشاد وأرفخشذ؛ ومعنى الكلمة جار الكلداني ومتاخمه على ما روى لانرمان (مجلد ١ من تاريخه صفحة ١٨٣). فذلك ناطق بأنّ مهد ذرّية أرفخشاد التي منها العبرانيون، والعرب معاً كان في جوار ابناء عمهم الكلدان الذين هم ذرّية كوش بن حام كما مرَّ في الكلام على نمرود. وأما «لود» رابع ابناء سام فزعم بعضهم أنّ ذرّيته أقامت في ليديا القديمة حيث ولاية أزمير الآن، مغترّين بالمقاربة بين الاسمين لود وليديا. لكنّ وحدة الاسمين أو تقاربهما لا يكفيان وحدهما للدلالة على أنّ الأصل واحد. فقدماء ليديا يافثيون ومحلّهم من حيث موقعه الجغرافي لا يمكن أن يقرب إلى محل ابناء لود لأنهم ساميون. والكتاب جعل مساكن بني سام متناسقة تباعاً فيلزم أن يكون مقرّ ذرّية لود بين آشور وأرفكشاد من جهة وبني أرام من الجهة الأخرى. ومن كلام ابن خلدون في تاريخه «ولم يذكر في التوراة ولد لاوذ (لود) قال ابن اسحق: كان للاوذ أربعة من الولد وهم: طسم وعمليق وجرجان وفارس، وفي تاريخ أبي الفدا في ذكر العمالقة «وهم من ولد عمليق بن لاوذ بن سام». وبقي «أرام» خامس ابناء

سام. وتأويل الكلمة العالي أو المرتفع ولا شك أنّ ابناءه أقام بعضهم في سورية الجنوبية أي في دمشق وأنحائها حتى لبنان. وبقي بعضهم بين النهرين كما سيجيء عند ذكر كلٍّ منهم.

وكثيراً ما ورد اسم أرام في الآثار المسمارية مراداً به طوراً مساكنهم في سورية وطوراً بين النهرين أو في الاقليمين معاً.

لم يذكر الكتاب ولداً لعيلام وآشور ولود بل اجتزأ بذكر أعقاب أرفكشاد وأرام فقط لأنّ العبرانيين من ذرّية أرفكشاد. وجلّ غرض موسى أن يكتب لهذا الشعب تاريخه. ولأنّ الآراميين أقاربهم الأدنون وجيران مواطنهم. وكانت بين الشعبين علاقات تاريخية كثيرة كما سترى. ومما يستوجب الالتفات أنّ اسماء مَنْ ذكرهم الكتاب من بني أرفكشاد جميعها تاريخية جغرافية دالّة على انتجاع هذه القبيلة من المشرق نحو المغرب. فقال: «أرفكشاد ولد شالح». وشالح تأويله البعث بالشيء إلى الأمام، وتلك إشارة إلى تقدّم هذا الفرع من ذرّية أرفكشاد من محل اقامته الأول نحو الغرب. ثم قال: «وشالح ولد عابر» بمعناه بالعربية أي العابر أو المجتاز، فإنه عبر الفرات إلى الغرب وعنه أخذ سكان سورية قبل ابراهيم يسمّون ذرّية عابر عبرانيين أو بني عابر؛ يريدون أنهم أتوا من الفرات. ثم قال الكتاب «وولد لعابر ابنان اسم أحدهما فالج (أو فالغ) لأنه في أيامه انقسمت الأرض، واسم أخيه يقطان». ففالج أو فالغ معناه القاسم أو المقسّم. ففي السريانية ܦܠܓ بمعنى قسم وشقّ، وفي العربية فلج الشيء فلجين: شقّه نصفين، وفلّج الشيء: قسمه، وفلغ رأسه: شدخه. فكان موسى يقول إنّ بني عامر انقسموا بعد عبورهم الفرات إلى فصيلتين: أقامت الأولى منهما في أور الكلدانيين (وسيجيء الكلام فيها عند ذكر ابراهيم)، وارتحلت الثانية أي بنو يقطان إلى بلاد العرب.

عد ٣٩

يقطان وولده جدود العرب

إنّ يقطان هذا يسمّيه العرب قحطان[1] وهو أبو العرب العاربة، وسمّوا كذلك

---

(١) قحطان أول مَنْ تكلّم العربية. وابنه يعرب. معجم البلدان مجلد ٤ حرف ع لياقوت الحموي.

على ما قال ابن خلدون: «أما بمعنى الرساخة في العروبية، كما يقال ليل أليَل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها». وأما العرب العاربة فأكثرهم من ولد أرام ومنهم عاد، وثمود، وجرهم الأولى. وسمّوا بائدة، لأنهم بادوا فلم تبقَ لهم ذرّية مستقلّة بل اختلطت بغيرها». وأما العرب المستعربة فهم على ما قال أبو الفدا (في تاريخه) ولد اسماعيل وقيل لهم العرب المستعربة لأنّ اسماعيل لم تكن لغته عربية بل عبرانية، ثم دخل في العربية. فلذلك سمّي ولده العرب المستعربة». وقد ذكروا أنّ اسماعيل نزل في جرهم الثانية وزوّجوه امرأة منهم. ومن هؤلاء العرب المستعربة آل قريش.

أخذ الكتاب في تعداد بني يقطان فقال: «ويقطان ولد الموداد». إنّ أل الداخلة على هذا الاسم هي أداة التعريف العربية بلا مراء. ولكن هل الاسم المأخوذ هنا عن لغة أعجميّة هو في العربية كذلك أم هو المرذاذ بن قحطان – على ما روى ابن خلدون – أو هو مضاض أو المضاض. وقد كثر هذا الاسم في قبيلة جرهم الثانية التي هي من ولد قحطان. كل ذلك لا سبيل إلى تحقيقه الآن. وفي تواريخ العرب أنّ من نسل قحطان مَنْ ملك في اليمن. وأول ملك منهم يعرِب بن قحطان ثم يشجب بن يعرب إلى غيرهما. ثم ذكر الكتاب من ولد يقطان «شالف». وعن ابن خلدون «سالف وهم أهل السلفات». وفي التاج السلف كصرد بطن من ذي الكلاع من حمير وهو السلف بن يقطن. وقال لانرمان إنّ هذا العمل أي السلفات أو سلفية هو في الجنوب الغربي من صنعاء في اليمن ثم «حضرموت». وقد بقي هذا الاسم حتى الآن علَماً لاقليم حضرموت على الطرف الشرقي من شبه جزيرة العرب. ثم «يارح». وعن لانرمان إنما هذا الاسم مترجم إلى العبرانية عن كلمة هلال العربية. ولذلك وقف المفسّرون بين أن يكون المراد به بني هلال؛ وهم شعب قديم في شمالي اليمن أو جبال القمر الواقعة في حضرموت نحو الشرق. قال ابن خلدون في يارح هذا ومَنْ تبعه من ولد يقطان بعد أن ذكر خمسة منهم «هؤلاء خمسة وثمانية أخرى ننقل اسماءهم وهي عبرانية. ولم نقف على تفسير شيء منها ولا يعلم من أي البطون هم. وهم يياراح وأوزال ودقلا وعوثال وأفيمايل وأيوفير وحويلا ويوناف». والجملة ثلاثة عشر نقلاً عن الكتاب بتغيّر ما، وهوذا ما أمكن التوصّل إلى معرفته في هذه الأيام من شأن هؤلاء.

ذكر الكتاب بعد يارح «هدورام». قال لانرمان (صفحة ٢٨٥) ولا ريب أنّ هؤلاء هم الحضارمة Adramites الذين جعل الجغرافيون منازلهم في جوار قبيلة حضرموت. وكان في الشام قبيلة الحضارمة بعد الإسلام أتوا إليها من العجم. وفي التاج الحضارمة قوم من العجم خرجوا في بدء الإسلام فسكنوا الشام. وفي الصحاح: فتفرّقوا في بلاد العرب فمَنْ أقام منهم بالبصرة فهم الأساودة ومَنْ أقام منهم بالشام فهم الحضارمة، ومَنْ أقام منهم بالجزيرة فهم الجراجمة، ومَنْ أقام منهم باليمن فهم الابناء، ومَنْ أقام منهم بالموصل فهم الجرامقة. ثم «أوزال» وبهذا الاسم عمل في اليمن كان حيث صنعاء الآن. واستمرّ يسمّى أزال أو عزال إلى أن غزا الأحباش هذه الديار في القرن الخامس للميلاد فسمّوها صنعاء. وفي التاج أزال كسحاب اسم صنعاء اليمن في الجاهلية الجهلاء... أو أزال اسم بانيها وهو ابن يقطن ابن عابر وهو والد صنعاء كانت امرأة ملكت. ثم «دقله» قال لانرمان: ما من عمل في بلاد العرب يقرب اسمه من هذا الاسم على أنّ معنى دقلة في العبرانية النخل فيُراد بدقلة عمل كثر فيه النخيل، أو كان فيها نوع من العبادة لهذا الشجر كما كان عند قدماء نجران في اليمن. وموقع نجران هذه يناسب كثيراً أن يكون موطناً لفصيلة دقلة من حيث الجوار لمساكن اخوانه. على أنه جاء في التاج نقلاً عن الصائب قال أبو حنيفة الدقل المجهول من النخل كله الواحدة دقلة؛ وفيه عن القاموس دقلة محركة موضع في اليمامة. ثم «عوبال» ويقرب هذا الاسم من اسم بني عبيل الذين كانوا يسكنون في الغرب من صنعاء على شاطئ البحر، وكانت عاصمة بلادهم ثمنه مدينة كبرى حوت من الهياكل خمسة وثلاثين هيكلاً.

وفي التاج بنو عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام قبيلة من العرب العاربة قد انقرضوا وهو أخو عاد بن عوص. وذكر ابن خلدون عبيل من شعوب العرب العاربة. وذكر الكتاب بعد هؤلاء «أبيمائيل» وكان هذا الاسم علماً لعمل في بلاد مهرة من اليمن وأخصّ حاصلاته البخّور. وروى ثيفورست اليوناني المشهور بعلم الطبيعة أنّ أحسن البخور كان يُؤتى به في أيّامه من عمل مالي الذي لا يبعد أن يكون مائيل أو أبي مائيل. ثم «شبا» أو سبا وهذه القبيلة مشهورة وكان منها أكثر سكان اليمن. غير أنّ بعض المؤرّخين العرب لا يجعلون سبا بن قحطان كما في الكتاب، بل يقولون ما قال أبو الفدا: «واسم سبا عبد شمس فلما أكثر

الغزو والسبي سُمّي سبا وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان... وكان لسبا عدّة أولاد فمنهم حمير وكهلان وعمرو وأشعر وعاملة بنو سبا». إلى أن قال إنّ من بني حمير التبابعة ملوك اليمن، ومن بني كهلان قبائل طي، ومن بني عمرو لخم، ومن بني أشعر الأشعريّون، ومن عاملة بنو عاملة من القبائل اليمانيّة التي ارتحلت من اليمن ونزلت بالقرب من دمشق في الجبل المعروف بجبل عاملة. انتهى ملخّصاً عن تاريخ أبي الفداء، وأصحّ من ذلك قول ابن خلدون في جدول بني سام سبا بن يقطن بن عابر كما مرّ في التوراة، وقوله هناك أنّ من بني يقطن «سبا وهم أهل اليمن من حمير والتبابعة وكهلان».

أما «اوفير» فلا شك أنّ في بلاد العرب الجنوبيّة محلاً يُسمّى باسمه سكنه أبناؤه بجانب ابناء اخوته. ولكن توفّرت الأقوال وتضاربت في ما إذا كانت اوفير علماً لمحلّ واحد أو لمحلّين، إذ ورد ذكر اوفير هنا ثم في سفر الملوك الثالث عند الكلام في ارسال سليمان سفنه إلى اوفير لاستحضار الذهب وغيره. والأظهر على ما حقق الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلّد ٣ فصل ٨) إنّ اوفير هذه غير اوفير محلّ تجارة سليمان؛ فهذه في بلاد العرب الجنوبيّة في بلاد عمّان على بعد نحو من خمسة عشر كيلومتراً من مدينة سوحار، وتلك في بلاد الهند. وإنّ سفن سليمان كانت تسير حتى اوفير الهنديّة. ومما قاله لانرمان (مجلّد ١ من تاريخه صفحة ٢٨٥) إنّ اوفير التي في بلاد العرب كانت محطّة للتجارة بما يرد من اوفير التي في الهند. فكانت السفن الهنديّة تُقلّ البضائع والحاصلات الهنديّة إلى مرفأ عدن فتنقلها سفن أخرى أو قوافل إلى مصر وبلاد العرب وسورية.

«وحويلة» الثاني عشر من ابناء يقطان استوطنت ذريّته في بلاد خولان في شمالي اليمن على تخوم الحجاز حيث امتدّت بعد ذلك ذريّة اسماعيل كما جاء في التكوين (فصل ٢٥ عد ١٨). «ويوباب» قد رأيت أنه يُسمّى في كلام ابن خلدون يوفاف. قال لانرمان (في المحلّ المذكور صفحة ٢٨٦) يظهر أنّ هذا الاسم مكسّر، والصواب أن يُقال «يوبار»، فقد ذكر بتولمايس قبيلة اليوباريّين في جنوبي العربيّة. وجاء في تواريخ العرب أنّ وَبَر من ولد قحطان وأنّ فصيلة وَبَر كانت تسكن شرقي عدن إلى تخوم حضرموت.

واختتم موسى كلامه في ولد يقطان بقوله: «كلّ هؤلاء بنو يقطان وكان

مسكنهم من ميشا وأنت آت نحو سفار جبل المشرق». فميشا عند مصبّ الفرات ودجلة في الخليج العجمي مع البلاد التي تُسمّى الآن مساليك، وهي البريّة التي يسكنها الآن قبيلة بني لام من العرب وتتصل بالعراق العربي. وسفار هي التي كانت عاصمة بني سبا وتُسمّى الآن زعفر. وجبل الشرق يظهر أنّ المراد به جبل نجد. وعليه فكان بنو قحطان يسكنون منطقة فسيحة تبتدي من مساليك من طرف العراق العربي وتمتد إلى جبل شومر ونجد وجنوبي الحجاز واليمن وحضرموت ومهرة.

عد ٤٠

ابناء آرام

ذكر الكتاب ابناء آرام قبل بني أرفكشاد فقال:«بنوآرام عوص وحور وجاثر وماش». فقد مرّ أنّ بني آرام أقاموا في دمشق وأنحائها. وقد حُفظ اسم آرام لهذه الأعمال عند كلّ القبائل القديمة وفي كلّ اللغات، أما ابنه عوص فأقام نسله في الأرض التي سماها الكتاب باسمه إذ قال في فاتحة سفر أيّوب: «كان رجل في أرض عوص اسمه أيّوب». وروى يوسيفوس (في ك ١ من تاريخ اليهود فصل ٦): «أنّ عوص بكر آرام أقام في عمل تراخونيد (أو تراكونيت» الواقعة بين فلسطين وسورية المجوّفة). وقد ورد هذا الاسم في بشارة لوقا (ف ٣ عد ١) حيث قيل: «فيلبس رئيس ربع على ايطورية وبلاد تراكونتس». فالكلمة يونانيّة من تراخوس معناها الوعر أو الحزن أو البلاد الكثيرة الحجارة. وقد فهم بعضهم بها بلاد الشقيف. وكلام يوسيفوس مؤذّن بشيء من ذلك، والأظهر أنّ المراد بها اللجا التي كان القدماء يسمّونها أرجوب وليس معناها إلا الصبرة بمعنى الحجارة الغليظة المجتمعة. وإيطورية هي مملكة يطور القديمة وهي الناحية المعروفة الآن بالجيدور. وكل ذلك في الشرق من الأردن والجولان وفي الجنوب الشرقي من دمشق، فهناك كانت قبيلة عوص وهناك كان أيّوب، يُؤيّده أنه وُجد في الآثار المسماريّة ذكر شعب يُسمّى عوصو، ويظهر من الأثر أنّ مقرّه في جهّة حوران واللجا. وفي كتب المؤرّخين العرب ان عاد إحدى قبائل العرب البائدة هي من ولد عوص، وأنّ ثمود وجديس من هذه القبائل أيضاً هما من ولد جاثر أخيه الذي يُسمّيه العرب كاثر،

وأنّ منزل ثمود كان بالحجر بين الشام والحجاز؛ كذا في تاريخ ابن خلدون وغيره. وعن يوسيفوس والقديس إيرونيموس أنّ عوص بن آرام هو الذي بنى دمشق.

أما «حول» فيظهر أنّ ذريّته أقامت في البلاد الواقعة بين باسان والجولان ممتدة إلى بلاد الحولة، وأنّ هذا الاسم عن حول بن آرام. وأما «جاثر» فكان مقام أعقابه في ناحية ايطورة المار ذكرها المعروف الآن بالجيدور في الجنوب الشرقي من دمشق. وجعل بعضهم موقع ايطورة في الشمال من الجيدور وفي الجنوب من جبل الشيخ، وأنها مملكة جشور القديمة حيث الآن بانياس وقسم من اقليم البلان، ولا تخفى المقاربة بين جاثر والجيدور وجشور. وبقي «ماش» الرابع من ابناء آرام وكان مفسّرو الكتاب يترددون بين أن يكون مقام ذريّته في ميشا مساليك المارّ ذكرها، أو في ماسيوس أو ماشيوس في جوار نصيبين، فجاءت الآثار المسماريّة قاضية بتبوّئهم مساليك إذ أبانت هذه الآثار أنه كان فيها أرامي، وربما كان هناك مقام بني آرام كلّهم أوّلاً، فنجع بعضهم إلى سورية وبلاد العرب، واستمرّ نسل ماش في مقرّهم الأوّل.

إنّ فصائل القبيلة الآراميّة قد استفحل أمرها في وسط سورية وشرقيها. وكان قطبها دمشق يليها عدّة ممالك أو ولايات كما سترى في محال عديدة من هذا التاريخ. ويظهر أنّ ذريّة لود أخي آرام التي كانت تسكن بعض شمالي سورية كما أشرنا آنفاً اختلطت بالآراميّين من أقدم الأيّام، فكان هذا ما حمل بعض المؤرّخين العرب على حسبان لود الذي يُسمّونه لاوذ ابناً لآرام مع أنه أخوه. ومنهم ابن خلدون عن ابن حزم إذ جاء في تاريخه (في المقدّمة الأولى من مجلّد ٢): «قال ابن حزم عن قدماء النسابين إنّ لاوذ هو ابن آرام بن سام أخو عوص». وأهمّ من ذلك أنّ الآثار المصريّة عند ذكرها الشعوب الذين عُرفوا بعدئذ باسم آراميّين تُسمّيهم روتان أو روتانو، وتقسمهم إلى روتان المغرب يُراد بهم سكان دمشق وبلاد كنعان منهم، والى روتان المشرق أو الأعلى وتريد بهم سكان شمالي سورية وجزء من غربي ما بين النهرين. فمادة كلمة روتان الأصليّة روت أو لوت لا يبعد أن تكون تحريف لود كما حرّف المصريّون اسم جدّهم لوديم بن مصرائيم بن حام بتسمية أنفسهم لوت أو روت كما مرّ في عد ٣٥. وعليه فتكون القبيلتان اللوديّة والآراميّة المتميّزتان أصلاً اختلطت إحداهما بالأخرى، وبعد انقراض ملك الحثّيين في

القرن الثامن قبل الميلاد عمّ اسم آرام بلاد هؤلاء أيضاً فأصبح القسم الأكبر من سورية يُسمّى آرام.

عد ٤١

بنو يافث

ذكر الكتاب ابناء يافت (تك ف ١٠ عد ٢) أولاً فقال: «بنو يافت جومر وماجوج ومداي وياوان وتوبل وماشك وتيراس ». ولم يذكر من هؤلاء إلا بني جومر وبني ياوان فنتكلّم أوّلاً في الأصول ثم في الفروع التي ذكرها. فجومر ويُسمّيه العرب كومر هو أصل قبيلة الجيماريّين أو الكومريّين القدماء الذين ذكرهم هيرودت، وكانوا يسكنون على شاطئ البحر الأسود في جهة آسيا وفي جهة أوروبا. وربما أُخذ عنهم اسم بلاد القرم، وقد غزوا آسيا الصغرى مرات في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، وتُسمّيهم الآثار المسماريّة جيميراي. وأما «ماجوج» فتأوّل بعضهم اسمه بمعنى الجبل الكبير مركباً من كلمتين ما وجوج، يريدون بذلك جبل قاف وأنّ قبيلته سكنت هناك. لكنّ هذا التأويل لا يُعتمد عليه، وأكثر المفسّرين وفي مقدّمتهم يوسيفوس (في ك ١ من تاريخ اليهود ف ٦) أنّ قبيلة هذا يُراد بها التتر ولا مرية بكونهم من ذريّة يافت. وقد جاء في نبوّة حزقيال (ف ٣٨ عد ٢ وما يليه): «وكانت إليّ كلمة الرب قائلاً: يا ابن البشر اجعل وجهك نحو جوج أرض ماجوج رئيس روش وماشك وتوبل وتنبأ عليه وقل... هاءنذا إليك يا جوج فأديرك... وأخرجك أنت وجميع جيشك ومعهم فارس وكوش وفوط... ومعك جومر وجميع جيوشهم وآل توجرمة وأقاصي الشمال... فتأتي إلى جبال اسرائيل». ذكرنا كلام النبيّ مطوّلاً لتضمّنه كثيراً من اسماء الشعوب الذين نتكلّم فيهم، وهو نبوّة على غزوة التتر لبلاد فلسطين في القرن السابع قبل الميلاد. وجوج رئيس أو ملك أرض ماجوج، يُريد النبيّ به ملك التتر الأوروبيّين على ما رأى لانرمان. فهؤلاء التتر كانوا اجتازوا في أوائل القرن السابع قبل الميلاد من شمالي جبل قاف إلى جنوبيه، وأقاموا بين أرمينية الشرقيّة وبلاد ماداي ،استمرّوا على اسمهم. فقد ورد في كتابات آشور بانيبال، الذي لم يكن بعيداً عن عهد حزقيال، ذكر كوج أو جوجي ملك شخا أو شتا (أي شيت Schythes الذين اعتاد العرب أن يُسمّوهم تتراً) يسكن في الشمال من ارارط أي أرمينية، فهذا هو جوج أرض ماجوج الذي

ذكره النبيّ ووصفه برئيس ماشك وتوبل، لأنّ جيوش التتر كانت مستحوذة حينئذ على هذين الشعبين الآتي ذكرهما (لانرمان مجلد ١ من تاريخه صفحة ٢٩٤).

وأما «ماداي» ثالث ابناء يافث فلا إشكال أنّ ذريّته هي قبيلة الماديّين المتواتر ذكرها في الكتاب والآثار، ومساكنها بلاد مادي، وهي الآن اذربيجان والعراق العجمي، ومادي أصل شعوب إيران. وأما «ياوان» فالتقليد العام أنه جدّ اليونان في آسيا وأوروبا، فقد انقسم هؤلاء إلى فرعين؛ اجتاز أحدهما بوغاز الدردنيل و«أقام في تراسة Thrace ومكدونية وامتد في سائر بلاد اليونان وجزرها. واستمرّ الفرع الثاني في آسيا الصغرى فكان منه من كان من اليونان فيها. هذا وسترى في كلامنا على الحثّيين تفصيل السكان الأولين في هذه البلاد. ثم ذكر الكتاب «توبل وماشك» وكلما ورد ذكرها فيه ذُكرا معاً كأنه لاتفاق نسلهما واقامة أحدهما في جانب الآخر، وذكرتهما الآثار المسماريّة مراراً باسم «ماشكى وتابالي» وعامة العلماء على أنّ مقرّ قبيلة توبال في الجنوب من جبل قاف. وجعل يوسيفوس مساكنهم بين بحر قزبين (بحر الخزر) والبحر الأسود حيث جورجية الآن، والآثار المسماريّة تُؤيّد هذا. وأما قبيلة ماشك فرأي الأقدمين أنّ مواطنها كانت في الشمال من آشور بين البحر الأسود وبحر قزبين مع قبيلة توبل، وهذا وجه ذكر الكتاب القبيلتين معاً. وقد ورد مرّات ذكر تابال وموشكى في كتابات سرغون الملك في خرشباد حيث عُدّ من جملة أقاليم ملكه: «تابال إلى موشكى». وقال في محلّ آخر إنه انتصر على ميلا ملك الموشكيين. وذهب أوسان وغيره أنّ المسكوبيّين هم من ذريّة ماشك هذا (فيكورو مجلد ١ صفحة ٢٩٢).

وأما «تيراس» الأخير من ولد يافث فأكثر مفسّري الكتاب وفي مقدّمتهم يوسيفوس (ك ١ في تاريخ اليهود فصل ٦) على أنّ ذريّته أقامت في تراسة[1]. ولكنّ لانرمان خالفهم (مجلّد ١ من تاريخه صفحة ٣٠٠) قائلاً بأنّ مساكن ذريّة تيراس كانت في جبل توروس، وفي كيليكيا البلاد الفسيحة التي لم نرَ لها ذكراً في أنساب موسى، وبأنّ بعض الفقهاء أرجع إلى هذه القبيلة اسم ترسيس مدينة هذه البلاد، وقد وُجدت فيها بعض قطع مصكوكة كُتب عليها اسم ترس،

(١) هي حيث الاستانة إلى البحر الأسود شرقاً وإلى جزر الارخبيل جنوباً وإلى الروملي الشرقية شمالاً ومكدونية غرباً.

وتُسمّيها الكتابات الآشوريّة تارسي. والحاصل أنّ قبيلة تيراس - على قوله - أقامت في ترسيس وفي كيليكيا حيث جبل توروس أيضاً. وسترى أنّ الأظهر نسبة ترسيس إلى ترشيش بن ياوان. ثم ذكر الكتاب ابناء جومر فقال: «وبنو جومر أشكناز وريفات وتوجرمة». أما أشكناز فقد جاء ذكر قبيلته مع غيرها من سكان أرمينية بقول إرميا النبي (فصل ٥ عد ٢٧) متكلماً في خراب بابل: «نادوا عليها ممالك اراراط ومنّي واشكناز» وشبه هذا الاسم لاسم قبيلة الأشكينيّين القدماء ظاهر، وهؤلاء كانوا يسكنون بيتينيا حيث مدينة نيقية المسمّاة الآن ايسنيك، وفي جنوبها وشمالها بحيرتان تسمّى كلّ منهما إيسنيك، والجزر الواقعة تجاه ترويا تسمّى جزر اشكانيا. وعليه فيظهر أن قبيلة اشكناز بن جومر سكنت أطراف آسيا الصغرى من جهة الآستانة العلية. وأما ريفات فعلى تقليد اليهود الذي حفظه يوسيفوس كان مقام ذريّته بفلاغونيا، وهي ولاية قسطموني الآن، وهذا ينطبق مع مركز أشكناز في بيتينيا ومركز ذريّة توجرمة في أرمينية الغربيّة كما يجيء، فيكون مركز ريفات بينهما. ويُؤيّده أنّ اليونان سمّوا هذه البلاد ريفاس. «وتوجرمة» ورد ذكر نسله مرّات في الكتاب؛ منها قول حزقيال المذكور آنفاً حيث يجعله مجاوراً لنسل جومر وقريباً من أقاصي الشمال. ومنها قول هذا النبي أيضاً (فصل ٢٧ عد ١٤) في صور: «آل توجرمة بالخيل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك». فيتحصّل من ذلك أنّ بلاد هذه القبيلة لا يمكن أن تكون بعيدة كثيراً عن فينيقية، بحيث يُمكن أن يُؤتى منها إلى صور بالخيل والبغال براً. ومن تقليدات الأرمن أنّ جدّهم يُسمّى ترجوموس أو ترجوم، وهو أبو هيك الذي ينتسبون إليه. وعليه فمساكن توجرمة كانت في أرمينية الغربيّة.

ثم ذكر الكتاب بني ياوان فقال: «وبنو ياوان اليشة وترشيش وكتّيم ودودانيم». فأليشة يُراد به سكان بلاد اليونان في قارة أوروبا، وقد كثر ذكره في الكتاب دالاً على هذه البلاد. وأما «ترشيش» فكان علماً لإسبانيا في أيّام الفينيقيين إذ كان تجّارهم يأمّون ترشيش أي إسبانيا طلباً للكسب، على أنه لا يُظنّ أنّ موسى أراد بترشيش إسبانيا في هذه الأنساب. فترشيش هو ابن ياوان فيلزم أن يكون قد أقام بين قومه أو في جوارهم، وقد أحلّه موسى بين اليشة المُراد بها بلاد اليونان كما مرّ وبين كتّيم المُراد بها قبرص على قول أكثرهم؛ فيلزم أن تكون ذريّته توسّطت بينهما

أي كان مقامها في جزر الأرخبيل أو في الشواطئ الغربيّة من الأناضول. هذا ملخّص ما قاله لانرمان في المحلّ المذكور.

وجاء في تاريخ ابن خلدون: «إنّ ترشيش أهل ترسوس» أي ترسيس الآن، وأرى هذا أقرب إلى الصواب مما سمّوه، لا لوحدة الاسم فقط بل للمجاورة في الاحتلال أيضاً. فكيليكيا وقبرص وبلاد اليونان متقاربة إحداها من الأخرى. «وكتّيم» والأكثرون على أنّ المراد بهم سكان قبرص الأقدمون، ويُقوّيه أنّ أقدم مدن قبرص تُسمّى كيت أو كيتون، وكانت محطّة للتجارة بين أهلها والفينيقيين، وأنّ الاكتشافات الحديثة في هذه الجزيرة تَبيّن منها أنّ سكانها الأقدمين من اليونان البلاسج، وأنّ لغتهم فرع من فروع اللغة اليونانيّة ولكنّ أحرفها مخصوصة بها؛ هذا ما قاله لانرمان (مجلد ١ صفحة ٢٩٨). ولكنك سترى في كلامنا على الحثيّين أنّ الأب دي كارا يرى أنّ كتيم يُراد به حثيم أي قبيلة الحثيّين، وأنّ قدماء قبرص حثيّون لا يونان، ويعقب على لانرمان وغيره في هذا الصدد.

وبقي من ولد يامان «دودانيم» كذا في النص العبراني في سفر التكوين. وعنه ما في اللاتينيّة العاميّة. ولكن في السبعينيّة والسامريّة «رودانيم». وكذا في الأصل العبراني في سفر أخبار الأيّام حيث تُعاد أنساب موسى. وعليه فيُرجّح أنّ صحيح الرواية رودانيم لا دودانيم. ويظهر من ثم أنّ هذه الفصيلة كان موطنها رودس الشهيرة بقدمها والقريبة من قبرص، فيتبادر الفهم إليها ولا يبعد أن تكون هذه التسمية تعمّ العمل المقابل لرودس في اليابسة. ومن اعتمدوا رواية دودانيم جعلوا محلّة هذه الفصيلة في دودون في الابير أو أنّ المراد شعب الدردنيين في ترويا.

عد ٤٢
مجمل هذه الأنساب

إنّ المتحصّل من هذه الأنساب على سبيل الإجمال هو أنّ ولد حام كان منهم؛ أوّلاً الكوشيّون وامتدّت مساكنهم من بابل وعلى شطوط الأوقيانوس الهندي حتى بلاد الحبشة ومصر، والآثار المصريّة مؤيّدة لذلك، إذ تسمّي شعوب أعلى النيل كوش كما مرّ، وبقي من الكوشيّين نمرود وقومه في بابل ومملكته التي ذكرناها. ثانياً

ذريّة مصرائيم وقد توطنت مصر واسمها في أكثر اللغات الشرقيّة حتى اليوم مشعر بأصلها. ثالثاً ذريّة فوط وقد سكنت شطوط أفريقية الشمالية على قول بعضهم أو بعض اليمن وسومال على قول الآخرين وهو الأظهر. رابعاً الكنعانيّون وقد أهلت بهم سهول سورية الشماليّة وشطوط البحر المتوسط إلى جنوبي فلسطين، ومن هؤلاء الفينيقيون وأقاموا في وسط قبيلتهم والحثّيون وامتدوا إلى الشمال كما سترى.

وأما ذريّة سام فمنهم: أوّلاً العيلاميّون سكان بلاد عيلام التي صارت بعد ذلك من أعمال الفرس. ثانياً الآشوريّون سكان آشور وهي الجزيرة؛ أي القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين وجواره. ثالثاً العبرانيّون من ولد عابر بن شالح بن أرفخشاد، واستمرّ بعضهم في بلاد الكلدان وهاجر منها ابراهيم إلى بلاد الكنعانيّين فكان من نسله بنو إسرائيل. رابعاً العرب وأصلهم يقطان أو قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشاد بن سام. وامتدوا في الحجاز واليمن وسائر أعمال بلاد العرب وهم العرب العاربة. خامساً الآراميّون وهم ولد آرام بن سام وكانت مساكنهم دمشق وأعمالها، وأُضيف إليهم ولد لود بن سام ومن هذين الأصلين العرب البائدة أيضاً؛ أي عاد وثمود وجديس وجرهم الأولى إلخ.

أما ذريّة يافت فمنهم: أوّلاً الإيرانيّون وهم الماديّون والفرس وغيرهم وأصلهم مادي، ومساكنهم بلاد فارس وجوارها وبعض الهند. ثانياً الكومريّون أو الجومريّون وأصلهم جومر بن يافت، ومساكنهم على شطوط البحر الأسود من جهة أوروبا وجهة آسيا، ويظهر منهم السلت Celtes أصل بعض قبائل أوروبا كما سيجيء. ثالثاً ذريّة ماجوج وهم التتر Scythes وكانت مساكنهم في شمال جبال قاف وانتقل بعضهم إلى جنوبيه. ومن هؤلاء أيضاً أصل لبعض قبائل أوروبا. رابعاً الترك ونَسبهم ابن خلدون إلى كومر (أو جومر) بقوله: «وشعوب الترك كلهم من كومر ولم يذكروا من أي الثلاثة هم، والظاهر أنهم من ترغرما (توجرمة)». ولكن في الكامل لابن الأثير: «ومن ولد تيرش (تيراس) الترك والخزر». خامساً اليونان وأصلهم ياوان وأبناؤه ومساكنهم بعض آسيا الصغرى وبلاد اليونان والجزر القريبة منها وبعض إيطاليا، ومنهم أو هم البلاسج على رأي عامّتهم. ولكن على رأي الأب دي كارا البلاسج لاسيّما الأوّلين هم حثيّون. سادساً الإيباريّون وأصلهم توبل وماشك ومواطنهم الأولى بين بحر الخزر والبحر الأسود أي بلاد الجركس

وبعض شروان. سابعاً وقد كان تيراس بن يافت أصلاً لبعض قبيلة السلاف أي الصقالبة.

إنّ التقليد العام عند جميع سكان أوروبا أنّ أصلهم من آسيا، ارتحلوا إليها من جهة آسيا الصغرى، وبوغاز الدردنيل والبوسفور ومن جهة البحر الأسود وجبل قاف وبحر الخزر، وأكثرهم من ذريّة يافت وأصولهم خمس قبائل كبرى؛ أولاها التتون ولها ثلاثة فروع: الأوّل السكنديناف ويُظنّ أنهم ظعنوا من آسيا في القرن الأوّل قبل الميلاد، ومنهم سكان أسوج ونروج والدانيمرك. والثاني الجرماني ومنهم أكثر سكان جرمانيا. والثالث الإنكليزي ومنهم الإنكليز بحصر اللفظ وسكان سكوتسيا. والقبيلة الثانية السلت انتشرت من أقدم الأيّام من المشرق إلى المغرب في أواسط أوروبا، والسواد الأعظم منها حلّ في إفرنسة؛ فهم الغال سكان إفرنسة القدماء أو نزلاؤهم، وجالية من هؤلاء أقاموا في بوهاميا وبافيارا وفي بعض أعمال إيطالية وإنكلترة أيضاً حيث بلد غال. والثالثة اللاتين ومنها الإفرنسيّون من غير الأصل السابق، ثم السواد الأعظم من سكان إيطالية وإسبانية والبرتوغال ورومانيا. والرابعة اليونان ومنها سكان بلاد اليونان والألبانيّون وبعض سكان إيطالية الجنوبيّة. والخامسة السلاف أي الصقالبة ومنهم خاصة سكان روسيا والبشناق والسرب والبلغار والبولونيّون وغيرهم.

الفصل التاسع

برج بابل

عد ٤٣

آيات الكتاب في برج بابل ثم من بناه

بعد أن ذكر موسى أنساب بني نوح وتفرّق قبائلهم في الآفاق، أنبأنا بما كان في بابل فقال (تك ف ١١ عد ١ وما يليه): «وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً. وكان أنهم لما رحلوا من المشرق (نحو المغرب) وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك. وقال بعضهم لبعض تعالوا نصنع لبناً وننضجه طبخاً؛ فكان لهم اللبن بدل الحجارة، والحمّر كان لهم بدل الطين. وقالوا: تعالوا نبنِ لنا مدينة وبرجاً رأسه إلى السماء، ونُقيم لنا اسماً كيلا نتبدَّد على وجه الأرض كلها» قبل أن نشيد لنا أثراً نتفاخر به. فاستكبروا وأغاظوا الرب فقال: «هوذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة؛ وهذا ما أخذوا يفعلونه، والآن لا يكفّون عما همّوا به حتى يصنعوه. هلمَّ نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض، فبدَّدهم الرب من هناك على وجه الأرض كلّها، وكفّوا عن بناء المدينة، ولذلك سمّيت بابل لأنَّ الرب هناك بلبل لغة الأرض كلّها»؛ فهذا ما جاء في الكتاب وهو شامل أمرين: الكلام في برج بابل، ثم بلبال لغة الأرض. فنتكلّم في هذا الفصل على برج بابل وفي التالي على اللغة وبلبالها.

وأما مَنْ هم الذين أخذوا يبنون هذا البرج؟ فذهب بعضهم إلى أنهم جميع الأحياء حينئذٍ من نسل نوح، وأنهم اجتمعوا في أرض شنعار يتعاضدون ويتنافسون بتشييد مدينة وبرج. وذهب غيرهم أنّ هؤلاء كانوا بني سام فقط وبعض ولد حام، وأيَّد هؤلاء مذهبهم بحجج عديدة منها أنّ التعميم المتحصّل من قوله: «وكانت

الأرض كلّها لغة واحدة»، لا يُراد به كل الأرض المأهولة يومئذٍ بل كل الأرض التي اجتمع فيها المرتحلون أي أرض شنعار. ولا يستفاد من نصّ الكتاب البتّة أنّ كل الأحياء حينئذٍ اجتمعوا في هذه الأرض. ومنها أنّ موسى ذكر أخبار تفرّق ابناء نوح قبل خبر برج بابل وبلبال الألسن، ومن خاتمة الفصل العاشر من سفر التكوين وهي «هؤلاء عشائر بني نوح... ومنهم تفرّقت الأمم في الأرض بعد الطوفان». يتلخّص أنّ هذا التفرّق كان بُعيدَ الطوفان وقبل بناء البرج. ومنها أيضاً أنّ قوله إنهم ارتحلوا من المشرق لا يستلزم أنه لم يبقَ منهم أحد حيث كانوا، أو لم يتخلّف أحد منهم في أثناء الطريق. ومن حججهم أيضاً أنّ الظاهر من النص العبراني أنّ بلبلة الألسن كانت بعد سنة ١١٧ من الطوفان. ولكن يؤخذ عن الترجمة السبعينية أنّ ذلك كان بعد ٤٠٠ سنة من الطوفان. وإذا اعتمدنا هذه الرواية الأخيرة كان اجتماع نسل نوح برمّته في بابل مستحيلاً. ويظهر من الآثار المصرية أنّ بني مصرائيم كانوا مقيمين في وادي النيل قبل القرن الرابع بعد الطوفان. والحاصل من ذلك كلّه ومن قرائن النص المقدّس ومجموعه أنّ الذين همّوا بتشييد المدينة والبرج في أرض بابل، وبلبلت لغتهم لم يكونوا جميع الناس على آخرهم. وإذا فُهم كلام الكتاب بهذا المعنى سقط كل ما يتعرّض به على رواية موسى من حيث وحدة اللغة أو غيرها كما سترى.

عد ٤٤

موقع برج بابل

لا جرم أنّ أرض شنعار التي شُيّد البرج فيها هي أرض بابل، لتصريح الكتاب بأنّ ما بنوه سمّي بابل أخذاً عن بلبلة ألسنتهم. ويظهر أنّ العلامات المسمارية الدالّة على شنعار تشير إلى معنى ما بين النهرين، لأنها على ما روى أوبر (في كتاب رحلته ما بين النهرين): «مات مات را». فعلامة مات تدلّ على اسم البلاد ورا معناه ريّ الماء أو السقي أي النهر، فكان المعنى البلاد المسقيّة بنهرين أي ما بين النهرين. وأما أين كان موقع هذا البرج من أرض بابل؟ فاختلاف القدماء في تعيين محل بابل أدّى بأولى حجة إلى الاختلاف في موقع البرج. والأظهر الآن أنّ موقع بابل إنما هو مدينة الحلة الآن موطن الشيخ صفيّ الدين الحلّي صاحب البديعية المشهورة.

وأما موقع البرج فجعله بعضهم في الشمال من بابل في محلّ الهرم القديم الذي ذكره استرابون وسمّاه قبر بالوس، وجعله غيرهم في بورسيبا القديمة التي هي الآن برج نمرود في وسط الطريق بين بغداد وبابل على بعد اثني عشر كيلومتراً في الجنوب الغربي من الحلّة حيث خرابات كبيرة من آجرّ بعضها متزجّج بالنار. وهنا صرح بقي من ارتفاعه ستة وأربعون متراً ومحيطه سبعماية وعشرة مترات. وقد أثبت العالِم أوبر[1] الإفرنسي أنّ هذه الخرابات هي في موقع برج نمرود، حتى أفضل على العلم بإبلاغ هذا المبحث إلى درجة من التوكيد. فقد جمع (في كتابه الدروس الآشوريّة وفي كتاب رحلته بين النهرين) شهادات المؤرّخين وفقرات الخطوط المسماريّة التي جاء فيها ذكر الهرم القديم وبرج نمرود، واستخلص مثبتاً أنّ برج نمرود هو برج بابل الذي بلبلت الألسن عند بنائه.

إننا كلفاً بالإيجاز نكتفي عن ذلك بإيراد بعض فقرات من كتابة مسماريّة خطّها بختنصّر على هرم قديم في محل برج نمرود، وكان أوّل مَنْ ترجمها أوبر المشار إليه، وشرحها في كتابه الدروس الآشوريّة. فبختنصّر بعد أن يستغيث بالإلهين مروداخ ونابو يقول: «إنّ هيكل أنوار الأرض السبعة المعلّق عليه، أقدم ذكر لبرسيبا بناه ملك قديم (يحسبون من عهده إلى اليوم اثنين وأربعين عمراً بشريّاً). لكنه لم يُكمل قمّته فتركه الناس منذ أيام الطوفان متكلّمين كلاماً مشوّشاً، وزلازل الأرض والرعود زعزعت اللّبن (الآجرّ غير المشويّ)، وشقّقت الآجرّ المشويّ الملبّس به البناء فتهدّم اللّبن فتكوّن منه تلول. فألهم مروداخ الإله العظيم قلبي لأجدِّد بناءه فلم أمسس الأساس بل اخترقت في شهر الخلاص واليوم المسعود اللّبن والآجرّ بقناطر أقمتها، وكتبت اسمي المجيد على وجه القناطر، وعُنيت بتجديد بناء البرج ورفع قمّته كما كان يلزم أن تكون. وكذا أعدت تشييده كما كان يلزم أن يكون في الأعصر الخالية القاصية وكذا رفعت أعلاه».

وقد أيقن أوبر وغيره من أهل العلم بالآثار أنّ خطّ بختنصّر هذا مشعر بلا شكّ ببرج بابل الذي ذكره الكتاب، على أنّ لانرمان تابع أوبر على هذه الترجمة في موجز تاريخه القديم، ثم عاد في مطوّل هذا التاريخ وفي موجز تفسير فقر باروز

---

(١) Oppert Etudes Assyriennes p 192 et Expédition en Mesopo. T.1p. 213.

يشتبه بصحة الترجمة خاصةً في الفقرة، «تركه الناس منذ أيام الطوفان متكلّمين كلاماً مشوَّشاً» مترجماً لها بمعنى آخر. ولما كانت الخطوط المسماريّة عرضة لتأوُّلات عديدة ولقراءات مختلفة فلم نحصل حتى الآن على التوكيد المطلق أنّ برج نمرود هو برج بابل حقيقةً. وإن كان رأي أوبر هو الأقرب إلى الصواب والأظهر خاصة لاستمساكه بحجج قويّة وإسناد قوله إلى بيّنات عديدة، ولأنه يتبيَّن من أيّ تفسير كان لخط بختنصَّر أنه جدَّد بناء برج كان من أقدم الأيام ولم يتمّ صانعوه سقفه أو قمّته، ولا يخفى ما في ذلك من الإشارة الواضحة إلى برج بابل - سواء ذكر الطوفان في ذلك الخط أم لم يُذكر.

عد ٤٥

الآثار المثبتة تاريخ برج بابل

إنّ عالماً اسمه أبيدان يظنّ أنه كان كاهناً مصرياً في هيكل أزوريس في مصر على عهد خلفاء اسكندر، ألَّف كتاباً اعتمد فيه التاريخ البابليّ لباروز الشهير، وضمّنه أخبار الكلدان والآشوريين. إلا إنّ غِيَر الزمان لم تبقِ منه إلا فقرات رواها أوسابيوس في الاستعداد الإنجيليّ، والقديس كيرلّس الإسكندريّ في كتابه ضد يوليانوس، وجرج سينسال في تاريخه؛ ومنها فقرة رواها أوسابيوس وغيره. قال أبيدان فيها: «رووا أنّ الرجال الأوَّلين استكبروا بقوتهم وارتفاع قاماتهم، فأخذوا يحتقرون الآلهة ويظنّون نفوسهم أسمى وأعظم منهم، فحملتهم كبرياؤهم على أن يشيّدوا صرحاً عجيباً في ارتفاعه، وهو الآن بابل. وبينما كاد رأسه يناطح السماء عصفت الأرياح بأمداد الآلهة، فحطَّمت مراقي البناء وكفاءتها على البنّائين وسمّيت هذه الخرابات بابل. والناس الذين كانت لهم لغة واحدة إلى ذلك الحين شرعوا منذ حينئذ يتكلّمون لغات مختلفة بأمر الآلهة». وقد حفظ اسكندر بوليستور (أي العلّامة وهو كاتب يونانيّ توفّي في القرن الأوَّل قبل الميلاد) رواية أخرى أشبه بهذه أخذها عن باروز.

إنّ التقليدات البابليّة التي بلَّغتها إلينا فقرات باروز وغيره في شأن برج بابل وبلبال اللغة فيه تشبه كلَّ الشبه ما رواه موسى في سفر التكوين بهذا الشأن، حتى لم يجد توش ورنان وغيرهما من كفرة عصرنا مفرّاً من قوتها، فلجأوا إلى الزّعم أنّ باروز لم يتلقَّ ما كتبه في برج بابل عن آثار كلدانيّة، بل تلقّاه عن كتب اليهود،

وأوهمهم ميلهم السيّئ أنه كان لليهود سكان بلاد الكلدان صولة وسطوة في هذه البلاد أيام كان باروز يكتب تاريخه على عهد اسكندر الكبير وسلوقوس. مع أنه لم يكن لهم شيء من ذلك، بل كانت مدارس بلاد الكلدان لم تزل عامرة زاهرة تعلّم قراءة الخطوط المسماريّة وتفسيرها، حتى كان كلّ ما بقي من فقر باروز، وأمكن معارضته بالآثار المكتشفة حديثاً قاضياً علينا أن نوقن أنه تلقّاه عن آثار قديمة في وطنه، وأنه كان على غاية من الدقة في ما ينقله ولا وجه لاستثناء روايته في برج بابل، وبلبلة الألسن من هذا الحكم وليس في ذلك ما يشرّف قبيلته أو يعود عليها بنفع.

ويزيد ذلك تحقيقاً ما اكتشفه عن قرب جرج سميت من صفائح نُقش عليها بالخط المسماريّ تاريخ برج بابل، وهي الآن في المتحف البريطاني. إلا إنها لسوء الحظّ مشوّهة ممحوٌّ قسم منها، والصحيفة الأولى التي يظنّ أنه كان مكتوباً فيها خبر تكبّر مَنْ شيّدوا البرج لم يهتدِ إليها بعد. على أنّ الباقي من هذه الصفائح يشفّ ظاهراً عن الغرض؛ وهوذا ترجمة ما كان منه كذلك. «كانت أفكار قلبه سيّئة... وكان ترك أبا كل الآلهة... فبلبلهم كباراً وصغاراً على البرج... كان يبني الجدران النهار بطوله وفي الليل عقاباً لهم... لم يترك بقية... في غضبه جاهر برأيه الخفيّ بأن يبلبل ألسنتهم فحوّل وجهه وأمر فتبلبلت آراؤهم... سر - تولي - إليّ (تأويله إله البرج السامي وهو أنو) أباد (أو عاقب)... فالتقوه مرتعدين فنظرهم... ولما لم يتوقفوا وعصوا الآلهة... فبكوا بكاءً مرّاً على بابل وانتحبوا وقلبهم...». فالحاصل من هذا الكلام المتقطّع أنّ شعب تلك الأيام عصى الآلهة، وأراد بناء برج غير مبالٍ بإسخاطهم. فبلبل الآلهة ألسنة الشعب وآراءهم، ودمّروا ليلاً ما كانوا يبنون نهاراً، فشقّ عليهم ذلك وناحوا على بابل وما كانوا بنوه فيها؛ وهذا مؤذن ببناء برج بابل ودكّه، وبلبلة ألسن مَنْ بنوه بل لا يمكن تخريجه أو صرفه إلى معنى غير هذا.

روى لانرمان (مجلد ١ من التاريخ صفحة ١١٥) أنّ التقليد الدالّ على بناء برج بابل وبلبال الألسن به وجد عند الأرمن، ولم تخلُ عنه كتب اليونان لأنه جاء في قصصهم عن الألياد (أي الجبابرة)، أنهم شرعوا يبنون برجاً يبلغ رأسه إلى السماء. فعاقبهم الآلهة على قحتهم وأهالوهم بالصواعق وأهبطوهم إلى الجحيم. وروى ما رويناه آنفاً، وقال لم نجد أثراً لذلك في الهند ولا في إيران لأنه خُصّ بسكان بابل أو بمَنْ كانوا مجتمعين في شنعار أو بمن تفرّع منهم بعد ذلك.

الفصل العاشر

اللغـة

عد ٤٦
اللغة الأولى

لما كان جميع الناس من ولد آدم وحوا أولاً ثم من ولد نوح بعد الطوفان، لم يكن إشكال ولا ريب في أنه كان للأوَّلين في الدورين لغة واحدة يحسن تسميتها اللغة الأولى. وجاء الكتاب ينبئنا أنه عند بناء برج بابل «كانت الأرض لغةً واحدة وكلاماً واحداً». وقد أبنَّا مفهوم هذه الآية على أنّ الاختبار في كل أين وآن حقّق لنا أنه لا يمكن أن تكرّ أعوام عديدة على لغة إلا وتدخل عليها تبديلاً في ألفاظها وتغييراً في صورها وزيادة عليها، وتحريفاً وتصحيفاً في حروفها لاسيما إذا كانت تلك اللغة غير مكتتبة. وعليه فليس لنا أن نقضي بأنّ اللغة التي أنطق الله آدم بها استمرّت محفوظة على سلامتها إلى أيام الطوفان. وإذا سلَّمنا ببقاء أصلها وجوهرها فلا أقلّ من تبدُّل هيئتها الخارجية، ودخول بعض التغيُّر فيها إلا أن يكون ذلك بمعجزة. ولم ينبئنا الكتاب بشيء من هذه المعجزة. ثم إذا كانت المدة التي تخلَّلت بين الطوفان، وبناء برج بابل أربعة قرون على ما في النسخة السبعينيّة فلا بدّ أن يكون قد طرأ على اللغة التي كان نوح تكلَّم بها مثل تلك التبدُّلات، والتغيُّرات والزيادات الحديثة. وعليه فالأظهر أنّ اللغة التي كان يتكلَّم بها مَنْ بنوا برج بابل هي اللغة الأوليّة مهذَّبة ومكمَّلة، ومُزاداً عليها ألفاظ جديدة وصور حديثة. وأنّ بني سام تيسَّر لهم أكثر من سواهم حفظ اللغة التي نطق بها آباؤهم، لأنهم استمرّوا أدنى من غيرهم إلى مهد النوع البشريّ وإن طرأ على لغتهم ما طرأ ويطرأ على كل لغة كما أبنّاه.

ذهب بعض الآباء منهم أوريجانوس (في مقالة ١١ في سفر العدد) والقديس أوغوسطينوس (في كتابه مدينة الله فصل ١٦) وغيرهم، وكثير من العلماء حتى أيامنا، أنّ اللغة العبرانيّة هي اللغة الأولى التي تكلّم بها آدم في الفردوس. وذهب كثيرون غيرهم أيضاً أنها لغة أخرى سامية كالسريانية أو الكلدانية أو العربية، على أنه قد تبيَّن من العلم الحديث النشأة؛ وهو علم معارضة بعض اللغات ببعضها، أنّ كل اللغات القديمة تعاقبت عليها ثلاثة أدوار. ففي دورها الأوَّل كان كل من كلماتها ذا هجاءٍ واحد، فتوضع الكلم إحداها بعد الأخرى بحسب نظامها المنطقيّ لتأدية المعنى المقصود. وما برحت لغة الصين ولغات بعض القبائل في داخليّة افريقية وغيرها من هذا النوع. وفي الدور الثاني أُخذ بإلحاق كلمة إلى أخرى فيؤدّي اللفظان المعنى الأوَّل مُضافاً إليه معنى جديد، أو يحصل من تركيب الهجائيّين أو أكثر معنى آخر. وفي هذا الدور أيضاً أخذ بزيادة أحرف على الأصول في أوّلها أو آخرها، أو بين حروفها للدلالة على معانٍ ترافق المعنى الأصليّ. مثال ذلك في لغتنا العربية زيادة الألف في مثل قاتل للدلالة على المشاركة، وزيادة الألف والسين والتاء في مثل استغفر للدلالة على طلب الفعل، ومن ذلك تشديد وسط الفعل للدلالة على المبالغة، أو إدخال الهمزة أو التشديد على الأفعال للتعدية. ومثال ذلك في غير العربية لا يخفى على الخبير بها؛ فمنها زيادة بعض الحروف في اللغات الأوروبية للدلالة على تجديد عمل الفعل مثل Commencer ابتدأ Recommencer ابتدأ ثانيةً أو استأنف ومثل Honorer كرَّم ووقَّر Déshonorer عاب واحتقر. وفي الدور الثالث اكتسبت كلم اللغات التصريف، وهو تغيير الأصل إلى هيئات متعددة للدلالة على معانٍ منها تصريف الأفعال في الأزمنة ومع الضمائر، وبناؤها للمجهول، وإلحاق الضمائر بالاسماء والأفعال. ومثل النسب والتصغير وما أشبه. وإذا علمت ذلك ظهر لك أنّ اللغة العبرانية، وغيرها من اللغات السامية لا يمكن أن تكون في حالتها الحاضرة اللغة الأولى التي تكلّم بها آدم. فإنّ نحو كل منها ومعجماتها تنبئنا أنها في دورها الثالث. ولكن يمكن أن تكون إحدى هذه اللغات السامية لغة آدم ولغة نوح من حيث جوهرها وأصلها. وقد قدَّر لانرمان أنّ اللغات ذات الهجاء الواحد يتكلّم فيها نحو ٤٤٩ مليوناً في العالم، واللغات المركَّبة غير المتصرّفة يتكلّم بها نحو ٢١٦ مليوناً والمتصرّفة ينطق بها نحو من ٥٣٧ مليوناً (مجلد ١ من تاريخه القديم صفحة ٣٣١).

عد ٤٧

بلبلة اللغة

وأما كيف كان بلبال اللغة في بابل فللآباء ومفسّري الكتاب في ذلك قولان؛ قال بعضهم أنشأ هذا البلبال عدم إدراك بُناة البرج ما يقوله أحدهم للآخر بإرادة الله عقوبة لكبريائهم فتفرّقوا. فنشأ عند كل فريق منهم لغة تقدَّمت شيئاً فشيئاً. وممّن استمسكوا بهذا القول القديس غريغوريوس نيصص، ومما قاله (في ردّه مزاعم أونيموس ك ١٢): «لما كان موسى ولد بعد قرون من بناء برج بابل فاستعمل لغة من اللغات المتأخّرة»؛ أي التي نشأت بعد البلبال وجرت في مدارج التقدُّم، وجنح أهل العلم بمعارضة اللغات إلى تأييد هذا القول. وقال آخرون، وهم كثير من الآباء والمفسّرين: «إنّ الله غيَّر بغتةً لغة بُناة البرج حتى استحال على أحدهم أن يدرك كلام الآخر، وأنطق كل فريق بلغة. تلك معجزة لا يعجز الله صنعها. قال فم الذهب (مقالة ٣٠ في التكوين): «إنّ وحدة اللغة دعت إلى الإجتماع واختلاف اللغة أوجب التفرّق». وقال القديس افرام السرياني (في تفسيره سفر التكوين مجلد ١ من كتبه السريانية صفحة ٩٥): «يظهر أنّ الله محا من ذاكرتهم اللغة القديمة التي كانت تعمّهم جميعاً، وبدَّلها بلغة خاصة بكل فريق منهم... واستمرّت اللغة القديمة عند أسرة واحدة فقط». وعلى كلا القولين كان بلبال الألسن معجزة خارقة ناموس الطبيعة لا ينكر إمكانها إلا مَنْ ينكر قدرة الله على تغيير سنن الطبيعة، وهو على كل شيء قدير، على أنّ المعجزة في القول الثاني مضاعفة أي إنساء اللغة الأولى وإنطاق كل فريق بلغة.

عد ٤٨

علم معارضة اللغات

هو علم حديث النشأة عُني وما برح يُعنى به كثير من أعلام أهل العلم في هذا العصر؛ والغرض منه معرفة أصل اللغات واشتقاق بعضها من بعض، وما دخل من إحداها في الأخرى، وردّها إلى أصولها، والبحث في ما إذا كان لها أصل واحد ترد إليه سائر اللغات. وقد ردّوا، حتى الآن، كل اللغات التصريفية المعلومة

إلى أصلين خاصةً الأول السامي - والأولى على رأي بعضهم أن يُسمَّى السرياني العربي؛ وأخصّ فروعه الكنعانية بفروعها، والآرامية أي السريانية بفروعها، والآشورية والعربية بفروعهما، ولغة بعض أهل الحبشة بفروعها. ومن هذا الأصل أيضاً اللغة الحاميّة، وهي ذات ثلاثة فروع؛ المصري القديم المكتوب بالحروف الهيروكليفية، ولغة بعض سكان الحبشة غير المارّ ذكرها، ولغة سكان ليبيا، وهي المغرب أي الأقاليم الواقعة في غربي مصر. فقد أثبت لانرمان (مجلد ١ من تاريخه صفحة ٣٧٠) أنّ أصل هذه اللغات واللغات الساميّة واحد، بدليل أنّ أصولها النحوية وأصول الضمائر فيها وصيغة التأنيث، والجموع ونحو نصف أصول الكلمات؛ جميعها واحدة في اللغتين والنصف الثاني من اللغات الحامية، حتى أنّ الفرع المصري نفسه هو من لغاتٍ افريقية يتكلَّم بها شعوب السودان. ويظهر أنّ انفصال اللغات الحاميّة عن الساميّة قديم جداً. وقد سبق تقدّم اللغات وتحسينها. وأما الأصل الثاني فهو السنسكريت ويقسمونه إلى الهندي الإيرانيّ والهندي الأوروباويّ؛ ومن فروع الأوَّل: الفارسي والأرمني، ومن فروع الثاني: اليونانية بفروعها، واللاتينية بفروعها، والجرمانية بفروعها، والسلافية بفروعها إلى غير ذلك من اللغات أو الفروع المستعملة في أوروبا ومستعمراتها، وسنأتي على بيان ذلك كلّه.

وقد أسند هؤلاء العلماء نتائجهم إلى مقدّمات هي قرب الفروع من الأصل، والمشابهة بين الأصول النحوية وأزمنة الفعل وتصاريفه ونوع الكتابة. واستعانوا بتواريخ القبائل وارتحالاتهم وأنسابهم إلى غير ذلك من الأدلّة المفردة عندهم.

وأما مرجع هذين الأصلين إلى لغة واحدة أولية فهو ما يعني أهل هذا العلم. وقد تقدَّم كثيراً على حداثة نشأته، وإن لم يتمكّن ذووه حتى اليوم من الإهتداء إلى كل حلقات هذه السلسلة المتقطّعة، وإيصال إحداها بالأخرى. وما أدركوه حتى الآن وليس هو باليسير إثباتهم إثباتاً علمياً إمكان وجود لغة واحدة أوليّة هي أصل سائر اللغات، واهتداؤهم إلى قرائن قوية دالّة على أنّ اللغات مشتركة في الأصل ولها أصل واحد يعمّ جميعها، خاصة إذا رُوعيَ دورها الأوَّل، إذ كان كل أصل ذا هجاء واحد. حتى قال بعضهم إنّ بعض ما كان في اللغات الساميّة من ثلاثة أحرف أصله حرفان فقط. هذا، وإذا تعذَّر الوصول إلى التيقّن بوحدة الأصل في جميع اللغات فيبقى قول الكتاب: «وكانت الأرض كلها لغة واحدة» على سلامته

وتنزّهه عن كل خلاف، إذ أبنّا أنّ الأظهر من معنى الآية أنّ المراد بالأرض كلها أرض شنعار لا الأرض بإطلاق لفظها. فسيّان في صدق الكتاب ثبت وجود لغة واحدة هي أصل كل اللغات أَم لم يثبت. والراجح الآن ثبوته.

عد ٤٩

اللغات الساميّة

قد مرّ أنّ أصل اللغات - الذي سمّته عامّة أهل العلم سامياً. رأى بعضهم ومنهم لانرمان أنّ الأولى تسميته بالسرياني العربي، لأنه أصل لبعض لغات الحاميّين. أيضاً، فتسميته سامياً لا تشمل هذه اللغات. ولأنّ أخصّ فروعه السريانية والعربية فكانت السريانية والعربية فرعين عامين يُسمّى الأوّل منهما شمالياً والثاني جنوبياً. ولكلّ منهما فروع نأتي على ذكرها كلفاً بتوفّر الفوائد. فالفرع العام الشمالي الذي هو السرياني، تفرّع منه اللغات الآرامية والآشورية والكنعانية. فالآرامية لغة الشعوب الذين سمّاهم الكتاب آرام، فكانت لغتهم في سورية ثم أوصلتها ولاية الآشوريين والفرس إلى كل من ما بين النهرين حتى خليج العجم، وفلسطين وبلاد العرب الشمالية. واستمرّت الآرامية اللغة المتغلّبة في هذه الأقاليم إلى أن نسختها وخلفتها العربية بعد ظهور الإسلام. ومن فروع الآرامية الفرع الذي كتبت فيه بعض أجزاء من أسفار الكتاب المقدّس كنبوّة دانيال وسفرا عزرا ونحميا وسفر استير. وقد بقيت فقرات منها مكتوبةً من القرن الخامس إلى القرن التاسع بعد الميلاد يتبيّن منها حالة هذه اللغة وقتئذٍ.

ومن فروع الآرامية أيضاً اللغة السريانية التي كان يستعملها سكان الرها ونصيبين، وقد كانت زاهرة خاصة من القرن الثاني إلى القرن التاسع بعد الميلاد، وهي المكتوبة فيها ترجمة الأسفار المقدّسة المسمّاة بسيطة. وكتب القديس افرام السريانية، وكتب طقوس طائفتنا المارونية، وقد داخلها كثير من الألفاظ اليونانية، وكانت موصلاً للعلوم بين اليونان والعرب. فأكثر ترجمات الكتب من اليونانية إلى العربية، عُني بها علماء السريان أو أخذت عن ترجمات سريانية. واستمرّت هذه اللغة في بعض قرى جبل لبنان كحصرون وجوارها إلى أمد غير بعيد - أعني نحواً من قرنين فقط. ومن الفرع الآرامي اللغة التي استعملها اليهود وغيرهم في سورية

وفلسطين في أيام المخلّص، وقد كتب الربيّون بها التلمود الأورشليمي والتلمود البابلي. وتُسمّى السريانية الكلدانية، وسمّاها بعضهم عبرانية نسبةً إلى العبرانيين الذين تكلّموا بها بعد عودهم من السبي البابلي.

ومن هذه الفروع أيضاً: الفرع التدمري الذي كان مستعملاً في تدمر ونواحيها وفي شمال سورية في أيام دولة تدمر، وبقي منه كتابات عديدة قديمة. ومنها أيضاً الفرع النبطي، وكان لغة أهل العربية الحجرية، يداخله كثير من الألفاظ العربية، وبقيت منه أيضاً كتابات قديمة. ثم الفرع السامري، انتشر في السامرة في عهد ولاية الآشوريين والبابليين والفرس عليها. وقد حفظ بحالة لغة علمية عند السامريين، والنسخة السامرية مكتوبة به.

وللغة الكنعانية فرعان، خاصة أولهما اللغة العبرانية؛ وهي كقطب يدور عليه درس اللغات الساميّة. وقد كتبت بها أكثر أسفار العهد القديم. وقد أنبأتنا الاكتشافات الحديثة، والآثار القديمة أنها كانت لغة الموابيين، والعمونيين من نسل لوط. ومن المؤكّد أنها لم تكن لغة ابراهيم ونسله قبل أن زايل بلاد الكلدان بل تلقّاها عن الكنعانيين بعد أن توطّن بين أظهرهم، وسمّاها اشعيا النبي لغة كنعان. والفرع الثاني هو لغة الفينيقيين على أنه وإن كان الفينيقيون من ولد كنعان، فقد كان لهم لغة مخصوصة قريبة من اللغة العبرانية. لكنّ بين الفرعين فروقاً تجعل كلًّا منهما فرعاً ممتازاً عن الآخر. فيظهر أنّ العبرانية كانت لغة الكنعانيين سكان جبال فلسطين والفينيقية لغة السواحل. وقد دلّتنا آثار هذه اللغة أنها كانت ثلاث لهجات أو فروع: فرع جبيل وهو الأقرب إلى العبرانية، وفرع صيدا وهو الأهمّ والأكثر انتشاراً. ويمكن اعتباره مثالاً لهذه اللغة. ثم الفرع البوني وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا إلى قرطاجنّة كما سترى في تاريخهم.

وأما الفرع الثاني العام من اللغات السامية فهو اللغة العربية، وهي ذات فرعين؛ أحدهما الفرع القحطاني أو اليقطاني. والثاني الفرع الاسماعيلي نسبة إلى اسماعيل ابن ابراهيم من هاجر أمته، فإنّ اسماعيل عاش بين قبيلة جرهم. كما قال ابن خلدون في تاريخه: «وشبَّ اسماعيل بينهم (أي بين جرهم الثانية) وتعلَّم اللغة العربية منهم، وأعجبهم وزوَّجوه امرأة منهم، وماتت أمه هاجر فدفنها في الحجر».

ومن جرهم قريش. والحاصل أنّ هذا الفرع المستعمل في كتبنا وبلادنا هو

صحيح، وهو لغة الأمصار من العراق والجزيرة إلى أطراف مراكش، ومن شطوط البحر المتوسط إلى الحجاز واليمن. وقد انتشرت بالمسلمين العرب وهي الآن ذات أربع لهجات خاصة أي لهجة بلاد العرب، ثم لهجة سورية، ثم لهجة مصر، ثم لهجة المغاربة. ولا حاجة إلى القول إنّ هذه اللغة من أغنى اللغات في أصولها. وإذا عورضت قواعدها النحوية بغيرها من قواعد اللغات الساميّة ظهر أنها ركن لكتب الأصول في باقي هذهِ اللغات. وقد أخذت بعض لغات آسيا وأوروبا ألفاظاً كثيرة من العربية. فمنها في اللغات الإيرانية، لاسيما الفارسية، ألفاظ لا يدركها عادٌّ. واللغة التركية نحو النصف من ألفاظها عربي، ومنها ألفاظ عديدة في بعض لغات الهند الآن. وفي الإسبانية والبرتغالية كلمات كثيرة أخذت عن العرب مدة اقامتهم في اسبانيا. ولا تخلو الفرنسية عن كلمات منها يعرفها مَنْ علمَ اللغتين. وفي علم الفلك كثير من ألفاظها منها: السمت والدبران والطير وبنات نعش والمغز إلى غيرها. وأما الفرع اليقطاني فيشمل اللغات الميتة التي كانت في بلاد العرب الجنوبية وبعض اللغات الحيّة الآن في بلاد الحبشة. وحفظت لنا الآثار القديمة بعض فقرات من تلك اللغات الميتة. وقد جمع العالمان أرنو ويوسف ألافي صور كتابات قديمة عديدة بهذه اللغة كانت كافية لمعرفة أصولها. وظهر أنّ لهذه اللغة أربعة فروع: السباوي أو الحميري، وكان لغة اليمن خاصة، وبها كتبت أكثر الآثار المذكورة، فعرفنا أصولها أكثر من غيرها وهي مثال لباقي الفروع، ثم الفرع الحضرموتي؛ وهو لهجة حضرموت القديمة، والضمائر فيه أشبه بضمائر لغة آشور، والفرع الميناوي – وكان لغة سكان الشمال الشرقي من اليمن، والفرع العقيلي (نسبة إلى عقيل أحد بطون العرب القدماء) وهو لغة مهرة من أعمال اليمن.

عد ٥٠

السنسكريت وفروعها

إنّ الأصل الثاني العام للغات يُسمّى مع فروعه اللغات اليافتية، لأنّ كل مَنْ نطقوا بها من نوع الإنسان الأبيض هم من ذريّة يافت. والأصل الذي ترد إليه هذه اللغات يُسمّى السنسكريت؛ ومعنى هذا اللفظ عند الهنود: «ما هو كامل بنفسه». فكأنهم سمّوا هذه اللغة كذلك لأنّ تصاريفها كاملة وكان موطنها الهند. وكانت

اللغة العامة في نحو من عشرين قرناً، ثم أمست لغة العلم والدين هنالك؛ وهي أسّ لمجموع اللغات الهندية الكثيرة الفروع، والتي لا وجه لنا لتبيانها، بل حسبنا أن نبيّن أنّ السنسكريت أصل لفرعين شاملين: الأوّل الهندي الإيراني، والثاني الهندي الأوروباوي. وللإيراني مثالان قديمان: الزند والفارسي. فالزند هو اللغة المكتوبة بها الكتب الدينية المنسوبة لزوروواستر واضع دين الفرس القدماء أو مصلّحه. والفارسي نجده في الكتابات المسمارية التي خطّها ملوك الفرس القدماء. واللغة الكردية تقرب كثيراً من هذه اللغة الفارسية، فهي مكسرة عنها ويداخلها كثير من الألفاظ الأجنبية. ومن فروع الإيرانية اللغة الأرمنية ولم يتّجد من الآثار ما يكشف لنا عن حالتها القديمة. والمعلوم أنّ القديس مسروب هو الذي وضع أحرف هجائها في القرن الخامس للميلاد عند تنصّر الأرمن. واللهجات بهذه اللغة عديدة.

وأما الفرع الثاني الشامل وهو الهندي الأوروباوي فله خمسة فروع وهي: اليوناني، واللاتيني، والسلتي، والجرماني، والسلافي أي الصقلبي. ولكلّ منها فروع أيضاً. وكان يُظنّ قبلاً أنّ اليونانية أم اللاتينية، فظهر الآن أنّ الصحيح أنهما أختان حتى يمكن تنزيل اللاتينية منزلة البكر، وهي أم للإيطالية، والإفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية، والرومانية. وكان لها في أقدم الأيام فروع كالسابينية وغيرها من اللهجات التي استغرقتها سطوة المملكة الرومانية. وأما الفرع اليوناني فقد طرأ عليه تبديلات، وتغيّرات لكنها لم تبعد الفروع عن الأصل بعداً كثيراً. وهذه الفروع هي الأيولياني، والدوري، والأتيكي، والمكدوني. وقد اعتبر كثيرون لغة الألبانيين الآن من فروع لغة البلاسج، وإن داخلها كثير من الكلمات اليونانية والسلافية، وبعض صيغها أقرب إلى السنسكريت منها إلى اليونانية، والفرع السلتي أمسى الآن محصوراً في أعمال قليلة من افرنسة وجزائر بريطانية. وله فرعان: أحدهما يُسمّى الغالي لغة سكان عمل غال في جزائر بريطانيا، والثاني يُسمّى بروتون وهو لغة بعض سكان شمالي افرنسة، ومن هذا الفرع لغة ايرلندا.

وأما الفرع الجرماني الشامل فله فرعان: الغوتيك أي الغططي (نسبة إلى قبيلة جرمانية أصلاً)، والألماني فالغوتيك لا نعلم منه إلا ما بقي منه على الآثار – ومن جملتها فِقَر من ترجمة للكتاب المقدّس عُني بها أسقف يُسمّى ولفيلا Vulfila في القرن الرابع للميلاد، ومنه تفرّعت أولاً لغة الدانيمرك وأسوج. ثانياً الفرع المعروف

بأنكلو ساكسون الذي نتجت منه ومن الإفرنسية القديمة اللغة الإنكليزية. ثالثاً الألماني السافل، وفيه عدة لهجات. وأما الفرع الألماني العام فله عدة فروع منها اللغة الألمانية، واللغة النمساوية.

وأما الفرع السلافي أو الصقلبي الشامل فله فرعان عامان أيضاً؛ السلاف بالخصوص واللاتيك. والسلاف قسمان أيضاً؛ شرقي وغربي. فمن السلاف الشرقي اللغة المكتوبة فيها الكتب الطقسية في جميع كنائس الصقالبة. ومنذ القرون الوسطى لم تعد اللغة العامة بين الشعب، وتقرب منها اللغة البلغارية؛ وهي مشتقة من لغة الصقالبة الجنوبيين، أخذها البلغاريون عنهم عند احتلالهم أعمال الدانوب السفلي. ومن هذا الفرع أيضاً اللغة الروسية، وقد انتشرت كثيراً بامتداد أملاك دولة روسيا. ثم اللغة التي يتكلّم بها السكان بين بحر الأدرياتيك ونهر الدانوب. وأما الفرع السلافي الغربي فهو لغة أهل بولونيا، وبوهاميا وغيرهما من الفروع غير المشهورة. والمقاربة بين اللغات السلافية أكثر منها بين فروع لغة أخرى. فمن عرف إحداها فهم الكلام في باقيها إلا لغة بلغاريا، لأنه طرأ عليها تبديلات وتغييرات في أصولها. وأما الفرع الثاني المسمّى اللاتيك فكان من فروعه لغة قديمة في بروسيا نسختها الألمانية، ولغة أخرى كان يتكلّم بها شعبٌ قرضه البولونيون.

قد أخذنا عن لانرمان (في المجلد الأول من تاريخه) أكثر كلامنا في اللغات ونختتمه بما اختتم به كلامه، وهو أننا خرجنا بعيداً عن غرضنا في كتابة تاريخ سورية أو مقدمة له. ولكن إذا تبصّر المطالع بتوفّر الفائدة مما أتينا به أحلّ عذرنا لديه محل القبول والاستحسان.

الفصل الحادي عشر

لمحة في الكتابة

عد ٥١

الكتابة بالصور

مذ أخذ الإنسان يكسب المعارف اللازمة لتقدُّمه في مدارج الحضارة، شعر باحتياجه إلى ما يعاون ذاكرته على حفظ تلك المعارف، وإلى ما يبلغ أفكاره ورغائبه إلى غيره إذا تعذّرت عليه المشافهة. وكان له في ذلك وسيلتان؛ الأولى أن يرسم صورة لما يتصوّره ويرغب فيه، والثانية أن يرسم صورة لأصوات كلامه. والصورة في الوسيلة الأولى، إما أن تكون حقيقية ان كان الشيء المرغوب في بيانه مادياً يمكن تصويره وإما أن تكون مجازية دالّة في سبيل الكناية والرمز على المقصود. والصورة في الوسيلة الثانية تدلّ إما على الكلمة برمّتها أو على بعض حروف هجائها، فكان الناس في بدء نشأتهم وحضارتهم يرسمون صورة لما رأوه أو فكّروا به وأرادوا تذكّره، فينقشونها على حجر أو خشب أو مادة أخرى صلدة. ولما لم يكونوا يحسنون التصوير كانوا يحفرون أو يجسّمون خطوطاً كما تسمح قريحتهم القاصرة لتذكّرهم تلك الخطوط ما أرادوا. وقد وُجدت آثار دالّة على مثل ذلك في محالّ عديدة؛ فهذا أول طور للكتابة.

ثم تدرَّج الناس الأوّلون بحسب حضارتهم إلى التعبير عن أفكارهم برسم صور دالّة على مسمّياتها بحقيقتها أو مشيرة إلى الغرض بقرينةٍ ما. فإذا أرادوا مثلاً التعبير عن حرب رسموا صور رجال متعاركين وأدوات حرب، أو عن حيوان أو طائر أو شيء آخر مادي صوَّروه للدلالة عليه، أو دلّوا بصورته على أمر آخر متعارف عندهم، فكان من ذلك ألغاز لا يحلّها إلا مَنْ عرف اصطلاحاتهم، أو اهتدى إليها

بيعض القرائن. من ذلك رسم المصريين صورة رجل ويده إلى فمه كناية عن الأكل. ونجح بعض القبائل بهذا الفن فكان منه ست أنواع؛ هيروكليفية أي تمثّل صور أشياء مادية يراد بها مسمّى الصورة أو شيء منه أو يشير إليه، وأوّل هذه الأنواع الهيروغليف المصري، ثم العلامات الصينية، ثم المسمارية في بلاد الكلدان، ثم الحثية عند الحثيين في شمالي سورية وفي آسيا الصغرى، ثم المكسيكية عند قدماء المكسيك، ثم الكانوتية في أميركا؛ والأظهر أنّ كلاً من هذه الإصطلاحات كان مستقلاً لا علاقة له بغيره. وبقي إلى الآن اصطلاحان منها هما: الحثي والأميركاني لا تُعرف حقيقة مدلولهما. وقد اهتدى سايس إلى كلمتين أو ثلاث من الإصطلاح الحثّي.

على أنّ الإصطلاح على رسم الصور كان قاصراً لا يمكنه أن يؤدّي إلا بيان تصوّرات قليلة العدد ومادية. ويتعذّر أن ترسم به التصوّرات المجرّدة عن المادة؛ كتصوّر الفضيلة والعدل وما أشبه من التصوّرات التي يسمّيها المنطقيون مجرّدة. ولذلك ألجأت الحاجة مَنْ تقدَّموا في الحضارة أن يبحثوا عن طريقة أخرى يتيسَّر بها بيان أفكارهم، فكانت أولى خطاهم جعلهم ما كانوا ينقشونه من الصور دالًّا لا على مسمَّيات الصور بل على الهجاء الأوّل من اسمها أي على اللفظ المصطلح عليه لها. فأصبحت تلك العلامات صوتيّة بعد أن كانت تصوّرية. ولكي نمثّل بما يدركه ابناء العرب نقول إنّ صورة الشمس التي كانت تدلّ على الشمس في اصطلاحهم الأوّل جعلوها في اصطلاحهم الثاني تدلّ على الهجاء الأوّل من كلمة الشمس، أي الشين مع حركة لها. وصورة الهلال الدالّة عليه في اصطلاحهم الأوّل أصبحت في اصطلاحهم الجديد دالّة على حرف الهاء مع حركة له. وكان هذا الإصطلاح الجديد في اللغات ذات الهجاء الواحد لكل كلمة أكثر ملاءمة منه في اللغات المؤلّفة كلماتها من تهجيات متعددة. وتقدَّم تدريجيّاً الإصطلاح على تصوير التهجيات. إلا إنه ما برح في ذلك صعوبات، وتطويل وحاجة إلى مهارة في صناعة التصوير، واستمرّت ألفاظ كثيرة ترسم بصور دالَّة على تصوّر. ولذلك استمرّ عدد العلامات يتصل إلى ألوف، فكان الإصطلاح على تقدّمه أحرى أن يكون نوعاً من التصوير من أن يكون كتابة.

عد ٥٢

الكتابة بالحروف

أجمع القدماء على أنّ الفينيقيين أوّل مَنْ أوجد الكتابة بالحروف. فقد كان منهم جمّ غفير يقيم في مصر أو يكثر الترداد إليها للإتجار. فأخذوا العلامات الصوتيّة من اصطلاح المصريين معتاضين بخطوط عن الصور، فوضعوا الإثنين والعشرين حرفاً هجاء لغتهم، وأخذوا يكتبون بها ما شاءوا من ألفاظها. وعنهم أخذ سائر معاشريهم. فلم يجد العلماء حتى الآن حروف هجاء قبل حروف الفينيقيين. وكل ما وُجد مكتوباً بالحروف على الآثار أو محفوظاً بالاستعمال يردّ عن قرب أو بعد إلى الحروف الفينيقية. وقد عارض كثير من العلماء هذه الحروف بغيرها من حروف جميع اللغات، فتبيّن أنّ الأصل هو الفينيقية طرأت عليه تدريجاً تحسينات واختصارات في اللغات الأخرى. وسنبيّن عند كلامنا عن الفينيقيين كيف أوصلوا حروفهم مع بضائعهم إلى الآفاق القاصية من العالم المعروف حينئذ. على أنه لا يعلم في أيّ عصر بالخصوص أوجد الفينيقيون هذا الاختراع الوفير الأهمية ولا شك بأنه كان قبل عصر موسى.

الفصل الثاني عشر

سكان سورية الأوّلون

عد ٥٣

سكان سورية قبل الطوفان

لا مرية بأنّ سورية كانت قبل الطوفان أيضاً مأهولة بولد آدم. ولا نعتمد في هذا على التقليدات العامية التي روى كثيراً منها الأب مرتين اليسوعي في كتابه «تاريخ لبنان»[1] الذي نشرت جريدة البشير بعض مقالاته، حيث روى التقليد أنّ الفردوس كان في أنحاء دمشق أو لبنان، وأنّ آدم عاش في سورية، وأنّ مقتل قايين وهابيل كان في صحارى دمشق، وأنّ قبر قايين هناك، وأنّ مدفن هابيل في الجبل الشرقي، وأنّ مدفن نوح في سهول البقاع، وأنّ المدينة الأولى التي بناها قايين في بعلبك، وما أشبه من تقليدات العامّة التي ركن إليها بعض الجوّالة. وكذا لا نعتدّ بما رواه يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ١ فصل ٢) من أنّ بني شيت نصبوا عمودين من حجر ولبن، وكتبوا عليهما ما علموه حتى إذا حصل الطوفان، وغرق عمود اللبن يستمرّ عمود الحجر حافظاً للخلَف ذكر ما كتبوا. وقال إنهم يؤكّدون بقاء هذا العمود إلى الآن في سورية. وأيضاً لا نعتمد في هذا الحكم على أقوال بعض أهل العلم في هذا العصر؛ كقول دي لامرتين بأنّ بعلبك شيّدها الجبابرة قبل الطوفان. فإنّ هذه التقليدات، والآراء على احتمال صحة بعضها لا تصلح أن تكون بيّنة علمية على أنّ سورية كانت مأهولة بولد آدم قبل الطوفان، بل الحجة القاطعة في ذلك هي موقع سورية الطبيعيّ. فإنّ أخصّ الأقوال في مهد النوع البشريّ وأوجهها وأقربها إلى الصدق أنّ هذا المهد كان في ما بين النهرين، أو في أرمينية كما أبنّا (ارجع إلى عد ١٣). ولا جرم أنّ الناس على طول حياتهم قبل الطوفان تكاثر

(١) صدر عن دار نظير عبود طبعة جديدة.

عديدهم. فالحقبة التي هي ١٦٥٦ سَنة بحسب النسخة العبرانية أو ٢٢٤٢ سنة بحسب الترجمة السبعينية، كانت فوق ما يكفي لتفرّق ذريّة آدم وانتشارهم في أصقاع عديدة. ويثبت ذلك تفرّق ذريّة بني نوح في الآفاق لأقل كثيراً من هذه الحقبة. وما بين النهرين متاخم لسورية، ولا يفصل بينهما إلا الفرات غرباً. وأرمينيا أيضاً لا تبعد عن سورية. وليس بين أرمينية وسورية وما بين النهرين بحوزٌ أو جبال يُستعصى مسلكها، بل سهول خصبة طيبة الهواء جيّدة المرعى، تغري القلوب بالانتجاع إليها والتوغّل فيها. وعليه فقد كانت سورية بلا مراء مأهولة قبل الطوفان بعددٍ كثير من الناس لا نعلم من أخبارهم، ولم نفز من قصص أحداثهم إلا بما ذكرناه في الكلام على آدم والآباء الأوّلين قبل الطوفان.

عد ٥٤

سكان سورية بعد الطوفان

قد مرَّ في كلامنا على أنساب موسى أنّ سورية سكنها أولاً الآراميون ولد آرام بن سام بن نوح؛ وكانت مواطنهم في سورية المجوّفة، وما يليها في الجنوب، وفي دمشق وما يليها. وسيجيء في كلامنا على الفينيقيين أنّ مَنْ توطّن من الآراميين في سهول بعلبك وحمص اتصلوا إلى لبنان الشمالي وإلى أنحاء طرابلس، والبترون وجبيل وبيروت أيضاً على قول بعضهم. ثانياً بعض قبائل الجبابرة والأظهر أنهم ساميّون من أقارب الآراميين؛ ومن هؤلاء الرافائيم أي الرافائيون، وقد ورد ذكرهم في سفر التكوين (فصل ١٤ عد ٥) بين القبائل التي ضربها كدرلاعومر ملك عيلام. وكانوا يسكنون ما وراء الأردن في بلاد باسان ثم الزوزيم أي الزوزيون. وجاء ذكرهم هناك وفي سفر تثنية الاشتراع (فصل ٢ عد ٢٠) وكانوا يسكنون في عبر الأردن أيضاً في الأرض التي سكنها بعداً العمونيون، إذ جاء في الآية المارّ ذكرها من التثنية؛ أنّ هذه الأرض «تحسب من أرض الجبابرة لأنّ الجبابرة أقاموا بها قبلاً والعمونيون يسمونهم زمزميين». ثم الإيميون قد جاء ذكرهم في سفر التكوين والتثنية (في الفصلين المذكورين)، وكانوا يسكنون في شرقي البحر الميت في الأرض التي سكنها بعدهم الموابيون، إذ قال موسى في سفر التثنية في هذه الأرض: «وكان الإيميون قد أقاموا بها قبلاً، وهم شعب كثير طوال القامات كالعناقيين... والموابيون يسمونهم إيميين»، ثم بنو عناق ويظهر أنهم المسمّون نيفيليم أي الجبابرة، وكانت مساكنهم في قرية أربع وهي حبرون في أيام ابراهيم، والخليل في أيامنا، ثم اليفيم

وكانوا يسكنون السهول الواقعة في الجنوب الغربي من فلسطين إلى غزة - ويظهر أنهم العويون الذين قال فيهم موسى (تثنية ف ٢ عد ٢٣): «العويون المقيمون بالقرى إلى غزة أبادهم الكفتوريون الخارجون من كفتور وأقاموا مكانهم». ويظهر أنّ هذه القبائل توطّنت في سورية قبل أن يصلها الكنعانيون. ثالثاً الكنعانيون وقد سكنوا شمالي سورية إلى حماه ثم بعض الشطوط البحرية، والبلاد التي سمّيت بعد ذلك فلسطين. وقد مرّ بك ذكر المواضع التي أقامت فيها كل فصيلة منهم (ارجع إلى عد ٣٨). رابعاً العبرانيون وأوّلهم في جنوبي سورية ابراهيم الخليل وابن أخيه لوط. خامساً شعبان أصلهما لوط من بنتيه وهما الموابيون، وكانت بلادهم في الشرق من البحر الميت، والعمونيون وكانت مساكنهم في عبر الأردن كما مرّ آنفاً. سادساً ذريّة اسماعيل بن ابراهيم ولكن أكثر هؤلاء من سكان بلاد العرب. سابعاً المدينيون ذريّة مدين بن ابراهيم من قيطورا ويحسبون من سكان بلاد العرب. ثامناً الأدوميون ذريّة أدوم وهو عيسو بن اسحق وكانت مساكنهم في جبل سعير في جنوب سورية وشمال بلاد العرب. وكان الحوريون يسكنون قبلهم هذا الجبل فطردهم منه الأدوميون كما في سفر التثنية (فصل ٢ عد ١٢). تاسعاً الفلسطينيون وكانت مساكنهم البلاد التي سمّيت باسمهم وقد أتوا إليها من اكريت، وغيرها من الجزر ومن آسيا الصغرى بعد أن أسرهم المصريون وأحلّوهم في فلسطين. وأصلهم يافثيّ أو حاميّ على أحد القولين. وسوف ترى تفصيل أخبارهم في الكلام على بني إسرائيل. عاشراً السامريون وقد جلاهم ملوك آشور من بلاد الكلدان إلى السامرة وأنحائها بعد جلائهم الإسرائيليين إلى بابل.

فهذه أخصّ القبائل التي سكنت سورية إلى عهد اسكندر الكبير. وأن نتكلّم في كل منها على حدة أمر طويل المجال رابك موجب لاعادات يمكن تنكّبها. وأن نتكلّم في سورية كأنها مملكة ينافيه انقسامها في تلك الأعصر إلى ممالك عديدة. ولذلك آثرنا أن نقصر كلامنا على أشهر قبائلها، فنضع مقالة في الحثيين سكان شمالي سورية، ومقالة أخرى في الفينيقيين سكان وسطها، وأخرى في العبرانيين سكان جنوبيها الذين انتشروا بعداً في أكثر أرجائها. ونضمن تاريخ باقي القبائل في المقالات الثلاث، ونضع فهرستاً هجائيّاً في آخر هذا الكتاب يتبيّن منه تاريخ كل قبيلة في سورية، وكل مملكة ومدينة فيها إلى أيام اسكندر الكبير المكدوني، فيكون ذلك وافياً بالمقصود ومصيباً الغرض على ما رأينا. وعلى الله الإتكال في كل حال.

مقالة في الحثيين

الفصل الأول

أصل الحثيين وموطنهم وما يظهر من تاريخهم في الكتاب المقدس

عد ٥٥

الحثيون الجنوبيون

قد رأيت في المقالة السابقة أنّ كنعان هو الرابع من ابناء حام، وأنه وُلد له أحد عشر ابناً أوّلهم صيدون، وثانيهم حث إلى سائر آباء الفصائل الكنعانية. وعليه فأصل الحثيين حث بن كنعان بن حام بن نوح. وبعد أن هاجر الكنعانيون إلى سورية وجدنا لولد حث بطنين أو فصيلتين، سكنت إحداهما وادي ممرا، وحبرون (الخليل الآن) في جنوبي سورية. والأخرى بين الفرات والعاصي في شماليها. وكان الحثيون في حبرون قبل أن يأتيها ابراهيم بشاهد أنه عند وفاة سارة امرأته «كلّم بني حث قائلاً: أنا غريب ونزيل عندكم اعطوني ملك قبر عندكم فأدفن ميتي»، (تكوين فصل ٢٣ عد ٤). فابتاع من عفرون الحثّي مغارة المكفيلة أي المغارة المضاعفة، وما بجانبها من الحقل. فكانت مدفناً لسارة وله، ولاسحق ابنه ويعقوب حفيده. ويظهر أنّ هؤلاء الحثّيين كانوا يؤثرون حينئذ التجارة، وامتلاك

الحقول على الحرب والغزو، لأننا نرى الكتاب ذكر أنهم وزنوا أربعماية المثقال من الفضة التي دفعها ابراهيم لعفرون. ولم يذكر أنّ ابراهيم استنجدهم عند محاربته كدرلاعومر بل استجار بالآموريين. وقد وفرت العلائق بين الحثيين والعبرانيين. فإننا نقرأ في سفر التكوين (فصل ٢٦ عد ٣٤): «ولما صار عيسو ابن أربعين سنة اتخذ يهوديت بنت بئري الحثّي وبسمة بنت ايلون الحثّي امرأتين له». ويظهر أنّ أطوار الحثيين وآدابهم كانت تخالف آداب العبرانيين، لأننا نرى رفقة تقول لاسحق: «قد سئمت حياتي من أجل ابنتَي حث اللتين (تزوَّج بهما عيسو). فإن تزوَّج يعقوب (ابني) بامرأة من بنات حث مثل هاتين أو بنات سائر هذه الأرض فما لي والحياة» (تكوين فصل ٢٧ عد ٤٦).

ويظهر أنّ فصيلة الحثّيين هذه كانت أمست قليلة العدد واهية القوة، يسطو عليها جيرانها فتلجأ إلى الفرار وتبديل منازلها؛ لأننا لا نرى لهم أثراً ولا عيناً في حبرون وما جاورها من البلاد عند عود بني إسرائيل من مصر، وغزو يشوع بن نون فلسطين، بل نرى مكانهم في حبرون بني عناق. فالظاهر أنّ الحثيين كانوا استحوذوا على حبرون في زمان غير معلوم قبل ابراهيم، طاردين منها سكانها القدماء بني أربع إذ كانت تُسمّى قرية أربع باسم أوّل مَنْ بناها وهو أربع أبو عناق أصل العناقيين. فاستردَّ هؤلاء مدينتهم واستمرَّت في حوزتهم إلى أن افتتحها يشوع بن نون، وخصَّ بها كالب بن يوفنَّا من سبط يهوذا. فقد جاء في سفر يشوع (فصل ١١ عد ٢١): أنه «جاء في ذلك الوقت وقرض العناقيين من الجبل من حبرون». ثم قال (فصل ١٤ عد ١٣): «وأعطى حبرون لكالب بن يوفنَّا ميراثاً». وقد أقام الحثيون بعد طردهم من حبرون في الجبل والمراد به جبل افرائيم على الأظهر. فقد ورد ذكر الحثيين في أسفار الخروج والعدد، وتثنية الاشتراع مع الجرجاشيين والآموريين، واليابوسيين وسائر فصائل الكنعانيين. وفي سفر العدد (فصل ١٣ عد ٢٩) تفصيل أكثر حيث قيل إنّ جواسيس موسى قالوا عند عودهم إليه: «رأينا ثم أيضاً بني عناق العمالقة مقيمون بأرض الجنوب، والحثيون واليبوسيون والآموريون مقيمون بالجبل، والكنعانيون مقيمون عند البحر وعلى عدوة الأردن».

وكان الحثّيون من جملة الكنعانيين الذين تألّبوا على يشوع بن نون، فبدَّد شمل

المتألّبين في جبعون في جنوب فلسطين، ثم في شمالها عند بحيرة الحولة كما سترى في تاريخ العبرانيين. ويستدلّ من قول حزقيال (فصل ١٦ عد ٣) في أورشليم «أبوك أموريّ وأملك حثيّة»، أنّ الحثيين شاركوا الآموريين واليابوسيين في بناء أورشليم. والظاهر من الكتاب أنّ الحثيين لم يقرضهم بنو إسرائيل بل بقيت في فلسطين منهم بقايا، إذ جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ١١) أنّ أوريا أحد قوّاد عساكر داود كان حثيّاً، وقتل بأمر داود فتزوّج الملك بامرأته بتشبع فولدت له سليمان. فكانت جدة بعيدة للمخلّص. قال سايس إنّ نسبة أوريا هذا إلى حثّيي حبرون حيث ملك داود سبع سنين أولى منها إلى الحثيين الشماليين. وأنبأنا سفر الملوك الثالث (فصل ١١) أنه كان بين نساء سليمان العديدات نساء حثيّات. ولا يمكن القطع بأنهنّ من الحثيين الجنوبيين أو الشماليين. والراجح أنهنّ من الفصيلة الشمالية، إذ كان لها ملوك وكان بينهم وبين سليمان علاقات وداد وتجارة منها استجلابه لهم الخيل من مصر كما في سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٨) هذا في الحثّيين الجنوبيين.

عد ٥٦

الحثيون الشماليون

أما الحثيون الشماليون فالأرجح أنهم والجنوبيون من أصل واحد هو حث بن كنعان. وكانت منازلهم أوّلاً في جبل أمانوس المعروف الآن باللكام. ثم انتشروا بكرور الأيام من الفرات إلى حماه وحمص، ومن دمشق وبرية تدمر إلى الكبادوك. وقد جاء في سفر يشوع بن نون (فصل ١ عد ٣) أنّ الربّ قال له: «قم فاعبر هذا الأردن أنت وجميع هؤلاء الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل... من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير الذي في جهات مغارب الشمس تكون تخومكم». وكانت هذه الآية من معضلات الكتاب على مفسّريه لإطلاقها اسم أرض الحثيين على أرض الموعد كلها. ومن المستغرب أن يكون الحثيون سكان حبرون القدماء تغلّبوا على كل هذه البلاد حتى نسبها الكتاب إليهم. ولذلك قال بعض المفسّرين إنّ اسم الحثيين هنا بدل من اسم الكنعانيين. وقال آخرون إن هذا إلا غلط ركبه النسّاخ وقد أغفلت بعض نسخ

الترجمة السبعينية ذكر الحثّيين في هذه الآية، على أنّ الاكتشافات الحديثة جلت لنا مدلول هذا النص، إذ أعلمتنا الآثار المصرية ما كان حينئذ للحثيين الشماليين من الصولة والسؤدد في سورية كلّها، لأنهم كانوا قبل عهد يشوع قد حاربوا رعمسيس الثاني فرعون مصر مترئسين على الكنعانيين وسائر شعوب سورية كما سترى. وعليه فحُقّ لكاتب سفر يشوع أن يسمّي وقتئذ أرض الموعد أرض الحثيين.

وقد جاء في سفر القضاة (فصل ١ عد ٢٣ وما يليه) أنّ آل يوسف أرسلوا جواسيس إلى بيت إيل وكان اسمها قبلاً لوز، فدلَّهم رجل منها على مدخل المدينة، فضربوا أهلها بحدّ السيف، وأطلقوا الرجل وعشيرته فانطلق إلى أرض الحثّيين وبنى مدينة وسمّاها لوز وهو اسمها إلى اليوم. وقد اعتاصت هذه الآية أيضاً على المفسّرين خاصة لعدم علمهم بأعمال تُعرف في تلك الأيام بأرض الحثيين. فذكر أوسابوس مدينة باسم لوز على بعد تسعة أميال عن نابلس. وظنّ بعضهم أنّ لوز الجديدة كانت في قبرص لتسميتها كيتيم أو حيتيم كأنّ المراد بلاد الحثيين. وغيرهم ظنّ أنها كانت في بلاد العرب حيث مدينة تُسمّى ليزا أو لوزا. وأما بعد أن دلّتنا الاكتشافات الحديثة على بلاد الحثيين في سورية الشمالية فيرجّح أنّ لوز الجديدة كانت هناك.

وفي سفر الملوك الثاني (فصل ٢٤ عد ٥ وما يليه) أنّ داود أراد أن يحصي الشعب فأرسل يواب قائد جيشه وغيره من الرؤساء يجولون في البلاد ويحصون الشعب. فعبروا الأردن ونزلوا بعروعير (عراعير الآن في شرقي البحر الميت)، وأتوا إلى جلعاد (السلط) «إلى الأرض السفلى في حدشي»، ثم أتوا إلى دان (بانياس)، ثم إلى صيدون (صيدا)، وإلى حصن صور، ثم خرجوا إلى جنوبي يهوذا إلى بئر سبع (في الطرف الجنوبي من أرض الموعد). انتهى كلام الكتاب.

فطريق هؤلاء معلوم وتخطيطه سهل. فإنهم اجتازوا الأردن، وتجوّلوا في شرقيه حتى انتهوا إلى بانياس في الشمال قرب منبع الأردن، ثم انحدروا غرباً إلى صيدا وصور وعادوا جنوباً إلى فلسطين. ولا غموض إلا في قوله: الأرض السفلى في حدشي. وفي العبرانية «ارز تحتيم حدسي» أو حدشي. وقد كاد مفسّرو الكتاب ييأسون من تفسير هذه الكلمات وتعيين المحل المحكى عنه فيها، حتى قال العالِم كايل سنة ١٨٦٤م (في كلامه في سفرَي صمويل) إنّ بيان المراد بها ضرب من

المستحيل. على أنّ ما كان كايل يحسبه من أمد قريب مستحيلاً لم يبقَ الآن كذلك، لأنّ أرض تحتيم هي أرض حتيم أي أرض الحثيين، والفضل بهذا أيضاً للاكتشافات الحديثة. فإنّ قرائن كلام الكتاب تدلّ على أنّ هذا المحل يلزم أن يكون في شمالي فلسطين. وقد حقَّقت الاكتشافات أنّ شمالي فلسطين أرض الحثّيين الشماليين. وقد أنبأنا الكتاب (ملوك ٢ فصل ٨ عد ٩) أنّ توعي ملك حماه خضع لداود، ويظنّ أنه كان حثياً. والحثيون المقيمون في قادس كانوا في جنوبي حماه وشمالي فلسطين. فإذاً تحرير معنى الآية أنّ وفد داود أتوا أرض الحثيين في قادس أو أرض حثيّي قادس، وما هذا مجرّد تقدير وحدس بل حقيقة مثبتة بما يأتي. فقد روت بعض نسخ السبعينية الآية هكذا: «وأتوا إلى جلعاد وأرض حثّيي قادس». وطبعت الآية كذلك في جامعة نسخ الكتاب التي نشرها الكردينال سيمانس المعروفة بالكمبلوتية وفي جامعة لجاي الباريسية وفي جامعة انفر. ثم ليس بين كلمتَي تحتيم وهحتيم في العبرانية إلا إبدال الهاء بالتاء. وصورة الحرف الواحد تقرب كثيراً من صورة الآخر في هذه اللغة. ولم تكن فيها حينئذ حركات. ولم يكن النسّاخ يعرفون إلا حثيّي الجنوب، فتصحّفت عليهم الهاء بالتاء للمقاربة بين صورتيهما، فكتبوا ادز تحتيم التي ترجمت الأرض السفلى بدلاً من ارز هحتيم أرض الحثيين. ومثل ذلك قال في كلمة حدشي فهي قدسي أو قدشي أي قادس مدينة الحثيين الشهيرة وسيأتي الكلام فيها.

قد جاء ذكر الحثّيين الشماليين على عهد سليمان أيضاً. ففي سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٩) أنّ تجّار هذا الملك كانوا يشترون له الخيل من مصر «ويجلبون على يدهم لجميع ملوك الحثيين وملوك آرام». ولا جرم أنّ ملوك الحثيين هؤلاء لم يكونوا في فلسطين التي استقلّ سليمان في ملكها. وكان «يسخّر الشعب الذين بقوا من الآموريين والحثّيين» الجنوبيين وغيرهم من فصائل الكنعانيين في ما يبنيه من المدن والحصون (ملوك ٣ فصل ٩ عد ٢٠) بل كانوا ملوك الحثيين الشماليين الذين كانوا بسطوا ولاياتهم في سورية الشمالية وأعمال آسيا الصغرى. ويظهر من الآثار المصرية أنه لم يكن لهم ملك واحد بل كان لكل فصيلة منهم ملك، فجاء ذلك مصداقاً لقول الكتاب: «جميع ملوك الحثيين». وكان من رأي بعض المفسّرين قبل الاكتشافات الحديثة أنّ اسم الحثيين في الآية بدل من اسم الكنعانيين. فظهر الآن بطلان ما وهموا.

وجاء في سفر الملوك الرابع (فصل ٧ عد ٦) أنّ الآراميين بينما هم يشدّون الحصار على السامرة في أيام يورام بن أحاب، أسمعهم الرب أصوات مراكب وخيول وعسكر عظيم. فقال كلٌّ منهم لصاحبه: «هوذا ملك إسرائيل قد استجار علينا ملوك الحثّيين، وملوك المصريين ليأتوا علينا فقاموا وهربوا». وكانت هذه الآية أيضاً قبل بضع سنين لغزاً يستعصي حلّه، حتى زعم بعض أهل العلم أنه لا يمكن التصديق بها على ظاهر حروفها، إذ لا يتصوَّر أنّ ملك الحثيين الضعيف يروّع ملك آرام القدير، أو يتهيأ له أن يحالف فرعون مصر. قال سايس (في كتابه في الحثيين): تعقّب أحد علماء هذا العصر كاتب السفر المقدّس قائلاً إنما الحليف الطبيعي لملك إسرائيل هو ملك يهوذا. فلم يأتِ الكاتب بذكره بل بدله بالحثيين الخامليّ الذكر؛ وهذا مشعر بجهله تاريخ عصره. فلا صدق لروايته. وردَّ سايس على المندِّد سهام قدحه مبيّناً أنه الأَولى بالانتساب إلى الجهل، وأنّ الاكتشافات الحديثة أثبتت أنّ الحثّيين الشماليين كانوا حينئذ دولة أقوى من ملك يهوذا. وكانوا حلفاء مصر ويعادلونها قوةً وبأساً. انتهى ملخَّصاً عن كتاب الأب فيكورو المسمّى مباحث منثورة كتابية Melanges Bibliques مع زيادات عليه.

عد ٥٧

أصل الحثيين بالخصوص

بقي علينا أن ننظر في أصل الحثّيين، أَمن أصلٍ واحد هم أَمن من أصلين؟ رأى جمهور العلماء أنّ للفصيلتين أصلاً واحداً هو حث بن كنعان كما مرَّ. لكنّ لانرمان بعد أن تابع رأي الجمهور هذا في المجلد الأوّل من تاريخه (صفحة ٢٧٣ طبعة ٩ عاد في المجلد الثاني صفحة ٢٢٠) يقول إنّ الحثيين الشماليين ليسوا من ولد سام ولا من ولد حام، بل هم من ولد يافت. وعليه فلا قربى بين الجنوبيين والشماليين، بل بين الشعبين مشابهة الاسم ليس إلا. وأسند ذلك إلى اختلاف بينهما من قبيل اللغة والهيئة الطبيعية. على أنّ لغة الحثيين الشماليين، موضوع البحث حتى الآن بين العلماء، فلا تصلح أن تكون حجة حتى لو ثبت أنها تخالف لغة الشماليين لم يكن ذلك حجة، أيضاً. فعلاقة اللغة بالمسكن أكثر منها بالأصل. فلغات قدماء سورية كلّهم ساميّة مع أنهم من أصلين: سام وحام. وكذا قل في

الهيئة الطبيعية فلم يثبت حتى الآن اختلاف فصيلتي الحثيين هيئة. وهب ثبت فلا يثبت شيئاً كما سترى في كلامنا في الملوك الرعاة وخاصة لأنّ الفريقين من نوع واحد هو الأبيض. قال الأب فيكورو (في كتابه مباحث منثورة صفحة ٣٣٠ طبعة ٢) إنه يسلّم بأن أصل فصيلتي الحثيين واحد وأنهم من ذريّة واحدة، لأنّ الكتاب لم يفرّق بينهما. ولكن بما أنّ الكتاب لم يصرّح بأنهما أولاد أب واحد فتبقى القربى بينهما موضوعاً لبحث العلماء.

قد صرّح الأب قيصر دي كارا اليسوعي (في كتابه الملوك الرعاة Hyksos Gli فصل ١٠) بأنّ الحثّيين حاميّون لا ساميّون وبأنّ فصيلتيهم الجنوبية والشمالية استوت فيها الهيئة الطبيعية. وكانت صناعة الحرب وأنواع الأسلحة والملابس واحدة عندهما. وروى ما كان من الخلاف بين سايس Sayce وهلافي Halévy في أصل الحثّيين، فقال سايس إنّ الحثيين غير ساميين مسنداً إلى اسماء كثيرة جمعها وهي أعلام رجال وشعوب ومدن حثية. وليس فيها مايشعر بأنها ساميّة. وقال هلافي إنّ الحثّيين ساميّون لأنّ أكثر الاسماء نفسها التي جمعها سايس ساميّ وباقيها لا يختصّ بالحثيين بل بغيرهم من الشعوب. فقال دي كارا: خلط العالمان مسألة الأصل بمسألة اللغة. وعندي أنه لم يُصب أحد منهما، ولم يُخطئ أحد منهما. فقد يكون أحد الشعوب حامياً ولغته ساميّة اكتسبها من محل سكناه، فلا تدلّ اللغة على الأصل إلا أن يصحبها أدلّة أخرى. فالحثيون حاميّون أصلاً لا ساميّون سواء كانت لغتهم ساميّة أم حاميّة. كل هذا من كلام دي كارا. وقد رجّح أنّ لغة الحثيين حاميّة أكسبتها المجاورة للساميّين والتجارة معهم ألفاظاً وجملاً وأصولاً نحوية ساميّة. وقد تكون اللغة المكتوبة بها الآثار غير لغة الشعب العامّة. كما اعتاد سكان ايطالية مثلاً، أن يكتبوا آثارهم باللاتينية لا بلغة عامّة الشعب الايطالية.

زعم شباس (في كتابه سفر مصري الخ.)[١] سنداً إلى مثل هذا البرهان اللغويّ أنّ الكاتاس أو الحاتاس الوارد ذكرهم في الآثار المصرية غير الحثيين الذين ذكرهم الكتاب مدّعياً أنّ أعلام الحثّيين الواردة في الكتاب من اسماء رجال ونساء ومدن إنما هي ساميّة أي عبرانيّة. والاسماء الواردة في الآثار المصرية ليست من هذه اللغة في شيء ولا تقرب منها. فردَّ العالِم ليابلان Lieblein اعتراضات شباس في خطبة ألقاها في مجتمع العلماء بأمور المشرق في بطرسبورج سنة ١٨٧٦م. وقال الأب

(١) Chabas Voyages d'un Egyption En Syrie p.329

فيكورو (في كتاب المباحث المذكور صفحة ٣٣٢) لو سلّمنا بصحة برهان شباس لما نتج عنه أنّ الحاتاس الذين ذكرتهم الآثار المصرية غير الحثيين الشماليين الذين ذكرهم الكتاب، بل جلّ ما ينتج من ذلك أنّ الحثيين الشماليين والحثّيين الجنوبيين لم تكن لهم لغة واحدة». وقال هناك أيضاً أجمع العلماء بالآثار المصرية أنّ الحاتاس في هذه الآثار هم الحثّيون الوارد ذكرهم في الكتاب، ولا أقل من أن يكونوا الشماليين. وما أحسن وما أقوى برهان الأب دي كارا حيث قال (في المحل المارّ ذكره) إنّ الآثار المصرية على عهد ساتي الأوّل ورعمسيس الثاني أعلمتنا بقبيلة سمّتها كاتاس أو حاتاس، ووصفتها بأنها كانت محبّة للحرب ممتدة في شمالي سورية وفي أرض الحثيين التي ذكرها يشوع بن نون، وقد حاربها هذان الملكان وغيرهما من فراعنة مصر، فكيف يمكن أن يكون في بلاد واحدة وفي وقتٍ واحد قبيلتان مختلفتان مع أنّ اسم الواحدة لا يزيد على اسم الأخرى إلا حرفاً واحداً. فحثّيو الكتاب إذاً هم الحاتاس أو الكاتاس الوارد ذكرهم في الآثار المصرية وهم الحتى أو الحتا الوارد ذكرهم في الآثار المسمارية.

الفصل الثاني

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن الآثار القديمة

عد ٥٨

مصادر تاريخ الحثيين

قد رأيت أنّ ما جاء في الكتاب المقدّس من تاريخ الحثّيين قليل غير وافٍ، لأنّ غرض كتبة الأسفار المقدّسة دينيّ وروحيّ لم يتخطا تاريخ شعب الله إلا في ما كان له علاقة بهذا التاريخ المقدّس. وقد قلّت علائق اليهود مع الحثيين ولم يذكر المؤرّخون القدماء من تاريخهم إلا نزراً يسيراً، ولم تكن الآثار المصرية والمسمارية إلا

طلاسم خُفيت رموزها واستعصت معميّاتها على الحلّ إلى أواسط هذا القرن. ولذلك كان تاريخ الحثيين ميتاً مدفوناً قد انبعث من أمد قريب؛ فهو حديث النشأة وقد أخذ يشبّ وينمو ويتقدَّم سنة فسنة بل شهراً فشهراً أو ما برح الأمل معقوداً ببلوغه الكمال خاصةً متى فتح الله باب الكشف عن اصطلاح علاماتهم الكتابية الذي ما زال مغلقاً إلى اليوم، ولكن يُرجى فتحه من شهر إلى آخر. وما عُرف إلى الآن من تاريخهم كان له ثلاثة مصادر:

الأوّل: الآثار المصرية الهيروكليفية؛ فمنها علمنا ما كان للحثيين مع دول مصر من حرب وصلح، وأين كانت مساكنهم، وما كانت قوتهم وسطوتهم، وأيّ المعبودات عبدوا إلى غير ذلك من تاريخهم.

والثاني: الآثار الكلدانية المسمارية؛ ومنها تبيَّن لنا ما كان لهم مع ملوك نينوى وآشور من الحروب والمغالبات، وما أفضت إليه هذه الحروب وأين كانت مدنهم وحصونهم إلى غير ذلك.

والثالث: آثار الحثيين أنفسهم؛ فقد دلَّتنا (وهي بكماء لا نستوضح إلى اليوم ما كتب فوقها) على مستعمراتهم وجالياتهم وصنائعهم، وكشفت لنا عن نوع بناياتهم وأسلحتهم وملابسهم إلى غير ذلك مما ستراه في كلامنا الآتي.

قد أنبأنا فرنسيس لانرمان (مجلد ١ من تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٣٠ طبعة ٩) كيف اهتدى إلى الآثار الحثّية ومتى كان ذلك. فقال ما ملخَّصه أنّ جوّالة إنكليزيّاً اسمه بوركرد Burckhardet مرَّ في حماه سنة ١٨١٢م فأبصر على جدار أزقّتها خطوطاً قديمة هيروغليفية تختلف عما يشاهد في الآثار المصريّة فعلَّق ذلك بين أخبار رحلته. فلم يكن لصوته صدى يوقظ أهل العلم بالآثار القديمة أو يحمل المجتهدين والجوّالين على التنقيب في هذا الأثر، إلى أن زار حماه جوّالان أميركانيان وهما جونسون Johnson وجاسوب Jessup فعُنيا بنسخ تلك الخطوط التي كان بوكرد أشار إليها، واكتشفا خطوطاً أخرى فنسخاها أيضاً. فتنبَّه العلماء إلى أهمية هذه الخطوط، وكلَّفت لجنة الاكتشاف في فلسطين العالِم شارل دراك Charles Drak بالتنقيب عن هذه الآثار في حماه، واعتقبه العالِم وريت Wright أحد أعضاء جمعية الرسالات الإنكليزية فتهيّأ له بمساعدة صبحي باشا والي سورية حينئذ، أن يأخذ من حماه خمس كتابات ذات أهمية، وهي محفوظة الآن في

متحف الآستانة العليّة. ثم أخذ العلماء في التنقيب عن أمثال هذه الآثار فعثروا على كثير منها في حماه وحمص وحلب ومرعش وكركميش (ايرابوليس الآن)، وفي الكبادوك ومحالّ أخرى عديدة في آسيا الصغرى، سنأتي على بيان كثير منها. وقد برع بالعلم بهذه الآثار سايس ودريكت وباروت Perrot وغيرهم، ستمرّ بك أسماؤهم وتغنم بمطالعة بعض أقوالهم في كلامنا الآتي حيث نفرد لكل من مصادر تاريخ الحثيين الثلاثة فصلاً مخصوصاً.

الفصل الثالث

تاريخ الحثيّين مأخوذاً عن الآثار المصرية

عد ٥٩

هيئة الحثيّين ونوع حكومتهم وبسطة ملكهم

تُرى في الآثار المصرية صور عديدة تمثّل كثيرين من الحثيين الشماليين، وهيئة وجوههم الطبيعية أقرب إلى الروتانو، (كذا تسمّي الآثار المصرية شعباً كان يسكن سورية الشمالية قبل الحثّيين أو في جانبهم)، منها إلى سكان فلسطين، ولون وجوههم أبيض ضارب إلى الحمرة، فيمتازون عن العَمُو (يُراد بهم في هذه الآثار الساميّون) الذين لون وجوههم مائل إلى الصفرة. ولا يطلق الحثيون لحاهم خلافاً للساميّين بل يحلقون لحاهم وشواربهم وشعور رؤوسهم، ويتركون في أعلاها ناصية. وشعورهم سوداء، ولباسهم قميص مستطيل يتصل إلى العقب، وصوَّرتهم الآثار المصرية حُفاة كأنه للدلالة على أسرهم وذلّهم، لكن آثارهم في أوطانهم، تُصور أحذيتهم معكفة أو معطفة إلى ما فوق كما كانت الأحذية في القرون الوسطى، وبقي شيء منها في بلادنا إلى عهد قريب. ويُرى في صورة أحد الحثيين في مدينة أيو حلقة مدورة في أذنيه، فكأنّ رجالهم كانوا يتحلّون بهذه الحلى.

وكانت حكومة الحثيين ملكيّة يتخلّف فيهم الملك للآخر بحقّ الإرث. وكان الملك يلقّب بلغتهم بكلمة سار أو سيرا على ما يظهر من اسماء ملوكهم. وكان لهذا الملك ولاية على ملوك آخرين، أو أقيال منهم يعدّون العساكر تحت إمرته إبّان الحرب. وكانت أهمّ أشغالهم الحرب والتجارة. وكانوا يكثرون من الخيول كسائر سكان السهول. وقد مرَّ نقلاً عن سفر الملوك الثالث أنّ تجّار سليمان كانوا يجلبون لهم الخيل. فجاءت الآثار المصرية مصداقاً لآية الكتاب. وكانت معظم قوّتهم الحربيّة في الخيل والمركبات. وكانت جيوشهم ذوي بسالة في الحرب محنّكين في القتال، يتوفّر فيهم الإنقياد لقوّادهم، منقسمين إلى فرسان ورجالة. وكان الفرسان يحاربون في المركبات أيضاً، ومركباتهم خفيفة صغيرة تدور على دولابين فقط ويجرّها فرسان وتقلّ ثلاثة رجال سائقاً ومقاتلين. ففي آثار مصر صور عديدة لمركباتهم هذه.

وأوّل محلّ احتلّوه أودية جبل أمانوس (اللكام). ثم أخذوا يسطون ولايتهم شيئاً فشيئاً نحو الشرق، والجنوب حتى اتصلوا شرقاً إلى الفرات، فاستحوذوا على كركميش، وغرباً إلى وادي العاصي، فاستولوا على حماه ثم على قادس في جانب حمص. ثم غالبوا الآراميين على دمشق نفسها فحكموا فيها مدة ومدّوا استيلاءهم في وقت غير معلوم إلى الشمال والشمال الغربي، حتى ضبطوا آسيا الصغرى كلّها، كما تبيّن آثارهم الباقية هناك، وسنأتي على ذكرها. وقد شهدت لهم الآثار المصرية بذلك بإحصائها شعوب هذه البلاد أبداً بين محالفيّ الحثيين ومنجديهم. ويُحتمل أن يكونوا الكيتيوا الذين ذكرهم أوميروس الشاعر اليوناني في أشعاره. وأمنع حصونهم في الجنوب مدينة قادس التي طارت شهرتها بحروبهم مع المصريين. ولما كان ذكرها قليل الورود في هذه المقالة رأينا أن نبسط الكلام فيها.

عد ٦٠

قادس مدينة الحثيين

إنّ اسم قادس هذه نفسه كان مجهولاً قبل الكشف عن الكنوز الهيروكليفية عما قريب. وأما الآن فكلّ مَنْ له إلمام بالآثار المصريّة يعلم أنها كانت في برية حمص. فقد كثر ذكرها في هذه الآثار بل حُفظت لنا صورتها ومناظرها في أطلال

هياكل مصر. ومن جملتها صورة ناتئة على جدار هيكل الأقصر، مثّل فيها حصار رعمسيس الثاني لهذه المدينة (انظر الصورة السادسة تر حصن قادس في جزيرة تحيطها أمواه العاصي وحامية الحثيين على أسوار المحصن. وترى يمنةً فريقاً من الحرس خارجاً من الحصن يهاجم العدوّ، ويسرةً رجالاً يُعنون بإنقاذ قائد غرق في النهر. وفي أسفل الصورة فرسان الحثيين يمنةً وفرسان المصريين يسرة).

وفي مصر أيضاً في الكرنك صورة أخرى ناتئة من عهد الفرعون ساتي الأوّل، تمثّل حصار عساكر مصر لقادس. ولا شكّ بأنّ البحيرة التي صوَّرها مصوّرو رعمسيس الثاني هي التي زارها روبينسون عام ١٨٥٦م وأطال الكلام فيها. وهاك ما كتب هذا الجوّالة الأميركاني الشهير: «يتكوّن من نهر العاصي على بعد من نحو ثلاث ساعات من ربله نحو الشمال بحيرة تُسمَّى بحيرة قادس، وبحيرة حمص طولها مسافة ساعتين وعرضها مسافة ساعة واحدة، وطرفها الشمالي يبعد عن حمص مسافة ساعتين، وأكثر أجزاء البحيرة (حتى لا نقول كلها) صناعية. فهي مؤلَّفة من سدّ قديم يعترض جريان ماء النهر. وطول هذا السدّ من أربعماية إلى خمسماية يرد وعلوّه لا يتجاوز الأربع عشرة قدماً. وعلى طرفه الشمالي الغربي برج صغير وفي جهته الشمالية جزيرة صغيرة وتل... وذكر أبو الفدا هذه البحيرة وسمّاها بحيرة قادس، واعتبرها صناعيّة لأنه لو هُدم السدّ لجرى الماء ولم تبقَ ثَمَّ بحيرة بل نهر. وكانت العامّة على عهد أبي الفدا تنسب هذه البحيرة الصناعية إلى اسكندر الكبير». والصحيح أنها قبله قروناً. ولا بدَّ إن كانت مدينة قادس على جانب هذه البحيرة كما حقّق كثير من أهل العلم، ومنهم أخيراً الأب جوليان اليسوعيّ في تذكرة تطوافه في سورية المجوَّفة سنة ١٨٩٠م التي طُبعت في المجلة المعنونة الدروس الدينية الفلسفية التاريخية في شهر حزيران من السنة المذكورة. فموقع قادس في المحل المذكور كان يجعلها حصناً منيعاً، يوقف العدوّ عن مسيره في الشمال في سهول حمص وحماه. ولذلك كثر عدد الوقائع هنالك كما سترى في هذه المقالة وما يليها.

أما الكتاب فذكر عدّة مدن باسم قادس. فمنها: قادس برنع في العربية إحدى محطات بني إسرائيل في طريقهم من مصر إلى الأردن، وقادس يهوذا في نصيب سبط يهوذا، وقادس نفتالي في نصيب سبط نفتالي بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية

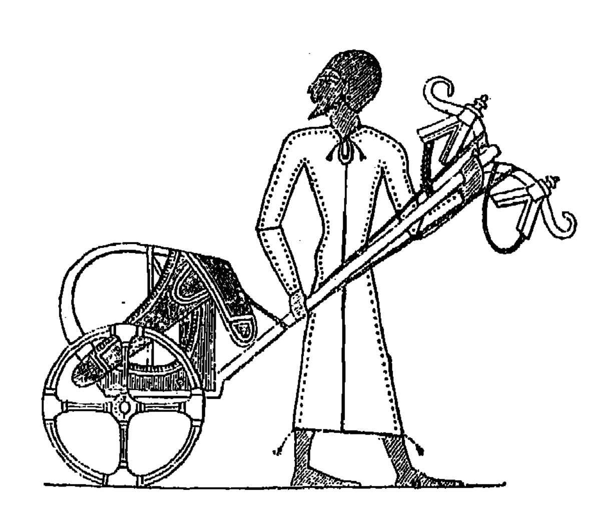
(المعروفة الآن بقادس محولة). وسنتكلّم في موقع هذه المدن في المقالة في العبرانيين. ولم يذكر الكتاب قادس مدينة الحثيين إلا مرّة واحدة في سفر الملوك الثاني (ف ٢٤)، على ما ذكرنا في عدد ٥٦ بحسب رواية بعض نسخ الترجمة السبعينية في طريق الوفد الذي سيّره داود لإحصاء الشعب. على أنّ النص العبراني يسمّيها هناك حدشي أو حدسي أو حدثى. قال الأب فيكورو (في كتابه المباحث المنثورة صفحة ٣٥٢ طبعة ٢): «إن كان كاتب النصّ العبرانيّ لم يحرِّف سهواً (كما قدَّمنا) اسم مدينة الحثّيين هذه، فينتج من ذلك أنها كانت تُسمّى اسماً يختلف عن اسماء باقي المدن التي سمّاها الكتاب قادس. فيبتدئ اسم هذه بحرف الحت (الحاء) واسم تلك بالقاف، وعليه فيكون تأويل قدسي بالقاف المقدّسة أي المدينة المقدّسة، وتأويل حدثى بالحاء الجديد (فكلمة ܚܕܬܐ في السريانية معناها الجديد). وكانوا يعبّرون بذلك عن أوّل الشهور القمرية فيسمّونه المستجدّ أي المستهلّ أو ظهور الهلال. فتسمية المدينة بهذا الاسم يشير إلى جعل المدينة معبداً لعشتروت الإلهة وهي القمر عندهم «فتكون حدشي بهذا المعنى أيضاً أي المقدسة لجعلها معبداً للإلهة المذكورة.

عد ٦١

الروتانو والحثيون في سورية الشمالية

نجد في الآثار المصرية ذكر قادس قبل ذكر الحثيين. فيظهر من ثمّ أنّ هذه المدينة كانت قبل الحثيين من أملاك الشعب الذي تسمّيه هذه الآثار روتانو، ويُراد بهم سكان سورية الشمالية وتُسمّى بلادهم روتان. ويرجَّح على ما مرَّ أنه مكسر لودان أي بلاد ذريّة لود، بل إنّ بعض أهل العلم بالآثار المصرية يقرأون العلامة الدالّة على هذا الاسم لودانو لا روتانو. فيظهر أنّ اللوديين والآراميين سكان دمشق وما يليها نحو الشرق والشمال اختلط بعضهم ببعض، فسمّتهم آثار مصر روتانو أي لوديين. ومن بعد انقراض الحثيين وتغلّب الآراميين في القرن الثامن قبل الميلاد عادوا يسمّون آراميين. هذا ما رواه لانرمان في المجلد الأوّل من تاريخه (صفحة ٢٩٠) على أنه قال في المجلد الثاني من تاريخه المذكور (صفحة ١٧٦) أنّ اسم الروتانو كان أحياناً شائعاً يُراد به سكان سورية على اختلاف الأصول. ومن رأي الأب دي

كارا (في كتابه في الملوك الرّعاة فصل ٩) أنّ إطلاق هذا الاسم على سكان سورية في آثار غزوة توتمس لها كما ترى بعيد لم يكن إلا لأنّ قيادة عساكر السوريين خينئذٍ كانت لقبيلة الروتانو. فهؤلاء الروتانو كانت سلطتهم منبسطة في سورية الشمالية على عهد ابراهيم الخليل، وفي أكثر المدة التي أقام فيها بنو إسرائيل في مصر واستمرّت سيادتهم عليها إلى عصر الدولة الثامنة عشرة في مصر قبل خروج



صورة مركبة روثانية مأخوذة عن احد جدران تاب (طيبة)

بني إسرائيل منها وكان الحثّيون ينتزعون أملاكهم مدينة مدينة، مضمرين أن يظفروا يوماً ما بأسيادهم الآراميين الروتانو الذين كانوا يؤدّونهم الجزية إلى أن أدركوا ما كانوا يبتغون، فأذلّوا الروتانو واستأثروا بملكهم؛ فهذا ما أنبأتنا به الآثار الهيروكليفية لأننا نرى الخطوط المنقوشة على جدار هيكل الكرنك والمسمّاة «تواريخ توتمس الثالث». لم تأتِ بذكر الحثيين البتّة في أخبار حملة هذا الملك الأولى على سورية بل ذكرت الروتانو وحدهم، لكنها في أخبارها عن حملته الأخيرة ذكرت تقادم

الحثيين له كما سترى بعيدة. وتوتمس هذا كان قبل مولد موسى، وبعكس ذلك نرى الخطوط التي أرّخت بها حملات رعمسيس الثاني على سورية تذكر الحثّيين، ولا تتعرّض لذكر الروتانو إلا من حيث الجغرافية لأنها تُسمّى البلاد التي كان فيها الحثيون بلاد الروتانو. ورعمسيس الثاني هذا هو الذي فرّ موسى من وجهه بعد قتله الرجل المصريّ آخذاً بثأر الإسرائيلي.

عد ٦٢

غزوات توتمس الثالث ملك مصر للروتانو والحثيين

قد كان لفراعنة الدولة الثامنة عشرة بعد طرد الملوك الرّعاة من مصر غزوات في سورية. فإنّ أمون هوتبو أوّل خلفاء أحمس أصل هذه الدولة، غزا بلاد الكنعانيين، وأخضع ملوكها المتعدّدين، وتوتمس الأوّل خليفته أتمّ اخضاع الكنعانيين في فلسطين، واتصل إلى أنحاء دمشق وانتصر على الروتانو، وتوغّل في شمالي سورية إلى الفرات، وأقام عليه بقربة من كركميش نصباً يذكّر الخلف بغزوته، وتوتمس الثاني ابنه لم يملك إلا زمناً قصيراً، وخلفه أخوه توتمس الثالث. فكان له في سورية غزوات أكثر أهمية نُقشت تواريخها على جدار هيكل الكرنك، كما مرّ، فجادت علينا بكثير من الفوائد في تاريخ بلادنا، فآثرنا أن نلخّص منها ما كان مهمّاً. ارتقى توتمس منصّة الملك طفلاً فكانت أخته المسمّاة هاتشبو تدبّر الملك. فسوّل صغر سنّه لسكان سورية الذين كانوا يؤدّون إلى ملك مصر الجزية أن يأبوا أداءها. وعمّت الثورة فلسطين ولم يبقَ على طاعة ملك مصر إلا سكان غزة. ولما شبَّ توتمس واستتبَّ له الأمر خرج في فصل الربيع للسنة الثالثة والعشرين من ملكه إلى غزة، ووليَ بنفسه قيادة جيوشه. وكان ملوك سورية والكنعانيون المتحالفون عليه ألقوا قيادة عساكرهم إلى ملك قادس، وأقاموا معظم جحافلهم في مجدّو، وهي المعروفة الآن باللجون في جانب جبل الكرمل. فزحف بجحافله إليهم فانتشبت الحرب بين الفريقين في ظاهر المدينة. فانهزمت عساكر المتحالفين وسعت جنود توتمس في إثرهم إلى أسوار المدينة، وكان حرسها، وصد الأبواب خيفةً، فألجئ أن يُدلّي حبالاً يسحب بها المنهزمين من أعلى السور. وحاصر توتمس المدينة مضيّقاً عليها، فاستُسلمت إليه ودان له الأمراء المتحالفون الذين لجأوا إليها. فاجتاز توتمس

بعساكره مرج ابن عامر وما يليه إلى لبنان وأعمال سورية حتى الفرات. ولم يكُ ثمة مَنْ يقاومه. فإنّ مَنْ لم يشهدوا حرب مجدّو تسابقوا في الخضوع، وإظهار الأمانة والإنقياد له، وفتحت الحصون أبوابها ومَنْ جسر على النّزال أكره على الاستسلام. وقد عُدَّت على جدران الكرنك المدن التي سلّمت إلى توتمس، فكان عديدها مئة وتسع عشرة مدينة منها باروتا (بيروت). وتماسكو (دمشق)، فإنهما سلّمتا إلى توتمس قبل وصوله إليهما. ثم أكثر المدن الواقعة في فلسطين، وعبر الأردن من بلاد الموابين إلى دمشق، واتصل بحملته هذه إلى سورية الشمالية حتى ما بين النهرين. وعاد إلى مصر ظافراً تحفّ به ألوف من الأسرى، وممن رغبوا في أن يتطوّعوا في جنديّته، ومَنْ أخذهم رهينة الإنقياد له. وذكرت تواريخ توتمس غنائم حربه هذه فتبيَّن منها أنها كانت تسعماية واثنتين وأربعين مركبة، وعديداً من الصفائح الذهبية، وألفين وواحداً وأربعين فرساً. وظهر منه أنّ معظم قوة العساكر الكنعانية كانت منذ وقتئذٍ بالمركبات الحربية، كما كانت في عهد يشوع والقضاة (طالع سفر يشوع فصل ١١ عد ٤ وفي سفر القضاة فصل ٤ عد ٧ و١٥).

ثم في ربيع السنة التالية زحف توتمس بعساكره إلى سورية فأتمَّ اخضاعها لسلطته واجتاز الفرات ثانية وشيَّد حصناً على نهر الخابور بقيت آثاره إلى الآن. وقد وُجدت ثمة صفائح صغيرة كُتب عليها اسمه، فدان له الروتانو في عبر الفرات وأرسل إليه آشور وملك بابل جزيتهما قبل أن يدخل بلادهما. وعبرت أربع سنين لم تتخلَّلْها حرب، فجدَّ فيها ملك الروتانو في قادس بلمّ شعث قومه وإصلاح شؤون بلاده واعداد معدّات الحرب، واستمال إليه سكان شمالي سورية ولا بدّ ان كان الحثيون بينهم. فهبَّ توتمس للتنكيل بهم للسنة التاسعة والعشرين من ملكه. ويظهر أنه سيَّر جنود حملته هذه في طريق سواحل البحر. ففتح أراتو (ارواد) وحيلبون (حلب) وغيرها ودخل بلاد زاهي التي يُراد بها على ما روى لانرمان (في صفحة ١٩٥ من المجلد الثاني من تاريخه) قسم من لبنان بين مدن فينيقية وسورية المجوَّفة، وحاصر في السنة التالية قادس فافتتحها عنوة وغنمت جنوده بما كان فيها، ودكَّ بعض حصونها فأسرع ملوك الروتان السفليّ (يُراد به ما بين النهرين) فأدّوه الخضوع، وثارت ارواد عليه فأذلّها ثانيةً وعاد إلى مصر ظافراً ومعه ابناء الملوك واخوانهم ليكونوا رهينة الأمانة له «وحتى إذا مات أحد الملوك أو الولاة أرسلت

جلالته من لدنها مَنْ يتخلَّف له» (ترجمة الأصل) فكان من دأب الفراعنة حينئذٍ أن يستبقوا في كل مملكة ملكاً من سكانها يقرّ لهم بالسؤدد ويفيهم الجزية وينجدهم برجاله إبّان الحرب.

ثم عاد توتمس للسنة الثالثة والثلاثين من ملكه فحمل على بلاد الآشوريين وبلغ نينوى فعظمت سطوته واشتدّ بأسه وعمَّ الرَّوع كل مَنْ ناوأه. ولذا التقاه عند عوده وفود من قبل شعب زاهي ولمنون (لبنان) وأسّو (وهي على رأي لانرمان عمل في شمالي لبنان كانت مشهورة بمعادن الحديد فيها (ولعلها جبة بشري والضنّية) وغيرها. فقدَّموا للملك الظافر جزيتهم، وقد عدَّت على جدران الكرنك تقادم الملوك وجزَيات البلاد ومن جملتها جزية بلاد الحثيين حيث قيل «جزية سكان بلاد الحاتاس الوسيعة، كانت هذه السنة ثماني حلقات من فضة وزنها ٣٠١ ليبرا Livre وحجراً ثميناً كبيراً أبيض ومركبات وأخشاباً إلى غير ذلك». فهنا نجد اسم الحثيين لأوّل مرّة في الآثار المصرية. ولما كان اللبنانيون لم يخلصوا الطاعة لتوتمسَ اضطرَّ أن يبعث في السنين التابعة إلى بلادهم وإلى بعض المدن الشمالية عسكراً يتكفَّل باستتباب الراحة والسكينة. وقد حمل حملة أخرى على بلاد الروتانو أي سورية لسنة ٣٩ من ملكه. فانتصر أيضاً وأدّى إليه الحثيون الجزية إذ قيل في تواريخه المذكورة «من ملك بلاد الحاتاس الفسيحة أربعون ليبرا ذهب وواحد وعشرون عبداً وأمة وثيران وبقر».

وعاد ملك قادس فحصَّن مدينته وحمل غيره من ملوك سورية على الخروج عن طاعة توتمس فاضطرّ في سنة ٤٢ لملكه أن يجيّش الجيوش مرّة أخرى للتنكيل بالروتانو والسوريين حلفائهم، فافتتح قادس عنوةً وبدَّد شمل المتألّبين وقطع دابر ثوراتهم عليه. فعاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة ناعم البال طيّب القلب من قِبَل ملوك سورية. فتكون مدة ملكه أربعاً وخمسين سنة. كل ذلك كشفت لنا عنه الخطوط المنقوشة على جدار هيكل الكرنك، وكان أوّل مَنْ ترجمها أغوسطوس ماريات. ومن أنباء هذه الخطوط أيضاً أنّ توتمس في ٣٢ و٣٤ و٣٨ من سنيّ ملكه أخذ الجزية من سكان جزيرة أسابي وهي قبرس بلا ريب. وقد وُجدت أيضاً في الكرنك صفيحة كتبت عليها أشعار فصيحة منبئة بغزوات توتمس هذه فترجمها الفيكنت دي روجه de Rougé (وهي منبئة باخضاعه سكان زاهي المارّ ذكرها

والروتانو وشعب فينيقية وقبرص وسكان مدين وغيرهم). ومن بعد توتمس الثالث، لم نجد أثراً ينبئ بأنّ أحد الفراعنة الستة أو السبعة الذين تخلّفوا له حارب الحثيين أو الروتانو سوى توتمس الرابع فإنه حمل على الحثيين حملة لا نعلم من أمرها إلا ما وُجد مكتوباً على صحيفة من حجر وُجدت في هيكل أمون في تاب (طيبة) جلّ ما كتب فيها «غزوة الملك (توتمس الرابع) في بلاد الحثيين». وقد ظهر بأس الحثيين وسطوتهم في عهد دولة الرعمسيسيين وهي الدولة التاسعة عشرة.

عد ٦٣

الحثيون ورعمسيس الأول

ابتدأت دولة مصر التاسعة عشرة برعمسيس الأوّل. فإنّ هورإمهب الملك الأخير من الدولة الثامنة عشرة توفي ولم يعقب، فرقي منصّة الملك رعمسيس الذي كان قائداً للجنود. واشتهر بخدماته لوطنه ولم يكن من نسل الملوك بل لم يكن مصريّاً أصلاً، فإنّ سمات وجهه ووجه ابنه ساتي الأوّل وحفيده رعمسيس تظهر في تماثيلهم جميلة لا شبه فيها لوجوه ذريّة مصرائيم. فدلّ ذلك على أنهم من شعب غير مصريّ. وأيّد هذا أنّ العلّامة ماريات اكتشف صحيفة قديمة في تانيس كتب فيها ما يثبت أنّ رعمسيس الثاني جدّد عبادة الإله سوتك أو سوتخ؛ وهذا هو معبود الملوك الرُّعاة في تانيس عاصمتهم. ويسمّى رعمسيس هناك ستعابتي أحد الملوك الرُّعاة أباً أو جدّاً له. ويجعل ارتقاء هذا الملك سدّة مصر مبدأ تاريخ يؤرّخ به أعمال الملك، فكان ذلك دليلاً على أنه وملوك دولته من سلالة الملوك الرُّعاة السوريين أصلاً، وبقي بعض نسلهم في مصر بعد طردهم منها.

وكان حصل في آخر سنيّ الدولة الثامنة عشرة شغب سياسيّ ودينيّ أضعف قوّة مصر عن ضبط أملاكها الخارجية. فنبذت سورية وفلسطين طاعتها وكان الحثيون في هذه الأثناء تغلّبوا على الروتانو في شمالي سورية وأزاحوهم من مراكزهم وانضمّوا في مملكة واحدة فسيحة الأرجاء تنبسط من شاطئ الفرات إلى جبل طوروس وإلى البحر المتوسط وتمتدّ جنوباً إلى قادس بل إلى دمشق أيضاً. ولما كان هؤلاء من قبيلة الملوك الرُّعاة على الأرجح هاموا أن يستحوذوا على سورية كلها ليثأروا بأجدادهم الرُّعاة من المصريين الذين طردوهم من مصر بانتزاعهم منهم

أملاكهم في سورية (ملخص عن لانرمان في مجلد ٢ صفحة ٢١٩ من تاريخه). وكان ملك الحثيين حينئذٍ يُسمّى سابالت وهو أوّل مَنْ نعرفه من ملوكهم. فعُني رعمسيس أوّلاً بإصلاح شؤون مملكته في مصر وهمَّ باعادة سكان سورية إلى طاعته. ولكن لم يكن خصماؤه في سورية هذه الدفعة كما كان خصوم أسلافه الروتانو الذين كانوا ضعفاء لانقسامهم إلى عدة قبائل مختلفة الأغراض والنزعات لا تجتمع كلمتها، بل كان الحثيون حينئذٍ ذويّ دولة قديرة فسيحة الأرجاء تهيم بالحروب وتعادل مصر قوّةً. فدخل رعمسيس الأوّل فلسطين فلم يصادف شديد مقاومة فقد اعتاد أهلها أن يستسلموا إلى كلّ غازٍ أقبل على بلادهم، لكنه لم يبلغ نهر العاصي إلّا وقابلته جيوش لم تكن له في الحسبان. ولم نطّلع على تفاصيل هذه الحرب. فربما اضطرب المصريون عن ذكرها لأنها لم تكن مشرّفة لهم، لأنّ الظاهر من قرائن الحال أنّ رعمسيس لم يقوَ على اخضاع الحثيين، بل أُلجئ أن يعقد مع ملكهم عهدة صلح تشترك بموجبها كلتا الدولتين بالدفاع والمهاجمة على مَنْ يناوئ إحداهما ليتّقي رعمسيس غائلة الحرب التي أوقد نارها.

وقد لاحظ مسبرو (في تاريخ المشرق) أنّ الفراعنة لم يكونوا إلى تلك الأيام يعتبرون ملوك سورية بمنزلة ملوك مساوين لهم أو يتنازلون لعقد صلح معهم بل كانوا يحسبونهم أعداء ينكّلون بهم أو عُصاة يجرون عقابهم. وكانت نهاية الحروب معهم خضوعهم صاغرين دون شرط أو تدميرهم التام». ولم يملك رعمسيس هذا إلّا ست سنين أو سبعاً.

عد ٦٤
الحثيّون وساتي الأوّل

خلف رعمسيس ابنه ساتي الأوّل ويُسمّيه اليونان ساتوس وهو الذي بدأ يضطهد العبرانيّين في مصر كما في سفر الخروج. وقد بنى هذا الملك آثاراً مدهشة أغربها وأجملها الردهة الشهيرة المعروفة بردهة الأعمدة في هيكل أمون في الكرنك التي ما برحت على كرور القرون آية تحمل الجوّالين والمتفرّجين بها على العجب العجاب. وقد نُقشت على جُدُره صور غزواته وتاريخها مطوّلاً؛ فمن هذه الصور ما يمثّله محارباً الشاسو وهم العرب الرحّل في جانب خليج السويس، ومنها ما يمثّل

أهل لامنون وهم سكان أعالي لبنان يقطعون أخشاب الأرز والسرو لأبنية الملك الذي ظفر بهم، ومنها ما يُمثّل مدينة قادس وحصنها يحاصرها المصريّون ويفتتحونها على الحثّيين، ومنها ما يمثّل مركبات الحثّيين وعلى كل منها ثلاثة رجال ويجرّها فَرسان، ومنها ما يمثّل هذا الملك عائداً من الحرب ظافراً محفوفاً بكثير من الأسرى يلتقيه عظماء مملكته عند تخوم مصر فيقدّم الأسرى للإله أمون في (طيبة). وفي جوانب هذه الصور خطوط كثيرة نأخذ عنها ما نذكره هنا بتصرّف.

حارب ساتي في السنة الأولى لملكه العرب الذين كانوا أكثروا من السطو والاعتداء في تخومه الشرقية فشتت شملهم في البريّة. وزحف في السنة التالية بعساكر جرّارة إلى سورية فقلّ من قاومه في فلسطين لأنّ ملوك الكنعانيّين ولاسيّما الفينيقيون لم يكن لهم همّ إلّا بأرباح تجارتهم، فاستسلموا إليه وأدّوا إليه جزيتهم وقدّموا الذخائر لجنوده. ثم دان له الآراميّون دون شديد نزاع. وانقاد إليه من كانوا لبثوا قبلاً على استقلالهم في بلاد دمشق وفي السهول التي بين الفرات ولبنان الشرقي لجهّة تدمر وفي أعالي جبل لبنان حتى ارتاع منه ملوك ما بين النهرين والعراق العربي، وأرسلوا إليه هدايا يسترضونه بها فحسبها جزية. لكنّ الطامة الكبرى أدركته عند بلوغه تخوم مملكة الحثّيين في قرب العاصي، فقد استعرت نار الوغى على قلعة قادس وطال أجيجها، وتعددت المواقع إلى أن افتتحها المصريّون. فلم يكن فتحها ختام الدفاع بل كان الحثّيون يذبّون عن مواطنهم قدماً قدماً، وكلما كثر عديد المواقع اشتدّت حميتهم وبسالتهم حتى أعيوا فرعون فاضطر أن يوقّع على عهدة صلح مع موتنار ملكهم ضمنت لهم سلامة أملاكهم حتى ردّت عليهم قادس مدينتهم، ولم يلزموا أنفسهم إلا الإنكفاف عن الاعتداء على الأعمال المصرية وأن لا يُثيروا ثورة على سلطة ملك مصر بل يكون بين المملكتين عهدة دفاع وهجوم. إنّ خطوط الكرنك لا تصرّح بانخذال ساتي بل تحاول اخفاء ما تُبديه قرائن الحال وتقرّ ببسالة الحثّيين بتعظيمها نفسه مشاق الانتصار عليهم. وتشبّه ساتي بالآلهة وتدعوه تارة جقلا يطوف البلاد سحراً، وتارة أسداً ضرغاماً يعرف الطرق الخفية في كلّ بلاد، وتارة ثوراً شديد الاقتدار قويّ القرون. وقد كُتب على الصورة الممثلة هذه الحرب: «ها هي تي ذريّة الحثّيين وقد صنعت جلالته فيها ملحمة».

إنّ نجاح الحثّيين بهذه الحروب زادهم جسارة فقطعوا على المصريين طريق حلب والفرات الذي كانت عساكر توتمس الأوّل وتوتمس الثالث تمرّ به ظافرة أو لا تجد فيه من مقاوم، وأصبحت أملاك مصر في سورية مقصورة على فلسطين وما جاورها من بلاد آرام الجنوبيّة. وعلى فينيقية التي كان تجّارها يُؤثرون اعطاء ملك مصر الجزية على فوات أرباح تجارتهم البحريّة وضياع كسبهم في مصر. واجتزأ ساتي بأن يُحسن سياسة ما بقي من أملاكه في مصر وسورية مؤثراً ثبوت هذه الأملاك والانتفاع بها على انبساط سلطته ونفقات الحرب لضبطها. وبدّل الحكام الوطنيّين بعمال مصريّين وأقام حرساً مستمراً في أخص الحصون كغزة وعسقلان وماكتا وهي مجدّو المعروفة الآن باللجون. وتوفي ساتي بعد أن ملك نحواً من ثلاثين سنة على الأظهر وخلفه ابنه رعمسيس الثاني.

عد ٦٥

الحثّيون ورعمسيس الثاني

سمّى اليونان رعمسيس الثاني سيسوستريس وعزوا إليه حروباً وانتصارات على الحثّيين وغيرهم أكثر مما كشفت عنه الخطوط المصرية بعد استطلاع سرّها. وقد فَضُل غيره في ما أتت به آثاره من أخبار الحثّيين، وعنها أخذنا مما نرويه هنا فقد رقي رعمسيس منصّة الملك في أواخر القرن السادس عشر وأوائل الخامس عشر، فلم يتجشّم حروباً مهمّة في السنين الثلاث الأولى لملكه، بل بدت آثار ثورات في بعض أعمال فلسطين يترجّح أنّ يداً حثّية أثارتها فحملت رعمسيس أن يغشي هذه البلاد مرّتين؛ بلغ في إحداها إلى بيروت وترك صورته منقوشة على صخر عند مصبّ نهر الكلب (أثبت لانرمان مثالاً لها في مجلّد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ٢٥١). على أنّ العدو الذي كان يروّعه إنما هو الحثيّيون، فكان موجساً منهم خيفة لأنهم حافظوا على عهدة الصلح مع أبيه ما حيي، وأخذوا بعد موته يتأهّبون لثورة هائلة وكانوا حينئذ في أوج سؤددهم وصولتهم، وكانت أملاكهم منبسطة من قادس إلى أطراف آسيا الصغرى ومن لبنان إلى الفرات، وقد أبقت لنا آثار رعمسيس على اسماء الشعوب الذين تألبوا مع الحثّيين لمناوأة ملك مصر؛ فمنهم سكان حلب وكركميش والجرجاشيّون إحدى فصائل الكنعانيّين، والآراميّون سكان

سورية المجوّفة، والأرواديّون من الفينيقيين. وأما أهل صيدا وجبيل فكانوا يمالئون رعمسيس ولا يعلم كم كان عدد جيوش المتحدين، ويظهر أنه كان كثيراً يشذّ عن الحصر. فإنّ ملك حلب وحده كان أتى بثمانية عشر ألف جنديّ، وبيّنت الإحصاءات أنّ عدد المركبات الحربيّة لم ينقص عن ألفين وخمسماية مركبة. ودرى رعمسيس ما كان يدبره عليه أعداؤه فزحف في فصل الربيع للسنة الخامسة من ملكه بجيش جرّار وسورة الشباب وحميته وصلفه تأخذ برأسه، فاجتاز فلسطين حيث كان الحرس المصري الذي أقامه أبوه كما مرّ، وبلغ إلى محلّ يُسمّى شبطون. قال لانرمان إنّ موقعه عند ينبوع النهر السبتي في جهة الحصن إلى الغرب من حمص، فوقف جيوشه ثمّة ليتجسّس مراكز أعدائه ويدبّر حركات جنوده بما تقتضيه الحال. وكان موتنار ملك الحثّيين رجلاً مدبّراً في أمور الجنديّة والحرب، يُؤثر الحيلة على استعمال القوّة. فأعلمه جواسيسه موقف رعمسيس فعزم أن يأخذه بوهق احتياله، فأرسل اعرابيّين متنكّرين يقولان له: «أرسلَنا اخواننا رؤساء القبائل المتّحدة مع ملك الحثّيين الخسيس لنسرّ إلى جلالة الملك أننا تايقون أن نخدم فرعون ونغادر رئيس الحثّيين الخسيس، وهو الآن في حلب في شمال المدينة حيث انزوى بغتةً خائفاً بطش الملك». فاغترّ رعمسيس بالخدعة وأقبل على قادس بعدد قليل من جنوده مطمئنّاً. وصفّ ملك قادس جنوده في شمالي المدينة وغربيها ليثب على فرعون في حين غفلة فيهلكه وجيشه. على أنّ رعمسيس قبض حينئذ على جاسوسين فاستنطقهما معذّباً لهما فباحا إليه بسرّ المكيدة، فعظمت دهشته وحيرته وعلم الخطر العظيم الملمّ بنفسه وجيشه. وبينما هو على عدوة العاصي يفكّر بما يتسوّل به لنجاته إذ وثب ملك الحثّيين بغتةً على قلب جيشه فشتّته وشطر جنود رعمسيس شطرين، فعظم الخطر على رعمسيس في موقفه ولم تُنجه إلا شدّة شجاعته. وقد كُتب في خطوط آثاره أنه اخترق صفوف العدو المحدّقة به ثماني مرّات إلى أن أقدرته العناية على ضمّ صفوف جيشه وإصلاء نار الحرب على العدو النهار كله.

إنّ شاعراً مصريّاً اسمه بنتاور نظم تاريخ هذه الموقعة بأشعار نُقشت على جدران هيكلي الكرنك والأقصر، ووُجدت مكتوبة في بابير محفوظة الآن في المتحف البريطاني. فنثبت هنا شيئاً من ترجمتها لما بها من الفائدة والفكاهة:

«كنت وحدي لا يصحبني رئيس ولا قائد ولا آمر ولا ضابط.

انهزمت الجنود والفرسان ولبثتُ أحارب العدو منفرداً، فصرختُ حينئذ: أين أنت يا أبتاه أمون؟ هل يُنكر أب ابنه أو يُغادره في ضيقه؟

هل أقدمتُ على عمل دون رضاك أو مشيتُ أو وقفتُ ولم أشخص أبصاري إليك؟

هل خالفتُ أوامر فمك أو نبذتُ مشوراتك؟ هل تحتمل أن يُذلّ ملك مصر وسيدها أمام شعوبٍ يُعاندونك؟

فمن هؤلاء العمو (يُريد بهم الآسياويّين المتحالفين عليه) بعيشك يا أمون؟ بدّد من لم يقرّوا بألوهيّتك.

أما شيّدت لوجهك آثاراً لا عداد لها؟

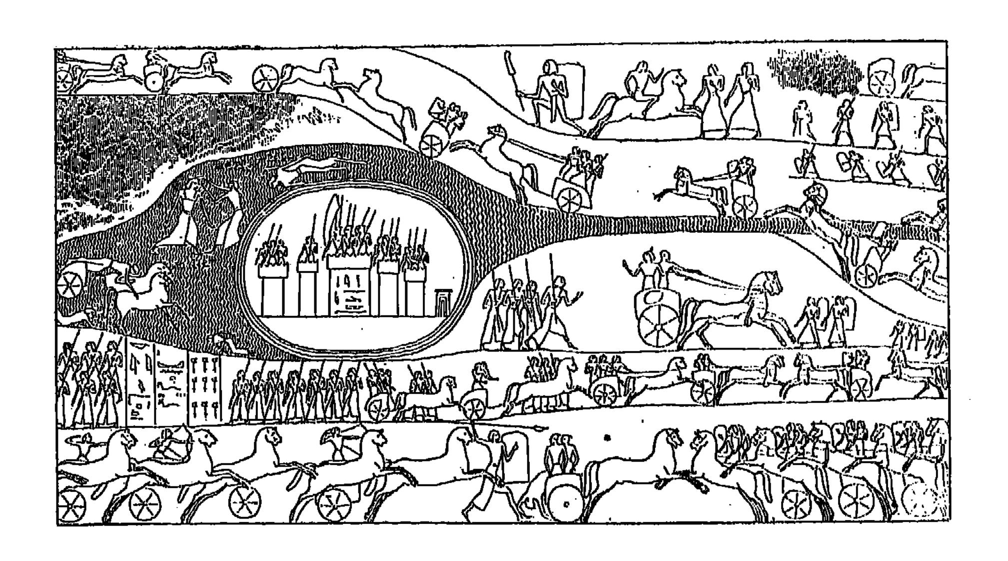
أما أفعمت هيكلك بالغنائم التي أحرزتها من الأعداء؟

أما بنيت لك معابد تدوم ألوفاً من السنين؟

فبك أستجير وإيّاك أدعو يا أبتاه أمون فقد أحدقت بي جماعات لا أعرفها، وتألّبت عليّ قبائل وأنا وَحَد لا أحد معي، فأدعو وليس من يُجيب، على أنني موقن بأنّ أمون خير لي من ألوف جنود تجتمع معاً...

وقد استُجيب دعاء رعمسيس وتداركه العون. فإنّ الشاعر يقول بلسانه: «قد استجابني رع (وهو أمون أيضاً ويُراد به الشمس) لما دعوته ومدّ إليّ يده فطفح قلبي سروراً وناجاني من ورائي قائلاً: لا تخف رعمسيس ميامون (لقب له تأويله محبّ أمون) أنا معك، أنا أبوك رع يدي تعضدك، أنا خير لك من ألوف الجنود، أنا ربّ النصر وعاشق الشجاعة، فإذا رأيت شجاعاً مثلك همت بحبّه وامتلأ فؤادي سروراً وكلّ ما أردته كان، فأرمي سهامي بيميني مثل مونت (إله الحرب) وتقبض شمالي على الأعداء مثل بار (يُريد به بعلاً باعتبار كونه إلهاً للحرب) في ثورة غضبه، فأرى الآن ألفين وخمسماية مركبة وأنا في وسطها وقد قلبتها خيولي وليس من ركابها من يمدّ يداً للقتال، قد تولى الرعب والذعر قلوبهم وشلّت أيديهم فلم يعلموا كيف يرمون السهام فارقهم قلبهم فلم تضبط أيديهم الحراب فأغرقتهم بالماء كما يغرق التمساح فيتهافت بعضهم على بعض قتلى». ثم يطرأ الشاعر بسالة بطله

هذا واختراقه صفوف الأعداء دفعات وله شعث جيشه وانتصاره. على أنه لا بدّ في ذلك من مبالغة على عادة الشعراء، فالصحيح أنّ رعمسيس عرّض نفسه للهلكة لانفراده مخفوراً بعدد قليل من الجند، فوثب عليه العدو فدافع عن نفسه مدافعة الكمي بجنده القليل إلى أن أدركه عسكره. فكان ذلك دليلاً على عظم بسالته وقلّة دربته معاً لانخداعه بكلام اعرابيَّين مجهولين.



صورة حرب رعمسيس الثاني على قادس مدينة الحثيين فترى قلعة قادس بهيئة جزيرة في العاصي والحرس في أعلاها وبعضهم خارج من اليمين يهاجم المصريين فترى الحثيين يمنة والمصريين يسرة وترى بعض الحثيين غرقى في الماء وأصحابهم يحاولون انجاءهم وهذه الصورة مأخوذة عن أصلها في هيكل الأقصر في مصر

وبعد نجاة الملك تسعّرت نار الحرب النهار كله فاضطرّ موتنار – ملك الحثّيين – أن يلوي غير يائس من الظفر. فخمدت جذوة الحرب مساء وجدّ شبوبها صباحاً، فكانت موقعة هائلة دارت فيها الدوائر على الحثّيين؛ فتفرّقت صفوفهم في نقط عديدة، وقُتل حامل سلاح الملك وقائد الرجّالة ورئيس الخصيان وكاتب الوقائع

الرسمي وغيرهم كثيرون، وحاول بعض المنهزمين أن يعبروا النهر سابحين فراراً من لحاق المصريّين فغرق كثيرون ونجا أخو ملك الحثّيين المُسمّى ميسرائيم، وغرق ملك نينا، واستُخرج ملك حلب من الماء وفيه رمق. ويُرى في الصورة الممثلة لهذه الموقعة ملك حلب معلّقاً برجليه يندفق من فيه الماء الذي كان يظن أنه ابتلعه، ولولا خروج حرس المدينة للذبّ عن المنهزمين لم يبقَ منهم باق.

فعوّل ملك الحثّيين على طلب الأمان فسيّر وفداً إلى رعمسيس يقول له على ما في الآثار المصريّة: «إنّ شعب الحثّيين مشترك مع المصريّين مقدّماً خدماته أمام أقدامك، فإنّ رع (الشمس) أباك السعيد ولاّك أمرهم فاكفف عنّا سخطك فإنك شديد البأس، فتكت بسالتك بأمّة الحثّيين فهل يحسن بك أن تقتل عبيداً أنت سيّدهم؟ فأرى محيّاك مغضباً مكفهرّاً ولا تشاء اخماد غضبك. وصلت أمس فقتلت مئات ألوف، فإن عاودت القتال اليوم فلا يبقى من يخضع لك فلا تتمّ ما اعتزمته أيها المليك المظفر! فيا روح تسرّ بالقتال نكرّم بأن تمنحنا نسمة الحياة». فاستشار رعمسيس أركان حربه فعقد صلحاً مع ملك الحثّيين وعاد إلى مصر ظافراً وكان ذلك للسنة الخامسة من ملكه.

على أنّ ذلك الصلح لم يكن إلاّ هدنة على دَخَنٍ فإنّ ملك الحثّيين لم يلبث أن همّ بتجديد الحرب آخذاً بثأره على أنه لم يقتحم بادىء بدء مواقع كبيرة، بل اجتزأ أوّلاً أن ينفخ نار الثورة على مصر مهيّجاً القبائل الخاضعة لها للخروج عليها. ففي السنة الثامنة لرعمسيس هيّج الشرّ بينه وبين الكنعانيّين في الجليل. فنرى عساكره تحارب عند بحيرة ميروم أي في الحولة وفي جبل طابور لتردّ العصاة إلى طاعة مصر. وفي السنة الحادية عشرة لملكه تقوّى الآسياويّون على المصريّين حتى خُيّل أنهم حصروهم في وادي النيل. وقد خرجت أكثر أعمال فلسطين عن طاعة رعمسيس إلى أن تمكّن من استرداد عسقلان بعد حصار عنيف وحُسب ذلك فوزاً كبيراً. ثم استردّ شلاما (أورشليم) والكرمل. وأسعدهم الحظ في اخضاع مدن أخرى بل وُفّق أيضاً في طرد عساكر المتّحدين من فلسطين وفينيقية وسورية المجوّفة (سهول البقاع وبعلبك). ثم وصل بعد ذلك إلى قادس وافتتحها مرّة أخرى وتوغّل في وادي العاصي إلى وسط بلاد الحثّيين. وأتحفتنا آثاره بجريدة اسماء مدن افتتحها عليهم. وتمثّله إحدى الصور المنقوشة في تاب (طيبة) جالساً بعد حرب مع الحثّيين

وحلفائهم وقوّاد جيشه يكردسون أمام قدميه ما قطعوه من أيدي الأعداء. ودامت هذه الحروب أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ولم تخمد جذوتها إلاّ بعد أن قُتل موتنار ملك الحثّيين غيلة في إحدى معامع الحرب.

وخلفه أخوه كيتاسار وقد تأوّل كثيرون هذا الاسم بمعنى ملك الحثّيين؛ أي أنّ سار معناه ملك وكيتا أو حيتا الحثّيون. ولكن لاحظ العالم بليكس أنّ هذا التأويل غير صحيح إذا اعتبر أصل هذا الاسم سامياً، لأنّ اللغات الساميّة لا يتقدّم فيها المضاف إليه على المضاف. وعليه فيكون معنى الاسم خوف الملك أو الخائف من الملك؛ أي الله وتحرير المعنى خائف الله أو مجلّ الله. وكانت الدولتان المحاربتان قد كلّتا من القتال وسئمت نفوسهما الحرب فعولتا على عقد صلح نهائي مستمرّ، ووقّعتا على عهدته. وروى مسبرو (في تاريخ شعوب المشرق) إنّ نص العهدة كُتب أوّلاً في اللغة الحثّية ونُقش على صفيحة من فضّة وقُدّم لفرعون، وهو في المدينة التي شيّدها ودعاها رعمسيس باسمه. وهذه أوّل عهدة ظفرنا بنصّها.

عد ٦٦

عهدة الصلح بين رعمسيس ملك مصر وكيتاسار ملك الحثّيين

قد نُقش نص هذه العهدة على ظاهر جدار هيكل الكرنك حيث يُشاهد حتى الآن، لكنّ آخره مشوّه وهاك ملخّصه:

«في السنة الحادية والعشرين واليوم الحادي والعشرين من شهر طيبي (وهو الشهر الخامس من السنة عندهم) للملك رعمسيس ميامون (محب أمون)، بينما كان جلالة الملك رعمسيس في مدينة بيت رعمسيس (هي المدينة التي شيّدها وسمّاها باسمه) مقدّماً التقادم استرضاءً لأبيه أمون رع، (ويعدد اسماء باقي معبوداته ويتوسّل إلى هؤلاء الآلهة ليقيّضوا له سنين عديدة يقضيها ناعم البال ويُخضعوا له القبائل والبلاد أبداً)، وافاه مفوّضان من قبل كيتاسار ملك الحثّيين المعظّم مصحوبين بصفيحة من فضّة، كُتبت عليها شروط الصلح والإخاء المؤبدين بين ملك مصر العظيم وكيتاسار ملك الحثّيين العظيم، وهذا هو الاتفاق الذي وقّع عليه بينهما بصورة عهدة أبعد الله معاودة كلّ عداوة بينهما. وقد كانت في أيّام أخي موتنار

ملك الحثّيين المعظّم حروب مع ملك مصر المعظّم. على أنه مذ هذا النهار فصاعداً يكون سلام واخاء مؤبّدان بين بلاد مصر وبلاد الحثّيين فلا تنشأ عداوة بينهما البتّة، بل يكون ملك مصر العظيم أخاً لي مستمرّاً على السلم معي، وأكون أخاً له مقيماً على السلم معه منضماً إليه كأنّ لكلينا قلباً واحداً، وابناء ملك الحثّيين العظيم يكونون بالاتفاق والإخاء مع ابناء رعمسيس ملك مصر العظيم، وهكذا يكون خلفاء رعمسيس مع خلفاء كيتاسار العظيم ويكون سكان مصر وسكان بلاد الحثّيين على وفاق واخاء مؤبّدين لا تنشأ عداوة بينهم إلى الأبد. ولا يسطو ملك الحثّيين على أرض مصر البتّة ليأخذ منها شيئاً أيّاً كان ولا يسطو ملك مصر على أرض الحثّيين ليأخذ منها شيئاً أيّاً كان. وأرعى العهدة التي عُقدت في أيّام سبالات ملك الحثّيين والعهدة التي وقّع عليها أخي موتنار، وأسلك بمقتضاها دون خلل، ويرعى ملك مصر العهدتين ويسلك بموجبها دون خلاف. فإذا غشا عدو أرض رعمسيس ملك مصر وأوفد يقول لملك الحثّيين تعالَ فأنجدني، عليه لزم ملك الحثّيين أن يأتي ويضرب العدو. وإذا تعذّر عليه الحضور بنفسه لزمه أن يُرسل رجاله وخيله للإيقاع بالعدو. وكذا إذا غشا أرض الحثّيين عدو واستنجد ملكهم ملك مصر لزمه أن ينجده بنفسه أو برجاله وخيله. وكلّ جانٍ حاول النجاة من الجزاء الذي تفترضه الشرائع، ففرّ إلى إحدى المملكتين لزم تسليمه إلى ضابطة قبيلته. وكلّ عبد أبِقَ من إحدى المملكتين إلى الأخرى وأضرّ بمولاه لزم رده على طالبه. وكلّ منتقل لغير داعي جناية من إحدى المملكتين إلى الأخرى، وكلّ مأخوذ جبراً إلى إحداهما، وكلّ صاحب صناعة أو عمل أراد أن ينقل سكناه من أحد القطرين إلى الآخر؛ هؤلاء جميعاً يردون على شعبهم لدى طلبه إيّاهم. ولكن لا يسوغ احتساب انتقالهم من وطنهم جناية. فمن ردّ على شعبه في هذه الصورة لا يمسّه ضرّ في بيته ولا تزعج امرأته ولا أولاده، ولا تُضرب أمّه ولا يُضرب هو على عينيه ولا على فمه ولا على قدميه، وفي الجملة فلا تقبل عليه لذلك شكوى جزائيّة. ويلزم أن تكون المساواة التامّة والاشتراك الكامل بين الشعبين المصري والحثّي. وتبرم عهدة الدفاع والهجوم هذه بين المملكتين. وأخيراً يستدعي الملكان المتعاهدان آلهة كلّ قبيلة منهما ذكوراً وإناثاً للشهادة عليهما وللانتقام ممن يخالف شيئاً مما أبرم الاتفاق والعهد عليه، ويسألان الآلهة أن يجزوا من يرعى بنود هذه المعاهدة بمنحه التوفيق والعافية له ولعياله ولمن يلوذ به».

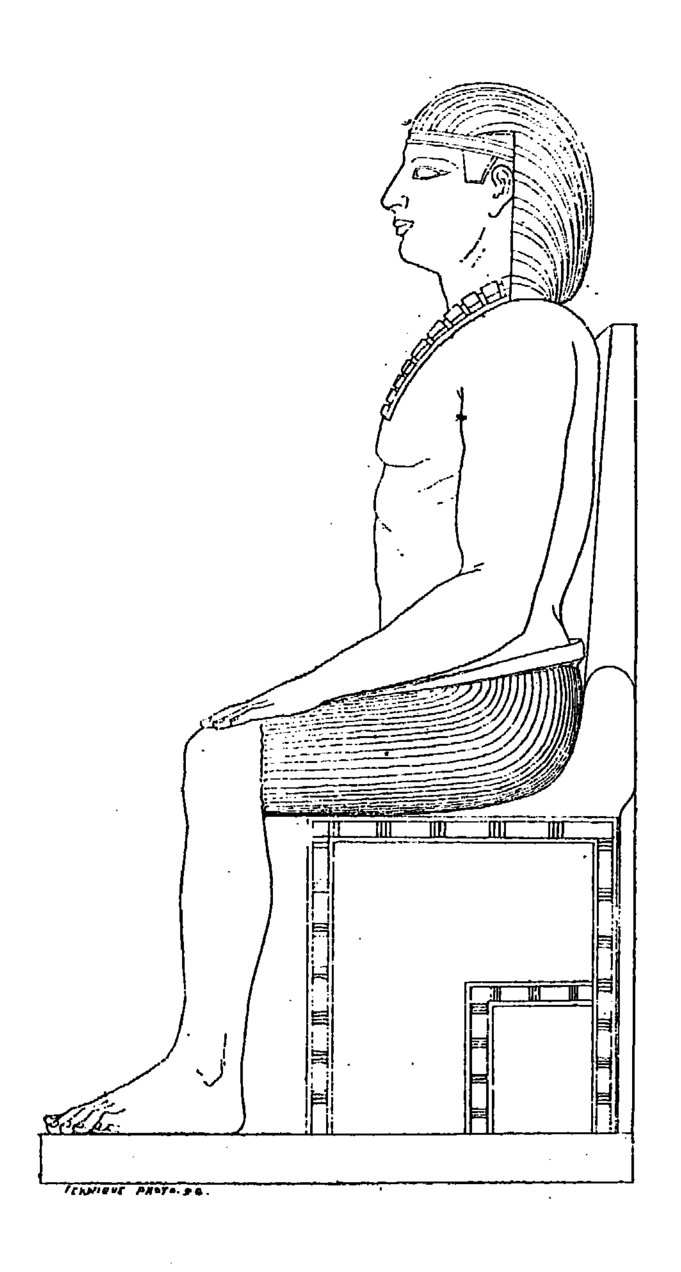
وقد حافظ المصريّون والحثّيون على العمل بمقتضى هذه العهدة وجعلوها دستوراً للتعامل بينهما مدّة قرن كامل. فلم نعثر على أثر يُنبىء حصول حرب أو نزاع بين الأمّتين في تلك الحقبة. ويظهر أنّ كلّ ما كان من جبيل نحو الغرب والجنوب خصّ المصريين بموجب هذه العهدة، وكلّ ما كان منها إلى الشمال والشرق خصّ الحثّيين. فقد وجد بابير هو الآن في المتحف البريطاني وترجمه العالم شباس معلّقاً عليه بعض الشروح؛ ينطوي على أخبار رحلة عامل مصري أوفد في ذلك العصر إلى فينيقية، فيذكر المدن الخاضعة لصولجان مولاه والتي تجوّل فيها؛ فمنها كابونا (جبيل) مدينة الأسرار، وباروتا (بيروت)، وصيدونا (صيدا)، وسربوتا (صارفة صرفند)، وتسار (صور وكانت حينئذ مأوى للصيّادين)، ومستتبع محطات سفره نحو الجنوب في فلسطين إلى أن عاد إلى مصر (ملخّص عن رواية فيكورو لهذه العهدة في كتابه المسائل المنثورة، وعن لانرمان في المجلّد الثاني من تاريخه الشرقي في فراعنة مصر).

عد ٦٧

زواج رعمسيس بابنة ملك الحثّيين

قد وطّد رعمسيس وثاق الوفاق بتزوّجه بابنة ملك الحثّيين، ودعا حماه كيتاسار إلى زيارته في بلاده. وقد جاء في البابير المعروف بأنستازي المحفوظ الآن في المتحف البريطاني:

إنّ كيتاساري استدعى أحد محالفيه أميركاتي في آسيا الصغرى ليصحبه في سفره إلى مصر فقال له: «هلمّ نذهب إلى مصر فقد صرّح الملك بدعوته فلنطع رعمسيس فطاعته حياة لمن يحبّه فتُجلّه الأرض كلّها وهو والحثّيون الآن واحد». ومضى كيتاسار إلى مصر فالتقاه رعمسيس إلى مدينته التي شيّدها في أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل، وأتيا معاً إلى تاب وأُقيم هناك نصب وعليه صورة رعمسيس وحميه وامرأته حيث يُرى رعمسيس على أريكته وحموه وامرأته يُبديان التجلّة له. وقد توطّد السلم بين المصريين والحثّيين بعد تلك الحروب الدمويّة المديدة حتى أصبح الأعدا اخداناً والمحاربون اخواناً.



صورة رعمسيس الثاني نقلاً عن تمثال في متحف اللوفر في باريس

قد لاحظ مسبرو (في تاريخ شعوب المشرق) أنّ المصريّين أخذوا يُدخلون حينئذ في لغتهم كلمات من فروع اللغة السريانيّة، وأن يعلّموا ابناءهم بل عبيدهم أيضاً هذه اللغة، واستحسن علماؤهم أن يُرصّعوا كلامهم بألفاظ وجمل من لغة أجنبيّة؛ مثلاً بدلاً من أن يُسمّوا الباب «رو» كما في لغتهم المصريّة سمّوه «ترعو» ܬܪܥܐ كما في السريانيّة، وبدلاً من أن يقولوا في التحيّة «آو» كما في لغتهم أخذوا يقولون «شلم» ܫܠܡܐ لسلام بالسريانيّة. فكأنه كان عندهم يومئذ ما هو كائن عندنا الآن من إدخال ألفاظ وعبارات أجنبيّة في لغتنا العربيّة. وروى لانرمان (في مجلّد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ٢٦٥) إنّ التحاب بين دولتي مصر وسورية حينئذ كان وسيلة لدخول عبادة كثير من المعبودات السوريّة الفينيقية عند سكان وادي النيل، فانتشرت عندهم وقتئذ عبادة بعل وعشتروت وغيرهما من الآلهة والآلهات. على أنّ الظاهر أنّ هذه العبادة استمرّت فرديّة فلم نجد حتى الآن هيكلاً على اسم هذه المعبودات السوريّة إلّا سوتخ إله الحثّيين الذي أدخل عبادته الملوك الرعاة، وجدّد له رعمسيس الهيكل العظيم في تانيس بعد أن لبث متهدّماً في عصر الدولة الثامنة عشرة.

عد ٦٨

تيسّر حرب المصريين والحثّيين ودخول بني إسرائيل أرض الموعد

كانت هذه الأحداث بين المصريّين والحثّيين عندما كان موسى منهزماً من غضب رعمسيس في بريّة سينا بعد قتله الرجل المصري آخذاً بثأر عبرانيّ أهانه. فكان الله يُعدُّ موسى لإنقاذ شعبه من عبوديّة مصر، ويُهيّء بهذه الحروب ما يُيسّر تملّك شعبه أرض الموعد بعد سنين. فلو تيسّر لملك الحثّيين أن يقهر ملك مصر ويُذلّه لاستحوذ على أرض الكنعانيّين برمّتها وتعذّر على يشوع بن نون افتتاحها على ملك الحثّيين القدير الرهيب. ولو تيسّر للمصريّين أن يُبيدوا الحثّيين لاستمرّوا متمكّنين في أرض الموعد وعجز بنو إسرائيل عن امتلاكها والنجاة من غضب فرعون، فيسّرت العناية الصمدانيّة طريق العبرانيين إلى أرض الموعد بأن أضاف كلا العدوّين قوّة الآخر وأعاقت بني إسرائيل في البريّة أربعين سنة، إلى أن فقدت كلتا المملكتين ما كان لهما من الصولة والاقتدار، فتهيّأ لشعب الله أن يرث بسهولة الأرض التي وعد بها إبراهيم وإسحق ويعقوب.

عد ٦٩

بقيّة ما كان بين خلفاء رعمسيس والحثّيين

مات رعمسيس الثاني بعد أن ملك ٦٧ سنة منذ وفاة أبيه، وخلفه ثالث أبنائه المُسمّى منفتاح وهو فرعون الذي خرج في أيّامه بنو إسرائيل من مصر. ولم تهدنا الآثار علاقة لمنفتاح مع الحثّيين إلاّ بأنّه أرسل إليهم مؤونات عند حصول مجاعة في بلادهم. فقد كتب هذا الملك على هيكل أمون: «شحنت السفن مؤونات يعيش بها شعب الحثّيين لأنني الملك الذي اختاره الآلهة». ولما استفتح بنو إسرائيل فلسطين قاومهم الحثّيون الجنوبيّون منضمّين إلى سائر الفصائل الكنعانيّة. ولكن لا يظهر أنّ الحثّيين الشماليين أنجدوا هذه الفصائل في حربها مع يشوع بن نون الذي قصر غزوته على سفح لبنان كما يظهر من سفر القضاة (ف ٣ عد ٣). فلم يمسّ الحثّيين الشماليين بضرّ. ولم نجد في الآثار المصريّة ذكراً للحثّيين بعد ما مرّ إلاّ في عهد رعمسيس الثالث أحد فراعنة الدولة العشرين. فقد نبأتنا آثاره أنه لزمه في السنة الثامنة من ملكه أن يحارب الشعوب الذين حملوا على مصر من آسيا الصغرى وجُزر اليونان برّاً وبحراً. والظاهر أنّ سلطة الحثّيين حينئذ على آسيا الصغرى لم تكن على ما كانت عليه فيها في أيّام رعمسيس الثاني لأنّ رعمسيس الثالث يقول في ما كتبه على هيكل النصر في مصر: «ارتعدت فرائص الشعوب فإنّ المتحالفين خرجوا من أنحائهم وجزرهم وانتشروا بغتةً في أعمال عديدة، فلم يناصبهم شعب فنهبوا وأذلّوا شعوب الحثّيين وسكان كاتي (عمل في كيليكيا) وكركميش وأرواد». فاضطرّ الحثّيون أن يصحبوا المتغلّبين عليهم لقتال المصريين. ولما انكسر هؤلاء العداة انكسر ملك الحثّيين معهم. وقد نُقشت جريدة اسماء الملوك الذين أذلّهم رعمسيس الثالث على جدر مدينة أبو؛ فكان بينهم: «ملك الحثّيين المنكود الحظ الذي أُسر حيّاً في الحرب». فهذا آخر ما ذكرته آثار مصر في الحثّيين ونراها بكمت عن ذكر قادس وذلك إما لأنها هُدمت وإما لأنها هُجرت وأصبحت كركميش مركزاً لدولة الحثّيين التي تقلصت شيئاً فشيئاً نحو الشمال، وقامت مكانها دولة الآراميّين التي سترى أخبارها.

الفصل الرابع

تاريخ الحثيين المأخوذ عن آثار الآشوريين

عد ٧٠

الحثيون وتجلت فلاصّر الأول

إنّ تجلت فلاصّر الأوّل هو أول ملك من ملوك نينوى أنبأنا شيئاً من أخبار الحثّيين. فهذا الملك كان نحو سنة ١١٣٠ (أو سنة ١١٢٠ على رواية لانرمان) قبل الميلاد في أيام قضاة إسرائيل. ويتلخّص من آثار تجلت فلاصّر أنه كان للحثّيين حينئذٍ صولة كبرى في شمالي سورية خاصة، حتى كانت البلاد تُسمّى باسمهم أي بلاد الحثّيين. وكانت ولايتهم تمتد من لبنان إلى الفرات وكانت بلاد الآراميين خاضعة لسلطتهم، وتنبسط ولايتهم شمالاً إلى مدخل البحر الأسود فتؤدّيهم الجزية قبائل الكبادوك (في آسيا الصغرى). وكانت عاصمة الحثّيين كركميش (سيأتي تعريف موقعها). وهوذا ملخّص ما كتبه تجلت فلاصّر في إحدى صفائحه:

«أنا تجلت فلاصّر المحارب الشريف ذللت بلاد سوبير الفسيحة ... قد أستحوذ أربعة آلاف رجل من فصائل الحثّيين العُصاة على مدن سوبرتا المتعبّدة لآشور سيدي فروّعتهم مخافة سلاحي، فأذعنوا دون حرب وذلّت رقابهم لنيري، فغنمت أموالهم وأخذت مئة وعشرين من مركباتهم ووهبتها لرجال بلادي... وبعد السجود لآشور إلهي جمعت مركباتي وجيّشت جنودي المظفَّرة، ومشيت على بلاد آرام التي لم يجلّ أهلوها آشور ربي، وسرت حتى مدينة كركميش في بلاد الحثّيين (سورية) فعبرت الفرات وصنعت ملحمة كبرى وغنمت من عبيدهم وأموالهم ما لا يدركه عدّ. وبعد أن عبرت الفرات افتتحت شيئاً من مدنهم ونهبتها وأحرقتها ودمّرتها».

ويظهر من كلامه أنه لم يفتتح كركميش. وقال لانرمان (مجلد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ١٥٣): «لم يجسر تجلت فلاصّر أن يحاصر كركميش لتيقّنه بأنّ هذا المحصن المنيع لا تقوى عليه جنوده ولو كثر عديدها وعظمت بسالتها. فاجترأ أن يضرب الجيوش التي كانت تنتظره في معبر الفرات ويفتتح المدن الست المشار إليها. وتابع تجلت فلاصّر غزوته في بلاد الحثّيين حتى بلغ جبل أمانوس (اللكام) فنكّل بأهله ونهب أموالهم فدانوا للغازي صاغرين فحسب نفسه كريماً إذ عفا عن حياتهم وابتزّ أموالهم، لكنه لم يبلغ نينوى إلا واحتشد عشرون ألف مقاتل من أهل هذا الجبل الحثّيين مؤثرين الموت على ذلّ أوطانهم. ولكن لم تغنِ ثورة هؤلاء شيئاً لأنهم كانوا أفراداً غير مدرَّبين في الحرب. فإنّ جيوش تجلت فلاصّر عادت على أعقابها إليهم فبسلتهم وشتّتت شملهم ودمَّرت هانوسا مدينتهم ودكَّت كل بناء فيها إلا بيتاً صغيراً تركته ذكراً. وأقام تجلت فلاصّر منصباً هناك كتب عليه خبر حملته وانتصاره ودكّه المدينة وأن لا يجترئ أحد على تجديد بنائها.

عد ٧١
كركميش مدينة الحثيين

كانت كركميش في محاربة الآشوريين للحثّيين ما كانت قادس في محاربة المصريين لهم. فكانت قادس حصناً منيعاً يخفر طريق آسيا في وادي العاصي. وكانت كركميش مثلها على الفرات وتفضلها بأنها كانت محطة تجارة أيضاً بين مغرب آسيا ومشرقها. وقد ورد ذكر كركميش في نبوّة اشعيا (فصل ١٠ عد ٩) وفي نبوّة ارميا (فصل ٤٦ عد ٢) وفي سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٥ عد ٢٠) حيث قيل: «صعد نكو ملك مصر لقتال كركميش عند الفرات فخرج عليه يوشيا». وفي السريانية لقتال مبوغ وفي العربية لقتال منبج عند الفرات وكان موقع كركميش نكرة لم تعرف إلا في سنة ١٨٧٥ ق.م، فكان بعض أهل العلم يقول إنه بين نهرَي الخابور والفرات. وجعله راولينسون من علماء الإنكليز ومسبرو من علماء افرنسة في محل منبج في قرب حلب سنداً إلى رواية الترجمتين السريانية والعربية الآنفة الذكر إلى أن اكتشف (سِكَان) قنصل انكلترا في حلب موقعها الحقيقي سنة ١٨٧٤ و١٨٧٥م. وصدقه في ذلك العلّامة جرج سميت الشهير بعلم

الأمور الآشورية. فقد اتفق أن مرَّ هذا العلاّمة بحلب ماضياً إلى نينوى فأخبره سِكَان أنه وجد على ضفة الفرات الغربية خرابات مدينة كبيرة وأسوار منيعة مؤذنة بأنه كان هناك مدينة قديمة، وأنّ العرب تسمّي هذا المحل جرابولس، ويسمّيه الأتراك جرابيس، وأنه يرى أن ليس هذا الاسم إلا مكسر هيرابولس أي المدينة المقدّسة التي ذكرها علماء اليونان. وأنّ كثيراً من الجوّالين ذكروا هذه الخرابات البعيدة مسافة ست ساعات عن بيره جك. وأنه يرى أنّ هناك كركميش الشهيرة فشخص سميت إلى جرابولس، وتفحّص خراباتها ونسخ كلٍ ما وجد من الكتابات، واستوضح النقوش وسائر الآثار التي عثر عليها. فتابع سِكَان في رأيه وكتب إلى إنكلترا أن قد اكتشف كركميش عاصمة الحثّيين. ثم توفي سميت بعد أسبوعين على مقربة من تلك الخرابات ضحية في سبيل العلم، وأخذ بعده بعض علماء الإنكليز ينقّبون في هذا الأمر ويحفرون في تلك الخرائب، فأدّى جهدهم إلى ما رآه سِكَان وسميت. وأيّده أنه تبيَّن من آثار آشور نسيربال ملك آشور الذي كان سنة ٨٨٥ ق.م وآثار ابنه سلمناصر الذي ملك سنة ٨٦٠ أو سنة ٨٥٨ ق.م أنّ كركميش موقعها على الفرات في الشمال من نهر الساغون المعروف الآن بالساجور. وفي الشرق من حلمان أو حلفان وهي حلب ومن خرزاز المعروفة الآن باعزاز في قضاء كلس. وفي الجنوب من بلاد كمكوما المعروفة الآن بيلقيس. وكل هذه القرائن تدل دلالة صريحة على أنّ هيرابولس هي كركميش فهي نحو الشرق من حلب واعزاز وعلى ضفة الفرات الغربية وعلى بعد ثلاث ساعات تحت الساجور وست ساعات من بيره جك. ثم وجدت في هيرابولس قطعة من آجرّ من آثار سرغون ملك آشور الذي كان سنة ٧٢١ ق.م يتبيَّن منها أنّ هذا الملك بنى هناك قصراً وتبيَّن من آثار أخرى له أنه افتتح كركميش وأضافها إلى مملكته وبنى فيها صرحاً لسكنى الحاكم الآشوريّ الذي أقامه هناك. وأيضاً وجد في هيكل بلاوات في شمالي نمرود باب كبير من نحاس أصفر نقشت عليه صور حروب سلمناصر الثالث والمدن التي افتتحها ومنها كركميش. وإذا عورضت خرائب هيرابولس وهيئة موقعها بصورتها على ذلك الباب قضى بلا مشاحنة أنّ جرابولس أو هيرابولس هي كركميش، وهذا الباب محفوظ الآن في المتحف البريطاني. وروى سانس (في كتابه في الحثّيين) أنّ اسم هيرابولس نقل وقتاً ما إلى مبوغ أو منبج. ونقل إليها أيضاً هيكل عشتروت الآلهة (من هذا اسم هيرابولس أي المدينة المقدّسة). وبعد

خراب منبج ردّ اسم هيرابولس لكركميش؛ وهذا وجه التوفيق بين تسمية المدينتين باسم هيرابولس.

وقد كان افتتاح كركميش مخفرة الفرات مقدّمة لا بدّ منها لكل غزوة في سورية من جهة المشرق. كما كان افتتاح فلسطين ضربة لازب لكلٍّ من الفراعنة عند حملاتهم على سائر أرجاء سورية والجزيرة. ومنذ زمان آحاب ملك إسرائيل لم تكن مملكة السامرة لتأمن سطو الآشوريين إلا إذا كانت كركميش مستقلة عنهم خاضعة لهم. ولما دمَّر سرغون ملك آشور مملكة السامرة وقرضها، قرض هو نفسه دولة الحثّيين في كركميش وأخضع بلادها لنير سلطانه.

عد ٧٢

الحثيون وآشور نسيربال

ملك آشور نسيربال من سنة ٨٨٣ إلى سنة ٨٥٨ ق.م وقد اكتشف لايرد تمثاله في أسوار حصن نمرود وهو الآن في المتحف البريطاني. وتجد مكتوباً على صدره: «آشور نسيربال الملك العظيم القدير ملك البلاد من ضفة دجلة إلى بلاد لبنانا (لبنان). أخضع لسطوته البحار الكبيرة وكل البلاد من مشرق الشمس إلى مغربها». وقد نقش تاريخ غزوته لسورية على صفيحة من صخر فهاك مآله: «في اليوم الثامن من شهر ايرو (نيسان)، غادرت كالح، وعبرت دجلة قاصداً مدينة كركميش في بلاد الحثّيين (سورية) واجتزت نهر بورات (الفرات) على قطع من أديم، واقتربت من كركميش وفرضت على سنغار ملك بلاد الحثّيين عشرين وزنة من الفضة وحلى عديدة من الذهب ومائة وزنة من النحاس ومائتين وخمسين وزنة من الحديد والقصدير وآلات من حديد ونحاس (ذكر اسماءها ولا تعرف مسمّياتها) وغنائم بلاطه وأثاثه شيئاً كثيراً لا مثيل لظرافته وأثاثاً من أبنوس وأعراشاً من خشب السنديان ومائتي امرأة رقيقة وأنسجة من صوف وبرفير ومركبات مرصَّعة بالعاج وتماثيل من ذهب والمركبات والأدوات الحربية التي كانت لقائد جيش كركميش حفظتها في مخازني».

فمن هذا الغنائم الثمينة العديدة الأصناف تتبيَّن عظمة غنى سنغار ملك الحثّيين،

واتساع نطاق التجارة في بلاده، وتسميته ملك الحثّيين لا ملك كركميش دليل على انبساط ملكه في سورية كلّها، ولا أقلّ من اشتماله على القسم الأكبر منها. ولذا لا عجب من كون انخذاله أفضى إلى استسلام الأقيال الخاضعين له إلى الغازي في كركميش. فإنّ آشور نسيربال كتب أيضاً: «إنّ ملوك هذه الأعمال ذلّت أعناقهم لنير سطوتي بعد أن تهيّأوا لمناوأتي، فقبلت رهائنهم ودانوا لسلطتي وتركت كركميش وصرت قاصداً بلاد لبنانا» (لبنان). على أنّ أميراً حثّياً كان يلي السهول المجاورة نهر عبرا (هو المعروف الآن بنهر عفرين). وبعض المدن الشهيرة منها هزاز (المعروفة الآن باعزاز)، نوى أن يعترض مرور الغازي لكنه عند دنوّه من أملاكه ذلّ له وقدّم له أثمن ما كان يملكه.

ودوّخ هذا الملك بلاد أمانوس (جبل اللكام) وجدّ المسير نحو العاصي فعبره، وسار بجيشه على جانبه أياماً كانت له فيها حروب ليست بذات بال، إلى أن بلغ لبنان وملك سفحيه من جهة البحر وجهة سهل بعلبك والبقاع العزيز، وقدّم محرقة للآلهة على صخر تتلاطم عليه أمواج البحر شكراً لهم على إحسانهم إليه. وقد عدّد ملوك شاطئ البحر الذين أخذ الجزية منهم فكان منهم ملوك صور وصيدا وجبيل وارواد التي في وسط البحر. وكانت جزيتهم فضةً وذهباً ونحاساً وحديداً وأدوات من حديد ونسائج من صوف وكتاناً وأخشاباً من الصندل والأبنوس وجلود حيوانات بحريّة. ولم يأتِ بذكر قادس مع أنه سار في وادي العاصي كافة لأنها كانت قد خربت أو تقهقرت كثيراً. وقال إنه ركب السفن التي أخذها من ارواد متنزّهاً في البحر فقتل دلفيناً، وإنه أكبَّ على الصيد في لبنان فاصطاد خنازير بريّة وبقراً وحشيّة، وإنه أخذ بعضها حيّاً وأرسله إلى آشور، وإنه قتل نموراً وضباعاً وثعالب واصطاد أيالاً وغزلاناً ونسوراً إلى غير ذلك من الوحش والطير.

عد ٧٣

الحثيون وسلمناصر الثالث

خلف آشور نسيربال ابنه سلمناصر الثالث فاستوى على سرير الملك سنة ٨٥٨ ق.م. ودام فيه إلى سنة ٨٢٣ ق.م. وكانت له حروب عديدة مع الحثّيين الذين كانوا منقسمين على ممالك عديدة تضمّها عهدة واحدة. وكانت لهم

مراكز مهمة وحصون منيعة منها كركميش وحلب وحماه. إلا إنّ عُرى الوفاق لم تكن بينهم متوثّقة بل كان يغاير بعضهم بعضاً. ولذا نراهم أحسنوا الدفاع ولم يتيسَّر لهم الانتصار على عدوّ شديد البأس ودولة جبارة كالآشوريين. وقد جدَّد سلمناصر حملات أبيه عليهم بل قضى أكثر مدة ملكه يحارب الحثّيين ومَنْ جاورهم. ويظهر أنّ سنغار كان استمرَّ ملكاً عليهم وعصا سلمناصر فجهز عليه الحملة الثالثة من حملاته، فانتصر عليه سنة ٨٥٤ ق.م. فإنه كتب على صفيحة في كورخ ما ملخَّصه: «إنّ سنغار ملك كركميش وغيره من الملوك وثقوا بقوتهم وهبوا لمحاربتي فتوكَّلت على قدرة نركال السامية وعلى الجيوش المظفَّرة التي حشدها لي آشور سيدي، فحاربتهم وشتتُّ شملهم وبسلت جنودهم بالنبال كالإله بالي (إله العواصف والصواعق)، وأمطرت عليهم طوفان نبال وأفعمت البرية من قتلاهم. وذرَّيت جثثهم كالتبن في الصحراء وأخذت كثيراً من مركباتهم وخيولهم المروَّضة لجرّ المركبات، وأقمت راية من رؤوس قتلاهم على مدخل المدينة ودمَّرت مدنهم ودفعتها للهيب» (فيكورو في مسائل منثورة صفحة ٣٩٦). وروى لانرمان (مجلد ٤ من تاريخه الشرقي صفحة ١٩٢) إنّ سلمناصر بلغ بغزوته هذه إلى جبل أمانوس (اللكام) وأقام هناك نصباً ذكراً لانتصاره، وسار حتى وادي العاصي فضرب جيش المتحالفين الذين تجمَّعوا هناك فلعبت بهم أيدي سبأ. وتجندل منهم في ساحة الحرب ألفان وستمائة قتيل. وقبض سلمناصر على أربعة آلاف وستمائة أسير استاقهم إلى نينوى.

ولكن لم يزايل ملك آشور بلاد الحثّيين ليضع غنائمه وأسراه في مأمن إلا وجيّش لرؤساء الحثّيين عسكراً آخر، وتعقَّبوا آثار الغازي مستردين المواضع التي كان يغادرها حتى بلغوا الفرات. فعاد سلمناصر على أثره منكّلاً بالملوك الذين جسروا على معاودة العصاوة. وكان سنغار ملك الحثّيين قد حصَّن مدينة من أملاكه تُسمّى سازابي لم نعلم حتى الآن موقعها في بلاده فحاصرها سلمناصر وافتتحها عنوةً. فإنه كتب على مسلته: «دنوت من مدينة سازابي أحد حصون سنغار ملك كركميش فحصرتها وافتتحتها وقتلت كثيراً من الرجال وغنمت غنيمة ثمينة وخرَّبت مدن ولايته وأحرقتها وافترضت جزيةً على سنغار ثلث وزنة ذهب ووزنة من فضة وثلاثين وزنة من النحاس ومئة من الحديد وعشرين وزنة من النسيج الأبيض والبرفير، وخمسة أعراش، وابنته مع حلاها ومئة بنت من الأشراف، وخمسمائة ثور

وخمسة آلاف خروف». ثم يقول: إنه تقدَّم إلى سفح جبل أمانوس (اللكام) وفرض على كايانا ملكه وزنة من فضة ووزنة من نحاس ووزنة من حديد وثلاثمائة ثوب من صوف وكتان وثلاثمائة ثور وثلاثمائة وثلاثة آلاف خروف ومئتي جائز(يُراد به ما تسمّيه العامّة عندنا المدّ والرومية. فالجائز الخشبة المعترضة بين الحائطين والتي توضع عليها أطراف الخشب) من الأرز، وبناته مع حلاهنّ. وجاء في الخطوط المنقوشة على الثيران التي أقامها في قصره في نينوى، أنه افتتح في إحدى حملاته سنة ٨٤٦ ق.م سبعاً وثمانين مدينة من بلاد سنغار ملك الحثّيين.

وبعد أن تشاغل سلمناصر مدة في الحرب في بلاد أرمينيا سوَّلت له نفسه المغرمة بالفتح أن يُخضع لملكه سورية الوسطى أيضاً فعبر الفرات مرة أخرى، واستوفى الجزية من ملك كركميش وباقي الولاة الخاضعين له في سورية الشمالية. وسار إلى وادي العاصي فتألّب عليه ايركولينا ملك حماه، وابن هدر الأوّل ملك دمشق، وعصابة كبيرة من فصائل الحثّيين. فكان المتحالفون على سلمناصر اثني عشر ملكاً من جملتهم آحاب ملك إسرائيل. فاستعرت نار الحرب في كركر (لم يتعيَّن حتى الآن موقعها) وكان النصر لسلمناصر. وقد كتب في آثاره إنه قتل من الأعداء حينئذٍ أربعة عشر ألف قتيل. ومع هذا جمع ابن هدر بقايا عساكره وأضرم نار الحرب ثانيةً فلم يصادف نجاحاً أيضاً، بل ترك في ساحة القتال عشرين ألف قتيل وخمسمائة قتيل وانهزم نحو البحر. فأخذ سفناً فنزلها مع بعض قادته فاتبعه سلمناصر. وقد تفاخر بأنه لحقه مع جنوده في وسط تيّار البحر لكنه لم يدركه. وسنجيء على ذكر بعض غزواته عند الكلام في تاريخ فينيقية والعبرانيين. فإنّ سلمناصر هذا هو الذي كسر آحاب ملك إسرائيل وأكره ياهو ملك السامرة على أداء الجزية. ومن بعد موته استراحت كركميش والحثّيون مدةً لشغبٍ وقع في بلاد آشور عقبه وهن ملوكها فاغتنم جيرانها هذه الفرصة فخلعوا نيرها.

عد ٧٤

الحثيون وخلفاء سلمناصر حتى تجلت فلاصر الثاني

لم نرَ إلى الآن أثراً لخلفاء سلمناصّر وأسلاف تجلت فلاصّر الثاني ينبئنا بشيءٍ من أخبار الحثّيين إلا ما رواه لانرمان (مجلد ٤ صفحة ٢١١ من تاريخه الشرقي)

من أنّ رمان نيرار الثالث حفيد سلمناصّر حمل بسلاحه على بلاد الحثّيين ثم فينيقية حتى صيدا وصور وبلاد عمري أي مملكة إسرائيل وبلاد آدوم وبلاد فلسطين. وأنه دخل دمشق وأسر ملكها المسمَّى مَرياه أو مرياح. فقد كتب في أثرٍ له قد راعه خوف سيدي آشور فوقع على ركبتيَّ صاغراً خاضعاً، ففرضت عليه جزية ألفين وثلاثمائة وزنة من الفضة وعشرين وزنة من ذهب وثلاثماية وزنة من نحاس وخمسة آلاف وزنة من حديد ونسائج صوف وكتان. وأخذت سريراً من عاج وعرشاً من عاج وأثاثه وخزينته وكل ما كان في دمشق قاعدة ملكه وفي قصره. على أنّ خضوع هذه البلاد كلّها للآشوريين لم يكن إلا موقوفاً فإذا عاد الغازي إلى عاصمة ملكه عاد الحثّيون وغيرهم إلى استقلالهم واستفحل أمرهم في بلادهم، لاسيما في هذه الحقبة التي استحوذ الوهن فيها على ملوك آشور. فاستمرَّ الحثّيون ينعمون بالاً باستقلالهم إلى أن رقى منصّة الملك تجلت فلاصّر الثاني في ١٣ أيار (نيسان في عرفهم) سنة ٧٤٥ ق.م. وبعد أن ذلَّل صعاب الأمور في بلاد الكلدان وغيرها غزا سورية سنة ٧٤٣ ق.م. ويتلخَّص من فقرة وجدت من آثاره أنه عبر في سورية ظافراً فأكره ملك الحثّين الذي كان يُسمّى حينئذٍ بيزيريس على الخضوع له، وأقام بعسكره على جبل يقرب من مدينة أرباد المعروفة الآن بتل ارفاد على بعد نحو ساعتين نحو الغرب الشمالي من حلب، وكان سكانها حينئذٍ حثّيين. ومن هناك أرسل يستدعي جميع ملوك سورية ليأتوه بالتقادم دلالة على انقيادهم إليه وإن أبوا عُدَّ إباؤهم مصارحة بالعداوة فوافوه وقطار مركباتهم وخيولهم وجمالهم تقلّ هداياهم وتقادمهم. فانصرف مظهراً الرضى عنهم حينئذٍ على أنّ تلك التقادم الثمينة هيَّجت مطامعه وحملته أن يعاود غزواته في السنة التالية. فلم يكن هؤلاء الملوك هذه المدة أوغاداً بل أخذتهم الحميّة وضمَّتهم العصبيّة فقاوموا الغازي شديد المقاومة.

فأرباد وحدها تحمّلت الحصار سنتين لكنّ افتتاحها يسّر للغازي أن يقهر مدن سورية بأسرها. ففتحت حماه أبوابها للظافر فجلا من أهلها جمّاً غفيراً ومن سائر مدن سورية ألوفاً مؤلَّفة إلى بلاده، وأدّاه الجزية ملوك سورية. وقد عدَّد هؤلاء الملوك متفاخراً في أحد آثاره فكان منهم بيزيريس ملك كركميش، وأنيال ملك حماه، وراسن ملك دمشق، ومنحم ملك السامرة، وحيرام ملك صور، وسيبيتي بعل ملك جبيل. على أنّ تجلت فلاصّر ترك الملوك الحثّيين وغيرهم من ملوك سورية على

منصّات ملكهم وعاد إلى آشور. وأما هم فبدلاً من أن يعنوا بلمّ شعث شعوبهم وإصلاح أحوال بلادهم وتجديد قواهم بالإتحاد، انقلبوا إلى المغائرة والانقسام ومعاداة بعضهم بعضاً. فعاد تجلت فلاصّر يغشي بلادهم بجحفل جرّار سنة ٧٣٤ ق.م، فاستحوذ على مدنهم، ونكّل في أهلها، وجلا كثيرين منهم، وبسط غزوته وسطوته إلى أطراف فلسطين الجنوبية. ولمّا همَّ بالعود إلى بلاده استدعى هؤلاء الملوك لمقابلته فكانوا خمسة وعشرين ملكاً منهم بيزيريس ملك كركميش وغيره من ملوك الحثّيين. وسنأتي على ذكر هذه الحروب في تاريخ العبرانيين بتفصيل أكثر. ومات تجلت فلاصّر سنة ٧٢٦ ق.م وخلفه سلمناصّر الخامس. وعاد الشغب والقلق في بلاد آشور، فانتهز بيزيريس ملك كركميش الفرصة فثار بغية أن يتملَّص من ولاية آشور ويعود إلى استقلاله الذي انتزعه منه سرغون خلف سلمناصّر الخامس كما سيجيء (ملخَّص عن المجلد الرابع من تاريخ لانرمان).

عد ٧٥

الحثيون وسرغون ملك آشور

لم يوجد حتى الآن أثر مسماريّ ينبئ بما كان من أعمال سلمناصّر الخامس لأنه لم يملك إلا خمس سنين من سنة ٧٢٦ إلى سنة ٧٢١ ق.م. لكن يوسيفوس (في ك ٩ ف ٤ من تاريخ اليهود) حفظ لنا فقرات من تاريخ ميناندر يتكلّم فيها على أعمال هذا الملك لاسيما حصاره صور. والكتاب المقدَّس أشبع الكلام في محاربته مملكة إسرائيل وحصاره السامرة. وسنأتي على ذلك في كلامنا على الفينيقيين والعبرانيين. وأما الحثّيون فلا نعلم من أحداثهم في أيامه إلا محاولتهم التملّص من استيلائه على أنّ خطوط سرقين أو سرغون الذي تخلّف له بعد موته حتف أنفه أو قتله أفاضت بذكر الحثّيين. فنلخِّص منها ما يأتي :

إنّ بيزيريس ملك الحثّيين كان وليّ أمرهم في كركميش نيّفاً وثلاثين سنة، وكان يقاتل الآشوريين كلما تيسّر له قتالهم، فإذا انتصروا عليه أدّاهم جزية وإن ثقيلة واستمرَّ في منصَّة ملكه. وافتتح سرغون السامرة وصور ودمشق، وأغضى على بيزيريس لقربه من بلاده. ورآه بيزيريس متشاغلاً في الحرب في أرمينيا وبلاد مادي. فحسب الفرصة تلائمه للتشبّث بملكه وتقويته تجاه الآشوريين. ولم يكن له أن

يتطلّب حلفاء في دمشق والسامرة تعرض سرغون ملكهما، فعنّ له أن يحالف ملوك الشمال لاسيما ميتا ملك الموشكيين (وهم من ذريّة ماشك ابن يافت ومقامهم في بلاد الجركس) وأمريس ملك توبال (وهو ابن يافت أيضاً ومقام قبيلته في جانب بني ماشك المذكورين ارجع إلى عد ٤١) وأودسا ملك أرمينيا فعقد عهدة معهم. ودرى بذلك سرغون فدهمه على حين غفلة وهاك ما كتبه سرغون (نقلاً عن مينان في تاريخ ملوك آشور صفحة ١٦٢)[١]:

«وفي حملتي الخامسة (سنة ٧١٧ وسنة ٧١٦ ق.م) كان بيزيريس ملك كركميش عصا كبار الآلهة وأوفد سعاة إلى ميتا ملك بلاد موشكى (ماشك) لإشهار العداوة للآشوريين، وعقد على ذلك عهوداً ومواثيق. فرفعت يدي إلى آشور سيدي خاضعاً فقيّض لي أن أخرجته من مدينته وأخذت خزائنه وكبّلته بقيود الحديد، وغنمت ما كان من الفضة والذهب في قصره، وجلوته مع سكان كركميش إلى بلاد آشور لأنهم شاركوه في ثورته. وأخذت أمواله وغنمت منهم خمسين مركبة وأسرت مئتي فارس وثلاثة آلاف راجل. ووسعت أملاكي وأسكنت قوماً من بلاد آشور في مدينة كركميش بعد أن نقلت أهليها إلى بلاد آشور». وأقام سرغون حاكماً آشوريّاً في كركميش، فإنه استطرق سياسة حديثة وهي أن لا يجتزئ بضرب جزية على مَنْ يقهره من الملوك، بل أن يعزل هؤلاء الملوك عن منصّات ملكهم ويرفع إليها حكّاماً آشوريين، ويجعل بلادهم اقليماً من مملكته.

وعليه فقد لحق الحثّيون سكان كركميش بيني إسرائيل المسبيّين إلى آشور وبابل. وكانت هذه الضربة قاضية وانقرضت بها مملكة الحثّيين. وكان بيزيريس آخر ملوكهم. وأمست كركميش ولاية آشورية يليها حاكم من نينوى وتبدّلت بسقوطها حالة المشرق كلّه. وكان اشعيا النبي يهتف في إحدى نبوّاته على آشور: «أليست كلنة (مدينة في الجزيرة يظنّ أنه كان موقعها حيث بُنيت قطيسغون بعداً) مثل كركميش وحماه مثل ارفد (تل ارفاد في أنحاء حلب كما مرّ) والسامرة مثل دمشق» (فصل ١ عد ٩)؟ على أنّ استحواذ الآشوريين على كركميش أضرّ بالحثّيين. لكنه جدًا بكبير النفع على المدينة، فإنّ انبساط سلطة الآشوريين في سورية

(١) Menent Annales Des Rois d'Assyrie.

زاد في حركة تجارتها، فأصبحت مركز تجارة متوسطة بين مغرب آسيا ومشرقها يتقاطر التجار إليها من كل أفق.

وأنبأتنا الآثار المسمارية أنّ: «منه كركميش» أي وزنتها كانت معياراً لموازين آسيا كلّها. وما برح موقعها مفتاحاً لكل ما وراء الفرات غرباً. فجعلها ذلك مطمحاً لعيون الملوك إليها. فقد جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٥ عد ٢٠): «أنّ نكو ملك مصر صعد لقتال كركميش عند الفرات» كما مرّ. وجاء في نبوّة ارميا (فصل ٤٦ عد ١): «كلمة الرب التي كانت إلى ارميا النبي على الأمم على مصر على جيش فرعون نكو ملك مصر الذي كان عند الفرات في كركميش الذي ضربه نبوكدنصّر ملك بابل». ولم تتقهقر إلا عند سقوط نينوى في القرن السابع قبل الميلاد على أنه بقي لها شيء من الأهمية في مدة ولاية اليونان وسمّوها هيرابولس أي المدينة المقدّسة كما رأيت.

الفصل الخامس

تاريخ الحثيين المأخوذ عن آثارهم

عد ٧٦

آثار الحثيين وخطوطهم وتعسّر فهم رموزها إلى اليوم

إنّ كل ما رويناه حتى الآن من تاريخ الحثّيين أخذناه عن آثار غيرهم؛ أعني الآثار المصرية والآشورية. وتبيّن منها أنه كان للحثّيين دولة كبرى حاربت مصر وآشور حروباً عُوناً. وأكرهت مصر على عقد عهدة صلح مشرف لها. ولم يقوَ الآشوريون عليها إلا بعد قرونٍ من السنين. على أنّ أخبار هذه الأحداث كتبها أعداء يهوون طبعاً تخليد حسن الذكرى لهم ويأنفون من تخليد ذكرى انخذالهم. ورواها كتبة ملّاقون لملوكهم فلا أقلّ من أن سكتوا فيها عن كل ما يشعر بحطّة شأنهم ورفعة شأن أعدائهم. فلا تحسب أخبارهم على صدقها منزّهة عن المبالغة

والتعظيم. ولا يأتينا بصحيح أخبار الحثّيين إلا آثارهم. ولا يحقّ لنا أن نأتي بالحكم الفاصل إلا بعد التروّي ببيّنات الفريقين. وقد اهتُدِيَ في هذه الأيام إلى آثار عديدة للحثّيين كان بعضها يظنّ مصرياً فتحقَّق الآن أنه حثّي. فدلّتنا هذه الآثار على انبساط دولتهم وشدة صولتهم وكثرة مستعمراتهم وتوغُّل منازيحهم في أقصى البلاد. وما برحنا نحتاج إلى الكشف عن رموز خطوطهم وفتح الله علينا باب كنوزها فلم يهتدِ العلماء بعد إلى مفتاح لها. ونعلِّل النفس بأمل الفوز بذلك عن أمدٍ قريب فنغنم منها ما غنمناه من الكنوز الهيروغليفية والمسمارية.

قال العالم سائس عن نفسه (في كتابه في الحثّيين) إنه عثر على مثال قطعة مستديرة من فضة وُجدت في ازمير، نُقشت عليها صورة بطل وبيمناه رمح، وشماله على صدره، ولباسه قميص تعلوه منطقة مطرَّزة، وعلى رأسه قبعة منطبقة على أعلاه، وفي رجليه حذاء يشمل الساق (جزمة) معكف الطرف وفي نطاقه خنجر، وعلى دائرة القطعة أحرف مسمارية سهلت عليه قراءتها، وحول الصورة خطوط حثّية يسّر له أن يقرأ فيها: «تركوديمة ملك بلاد إرمه». وقد كان ملك في كيليكيا لهذا الاسم وتكثر التسمية به في سكان آسيا الصغرى.وأما بلاده فيترجَّح أنها أريما في بلغارداغ في آسيا الصغرى. فإذا وجدت آثار أخرى حثّية وقد كُتب عليها بلغة أخرى مع لغتهم تيسَّرت قراءة لغتهم وتُوصِّل بها لإدراك معانيها كما حصل في حلّ رموز الخطوط الهيروكليفية والمسمارية.

إنّ الخطوط الحثّية تختلف عن الخطوط الهيروكليفية المصرية. وقد رأى سانس (في كتابه المذكور) والأب فيكورو (في كتابه المسائل المنثورة صفحة ٤١٦) أنّ الحثّيين أوجدوها ولم يأخذوها عن غيرهم. وتختلف عن الخطوط المصريّة وإن قُدِّر أنّ مشاهدتهم للخطوط الهيروكليفية نبّهت أفكارهم لاختراع خطوطهم. ويحمل على القول بذلك أنّ في أقدم الكتابات علامات تمثّل بعض المتاع المختصّ بالحثّيين دون غيرهم، كالحذاء المتعكّف الطرف، والإكليل الحائطيّ. وإذا تتبّعنا هذه الخطوط وجدنا هيئتها تتحسَّن بمرور الزمان. فالخطوط المنقوشة على الآثار في آسيا الصغرى أشبه بخطوط كركميش. لكن الخطوط التي تُرى على الآثار في حماه أبسط وأقلّ تلبّكاً؛ فهي أحدث لأنّ استيلاء الحثّيين على حماه كان متأخّراً.

وقدّر سائس أنه لا يبعد أن تكون الأبجدية التي بقي استعمالها في جزيرة

قبرص إلى عهد اسكندر الكبير هي الحروف الحثّية لعدم مطابقتها للحروف اليونانية الفينيقية الأصل. ولاحتمال أن تكون فرعاً عن الحروف المستعملة في أنحاء آسيا الصغرى القريبة من قبرس، والتي سنبيِّن أنّ السواد الأعظم من سكانها القدماء كان من الحثّيين. ويؤيّده أنّ الآنية التي وُجدت في ترويا كُتب عليها بتلك الأحرف القبرسيّة. فيظهر من ذلك أنّ هذه الحروف القبرسيّة كانت تستعمل في آسيا الصغرى قبل أن تخلفها الحروف الفينيقية. وكان من عادة الحثّيين أن يرسموا خطوطهم ناتئة لا محفورة. فتطرق من الوراء على صفائح معدنيّة لتنتأ الحروف في جهتها الأخرى. فكذا كانت عهدتهم مع مصر مكتوبة على صفيحة من فضة. وتقرأ هذه الحروف تارةً من اليمين إلى الشمال وتارةً بالعكس. فإن كانت رؤوس الحيوانات المصوّرة بها متجهة إلى اليمين فتقرأ منها، وإن إلى الشمال فمنها أيضاً، وتقرأ أحياناً من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى.

عد ٧٧

لغة الحثيين وصناعتهم

وأما اللغة المكتوبة فيها هذه الخطوط فيرجّح أنها ليست من اللغات السامية. فالأعلام المذكورة في الآثار المصرية والآشورية قلَّ فيها ما يمكن ردّه إلى أصلٍ ساميّ على أنّ الحثّيين الذين توطّنوا جنوب فلسطين فلا جرم أنهم تركوا لغة أصلهم الحثّي وتكلّموا بلغة مواطنيهم من الساميين؛ هذا رأي سائس وقد رأيت مخالفة هالاڤي له ودعواه أنّ في لغتهم اسماء كثيرة سامية. والأصوب ما رآه فيكورو أي إنه لا يلزم التعجيل بالحكم على لغتهم قبل الوقوف الكافي عليها وحلّ رموزها. أما الصنائع فقد اشتهروا منها بالنحت. وتشهد لهم بذلك آثارهم الباقية لاسيما أطلال بوغاز كوي وأيوق في آسيا الصغرى. وقد أتقنوا هندسة التحصين كما يرى في محاصن بوغاز كوي وخنادقها والحصن المنيع الذي في وسطها. وقد مهروا في استخراج المعادن كما يظهر من مناجم بلغارداغ في آسيا الصغرى. وتُنسب إليهم صناعة تحويل الحديد فولاذاً. وقد وُجدت لهم أختام من حجار كريمة بديعة الصناعة تمتاز عن مصنوعات سائر الأمم برسم ثلاث دوائر تتخلّلها رموز وصور مدهشة.

قال الأب فيكورو (صفحة ٤٣٠ من كتابه المذكور) شرع عامّة العلماء الآن

يقرّون أنّ قسماً كبيراً من الصناعة عند اليونان انتحلوه عن الآشوريين متنقّلاً إليهم من آسيا الصغرى بواسطة الحثّيين. فإنّ الصناعتين المصرية والآشورية اجتمعتا في كركميش مدينة الحثّيين من أقدم الأيّام. فقد رأينا الحثّيين يحاربون المصريين والآشوريين من أقدم الأعصر. ورأينا كيتاسار ملك قادس يزور صهره رعمسيس الثاني في مصر. فالحروب والتجارة أدنت القبائل بعضها من بعض. فأخذ كل فريق منها ما راق له من صناعة الآخر. يظهر أنّ صنّاع الحثّيين ألّفوا من صناعة مصر ونينوى وبابل أسلوباً خاصّاً بهم، واخترعوا أشياء منها النسر ذو الرأسين الذي صار بعد ذلك شعاراً للسلاطين السلجوقيين ولبعض ملوك أوروبا. وتطرّقت صناعة الحثّيين مرحلةً مرحلةً إلى بلاد اليونان فأخذ هؤلاء أشياء كثيرة عن الفينيقيين لكنهم لم يأخذوا عنهم كل شيء. فبين مصنوعاتهم أشياء كثيرة أشبه بصناعة الحثّيين في آسيا الصغرى وليس فيها ما يدلّ على أنها فينيقية. هذا ما رواه الأب فيكورو.

على أنّ الأب قيصر دي كارا برهن في الفصول التي ينشرها في المجلة العلمية المعروفة بالتمدّن الكاثوليكي وخاصةً في عددها الصادر في ١٦ نيسان سنة ١٨٩٢م هذه إنّ صناعة الحثّيين خاصة بهم لم يأخذوها عن غيرهم بل أخذ غيرهم عنهم. وإنّ دعوى أخذهم الصناعة عن المصريين أو البابليين أو الآشوريين لم تثبت حتى الآن، وإن قال بها بعض المشاهير واطال البرهان على ذلك. ومن أقوى حججه أنّ آثار الحثّيين في بوغاز كوي وغيرها من آسيا الصغرى هي أقدم كثيراً من آثار الملوك الآشوريين، بل روي أنّ تجلت فلاصّر الثاني نفسه تفاخر في ما كتبه على بعض آثاره بأنه بنى في كالح مدينته صرحاً أشبه بقصور بلاد الحثّيين وإنّ سرغون تفاخر بأنه شيَّد إيواناً أشبه بقصر حثّي. وقال دي كارا أيضاً إنَّ الآثار الحثّية في آسيا الصغرى هي أقدم أيضاً من حروب المصريين مع الحثّيين. فلم يأخذوا صناعة التحصين وغيرها عن المصريين بل ربما أكسبوهم أموراً مهمة في صناعتهم على عهد الملوك الرّعاة الحثّيين أصلاً على مذهب دي كارا وغيره كما سترى. وعلى كلا القولين فاليونان أخذوا أشياء كثيرة في صناعتهم عن الحثّيين. وقال سائس (في كتابه في الحثّيين فصل ٦) إنّ مصدر فلاح اليونان هو الحثّيون الذين افتتحوا آسيا الصغرى من أقدم الأعصر.

عد ٧٨

ديانة الحثيين

أما ديانة الحثّيين فيظهر أنهم أخذوها عن بابل وبثّوها في سورية وآسيا الصغرى. وتطرّقت من ثم إلى بلاد اليونان. فإنّ معبودات قبائل البلاد المذكورة واحدة وإن اختلفت اسماً. فعشتروت البابلية هي من معبودات الحثّيين والكنعانيين أيضاً. وابن عشتروت البابلية وعروسها هو تموز أو أدونيس عند الفينيقيين ويسمّيه الآراميون في سورية هداد. وهو في آسيا الصغرى أنيس راعي النجوم الساطعة. وهو بلا شكّ الإله الشاب المنقوشة صورته على صخر في يازيلي كايا عند بوغاز كوي وراء تمثال الإلهة الأم مستوياً نظيرها على ظهر فهد أو أسد. وجميع هذه القبائل تبكيه كل سنة لأنه قُتل يافعاً ثم تحتفل بالمسرّة لقيامته من الموت. وفي لبنان صورته قتيلاً في قرية الغينة في الفتوح على صخرة، وصورة الزهرة معشوقته على صخرة أخرى تبكيه واجمةً، وصورته قائماً من الموت على صخرة في محل قبالة الغينة يُسمّى المشنقة من عمل جبيل.

وقد وجد هندرسون قنصل إنكلترا في حلب (الذي كلّفته إدارة المتحف البريطاني أن ينقب في أطلال كركميش) صفيحة من صخر في حائط صرح اكتُشف هناك مصوَّراً عليها صورة الزهرة السورية تسجد لها امرأة أحد الكهنة. والإلهة عريانة مجنّحة بجناحين، وهذا أقدم مثال لصورة هذه الإلهة التي عمَّت عبادتها آسيا وبلاد اليونان. فأنات أو نانا البابلية وإيستار الآشورية وعشتروت الكنعانية وفانوس الزهرة القبرسية ليست إلا اسماء متعددة لإلهة واحدة هي المعبودة والمصوّرة في كركميش (فيكورو صفحة ٤٠٩ من كتابه المذكور). وعثر بعضهم على قطع نقود في ترسيس تمثّل إلهاً يُسمّى في لغتهم سنداس أو سندن، وهو الإله الشمس في كيليكيا على ما برهن ادوار ميار. وقد تبيَّن من نصّ العهدة التي عقدت بين رعمسيس الثاني ملك مصر وكيتاسار ملك الحثّيين أنّ أخصّ معبودات الحثّيين كان ستخ أو شتخ، وعشتروت. ويظهر أنّ الملوك الرُعاة (الذين يرجَّح كونهم حثّيين كما سترى) أوصلوا إلى مصر عبادة ستخ وسمّوه سات. وكان أعظم الآلهة عندهم. وكانوا يقيمون له المعابد في المدن فيقولون ستخ تاب وستخ ممف مثلاً. والمعبود واحد إلى أن تغلَّبت على عبادته عبادة الآلهة الأم التي كانوا يسمّونها عشتروت أو أنتارانا وليست إلا سميراميس إلهة آسيا الشهيرة.

وقد كان الهيكل الذي ترى أطلاله في منبج في أنحاء حلب مفرداً لعبادة هذه الإلهة الأم العظيمة. وقد بُني على مثال هيكلها في كركميش بعد انتقاضه. وقد وصفه لوقيانوس على ما كان عليه في القرن الثاني بعد الميلاد فقال إنه كان أشبه بهيكل سليمان. فكان مؤلَّفاً من دار خارجة وهيكل داخليّ يحوي قدس أقداس. ويفصله عن باقي الهيكل حجاب كبير ثمين. وعلى جانبيه عامودان مخروطيّان (أي يبتديان من سطح ويرتفعان مستدقّين حتى ينتهيا إلى نقطة) رمز إلى إلهة الخصب. وفي الدار الخارجة مذبح كبير من النحاس. وعلى شماله صورة إلهة هي سميراميس ومن ورائها حوض ماء فسيح فيه السمك المقدَّس. وفي داخل الهيكل عرش للشمس وتماثيل آلهة شتّى. ومن جملتها تمثال آلهة أشبه بصورة الإلهة التي في بوغاز كوي الآتي ذكرها منتصبة على أُسد والإله بعلها واقف على أظهر ثيران وهو أيضاً أشبه بما تمثّله صورة الإله في المحل المذكور. وتحت الهيكل الجب المارّ ذكره (في الكلام على الطوفان) الذي يزعمون أنه ابتلع ماء الطوفان. وتقليد الطوفان عند الحثّيين مطابق لما في التوراة أخذه أجدادهم من بابل (ملخَّص عن الفصل السادس من كتاب سائس في الحثيين).

عد ٧٩
ملابس الحثيين وأسلحتهم

عدا الحذاء المتعكّف الطرف الذي أصبح دليلاً على الحثّيين لأنه يشاهد في آثارهم كلّها، كان لهم نوع من القفّاز (الكفوف) يدفئ الراحة ولا يشمل الأصابع ليطلق لها العمل. ولهما نوعان من القبعة إحداهما تنطبق على الرأس كالعراقية، والثانية كبيرة بشكل تاج مستطيل أعلاه مخروطيّ على الغالب ويشاهد أحياناً مدوّراً ومزداناً بعصائب على شبه من القرون. ويُرى على رأس أحد تماثيل الآلهة في بوغاز كوي تاج حائطيّ أي أشبه بحائط أو سور. وتشاهد ملابس النساء طويلة تشمل الرجلين. فصورة امرأة الكاهن الساجدة للزهرة في الصورة التي وُجدت في كركميش (كما مرّ) متّشحة بثوب طويل يستر جسمها إلا الذراعين وبعض الصدر، محتزمة بنطاق من حبل مشدود إلى الوراء. فهذا ولا ريب هو النطاق المقدَّس الذي أشار إليه ارميا (في رسالته التي رواها باروك في فصل ٦ من نبوّته عد ٤٢) بقوله:

«والنساء يقعدْنَ على الطرق متحزّمات بالحبال». وترى مثل هذا المحزم في التماثيل الصغيرة التي وُجدت في هيكل أنات في بابل وفي هيكل أفروديت في قبرص.

وكانت ملابس كهنتهم مستطيلة أيضاً متّسعة الأكمام. وأما ملبس رجالهم فقميص تتّصل إلى الركبة فقط مشدودة على الوسط بنطاق يعلّق به خنجر. وكانت هذه الملابس من الصوف والكتان مصبوغة بألوان. واعتادوا تزيين أثوابهم بنقوش وطراز على أطرافها. وسلاحهم الرمح والقوس يُشدّ على الظهر والفأس ذو الحدَّين وهو من مختصّاتهم وقد صار في ما بعد رمزاً إلى الإله زفس وهو المشتري. ووُجدت لهم آنية وأسلحة من حجر كانوا يستعملونها في بدء نشأتهم. وقد عثر بعضهم على فأسين حجريين في ارفاد (تل ارفاد في أنحاء حلب) وأفسس (يختلف شكلهما عن غيرهما فكأنهما كانا مختصَّين بخدمة الآلهة (سائس في كتابه في الحثّيين فصل ٨ ملخَّصاً). هذا ما أدَّتنا آثارهم لمعرفته ولننظر إلى ما تؤدّينا إليه من معرفة مستعمراتهم وانبساط ولايتهم.

الفصل السادس

آثار الحثيين الدالة على توطّنهم آسيا الصغرى وولايتهم فيها

عد ٨٠
تمثال نمفيو

إنّ آثار الحثّيين التي كُشف عنها في محالّ عديدة من آسيا الصغرى، دلّتنا على أنّ مستعمراتهم لم تنبسط جنوباً وغرباً فقط حتى دمشق ولبنان، بل امتدَّت شمالاً أيضاً في أعمال آسيا الصغرى إلى مدخل البحر الأسود، وقد استفحل أمرهم في هذه البلاد على هيئة معاهدة ضمَّت جميع ولاتهم، وآثارهم المؤذّنة بذلك كثيرة. وأوّل أثر اكتُشف هو تمثال ملك حثّي في قرية اسمها نمفيو على الطريق المؤدّية من

ازمير إلى سرد (المعروفة الآن بسرت وهي سرديس القديمة) في وادٍ يُسمّى الآن قَرَبال. فقد مرَّ في ذلك الطريق جوّالان إنكليزيّان سنة ١٨٣٩ م. فشاهدا صورةً على صخر وظهر لهما أنها سابقة عهد اليونان. وكان حينئذٍ في ازمير العالم تكسيا الإفرنسي فذهب مع بعض الإفرنسيين فأخذ رسم الصورة وأرسله إلى بعض أهل العلم في أوروبا. ولما كان هيرودوت قد ذكر هذه الصورة (في كتابه ٢ صفحة ١٠٦) وقال إنها صورة رعمسيس الثاني ملك مصر. فأجمع رأي مجتمع العلماء (أكادمي) في باريس وبرلين على أنّ الصورة ليست إلا ما ذكره أبو التاريخ هيرودوت لعدم العلم وقتئذٍ بتاريخ الحثّيين إلى أن أخذ بعض علماء الآثار الريب في صحة مقال هيرودوت بناءً على أنّ الثوب المتقمّص به التمثال قصير، والحذاء الذي في رجله معطّف الطرف إلى غير ذلك من العلامات المخالفة لعوائد المصريين. ومع هذا لبث أكثر العلماء يقولون بمقال مجتمعي العلماء في باريس وبرلين مغترّين بالأحرف الهيروكليفية المنقوشة في جانب التمثال. إلى أن وجد العالم روزليني فرقاً بين الخطوط المصرية والخطوط المنقوشة على التمثال. لكنه قال: إنّ الكاتب لا يعرف الكتابة المصرية وأراد أن يقلّدها ففاتته أمور كثيرة. وبقي أمر هذه الصورة بين الشكّ واليقين إلى أن كُشف عن الآثار الحثّية فتحقّق الآن أنّ تلك الصورة لا تمثّل رعمسيس الثاني بل ملكاً حثّياً كان يلي تلك البلاد.

وجاء في المجلة العلميّة المعروفة بالتمدُّن الكاثوليكي في عددها المؤرّخ في غرّة تشرين الثاني سنة ١٨٩٠م أنه عدا هذه الصورة قد كشف العالم هومان هناك سنة ١٨٧٦م عن صورة ملك آخر أصغر من الأولى لكنها تطابقها هيئة. وقد انقطع الصخر المنقوشة عليه من الجبل. ووجد سائس بعد ذلك في جانب هذه الصورة قطعاً كتبت عليها خطوط تطابق خطوط الحثّيين التي وُجدت في سورية. وسمات هذه الصورة الثوب القصير والحذاء المتعطّف الطرف والقوس والسيف والتصوير الناتيء لا المحفور فتعيَّن أنها حثّية.

عد ٨١

آثار الحثيين في بوغاز كوي ويازيلي كايا

إنّ المجلة العلمية التمدّن الكاثوليكي المارّ ذكرها شرعت منذ أوائل سنة ١٨٩٠م

تنشر فصولاً متتالية موضوعها الحثّيون وارتحالاتهم. ومؤلّف تلك الفصول هو الأب قيصر دي كارا اليسوعي صاحب الكتاب في الملوك الرّعاة في مصر. وقد أطال وأجاد بذكر كثير من آثار الحثّيين في أعمال آسيا الصغرى متعمّداً غرضين؛ أحدهما: أن يثبت توطّنهم وولايتهم في هذا الاقليم منذ أقدم الأعصر. والثاني: أن يعارض آثارهم هذه بأمثالها في بلاد اليونان وبعض إيطاليا وجزر بحر الروم لينتج من ذلك أنّ سكان هذه البلاد الأوّلين حثّيون أصلاً ارتحلوا إليها من آسيا الصغرى. ففي هذه الفصول نلخّص ما نرويه في هذه الآثار.

فهذه المجلة ذكرت في عددها المؤرّخ في ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٩١م أطلال بوغاز كوي من عملِ الكبادوك حيث الآن ولاية سيواس وقرمان. فقالت إنّ هذه القرية الحقيرة الآن دلّتنا آثارها أنها كانت مدينة كبيرة لا ينقص مدار أسوارها عن خمسة أو ستة كيلومترات. وقد بقيت منها أطلال حثّية مدهشة أخذ رسومها العالِم پِرّو وأطال الكلام فيها في كتاب نشره سنة ١٨٦٢م موسوماً «بالكشف عن الآثار القديمة في غلاطية وبيتينيا»[١]. ثم في كتاب آخر نشره سنة ١٨٨٧ أسماه «تاريخ الصناعة في القدم»[٢].

ومن هذه الأطلال ما حسبه بعضهم هيكلاً والأظهر أنه قصر ملكيّ طوله ٥٧ متراً وعرضه ٤٢ متراً وبعض أحجاره لا ينقص عن خمسة أو ستة أمتار طولاً ومترين عرضاً. وهناك أطلال ردهة لا ينقص طولها عن خمسة وعشرين متراً وعرضها عن واحد وعشرين متراً، وعرش قائم على أسدين من صخر. وللردهة أربعة أبواب أمام كل منها رواق فسيح وفي جانبيها مخادع للخفر وفي داخل القصر غرف لسكنى الملك وآله وحمامات. وكل ذلك على غاية من الإتقان والزخرف. وأسوار المدينة غاية في المناعة والمتانة. وقد بُني هناك على صخرين حصنان يسمّيهما السكان الآن ساري قلعة (أي القلعة الصفراء) وينجي قلعة (أي القلعة الجديدة). وفي كلا المحصنين آبارٌ للماء منقورة في الصخر وثخانة السور المتوسطة أربعة أمتار ونصف، وأحجاره الخارجة ضخمة والداخلة أصغر منها والحشو

(١) Perrot Exploration Archéologique de la Galatie et de Bithynie

(٢) Histoire de l'Art dans l'Antiquité

بينهما حصى صغيرة. وعلى مدار الأسوار من الخارج خليج فسيح يمنع الدنوّ منها وتحتها سراديب وسيعة ذات مخارج خفيّة. حتى إذا رأى الأعداء الأبواب موصدة وهاجموا المدينة خرج المحاصرون من ورائهم وجعلوهم في الوسط.

ثم ذكرت المجلة المذكورة في عدديها المؤرَّخين في ٢١ شباط وفي ١٨ نيسان سنة ١٨٩١م أطلالاً أخرى في القرب من بوغاز كوي على بعد كيلومتر منها نحو الشرق في محل يسمّونه هناك يازيلي كايا (أي الصخرة المكتوب عليها). فترى هناك عرصة تحيطها صخور من جهة وبناءٌ من أخرى. طولها نحو خمسة وعشرين متراً وعرضها نحو أحد عشر متراً. وعلى جدرانها سبعٌ وستون صورة ناتئة عجيبة الصناعة. وفيها كل السمات الدالَّة على كونها من صنع الحثّيين. ولا مراء بذلك لأنّ على بعضها خطوطاً حثّية. على أنّ غِيَر الأيام غيَّرت تلك الصور حتى تعسَّر الآن التمييز بين ما كان منها رجلاً وما كان منها امرأة. فرأى بِرُو أنّ أكثرها صور رجال، ورمساي أنّ أكثرها صور إناث. واتفقا في أنّ المشهد يمثّل حفلة دينية. وأثبت رمساي أنه كان للنساء في آسيا الصغرى المقام الأوّل في أمر الدين كأنه بسبب عبادة الإلهة الام كما مرّ. وقدَّر مكاتب المجلة أنّ نقش هذه الصور لم يكن قبل القرن الخامس عشر ولا بعد الرابع عشر قبل الميلاد. وفصَّل هيئات أكثر تلك الصور ومن جملتها صورة الإله الام وهو عستروت، ومن ورائها صورة ابنها أو عروسها وهو أنيس أو تموز يستوي كل منهما على ظهر فهد أو أسد.

وأجمل هذه الزخارف صورةٌ على رأسها التاج المخروطيّ المطرَّز، وفي رجلها الحذاء المتعكّف الطرف ويدها اليمنى ممتدّة إلى صورة طفل أو رجل، ويسراها تحتضن صورة رجل آخر مارّة على عنقه وقابضة على معصم يده. ومن رأي كاتب المجلة أنّ هذه التماثيل يُشار بها إلى تملّك الحثّيين بلاد الكبادوك آتين من سورية الشمالية بعون إلهتهم المنقوشة صورها في هذا المحلّ. وعليه فالصورة المذكورة آنفاً تشير إلى ستخ يحتضن ملك الحثّيين وخاصةً لأنه كتب في صورة المعاهدة مع ملك مصر ما نصّه: «وما في وسط الصفيحة الفضيّة هو صورة ستخ محتضناً ملك الحثّيين». فأيّ العجب أن تكون صورة الكبادوك كذلك؟

عد ٨٢

آثار أخرى للحثيين في آسيا الصغرى

روت المجلة العلميّة التمدّن الكاثوليكي في عددها المؤرَّخ في ٢٠ حزيران سنة ١٨٩١م أنه يوجد في قرية حقيرة تُسمّى أيوك أو أيوق تبعد مسافة خمس ساعات عن بوغاز كوي نحو الشمال الشرقي أطلال بناء قديم وُجد فيها صور عديدة ناتئة تمثّل آلهة وإلهات وكهنة ونساءهم ورجالاً ونساءً ومسوخاً وأسوداً وثيراناً معدَّة للتضحية بها ونسراً ذا رأسين وغيرها. ولا مرية أنها حثّية لمطابقتها باقي آثارهم من حيث الهيئة والملابس والصناعة والصور الرمزية. ويظهر أنها أقدم قليلاً من آثار بوغاز كوي ويازيلي كايا. ومن رأي بِرُو أنّ تلك رسوم قصر ملك أو أمير ومسنده أنّ النقوش في هذه الأطلال أشبه بالنقوش التي على أبواب قصور الملوك الآشوريين. لكن بناء أيوك كان نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وقصور الآشوريين شيِّدت في القرن الثامن قبله. فالأولى أن تكون هذه القصور على مثال أبنية الحثّيين كما قدَّمنا. والأوجه أنّ أطلال أيوك كانت معبداً للحثّيين بدليل وجود صور الآلهة والآلهات والمذبح وأشخاص في حالة السجود والتعبّد وثيران وغيرها مما تستلزمه الضحايا.

وقد وجد بِرُو أطلال حصن في الجنوب الغربي من أنكورا على مسافة تسع ساعات. ويُسمّى هذا الحصن بلغة أهل البلاد كاور قلعة سي (أي قلعة الكافر). ويظهر أنّ هذا الحصن كان فسيحاً منيعاً وقد نُقش على صخر في قرب مدخله صورتان ارتفاع كل منهما ثلاثة أمتار، وهيئة ملبسهما واحدة وعلى رأسيهما التاج المخروطيّ. وإحداهما ذات لحية والثانية لا لحية لها وملبسها الثوب القصير المتصل إلى الركبة، وهو مشدود على الوسط. وفي النطاق سيف قصير والرجل مشدودٌ عليها بالحذاء المعطّف. فتعيَّن بهذه العلامات أنهما من صنع الحثّيين ولعلّهما صورتا ملك وابنه افتتحا هذا العمل.

وقد ذكرت المجلة المذكورة في عددها المؤرَّخ في ١٨ تموز ١٨٩١م آثاراً وُجدت في مرعش منها تمثال أسد هو الآن في متحف الآستانة العليّة نقله إليها حمدي بك الشهير وهو من صخر أسود صلد طوله نحو متر، وعلى صدره وبطنه وذراعيه خطوط حثّية. (وترى صورته عد ٧). ووُجد أيضاً في مرعش تماثيل وآثار

أخرى عديدة ضربنا عن ذكرها خشية الملل؛ هذا فضلاً عما وجد في آسيا الصغرى وسورية الشمالية من الأختام المحفور عليها خطوط حثّية حتى أُلِّف منها مجموعات



صورة تمثال أسد موجود في متحف الآستانة
وهو من صخر أسود صلد

عديدة من جملتها المجموع الكائن الآن في متحف اللوفر في باريس. فكلّ ما مرَّ وما ضربنا عن ذكره حبّاً بالإيجاز لا يدع محلاً للريب في أنّ الحثّيين ارتحلوا منذ أقدم الأيام من شمالي سورية وانتشروا في أعمال آسيا الصغرى وتولّوا أمرها.

الفصل السابع

جاليات الحثيين إلى بلاد اليونان وايطاليا وقبرص

عد ٨٣

مذهب الأب قيصر دي كارا في أصل السكان القدماء في هذه البلاد

روى الأب دي كارا في فصله المثبت في عدد المجلة التمدّن الكاثوليكي المؤرَّخ في ١٧ ك[٢] سنة ١٨٩١م أنّ العالِم بِرُو الآنف الذكر بعد إبداء اندهاشه من صناعة الحثّيين وحذقهم في تحصين مدنهم ومناعة أسوارهم تمنّى أن يتجد من يتجشم معارضة صناعة الحثّيين بصناعة اليونان، ويبيّن ما بينهما من المشابهة أو الفرق. فلعلّ هذه المعارضة تكشف عن مشابهات كثيرة ومهمة بين الحصون الكبادوكية. وأقدم الأسوار والحصون في بلاد اليونان خاصة في مدينة تيرينت (Tiryntes في القرب من خليج أرغوس. وينسب بناؤها إلى تيرنس بن أرغوس) وأطلال مدينة ميشان (Mycenes وهي أيضاً في عمل أرغوس). وينجلي التقليد الذي يجعل مشيديّ هذه المدن أبطالاً أتوها من آسيا. ولعلّ التنقيب والتروّي بهذه الآثار يأتينا بإثبات لشهادة الأقاصيص القديمة التي قلّما حفل بها المؤرّخون ولا أعاروها جانب التصديق.

فالأب دي كارا يصرّح في الفصل المذكور أنّ جلّ عنايته مصروف في ما تمنّاه بِرُو من المعارضة بين الآثار الحثّية واليونانية، وأنّ المشابهة بين آثار الفريقين تامة وليست مقصورة على آثار المدن التي ذكرها في بلاد اليونان بل تمتد إلى آثار في إيطالية خاصة في جنوبيها وفي جزر البحر المتوسط. وإنّ الأقاصيص القديمة يتبيّن منها أنّ الأبطال الذين أتوا من آسيا لم يشيّدوا المدن التي ذكرها بِرُو في عمل

أرغوس فقط بل بنوا كثيراً غيرها أيضاً في أركاديا والمورة والأبير وتساليا وايليريا وفي جزر البحر المتوسط وإيطاليا. وإنه إذا كان المؤرّخون لم يحفلوا بتلك الأقاصيص فلم يكن ذلك إلا لجهل العلماء قبل الخمسين سنة الأخيرة بحالة الممالك القديمة وآثار الشعوب الشرقية خاصةً في بلاد الكلدان وآشور وسورية الشمالية ومصر. فإنّ الخطوط الهيروكليفية والمسمارية التي فتحت لنا كنوز المعارف كانت علامات بكماء لا تنطق بشيء. ولا يُستدلّ بها على شيء فأصبحت الآن لسناء فصيحة تنبئنا بحقائق مهمة. وأقاصيص الآلهة وإن داخلها خرافات ومبالغات فغالبها مسندٌ إلى أصل تاريخيّ شوّهته الخرافات. ولم يكن يُهتدى إلى أصلها للجهل بحقيقة تواريخ الشعوب. فما جاء فيها عن الأبطال الذين أتوا من آسيا فشيّدوا المدن في بلاد اليونان وجنوب إيطاليا وجزائر بحر الروم إنما هو عبارة عن أنّ جاليات من هؤلاء الحثّيين اجتازت من آسيا الصغرى فبنَت ثم المدن المذكورة. واستقرى الأب دي كارا غرضه هذا مقيماً الحجج عليه لا من المشابهة فقط في البنايات والتحصينات بل من أنّ المعبودات ونوع العبادة والأسلحة وصناعة الآنية وغيرها؛ كل هذه واحدة عند الحثّيين والسكان القدماء في البلاد المذكورة وسيريك كلامنا الآتي بيان ذلك مفصّلاً.

عد ٨٤

أقوال العلماء في سكان بلاد اليونان وجزائر بحر الروم القدماء

ذهب عامّة العلماء القدماء وكثيرٌ من علماء هذا العصر أيضاً إلى أنّ سكان بلاد اليونان، وجزائر بحر الروم إنما هم من نسل ياوان الرابع من ابناء يافت بن نوح وخاصةً مع ذريّة كتيم أحد أبنائه. فقد جاء في سفر التكوين (فصل ١٠): «بنو يافت جومر وماجوج وماداي وياوان... وبنو ياوان آليشه وترشيش وكتيم ودودانيم من هؤلاء تفرّق أهل جزائر الأمم في بلدانهم كلٌّ بحسب لغته وعشائره بأممهم». وقال فرنسيس لانرمان (في كتابه أصل التواريخ تبعاً (للتوراة مجلد ٢ قسم ١ من طبعة باريس سنة ١٨٨٢): «وكلٌّ يرى بناءً على البيّنات التي عنينا بجمعها أنّ لاسم كتيم في أسفار العهد القديم معنىً واحداً متفقاً عليه أعني جزيرة قبرص. وبهذا المعنى يلزم فهم هذه الكلمة في الفصل العاشر من سفر التكوين. وقد أنبأنا

التقليد القديم أنّ كتيم بن ياوان يُعبّر به عن سكان جزيرة قبرص. وهذا التقليد حفظه لنا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ فصل ٦) والقديس ايرونيموس (في المباحث العبرانية في التكوين فصل ١٠) والقديس ايفانيوس (في كتابه ضد البدع) وتاودوريطوس (في تفسير نبوّة ارميا) وزوناراس (في ك ٥ من تاريخه): «وزاد لانرمان على ذلك أنّ الأنساب التي ذكرها موسى في الكتاب أيّدتها الآن اكتشافات العلم الحديثة لاسيما الخطوط القديمة التي وُجدت في قبرص وأمكن حلّ رموزها في هذه السنين الأخيرة. فالأحرف الهجائية التي كُتبت هذه الخطوط بها استعملها القبرصيون من أقدم الأيام وقبل أن تبلغ أحرف الهجاء الفينيقية إلى اليونان. ولا يعلم أصلها ولعلها اخذت عن الحثّيين الشماليين. وقد كتب بها فرع من اللغة اليونانية القديمة يقرب من لغة أركاديا التي كانت اللغة الطائفية في الجزيرة. وكلما مرّ يثبت أنّ شعب قبرص كان يونانياً ولغتهم يونانية منذ الأعصر العريقة في القدم، وأنّ كتيم هو ابن ياوان لا غيره.

ثم إنّ العالِم هالاڤي ذهب في المباحث الكتابية التي نشرها في المجلة المعروفة بالمجلة اليهودية إلى أنّ المراد باسم كتيم ابن ياوان وقبرص واحد. فإنه قال: «وأما نظراً إلى ياوان فيمكننا أن نُسلّم بأنّ كتيم ودودانيم يُراد بهما قبرص ورودس. ونعتقد ذلك أمراً مؤكّداً». وقال بعد ذلك: «إن اسم كتيم في التكوين يُراد به جزيرة قبرص لا غير». وفي محل آخر: «إنّ جزيرة قبرص كتيم الكتاب وهو ابن ياوان». وقال في مقالة نُشرت بين مقالات مجتمع (أكادمي) الخطوط القديمة سنة ١٨٨١م متكلّماً في اسم الحثّيين ما ملخّصه أنّ هذا الاسم يُراد به سورية بأسرها يعني كل البلاد الواقعة في عبر الفرات الغربي ممتدة من جبل أمانوس (اللكام) إلى تخوم مصر أي سورية وفينيقية وفلسطين. واسم الحثّيين في آثار تجلت فلاصّر الأوّل (في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد) يشمل سورية التي بين الفرات والعاصي. وأما فينيقية فتُسمّى هناك عاروای المغرب، والمصريون كانوا في الدولة الثامنة عشرة يعنون بالحثّيين شعوب سورية الشمالية. واسم حثّيين في الكتاب المقدّس يُراد به سكان سورية الشمالية ويُطلق أيضاً على بعض سكانها الجنوبيين. إذاً لا ريب في القربى بين الحثّيين سكان فلسطين والحثّيين الشماليين. فالفصيلتان من ولد حث بن كنعان.

ولاحظ هذا العالِم في كلامه على الآثار الآشورية التي جاء فيها ذكر جزيرة قبرص، إنّ هذه الجزيرة دُعيت فيها باسمين (بلاد يمنا وبلاد أمنا وبلاد يتنانا). أما الاسم الأول فإنّ لفظ يونا أو أونا ظهر قربه من ياوان الذي يُسمّي به العبرانيون أحد ابناء يافت. ويسمّيه اليونان ياون أو يون ويطلقون هذا الاسم على البحر المتوسط. وكتيم في الترجمة العبرانية يُراد به ابن ياوان وتُسمّى به جزيرة قبرص؛ وهذا لا يشذّ عن التاريخ بشيء إذ لا مرية بأنّ السواد الأعظم من قدماء القبرسيين يوناني أصلاً. وأما يتنانا الاسم الثاني فلم يرد إلا في آثار الآشوريين وخاصة في أثر لسرغون اكتُشف في أخربة شيشيوم أو كيتيون في قبرص؛ فهذا مقال هذين العالمين الحديثين وهو مطابق لقول جمهور العلماء القدماء.

عد ٨٥

رأي الأب دي كارا في أصل سكان قبرص الأولين

أفاض الأب دي كارا في فصله المثبت في مجلة التمدّن الكاثوليكي (في عددها المؤرّخ في ١٧ أيار سنة ١٨٩٠م) في الكلام في هذا الشأن. فروى قولَي العالمين المذكورين كما رويناهما وبالغ في ردِّهما وفي إثبات قوله الآتي بيانه. فأنكر أنّ الكتاب يعني قبرص باسم كتيم بن ياوان لأنّ كلمات الآية الرابعة من الفصل العاشر في سفر التكوين هي: «وبنو ياوان أليشة وترشيش وكتيم ودودانيم». ولا شيء فيها يعني أو يعيّن قبرص. وموسى عقب كلامه في كل من أنساب بني نوح الثلاثة بآية مترادفة. فقال في بني يافت (عد ٥): «من هؤلاء تفرّق أهل جزائر الأمم في بلدانهم كل بحسب لغته وعشائره بأممهم». وقال في بني حام (عد ٢٠): «هؤلاء بنو حام بعشائرهم ولغاتهم في بلدانهم بأممهم». وفي بني سام (ع ٣١): «هؤلاء بنو سام بعشائرهم ولغاتهم في بلدانهم بأممهم». فهذا الكلام لا برهان فيه على مواطن ابناء نوح بل لا بدّ من تيميم مصادر أخرى للاستدلال على أوطانهم وعشائرهم ولغاتهم. فالكتاب ذكر كتيم كما ذكر أليشه وترشيش ودودانيم وسائر بني سام وحام. فكما لا تدلّ أسماؤهم على بلاد كل منهم كذلك لا يدلّ اسم كتيم على بلاده. وما من جاهل بتضارب أقوال العلماء ومفسّري الكتاب في تعيين البلاد، والشعوب المقصودة بالاسماء التي ذكرها موسى في أنسابه. فجزيرة قبرص

إذاً ليست معنيّة بنفسها باسم كتيم بن ياوان الذي ذكره الكتاب، بل لا مناص من اقامة غير هذا الذكر دليلاً على أنّ كتيم يُراد به سكان قبرص الأوّلون.

وقد ردَّ دي كارا برهان لانرمان بالتقليد القديم فقال ما هذا التقليد إلا مقصور على شهادة يوسيفوس، لأنّ سائر مَنْ ذكرهم أخذوه عنه واعتمدوا فيه قوله، بل إنّ القديس إيرونيموس لم ينسب القول بأنّ المراد بكتيم وقبرص واحد إلى التقليد، بل عزاه إلى تفسير بعض المفسّرين. وعليه فيوسيفوس هو الشاهد الفرد لهذا التقليد القديم وهو من ذلك يجهل حقيقته، إذ خلط بين الحثّيين وكتيم؛ وهذه عبارة يوسيفوس (نزيدها نحن على ما في المجلة مأخوذة عن ك ١ فصل ٦ في تاريخ اليهود): «كتيم (بن ياوان) الذي أقام في الجزيرة المسمّاة الآن قبرص وسمّاها باسمه. ولذا يسمّي العبرانيون كل الجزر والسواحل البحرية كتيم. وحتى الآن تُسمّى إحدى مدن قبرص كيتيوم سمّاها كذلك مَنْ يضعون لكل شيء اسماً يونانيّاً. وهذا يختلف قليلاً عن اسم كتيم». وقال دي كارا إنّ اسم كتيما أو حتيما التي سمّيت الجزيرة به منذ القدم هو من حثيم لا من كتيم بمقتضى رواية يوسيفوس. وأما على برهان لانرمان المأخوذ عن حروف الهجاء التي وُجدت في قبرص وعن أنّ المكتوب فيها فرع من اللغة اليونانية يقرب من لغة أركاديا.

وإنّ تلك الحروف لم تكن يونانية بل ربما كانت خطوط الحثّيين. فيجيب دي كارا إن صحّ قول لانرمان إنّ لغة القبرصيين كانت أركادية أو فرعاً يقرب منها، وإنّ الحروف التي كانوا يكتبون بها لم تكن يونانية، بل ربما كانت حروف الحثّيين، فيلزم من ذلك أنّ القبرصيين الأوّلين لم تكن لهم حروف كتابة خاصة بهم بل تعيَّن عليهم أن يستعملوا خطوط أمة أخرى ربما كانت الحثّية. وعليه فلا يخلو الأمر بأحد وجهين؛ إما أنّ تلك الخطوط كانت في الجزيرة عندما أخذ القبرصيون يستعملونها، وإما أنهم أتوا بها من الخارج عندما غشوا الجزيرة. فإن كانت في الجزيرة فيلزم منه أنّ الحثّيين أتوا قبرص قبل القبرسيين الذين ذكرهم لانرمان لأنّ الخطوط حروف الحثّيين. وإن كانوا أتوا بها من الخارج فيلزم أن يكونوا أخذوها من أركاديا لأنّ المكتوب بها أركادي بحسب زعم لانرمان. والحال أنّ لانرمان نفسه أيضاً لا يسلّم بحروف هجاء في بلاد اليونان قبل حروف الفينيقيين. وسوف نقيم الأدلّة على أنّ الأركاديويين أيضاً كانوا حثّيين، وكان بين سكان قبرص فريق يتكلّم باللغة

الأركاديوية. فإذاً الخطوط التي كان القبرصيون يستعملونها كانت حثّية أصلاً في كل افتراض. وسكان قبرص الأوّلون كانوا حثّيين لا من ولد كتيم بن ياوان أي يونان.

ثم ينثني دي كارا باقامة البرهان على غرضه قائلاً كان للجزيرة في أقدم الأيام اسمان: كثيما أو حثيما وحماتوسيا؛ والاسمان مشعران بنسبتها إلى الحثّيين. أما الأوّل فأمره بيّن وأما الثاني فيؤذن أنّ هذا الاسم أخذ عن حماه أخصّ مدن بني حث. إلى أن يقول إن صحَّ زعم مَنْ يقولون إنّ القبرصيين يونانيون أصلاً، فلا يلزم منه أنّ اليونان تقدَّموا الحثّيين بتوطّنهم جزيرة قبرص بل غشوها بعدهم. ولذا سلّم بمقال هالافي في تسمية قبرص يمنا أو امنا مكسر يونا أو يون. ولكن أنكر عليه أنّ هذا من أوّل اسماء الجزيرة. وحسب هذا الاسم متأخر الوضع. وأنكر أيضاً أنّ السواد الأعظم من القبرصيين يونانيّ أصلاً بدليل أنّ هيرودوت ذكر (في ك ٧ راس ٨٩) الشعوب الذين توطّنوا قبرص فقال: إنهم «أثينيون وأركاديون وشيتنيون وفينيقيون وأحباش». وليس من هؤلاء يونان إلا مهاجريّ أتينا، ولا يمكن أن يكون هؤلاء السواد الأعظم.

عد ٨٦

رأي الأب دي كارا أن سكان جزائر بحر الروم رودس وكريت وساموس وغيرها وبلاد اليونان وبعض إيطاليا إلى توسكانا هم حثّيون أصلاً

نبّه دي كارا في آخر الفصل الآنف الذكر إلى التمييز بين حثيم وهم الحثّيون وبين كثيم وهم عشيرة يافتية من ذريّة كثيم بن ياوان بن يافت بن نوح، مثبتاً أنه على هذا التمييز يتعلّق حلّ المسألة، أيُّ الفريقين سبق الآخر في الارتحال من آسيا الصغرى إلى بلاد اليونان وجزرها وإلى إيطاليا أيضاً. وإنّ مصدر الإشكال في معرفة أصل اليونان والإيطاليين إنما هو عدم التفرقة بين اسماء القبائل القديمة، ثم الإغضاء على مراعاة الوقت الذي كانت الارتحالات فيه، وإن من هذا الباب لزوم التمييز بين البلاسج الأوّلين – أقدم سكان بلاد اليونان وبعض إيطاليا – وبين البلاسج المتأخّرين وهم أقوام من قبائل يافتية أتت بعد ذلك من آسيا أيضاً فحلّت في بلاد اليونان

وإيطاليا وانتصرت على البلاسج الأوَّلين وقاسمتهم السكنى في أوطانهم. ويأخذ في تأييد قوله أنّ السكان الأوَّلين في بلاد اليونان وجزر بحر الروم وإيطاليا الجنوبية الذين يسمّون البلاسج الأوَّلين؛ إنما هم حثّيون ارتحلوا من آسيا الصغرى ومن شمالي سورية فحلّوا في قبرص ورودس وكريت وساموس وغيرها من الجزائر. وفي بلاد اليونان وجنوبي إيطاليا إلى وسطها وفي قسم من توسكانا؛ فهم من ولد حث بن كنعان بن حام لا من ولد ياوان بن يافث مستدلاً على ذلك بأنّ آثار الصناعة وأسلوب تشييد المدائن والحصون القديمة التي ترى في بلاد اليونان وإيطاليا هي أشبه بآثار الحثّيين التي ترى في سورية وآسيا الصغرى كما مرَّ ذكرها. ومما يحتجّ به لرأيه أنّ التقليدات الدينية عند البلاسج الأوَّلين كانت مخالفة لتقليدات اليافتيين وأنّ لغتهم كانت حامية لا يافتية.

وقد استأنف دي كارا اقامة البراهين لتأييد قوله في فصل آخر أثبتته مجلة التمدّن الكاثوليكي في عددها المؤرَّخ في ١٩ تموز سنة ١٨٩٠. وخلاصة ما قال فيه إنّ من التقليد العام المعقود عليه إجماع المؤرّخين أنّ السكان الأوّلين في قبرص ورودس وكريت وساموس وسائر جزائر بحر الروم وفي بلاد اليونان وبعض إيطاليا هم البلاسج الأوّلون. والحال إنّ البلاسج الأوّلين هم حثّيون فإذاً السكان الأوّلون في هذه البلاد والجزائر هم حثّيون. فكبرى هذا القياس ليس مَنْ يشدّد عليها نكيراً لثبوتها بالتقليد المجمع عليه ولا مخالف، وبآثار عديدة في هذه البلاد يرى عليها اسم البلاسج ورموز معتقدهم. وأما صغراه فيثبتها أنّ البلاد التي سكنها الحثّيون والبلاسج أولاً هي واحدة؛ أي سورية الشمالية وآسيا الصغرى. والصناعة عند الفريقين واحدة كما شهدت آثارهم، والعوائد والمعتقدات المذهبية واحدة، إلى غير ذلك من الأدلّة التي تراها مبسوطة في خطبة الأب دي كارا الآتي ذكرها.

وأما في تعيين وقت ارتحال البلاسج الأوّلين من آسيا إلى الجزائر وبلاد اليونان فقدَّر دي كارا أنّ الارتحالات ابتدئ بها في قرب الزمان الذي شخص ابراهيم فيه من بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين. وربما كان في الوقت الذي كانت فيه غارة الملوك الرعاة على مصر أي في القرن العشرين أو الحادي والعشرين قبل الميلاد. ومن مستنداته آثار قديمة تُعزى إلى سرغون الأوّل ذكر فيها تواريخ حروبه في سبعين صحيفة. وقد استنسخها آشور بانيبال لمكتبة نينوى. ففي إحداها يقول سرغون إنه

غزا بلاد مغرب الشمس وبحر المغرب ثلاث غزوات بلغ في الثالثة إلى بحر المغرب ونصب ثمة تمثاله. فيحسب دي كارا بلاد مغرب الشمس بلاد الحثّيين. وإنّ سرغون انتصر عليهم فاجتازوا حينئذٍ إلى جزائر بحر الروم وبلاد اليونان. والصحيح عنده أنّ سرغون الأوّل كان في القرن الثاني والعشرين أو الحادي والعشرين قبل الميلاد.

عد ٨٧

رأي الأب دي كارا في قدموس وزمان ارتحاله إلى بلاد اليونان

خطّأ دي كارا لانرمان في قوله (في كتابه في التقليدات الأوّلية) إنّ قدموس أول المرتحلين من فينيقية إلى بلاد اليونان. كان ارتحاله في أواخر القرن الرابع عشر أو في النصف الأوّل من القرن الثالث عشر قبل الميلاد قائلاً إنّ لانرمان لم يفرّق بين ارتحالين سبق الأوّل منهما الثاني في مدة ثمانية قرون أو تسعة. وإنّ قدموس لم يشخص إلى بلاد اليونان بمهاجرين فينيقيين بل حثّيين، ولم تكن مهاجرتهم في القرن الرابع عشر بل في نحو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد. وإنّ العالِم بِرُو (في كتابه في تاريخ الصناعة في القدم المارّ ذكره) تابع لانرمان في رأيه فتسكّع في غلطه، وإنّ مصدر هذا الغلط إغفال بعض العلماء أن يراعوا أنّ اسم فينيقية متأخّر عهداً، وإنّ بعض الرجال والأحداث التي تنسب إلى فينيقية في أقدم الأيام لم تكن في فينيقية بل في البلاد المتاخمة لها أي في سورية، وإنّ اسم سورية يشمل فينيقية أيضاً، وإنّ إدخال الحروف الهجائية في بلاد اليونان الذي ينسبه الجمهور إلى قدموس حتى تُسمّى تلك الحروف فينيقية وقدموسية وآرامية أيضاً لا يخالف رأيه، لأنّ قدموس يمكن أن يكون فينيقيّاً وسوريّاً، وإنّ سورية كانت في أيام تلك الارتحالات الأولى موطن الحثّيين وسائر القبائل المتحدة معهم. ويستحصل من ذلك أنّ قدموس الذي يُدعى فينيقيّاً هو حثّي، وأنّ المستعمرة التي جعلها في بواتسيا في بلاد اليونان وفي جزيرة كريت وغيرها إن هي إلا مستعمرة حثّية، حتى قال إنّ اسم قدموس نفسه ليس إلا مكسر حتموس أي الحثّي بإبدال الحاء بالقاف. كما جاءت أمثال لذلك في ترجمة اليونان الأعلام إلى لغتهم وبإبدال الدال بالتاء للمقاربة بينهما.

فإن حُقَّ لنا أن نقول شيئاً بين هؤلاء العلماء الأعلام قلنا إننا لا نرى براهين الأب دي كارا كافية للعدول عن رأي جمهور العلماء القدماء وبعض علماء هذا العصر أيضاً. وتقليدهم أنّ قدموس كان فينيقيّاً وارتحل إلى بلاد اليونان في زمان غزوة يشوع بن نون لفلسطين. وإنّ الحروف التي أدخلها في بلاد اليونان هي الحروف الفينيقية لا الحثّية. وقد روى دي كارا نفسه أنها تُسمّى فينيقية وقدموسيّة وآراميّة. والمعلوم أنّ صور الحروف اليونانية القديمة وأسماءها أشبه وأقرب إلى صور الحروف الفينيقية وأسماءها من الخطوط الحثّية. ولو كانت الخطوط الحثّية أصلاً للحروف اليونانية ليسّرت قراءتها ولم يعتصِ حتى الآن حلّ رموزها. ولا يخفى التعسّف في قوله إنّ قدموس مكسر حتموس.

ومهما يكن من هذا الأمر فتلك أحداس يعرضها الأب دي كارا على أهل العلم في هذا العصر مصرّحاً أنه لا يقطع بصحتها. على أنّ ما أورده من الحجج ليثبت به أنّ البلاسج الأوّلين والحثّيين قبيلة واحدة أصلاً لا يبعد أن يكون صحيحاً وأشبه بالصواب. وقد أشار الأب فيكورو إلى شيء من ذلك حيث قال (في كتابه المسائل المنثورة صفحة ٤٣١): «إنّ حاصلات الحثّيين وتصوّراتهم تطرّقت مرحلة مرحلة إلى بلاد اليونان. فقد أخذ اليونان أشياء كثيرة عن الفينيقيين لكنهم لم يأخذوا عنهم كل شيء . فالمصنوعات اليونانية الأوّلية لاسيما ما اكتُشف منها في ميشان (في بلاد اليونان) لا يرى فيها أثر لأصل فينيقي بل هي أشبه خاصة بالمصنوعات الحثّية في آسيا الصغرى. وهذا مغزى الحكاية اليونانية الناطقة بأن بيلوب استمدّ غناه من نهر بكتول الذي يروي سرد وليديا» (في آسيا الصغرى حيث ولاية أزمير الآن). وقد جمع الأب دي كارا في خطبته الآتي ذكرها خلاصة كل ما تضمّنته فصوله العديدة من البرهان على أنّ البلاسج الأوّلين والحثّيين قبيلة واحدة.

عد ٨٨
خطبة الأب دي كارا في الحثيين والبلاسج الأولين

بعد أن ذكر الأب دي كارا في فصول عديدة هيئات الأبنية والأسلحة والآنية الخزفية التي اكتُشفت في بلاد اليونان وبعض أعمال إيطاليا، وبيّن قربها ومشابهتها للمصنوعات الحثّية التي تُشاهد في سورية وآسيا الصغرى، تلا خطبةً في المجتمع

التاسع العام المنعقد في لوندره في شهر أيلول سنة ١٨٩١م بحضرة جمّ غفير من العلماء الباحثين في تواريخ المشرق وآثاره، أثبت فيها أنّ تلك الأبنية والمصنوعات إنما هي من أعمال الحثّين وأنّ قبيلة الحثّيين والبلاسج الأوّلين واحدة. وقد أثبتت مجلة التمدّن الكاثوليكي هذه الخطبة في عددها المؤرّخ في ٢٠ شباط سنة ١٨٩٢م وذيّلتها بما روته في شأنها جرائد إنكلترة المهمة من حيث يظهر أنّ هذه الخطبة كان لها أحسن وقع في ذلك المجتمع الحافل، وأنه اعتبرها ذات أهمية كبرى، وقضى بإيلاء مؤلّفها علامة الشرف، وطلب منها مئات من النسخ ليوزّعها على أعضائه. وهناك خلاصة ما انطوت عليه:

أورد دي كارا أقوال العلماء في الآنية الخزفية التي توجد في أمصارٍ عديدة متباعدٌ بعضها عن بعض، وكلها متقاربة الشكل عريقة في القدم، وأبان تضارب هذه الأقوال حتى لا يمكن تصويب أحدها لضعف مستنداتها وإيهانها بمستندات أخرى. ثم طفق يبثُّ رأيه فقال تراعى في هذا المبحث الحقيقة وعلتها. فالحقيقة أننا نرى في آسيا وبلاد اليونان وجزرها وفي وادي النيل وإيطاليا آنية خزفيّة ذات شكلٍ واحد أو متقارب، ومثله شكل الأسلحة؛ وهذه حقيقة لا يقيم أحدٌ عليها من نكير. وقد سلّم كل عالم منصف أنّ الرسوم والنقوش التي تُرى على هذه الآنية لا مثيل لها إلا في المصنوعات البابلية القديمة لا في مصنوعات آشور أو نينوى.

ومما لا يمترى فيه أنّ البابليين لم يهاجروا إلى بلاد اليونان ولا إلى جزائرها ولا إلى إيطاليا بأولى حجةٍ، فإذاً قد كان مستحيلاً نقل الصناعة البابلية إلى هذه الأمصار بغير واسطة قبيلة تتاخم بلادها بابل. وتتوفّر العلاقات بينهما ويلزم أن تكون تلك القبيلة ذات اقتدار على بثّ هذه الصناعة في تلك الأمصار بوسيلة انبساط قوتها وامتداد حكومتها وكثرة مستعمراتها وتجارتها. فهذه هي الحقيقة وهذه هي الشرائط المستلزمة للكشف عن علّتها، فلا يبقى إلا البحث عن أيّة قبيلةٍ تستجمع هذه الشرائط للتوصّل إلى إدراك علّة تلك الحقيقة. فعلى رأيه أنّ هذه القبيلة لا يمكن أن تكون إلا قبيلة البلاسج الأوّلين الذين هم الحثّيون أنفسهم؛ فإنّ هاتين القبيلتين لا يمكن أن تكونا في الأعصر القديمة إلا واحدة. أو يرد علينا أن نسلّم بأمر مستحيل وهو أنّ قبيلتين قديرتين أقامتا في بلادٍ واحدة في حين واحد حاكمتين في هذه البلاد نفسها، وكل منهما ليست الأخرى. وقال إنه بيّن في

فصوله العديدة أنّ الآثار القديمة الكائنة في محالّ عديدة من آسيا الصغرى ليست إلا حثّية. والحال أنّ أكثر هذه الأعمال هي بلاد البلاسج الآسياويين بإجماع رأي القدماء. فإذاً البلاسج والحثّيون قبيلة واحدة. وأضاف دي كارا إلى ما مرَّ براهين أخرى، إثباتاً لغرضه، منها أنّ صناعة استخراج مواد المعادن والعمل بها واحدة عند البلاسج والحثّيين. ومنها أنّ لتشييد المدن والحصون طريقة واحدة عند الفريقين. فإنّ أطلال بوغاز كوي وأيوق وكاور قلعة سي وأزمير المعروف أنها من بقايا آثار الحثّيين تشبه كل الشّبه أطلال المدن والحصون البلاسجية الباقية في بلاد اليونان وإيطاليا. ثم إنّ هذه الأبنية في آسيا الصغرى متقادمة العهد وسابقة عصر اليونان، فيستلزم انتسابها إلى قبيلة توطّنت هذه الأمصار قبلهم. وهذه القبيلة لا يمكن أن تكون إلا البلاسج الأوّلين، لأنّ الأبنية تُعزى إليهم، ويلزم أن تكون من صنع الحثّيين، لأنّ العلاقات المميّزة لهم وخطوطهم منقوشة على صخورها، ولا مرية بأنّ سكان البلاد الكائنة بها في ذلك العصر إنما هم الحثّيون. فكل ذلك يجهر بالنتيجة المقصودة، أعني أنّ البلاسج والحثّيين قبيلة واحدة.

وقال: إننا نرى شيم القبيلتين وأخلاقهما واحدة. فقد ذكر استرابون أنّ من شيم البلاسج الحلّ والترحال. وتبيَّن مما مرَّ أنّ الحثيين ارتحلوا من سورية وانتشروا في آسيا الصغرى وجزيرة قبرص، ثم في جزر بلاد اليونان؛ فإن كانت الشيم واحدة والصناعة واحدة والبلاد التي سكنها الفريقان واحدة فلِمَ لا تكون القبيلة المسمّاة باسمين واحدة؟ وأيضاً إنّ اسماء كثير من المدن والجبال والأنهر والأعمال في آسيا الصغرى واسماء أمثالها في بلاد اليونان وجزائرهم وفي إيطاليا هي واحدة أصلاً، ولم يطرأ عليها تغيُّر في بعض الاسماء إلا من قبيل تيسير اللفظ وجعل أواخر الكلمات كصيغة نهاية الاسماء في اليونانية أو الإيطالية. وأيضاً إنّ المشابهة بين العقائد الدينية والرموز المذهبيّة عند القبيلتين يحصل لنا منها برهان آخر على أنهما قبيلة واحدة. فالآلهة الكبرى القديرة التي كان يعبدها البلاسج إن هي إلا الآلهة المحاربة التي نراها ممثّلةً على صخور يازيلي كايا في آسيا الصغرى مجنّبةً السيف، معتقلةً الرّمح، متنكّبةً القسيّ، شبيهة بالآلهة المحاربة الوارد ذكرها في عهدة الصلح بين ملك الحثّيين ورعمسيس الثاني ملك مصر كما مرَّ. والرمز بصور الأسد وغيرها نراه عامّاً في آثار الحثّيين في آسيا الصغرى وآثار البلاسج في بلاد اليونان وإيطاليا.

ومن الحجج التي أقامها دي كارا إثباتاً لغرضه التقليدات وأقاصيص الالهة التي يرى ويستشهد غيره من مشاهير علماء هذا العصر أنّ لها أصلاً تاريخيّاً على الغالب، وإن داخلتها أحاديث خرافة. ومن هذه الأُقاصيص أنّ آباء شعوب سورية وفينيقية وكيليكيا وغيرها من أعمال آسيا الصغرى هم من أقرباء بلاسكو أبي البلاسج وهو أبو أجينور أو أخوه. وهذه الأقاصيص نفسها تجعل كيليك وفنيق وقدموس ابناء أجينور. وعليه فهم أحفاد بلاسكو أو بنوه. وتجعل نيوب أمّاً لأجينور وبلاسكو وهؤلاء الآباء كانوا يسكنون ويلون الأمصار نفسها التي كان الحثّيون يسكنون فيها ويلون أمورها، كما يظهر من الآثار الحثّية في آسيا الصغرى. كل هذا بيّنٌ في البلاسج الآسياويين. وأما البلاسج سكان بلاد اليونان وإيطاليا فقال فيهم ديونسيوس الأليكارناسي إنهم كانوا يُسمّون آزيين، والمقاربة بين آزيّ وحثّي بيّنة، فإبدال الحاء بالهمزة لسهولة اللفظ مستفيض وإبدال الثاء بالزاء لا تحصى أمثاله؛ فهذا مما تقدّم يثبت لنا أنّ البلاسج في بلاد اليونان وإيطاليا هم ذوو قرابة البلاسج الآسياويين وأنّ الفصيلتين مع الحثّيين قبيلة واحدة.

وقد اختتم دي كارا كلامه بهذا القياس ذي الحدَّين. لا يخلو ما أتينا به من الأدلّة العديدة على الوحدة بين الحثّيين والبلاسج من أن يكون إما مصادفةً واتفاقاً وإما واقعياً وتاريخياً. فإن كان واقعيّاً فيلزم اعتبار الوحدة بين الفريقين حقيقة تاريخيّة ثابتة ذات أهمية كبرى. وإن كان كل ما جئنا به اتفاقيّاً ومنسوباً إلى المصادفة فيكون أمراً لم يسبق له مثال. ولا يبقى محلٌّ لتصديق برهان كهذا مهما كثرت ووضحت أدلّته وهذا محال. فالمعتمد إذاً على الأوّل وهو أنّ الحثيين والبلاسج قبيلة واحدة سُمّيت باسمين. إنّ الأب دي كارا يهتمّ في فصوله التي نشرها في هذه الأيام ليبيّن أنّ اسماء المدن القديمة والأنهر والجبال في بلاد اليونان وإيطاليا أصلها حثّي ومن جملتها اسم آسيا. فعلى رأيه أصله حاثيا بدلت الحاء بالهمزة للخفّة والثاء بالسين للمقاربة. وإنّ اسم البلاسج أنفسهم مركّب من كلمة پل معناها في لغتهم الغريب أو الدخيل. ومن كلمة أسى أو أسكى أو أسجى ومعناها الآسياويّ. فتحرير معنى البلاسج عنده الغرباء الآسياويون أو الآتون من آسيا.

الفصل الثامن

غارة الحثيين على مصر أي في الملوك الرُّعاة

عد ٨٩

أصل الملوك الرُّعاة ومهاجرهم

إنّ مانيتون (وهو كاهن مصريّ كان في القرن الثالث قبل الميلاد) ألَّف كتاباً جمع فيه شتات تواريخ مصر. فاغتالت يد غِيَر الزمان هذا الكتاب ولم نظفر منه إلا بفقرات حفظت في كتب يوسيفوس وأوسابيوس ويوليوس الإفريقيّ وغيرهم من القدماء. فمن هذه الفقرات ما رواه يوسيفوس في كتاب ردّه أقوال أبيون (ك ١ فصل ٤) حيث قال: «كان ملك يُسمّى تيماوس دهمنا في أيامه غضب الله ففاجأنا من جهة المشرق على غير انتظار جيش أقوام أوغاد جسروا أن يغشوا بلادنا فاستحوذوا عليها دون حرب، وأثخنوا في أرضنا، وأذلّوا أصحاب الأمر فيها، وأحرقوا المدن بقساوة، ودكّوا هياكل الآلهة، وأنزلوا بالأهلين ما استطاعوا من السوء فذبحوا بعضاً وأسروا نساء البعض وأطفالهم» إلى أن يقول: «وكل هذه القبيلة دُعيت هيكسوس أي الملوك الرُّعاة لأنّ معنى هيك في اللغة المقدَّسة ملك ومعنى سوس بلغة العامّة رعاة».

فمَنْ هم هؤلاء الملوك الرُّعاة؟ ومن أين أتوا إلى مصر؟ ومن أية قبيلة هم؟ اجتزأ مانيتون بأن يقول فيهم إنهم أتوا من جهة المشرق؛ وهذا كلام شائع متّسع اتّساع المشرق لا يعلم منه من أية جهة من المشرق أتوا ولا من أيّ شعب تفرّعوا. ولذلك توفَّرت أقوال العلماء القدماء والحدثاء في أصلهم وفي مهاجرهم أي البلاد التي هاجروا منها، فذهبوا في الأمرين مذاهب عديدة متضاربة. وكتب علماء

عصرنا هذا في ذلك مقالات مسهبة. وألَّف الأب دي كارا كتاباً برمّته سمّاه الملوك الرُّعاة، نشره أولاً فصولاً في مجلة التمدّن الكاثوليكي ثم ضمَّ تلك الفصول في كتاب طبع في رومة سنة ١٨٨٩ حيث لم يألُ جهداً ليثبت أنّ الملوك الرُّعاة حثّيون أصلاً ومهاجرهم سورية الشمالية، غاروا على مصر منضمّاً إليهم غيرهم من القبائل السورية. وعليه عَنْوَنَّا هذا الفصل بغارة الحثّيين على مصر. وأودعناه الكلام في أقوال العلماء في أصل الملوك الرُّعاة ومهاجرهم ثم في زمان غارتهم هذه. وأية دولة مصرية كانت منهم وما كانت أعمالهم وكم سنة ملكوا في مصر ومتى طردهم المصريون من بلادهم بما يمكن من الإيجاز ملخّصاً خاصةً عن كتاب الأب دي كارا السالف الذكر.

عد ٩٠

أقوال العلماء في أصل الملوك الرُّعاة ومنشأهم

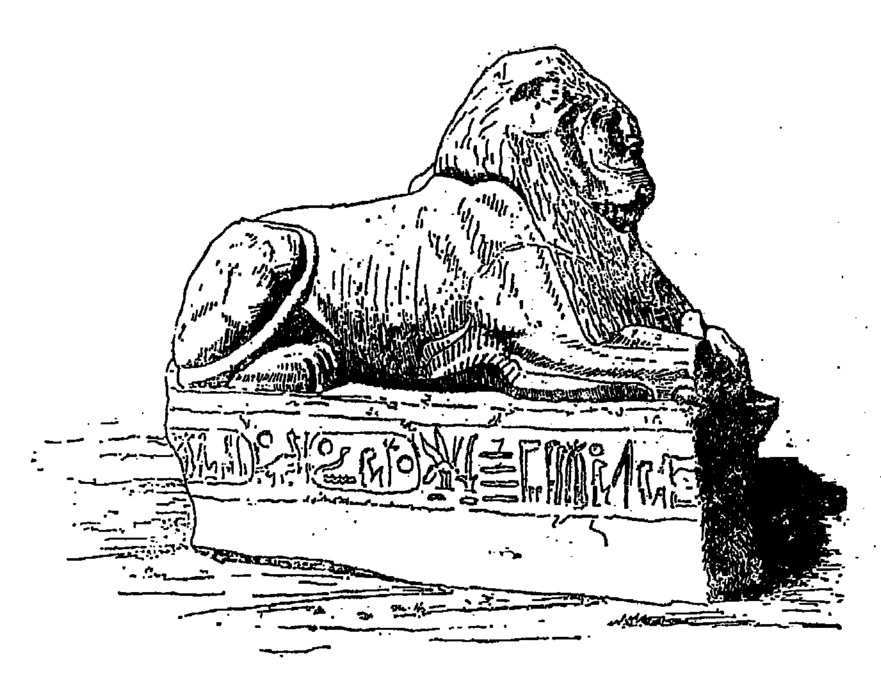
قال مانيتون في أثر كلامه الذي ذكرناه نقلاً عن يوسيفوس «قال بعضهم إنهم عرب». لكنه قال في محلّ آخر على ما روى يوليوس الإفريقيّ: «إنهم رُعاة اخوة فينيقيون ملوك أجانب». فظهر أنه لم يكن على يقين في أصلهم ومنشئهم بل يُروى ما كان يُقال عليهم في أيامه. فبيَّن الخلاف في الأقوال ولم يصحِّح أحدها. وأما علماؤنا العرب فقالوا إنهم عمالقة من نسل عمليق أو عماليق وهو عندهم ابن لود (يسمّونه لاوذ) بن سام بن نوح.

قال ابن الأثير في الكامل: «فمنْ ولد لاوذ بن سام فارس وجرجان وطسم وعمليق وهو أبو العماليق. ومنهم كانت الجبابرة في الشام الذين يُقال لهم الكنعانيون والفراعنة بمصر». وتعقَّبه أبو الفداء من قبل أنه جعل الكنعانيين من ولد سام وتابعه في الباقي إذ قال: «نقل ابن الأثير أنّ بني كنعان من ولد سام والله أعلم وولد لسام عدة أولاد منهم لاوذ ابن سام وولد للاوذ فارس وجرجان وطسم وعمليق الذي هو أبو العماليق. ومنهم كانت الجبابرة بالشام والفراعنة بمصر». وقال ابن خلدون: «ولم يذكر في التوراة ولد لاوذ (وهو الواقع). وقال ابن اسحق وكان للاوذ أربعة من الولد هم: طسم وعمليق وجرجان وفارس. وقال ياقوت إنّ العمالقة امتدوا من بلاد العرب إلى سورية فكانوا ملوكاً في سورية وفراعنة في مصر. وذكر

بعضهم اسماء هؤلاء الفراعنة وقالوا إنّ أوّلهم في مصر يُسمّى الوليد. وتعقّب بعضهم قول هؤلاء المؤرّخين بأنّ عماليق هو ابن اليفاز بن عيسو على ما في سفر التكوين (فصل ٣٦ عد ١٢ و١٦). فكيف يمكن أن يكون فرعون ابراهيم كما قالوا من بني عماليق. لكنّ هذا التنديد مردود بأنّ سفر التكوين نفسه صرّح بوجود العمالقة قبل عيسو إذ قال (فصل ١٤ عد ٧) إنّ كدرلاعومر ملك عيلام وأحلافه «ضربوا كل أرض العمالقة وأيضاً الآموريين». ومن المعلوم أنّ هؤلاء الملوك همُ الذين حاربهم ابراهيم وأنقذ لوطاً ابن أخيه من أيديهم. فلا يعاب على المؤرّخين العرب قولهم. ولكن هل كان الملوك الرّعاة من هؤلاء العمالقة؟ فهذا موضع الخلاف الذي نبسط الأقوال فيه.

وأما علماء عصرنا أهل البحث في الآثار المصرية والشرقية فلهم في هؤلاء الملوك الرّعاة أقوال متباينة متضاربة. فقال لبسيوس هم حاميون من بني كوش أتوا من بلاد العرب المجاورة البحر الأحمر المسمّاة فوط أو بونط. والأظهر أنّ المراد بها عدوّتا البحر الأحمر من جهة العربية وجهة الحبشة. وتابعه مسبرو في هذا القول. وقال بروغش لا بل هم ساميون من سورية صحبهم أقوام من أقاليم عديدة. وذهب دي روجه وإبر إلى أنهم ممّن تسمّيهم الآثار المصرية ساتي وعامو. ويُراد بهم علماء آسياويون. وذهب ليايلين أنهم من فلسطين، ومريات وسائس ولانرمان أنهم حثّيون وآموريون وعيلاميون. ورأى القانونيّ را أنهم آدوميون وعمالقة وحثّيون. وقال كوندر وهامي ولانرمان (بعد هجره رأيه الأوّل) أنهم مغول من التتر.

فمصدر التباين في هذه الأقوال ندور البيّنات والآثار الدالّة على أصل الملوك الرّعاة ومهاجرهم وغموض ما وجد منها وشيوعه. فقد سمّتهم الآثار المصرية مان ومانتي وساتي وعامو؛ وكلها اسماء شائعة لا تعيّن القبيلة التي تفرّعوا منها ولا البلاد التي نشأوا فيها. ولهذا التباين مصدر آخر هو أنه قد وُجدت تماثيل في تانيس (سمنه وصيان أو سان في شرقي مصر السفلى). وحُسب أنها تمثّل الهيئة الحقيقية لهؤلاء الملوك. ولدى تفحّص العلماء عنها قالوا إنها أشبه بهيئة الصيّادين الذين يسكنون الآن في جانب بحيرة المنزلة في مصر السفلى، وقدّروا أنّ هؤلاء الصيّادين من سلالة أولئك الملوك. وأخذوا ينسبون الرّعاة إلى القبائل التي خُيّل لهم أنّ هيئة فروعها تشبه هيئات التماثيل والصيّادين المذكورين.



صورة مسخ دال على أحد الملوك الرعاة وجدت في تانيس (صان)
وهي الآن في متحف بولاق

وعليه فترد الأقوال المتباينة في هذا الشأن إلى مصدرين أعني أقوالاً مسندها الاختلاف في تفسير الاسماء التي عبّرت بها الآثار عن هؤلاء الملوك، وأقوالاً مسندها المشابهة بين هيئة هؤلاء الملوك في تماثيلهم وبين هيئات غيرهم من القبائل المعروفة. فنسب أصحاب الأقوال الأولى هؤلاء الملوك إلى سورية أو العربية أو فلسطين أو الجزيرة أو عدوّتي البحر الأحمر. ومعظم الخلاف بينهم في ما إذا كان هؤلاء الملوك ساميّين أو غير ساميّين. ومضى أصحاب الأقوال الثانية يفتشون على أصل الملوك الرّعاة في شرقي آسيا أو شماليها فجعلوهم من المغول والتتر. ولا مستمسك لزعمهم إلا المشابهة في الهيئة الطبيعية وسمات الوجوه بين هؤلاء الشعوب وبين تماثيل الملوك وسكان القرى التي حول بحيرة المنزلة.

وأما العلّامة الأب دي كارا فردَّ أولاً الأقوال المسندة إلى المشابهة في الهيئة والتكوّن الطبيعيّ مبيّناً خاصةً أنه لا يمكن أن يتأكد كون التماثيل المذكورة تمثّل كل السمات الحقيقية في هيئة هؤلاء الملوك ولا كون الملوك الرّعاة كلهم كانوا بهذه

الهيئة، لأنّ التماثيل التي وُجدت إنما هي لأَربعة منهم فقط. وزاد على هذا أنه لا أثر في التواريخ لغارة من التتر في تلك الأيام على مصر، فضلاً عما بين البلدين من البعد الشاسع وتوسّط قبائل كثيرة بينهما. وأيضاً إنّ الهيئات الطبيعية لا يمكن الاعتماد عليها وحدها في معرفة أصول الشعوب ونسبهم، بل لا بدَّ من قرائن أخرى ومن أساس تاريخيّ يُستمسَك بها.

وقال دي كارا إنّ مسبرو كتب إليه رسالة في ٩ ك[1] سنة ١٨٨٨م جواباً على الفصل الذي أثبت به أنّ منشأ الملوك الرُّعاة سورية الشمالية يقول له فيها إنّ رأيه هذا يحوذ أحسن قبول وإنّ المشابهة في الهيئات كثيرة الوجود على اختلاف النّسب والوطن. وإنه رأى منذ بضع سنوات في نابولي امرأةً أشبه هيئة بصورة امرأة ماديوم الكائنة في متحف بولاق. وتيسَّر له أخذ صورتها الفوتوغرافية بالزيّ الذي يرى التمثال به، وإنّ الصورة باقية عنده. ويختتم مسبرو رسالته بقوله: «هاك إيطالية يمكنها أن تدَّعي بأنها مصرية وتثبت دعواها بتكوّنها وهيئتها الطبيعية. فدونك ما يوقعنا به من السخريات الاعتماد في النّسب على الهيئة».

وعاد العلّامة دي كارا إلى تفصيل الأَقوال المسندة إلى الاختلاف في تفسير الاسماء المعبَّر بها عن هؤلاء الملوك في الآثار المصرية كما رويناها بالإيجاز. ومما يستوجب التفاتة مخصوصة ويتحفنا بفوائد أخرى قول سائس الذي أكثر الكلام هذه السنين الأخيرة في هؤلاء الملوك فقال اعتبرهم بعض العلماء غزاة حثّيين. وفي خطبة ألقاها في ٢٣ تشرين أول سنة ١٨٨٦م في مجتمع العلماء في لوندره، أظهر جنوحه إلى التيقّن بأنّ قادة الرُّعاة كانوا حثّيين محالفي الآموريين. وأنه يُستلمح من الكتاب المقدَّس أنّ هذه العهدة كانت في جنوب فلسطين لأنّ سكان حبرون (الخليل) كانوا حثّيين وآموريين. وصرَّح بذلك حزقيال بقوله (فصل ١٦ عد ٤٥) لأورشليم إنّ أمّك حثّية وأبوك آموري. ولما كان مانيتون روي في الفِقَر التي حفظها يوسيفوس أنّ الملوك الرُّعاة بنوا أورشليم بعد طردهم من مصر. اعتقد سائس سنداً إلى ما قيل في سفر العدد (فصل ١٣ عد ٢٣) وهو: «إنّ حبرون بُنيت قبل صوعن مصر (وهي تانيس الرُّعاة المعروفة الآن بسان) بسبع سنين». إنّ مانيتون اعتمد في رأيه هذا في بناء أورشليم على شهادة التقليد. ونتَّج سائس أخيراً أنّ قول مريات وغيره بأنّ قادة الرُّعاة كانوا حثّيين هو قريب من الصحة والصواب. وأما ميل سائس

إلى تصديق رواية مانيتون بأنّ الرُّعاة بنوا أورشليم فيُقال فيه إن صدقت هذه الرواية لم يكن المفهوم منها أنّ الرُّعاة أوّل مَنْ أسَّس أورشليم، إذ جاء في سفر التكوين (فصل ١٤ عد ١٨) أنّ ملكيصادق ملك شليم خرج للقاء ابراهيم وعامّة المفسّرين على أنّ شليم أورشليم وطرد الرُّعاة من مصر كان بعد نزول بني إسرائيل إليها.

عد ٩١

تحرير رأي الأب دي كارا في الملوك الرُّعاة وحججه عليه

حرَّر الأب دي كارا (في الفصل الثامن من كتابه الملوك الرُّعاة) رأيه فقال إنّ الرُّعاة الذين غاروا على مصر لم يكونوا من بلدٍ واحد ولا من أمّةٍ واحدة بل كانوا من بلاد عديدة تضمّهم عهدة واحدة وغرضٌ واحد، ويقودهم ملك واحد أو أكثر للأمّة التي هي مركز العهدة، وتُنسب الغزوة إليها، ويُرى أنّ الأمّة الحثّية هي مركز هذه العهدة، وهي الفاعلة في الحملة على مصر بجنودها الخاصّة وجنود المعاهدين لها. ومن براهينه على رأيه أنّ مَنْ ذلّلوا دولة قويّة رهيبة كما كانت مصر إذ ذاك، وضبطوا زمام أحكامها قروناً لا بدَّ أن كانت لهم قوّة تفوق قوّة مصر عدداً وعُدداً ومالاً. ولا يُتصوَّر لإحدى قبائل آسيا الغربية أو الشرقية قوّةٌ وسطوةٌ مثل هذه إلا باتحادها مع قبائل أخرى. فيتّفق أن تشنَّ قبيلة الغارة على قبيلة أخرى أقوى منها وتنتصر مرّةً. ولكن أن تستحوذ عليها وتضبط أعنَّة حكمها رغمَ أنوف أهلها قروناً كما فعل الرُّعاة في مصر، هذا يخالف الطبع.

ولا نجد له في التاريخ مثالاً. فمَن افتتحوا مصراً في ذلك العهد لم يكونوا إذاً أمّة واحدة بل ألفافاً من قبائل شتّى يرأسه ويقوده ملوك الحثّيين. ثم يثبت هذا؛ أي أنه كان للحثّيين المحل الأوّل في هذه الغزوة، ولملوكهم وأمرائهم السيادة فيها بالحجج الآتية؛ أولاها أنّ الصفيحة التي وجدها مريات سنة ١٨٦٤م في هيكل سمنه (وهي تانيس القديمة) تثبت ذلك، إذ نُقش في أعلاها ثلاث صور؛ إحداها: صورة سات أو شات وما هذا إلا شتخ معبود الحثّيين وبيده الصولجان وعلى رأسه التاج. والثانية مثال رعمسيس الثاني قائماً أمام سات باسطاً يديه نحوه، وفي كلّ منها كاس خمر. والثالثة صورة مَنْ أقام هذه الصفيحة ساجداً وبين سات

ورعمسيس عمود خطوط هيروغليفيّة. وبين رعمسيس والصورة الأخرى عمودان من هذه الخطوط. وفي أسفل الصفيحة اثنا عشر سطراً منها؛ وهذا ملخّص ما كتب هناك:

«في سنة ٤٠٠ في الرابع من شهر ميسوري لملك مصر العليا والسفلي، أمر رعمسيس الثاني ملك مصر أن تُقام هذه الصفيحة تكرمةً للإله شات إجلالاً لاسم أبيي آبائه(كثيراً ما سمّى ملوك مصر آلهتهم آباءهم وكثير منهم دعا نفسه ابن الشمس معبودهم).ويحيّي شات تحيّات إلهٍ سامٍ ويستمدّ منه التوفيق والاقبال في أيامه والثبات في ملكه». وما من منكر أنّ الرعمسيسيين امتازوا باجلال الإله شات وباقامة الهياكل تعبّداً له وبتسمية بعضهم أنفسهم باسمه تبرّكاً. منهم شاتي أو ساتي الأوّل. وعليه يحقّق دي كارا أنّ تاريخ الأربعمائة سنة المثبت في الصفيحة يُراد به تاريخ اتخاذ شات إلهاً سامياً في مصر سويّاً لرع وأمنون، وأنّ الأربعمائة سنة في عهد رعمسيس الثاني توافق أيام أبابي أحد الملوك الرّعاة الذي عُني بجعل شات أو شتخ معبود الحثّيين إلهاً سامياً في مصر.

وثانية الحجج التي أقامها دي كارا على عناية أبابي بإدخال عبادة شات معبوده في مصر، ما ورد في البابير المنسوب إلى سليار الأوّل. والمحفوظ الآن في المتحف البريطاني وخلاصته: «أنّ الملك أبابي اتخذ شات أو شتخ ربّاً له. ولم يعد يعبد إلهاً في أرض مصر إلا شات. وأقام له هيكلاً بديعاً على مقربة من قصره. وكان ينهض كل يوم فيقدّم له الذبائح اليوميّة مصحوباً بأعوانه». وجاء في هذا البابير أيضاً أنّ أبابي كان أوفد إلى ملك تاب (في مصر العليا) ليتابعه في هذه العبادة وقال: «إذا أجاب أمير الجنوب (يريد ملك تاب الذي كان أوفد إليه) أنه يعمل بما أقول، فلا آخذ منه شيئاً ولا أعود أسجد لإله آخر في أرض مصر إلا لأمون رع ملك الآلهة. ولكن إذا لم يجب سؤالي بأن لا يعبد إلا شات فما العمل»؟.

وفي البابير أيضاً أنّ ملك الجنوب أطلع مستشاريه على رسالة أبابي فدُهشوا ولم يأتوا أولاً ببنت شفة. ويظهر أنه منذ يومئذٍ بدأ القلق والشّغب على الملوك الرّعاة والمحالفة على طردهم. ويستخلص دي كارا قائلاً إنّ الواضح من آثار عديدة لاسيما عهدة الصلح بين ملك مصر وملك الحثّيين أنّ شات أو شتخ إنما هو إله الحثّيين فيحصل مما مرّ أنّ الملوك الرّعاة حثّيون، وأنّ الأربعمائة سنة التي ذكرها

رعمسيس في هذه الصفيحة يُراد بها تعميم عبادة شات وتفضيله في مصر بأمر أبابيّ أحد الملوك الرُّعاة. هذا على اختلاف الترجمة والتفسير لهذا الأثر. ونرى رأي دي كارا فيه راجحاً وبرهانه واضحاً وأطبق للظاهر. ومن رأيه أيضاً أنّ تاريخ الأربعمائة سنة يوافق القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وعليه فصفيحة رعمسيس نُقشت نحو سنة ١٤٠٠ إلى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد أي نحو أربعمائة سنة بعد أبابي، فيكون إتيان يوسف بن يعقوب مصر في أيام أبابي. فإن أضفنا إليها سنيّ عبودية بني إسرائيل في مصر وهي أربعمائة وثلاثون سنة كان خروجهم منها في عهد دولة الرعمسيسيين. فإنّ القول الأعمّ والأظهر عند علماء الآثار المصرية أنّ خروج بني إسرائيل من مصر كان بعد وفاة رعمسيس الثاني في عهد ابنه منفتاح الأوّل. وسترى معارضة أقوال الكتاب في شأن سنيّ العبودية بما يظهر من الآثار المصرية والتوفيق بينهما. انتهى ملخَّصاً عن كتاب دي كارا في الملوك الرُّعاة (فصل ٣ من صفحة ٣٩ إلى صفحة ٦١).

عد ٩٢

إثبات ان الملوك الرُّعاة حثّيون بما سمّتهم به الآثار المصرية

ألحق دي كارا حججه الآنفة الذكر بحجج أخرى. منها أنّ الاسماء التي عبّرت بها الآثار المصرية عن الملوك الرُّعاة تثبت كونهم حثّيين. فإنّ هذه الآثار تسمّيهم ساتي ومانتي وعمو. فساتي يُراد بهم على الأظهر الشعوب المتوطّنون في غربي آسيا، ولاسيما سكان شمالي سورية، بدليل أنه جاء في الأثر وهو الدرج المعروف «ببرسوم كانوبوس»: أنّ الملك تولماوس أفرجات الأوّل غشا بلاد الساتي واستردَّ تماثيل الآلهة التي كان الفرس انتزعوها من هياكل مصر. ولا جرم أنّ المضيّ من مصر إلى بلاد فارس يستلزم العبور بسورية، فهي إذاً بلاد الساتي. والملوك الرُّعاة يُسمّون ساتي فهم إذاً سوريّون. وأشهر سكان سورية يومئذٍ الحثّيون، فإذاً الملوك الرُّعاة حثّيون. وقد سمّتهم هذه الآثار «مان ومانتي» مرات. والحال أنّ هؤلاء المانتي يُراد بهم سكان سورية أيضاً.

فقد جاء في جريدة اسماء القبائل التسع التي نُقشت على جدار هيكل ارفو في مصر «المانتي في بلاد آسور». وفي الصفيحة التي وُجدت في سان (تانيس

القديمة) مكتوباً عليها بثلاث لغات عُبِّر فيها عن هؤلاء المانتي في الهيروغليفية بأنهم سكان بلاد الروتان الشرقية. وفي الترجمة اليونانية سكان سورية. وفي لغة الشعب المصرية بلاد آسور. فإذاً المانتي الذين طردهم ملوك الدولة الثامنة عشرة من مصر هم من سكان سورية التي سمِّيت في الهيروغليفية برّوتان في آثار عديدة. وسمِّيت بلغة الشعب آسور وهو اسم سورية عندهم (طالع العدد الـ ٦). وفي الأثر القديم المنسوب لأحمس ابن أبانا يُقال إنّ أحمس الأوّل الذي طرد الملوك الرُّعاة من مصر أثخن في المانتي ساتي مقصياً لهم عن مدينة آفارى. فإذاً لفظا مانتي وساتي استعملهما المصريون علَماً للملوك الرُّعاة الذين غشوا بلادهم من جهة مشرقها، وسمّوا بهما سكان سورية أيضاً ولاسيما شماليها.

وقد سمّتهم الآثار أيضاً عمو في محلات عديدة، ومن جملتها الأثر الذي اكتُشف حديثاً على مقربةٍ من قرية بني حسن حيث يقول أحد الفراعنة الذي يُظَنّ أنه توتمس الثالث: «أنا جدَّدت ما كان آل إلى الدمار، أنا أكملت ما بُدِئَ به مذ كان العمو في مصر السفلى في جهة آفارى. فإنّ الغزاة نقضوا ما كان مشيَّداً، وحكموا ولم يعترفوا بالإله رع». ونرى اسم العمو بين عداد الشعوب الذين قهرهم توتمس الثالث في سورية مع الساتي والروتانو أصحاب المعاهدة في مدن سورية الشمالية والجنوبية وفي فينيقية. ونجد أيضاً اسم عمو في صفيحة كُتبت عليها ترجمة أمنهاب. واكتشفها العالِم أبار في قرية قرنة من أعمال مصر، وأذاع ترجمتها سنة ١٨٧٣م. ومما كُتب في أعمال هذا القائد في حروب توتمس الثالث في سورية أنه قبض على أسرى من العمو وأحضرهم أحياء وذكر محالّ المواقع فكان منها وإن في غربي كالب (حلب) وكركميش وقادس. ولا يختلف اثنان أنّ هذه المدن في شمالي سورية، وسمَّت الآثار سكانها عمو كما سمَّت الملوك الرُّعاة بهذا الاسم نفسه.

وليس أصحاب عهدة الرُّعاة إلا المتحالفون الذين حاربهم ملوك الدولة التاسعة عشرة ولاسيما ساتي الأوّل ورعمسيس الثاني في سورية الشمالية كما مرَّ. وبانتور شاعر رعمسيس الذي كتب أخبار واقعته مع قادس (طالع العدد الـ ٦٥) يسمّي الحثّيين عمو كما رأيت. فإذاً اسماء ساتي ومانتي وعمو التي نراها في الآثار المصرية معبَّراً بها عن الملوك الرُّعاة، نراها نفسها مُراداً بها شعوب سورية الشمالية ومَنْ جاورهم من العشائر المتحدة معهم، بل قال دي كارا إنّ الحثّيين الذين حاربهم رعمسيس كما مرَّ

من نسل هؤلاء الملوك الرُّعاة، وإنهم بعد طردهم من مصر عادوا إلى مواطنهم الأولى في سورية. ومن الأدلّة التي أقامها على ذلك وجود عبادة الإله سات بينهم في سورية الشمالية كما كانت لهم في مصر. ثم وجود بعض العوائد وآثار التمدّن المصريّ في أنحاء سورية التي عادوا اليها ثم تعاظم القوة والسطوة في سورية الشمالية في زمنٍ وجيز حتى حارب سكانها ملوك الدولة التاسعة عشرة في مصر وأكرهوهم على صلح مشرف لهم كما رأيت في تاريخ الحثّيين عن الآثار المصرية.

عد ٩٣

عصر غارة الرُّعاة على مصر ومدة ملكهم فيها

توفَّرت الأقوال وتضاربت في تعيين زمان غارة الملوك الرُّعاة على مصر. ولا نرى كبير فائدة في استقراء هذه الأقوال وحجج كلٍّ من القائلين بها. فنقتصر على ذكر الأظهر والأعمّ من أقوالهم؛ وهو أنّ هذه الغزوة كانت بين القرن العشرين والحادي والعشرين قبل الميلاد. وكان من الملوك الرُّعاة ثلاث دول في مصر هي الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة. وذكر مانيتون هذه الدول واسماء ملوكها ومدة ملكهم. ولكن لما كانت غِيَر الأيّام لم توصل إلينا كتاب مانيتون بل وصلت إلينا فِقَر أقواله يرويها يوسيفوس في كتاب ردِّه على أبيون ويوليوس الإفريقيّ وأوسابيوس وغيرهم. فكان بين هذه الروايات بون كبير من قبيل الاسماء وعدد السنين للملوك وللدول الثلاث. وقد وُفِّق العلاّمة أدولف إرمان (Erman) مدير المتحف المصري في برلين بين روايتي يوسيفوس والإفريقيّ بما ملخّصه: «إنّ يوسيفوس حسب مدة ولاية الملوك الرُّعاة في مصر ٥١١ سنة. وقال إنه عقب ذلك سنون عديدة دام بها الحرب والنزاع. وروى الإفريقيّ أنّ الدولة الخامسة عشرة من هؤلاء الملوك ملكت ٢٨٤ سنة. ثم ذكر ملوك الدولة السادسة عشرة وضمَّ سنيّ ملك الدولتين. فكان مجموعها ٥١٨ سنة. ولا تخفى المقاربة بين الروايتين على ذلك إذ لا يبقى من فرق إلا سبع سنين. ثم ذكر الدولة السابعة عشرة وعيَّن لملكها مدة ١٥١ سنة. فكان ذلك كناية عن السنين العديدة التي ذكر يوسيفوس أنها انقضت في الحرب مع الوطنيين. وكان لهؤلاء ملوك يلون مصر العليا وبعض أعمال مصر السفلى على التدريج». فكان بهذا التوفيق بين الروايتين.

وسترى أنّ أبابي آخر ملوك الدولة الأولى من الرُّعاة ملك في أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد أي من سنة ١٧٤٠ إلى سنة ١٧٥٠. فإن أضفنا إلى ذلك ٢٥٩ سنة وعشرة أشهر، مدة ملك الدولة الأولى من الرُّعاة بحسب رواية يوسيفوس، ظهر أنّ بدء ملك الرُّعاة كان في القرن العشرين قبل الميلادأو أضفنا إلى ذلك ٢٨٤ سنة بحسب رواية الإفريقيّ كان بدء ملكهم في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد. ويحصل من ذلك أنّ فرعون الذي كان يلي مصر وقت انحدار ابراهيم إليها قبل نحو مايتي سنة من انحدار يعقوب كان من الملوك الرُّعاة كما كان فرعون الذي استوزر يوسف.

عد ٩٤

بيان سنيّ عبودية الإسرائيليين في مصر بسنيّ الملوك الرُّعاة

جاء في سفر التكوين (فصل ١٥ عد ١٣) أنّ الله ناجى ابراهيم قائلاً: (إنّ نسلك سيكونون غرباء في أرض ليست لهم، ويستعبدون لهم ويعذّبونهم أربع مئة سنة». ثم جاء في سفر الخروج (فصل ١٢ عد ٤٠): «وكان مقام بني إسرائيل الذي أقاموه بمصر أربع مئة وثلاثين سنة». كذا ورد في النصّ العبراني، وفي نسختنا السريانية، وفي اللاتينية العاميّة وغيرها من النسخ، على أنه يظهر من الترجمتين السبعينيّة والسامريّة أنّ مدة الأربع مئة وثلاثين سنة يُراد بها مدة اقامة ابراهيم ونسله في فلسطين ومصر، أي من خروجه من أور الكلدانيين إلى خروجهم من مصر.

ولذلك قال يوسيفوس (ك ٢ من تاريخ اليهود فصل ٦): إنّ العبرانيين خرجوا من مصر لسنة ٤٣٠ من بلوغ أبينا ابراهيم إلى أرض كنعان، ولسنة ٢١٥ من انحدار يعقوب إلى مصر». وقد حذا حذوه في هذا القول كثير من القدماء والحدثاء. على أنّ الأكثرين اعتمدوا نص الأصل العبراني الصريح في الآيتين الآنف ذكرهما، وقد أيّدته سائر الترجمات القديمة غير السبعينية والسامرية.فأثبتوا أنّ مقام بني إسرائيل في مصر من انحدار يعقوب بولده إليها إلى حين خروجهم منها إنما هو أربعمائة وثلاثون سنة لا مئتان وخمس عشرة سنة فقط. وقد أقاموا على ذلك أدلّة وحججاً عديدة لا محلّ الآن لاستقرائها. ومنها أنّ مئتين وخمس عشرة سنة لا

تكفي لتكاثر عدد بني إسرائيل بالمقدار الذي ذكره الكتاب أي ليكون منهم ست مئة ألف مقاتل.

على أنّ الاكتشافات الحديثة زادت في بيان هذا البحث، فإنّ العلّامة إرمان السالف ذكره، اهتدى إلى طريقة للتوفيق بين ما عيّنه الكتاب من سنيّ العبودية وبين الآثار المصرية. وخلاصة ما قال: أجمع مَنْ ذكروا فقرات مانيتون على أنّ يوسف كان في عهد أبابي آخر ملوك دولة الرُّعاة الأولى. وصرَّح شنسلّوس أنه استوزره للسنة ١٧ من ملكه آخذاً ذلك بلا بدّ عن رواية الإفريقيّ. ومن المجمع عليه في ذلك العصر أنّ خروج بني إسرائيل من مصر كان في عهد أموسيس المسمّى منفتاح بن رعمسيس الثاني. فيلزم أن تكون سنوّ العبودية من عهد أبابي إلى عهد منفتاح. على أنّ الدولتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة حكمتا مصر، على رواية الإفريقيّ ٥١٨ سنة؛ أي الدولة الخامسة عشرة ٢٨٤ سنة والسادسة عشرة ٢٣٤ سنة. وأعقبتها الدولة السابعة عشرة واستمرّت ١٥١ سنة في الحرب مع الدولة الثامنة عشرة الوطنية. فكان في مصر دولتان معاً. وعليه فيمكن حساب سنيّ العبودية على هذه الصورة.

سنة ٤٥ بقي من مدة أبابي بعد أن استوزر يوسف لأنه ملك ٦١ سنة وبعض أشهر واستوزره في ١٧ لملكه.

٢٣٤ مدة الدولة السادسة عشرة.

١٥١ مدة الدولة السابعة عشرة مع الثامنة عشرة الوطنية وإلى عهد منفتاح.

٤٣٠ فالمجموع أربع مئة وثلاثون سنة طبق ما في الكتاب عن سنيّ العبودية.

هذا ملخَّص ما رواه دي كارا (في صفحة ١١٢ وما يليها من كتابه في الملوك الرُّعاة) عن إرمان. ويتراءى إلى أنّ فيه نظراً من قبيل أنّ الدولة الثامنة عشرة كان منها عدة ملوك بعد طرد الرُّعاة. وكذا كان بعض فراعنة الدولة التاسعة عشرة قبل منفتاح. ولم يخرج بنو إسرائيل من مصر على أثر طرد الرُّعاة منها بل بعد مدة. وأرى أننا لو اعتمدنا رواية يوسيفوس لفِقَر مانيتون في أنّ مدة ملك الرُّعاة كانت ٥١١ سنة ولبثوا سنين عديدة محاربين، لكان البرهان أقوى وأسلم من النقد، إذ تكون ١٥١ سنة أو القسم الأكبر منها عبارة عن مدة ملوك الدولة الثامنة عشرة

بعد طرد الرُّعاة وبعض ملوك الدولة التاسعة عشرة إلى منفتاح فرعون الخروج.

على أننا لا نستند إلى هذا البرهان وحده في بيان سنيّ العبودية بآثار مصر بل لنا غيره. فقد مرَّ أنه يتبيَّن من صفيحة رعمسيس الثاني أنّ بين ملك أبابي ورعمسيس هذا أربعمائة سنة، وقد انقضت عبودية بني إسرائيل في عهد ابنه منفتاح. وعليه فتكون مدة الثلاثين سنة انقضت بين حين كتابة الصفيحة وحين خروج بني إسرائيل من مصر.

قد أجاد بروغش العلّامة في الآثار المصرية بملاحظات مهمّة في هذا الغرض فنلخّصها هنا. قال (في كتابه تاريخ مصر صفحة ١٧٤ طبعة ٢) إذ جعلنا ملك رعمسيس الثاني سنة ١٣٥٠ ق.م اعتماداً على أصحّ الأقوال في هذه المباحث كان ملك أبابي سنة ١٧٥٠ (لجعل صفيحة رعمسيس بينهما أربعمائة سنة). ويزيد هذا الأمر بياناً وأهميّة مطابقته لنصّ الأسفار المقدَّسة في عداد السنين التي أقام فيها بنو إسرائيل في مصر (وذكر الآيات التي ذكرناها آنفاً). ولما كان خروج بني إسرائيل من مصر بعد وفاة رعمسيس الثاني الذي جلس على منصّة الملك نحواً من خمسين سنة، فيكون منفتاح الأوّل فرعون الخروج ارتقى إلى عرش الملك سنة ١٣٠٠. فإذا أضفنا إليها ٤٣٠ سنة مدة اقامة بني إسرائيل في مصر كان المجموع ١٧٣٠ سنة. وانطبق ذلك ضرورة على عهد وزارة يوسف في مصر إذ أتى إليه أبوه وأخوته من فلسطين وابتدأت سنوّ العبودية.

وانطبق أيضاً على عهد ولاية الملوك الرُّعاة في مصر وخاصة على عهد أحدهم أبابي المسمّى نوب أيضاً وسمّاه اليونان أبوفيس. واختتم بروغش كلامه قائلاً إنّ هذا الطباق بين نصّ الكتاب والآثار المصرية لهو ذو أهميّة كبرى واعتبار مزيد، ويؤيّده التقليد المسيحيّ القديم الذي حفظه لنا سينشلوس ولم يعبه أحد؛ وهو أنّ يوسف دبَّر شؤون مصر في أيام الملك أبابي الذي تسمّيه الآثار أبوبي. وزادت ذلك بياناً وثبوتاً صفيحة اكتُشفت في مصر من أمد قريب اتّضح منها حصول مجاعة في مصر دامت سنين عديدة. ودلَّت قرائن الحال على أنّ وقوعها كان في مدة تدبير يوسف شؤون مصر (وسآتي على ذكر هذه الصفيحة في الكلام على يوسف في تاريخ العبرانيين) فنسدي الله حمداً وشكراً لكشفه عن مثل هذه الآثار القديمة في هذا العصر الطامي بالغواية والعتوّ.

عد ٩٥

أعمال الملوك الرّعاة في مصر

شكا مانيتون هؤلاء الملوك بثلاث جنايات فظيعة: حرق المدن، ونقض هياكل الآلهة، والقسوة على الأبرياء من المصريين، إذ أبسلوا بعضاً وسبوا النساء والأطفال. وتابع كثير من القدماء والحدثاء مانيتون في بثّ هذه الشكايات وأمثالها. على أنّ الأب دي كارا عُني بتبرئة ساحتهم من هذه التّهم مستمسكاً بأنّ لا دليل في الآثار المصرية على ارتكابهم مثل هذه الأمور الفظيعة إلا شكاية مانيتون التي يلزم حملها على الشحناء والتعصّب لقومه. كما يظهر من وصفه الملوك الرّعاة بالخسّة والوغادة، ومن تذنّبه عليهم باستيلائهم على مصر دون شديد مقاومة. والمصريون أَولى بنسبة هذا الذنب إليهم، ثم من تسميته لهم وباء ونقمة وما أشبه من الأوصاف الذميمة.

وأقام دي كارا برهاناً وضعيّاً على غرضه فقال إنه اكتُشف في أخصّ مدن الرّعاة كنانيس (سان على مقربة من دمياط) وبوبست (تل البسطة الآن في جنوب الزقازيق) عن تماثيل وصور تمثّل ملوكاً تقدّموا عصر الرّعاة. وبعض هذه التماثيل يُشاهد الآن في متاحف أوروبا نُقل إليها من المدن المذكورة. ولم ينقض الرّعاة هيكل تانيس الذي كان قبلهم وبعض التماثيل التي كانت فيه حُفظت في أيام الرّعاة وكُشف عن بعضها ولم يزل بعضها، على ما يُظنّ، مطموراً بالأنقاض. وقد اهتدى نافيل Naville في سنة ٨٧ و٨٨ و٨٩ الأخيرة في بوبست إلى آثار عديدة للدول السابقة الرّعاة لم ينقضوها في أيامهم. ووجد بينها تماثيل للملوك الرّعاة منها تمثال أبابي أشهرهم. وحسبك الآثار المكدّسة في متحف بولاق ومتاحف أوروبا منقولة إليها من مصر السفلى، وهي للملوك وآلهة قبل عصر الرّعاة. وإذا كانت تهمتا مانيتون الأوليان غير صحيحتين فيحقّ لنا أن نمتري في الثالثة وهي القسوة على الأبرياء واضطهادهم، وإن صحّ شيء منها فيلزم حمله على عادة الأيام السالفة، وعلى حاجة الرّعاة إليه لتأييد ملكهم، ذاك دأب كل الغزاة. ولهذا قد أضرب بعض علماء هذا العصر بعد الاكتشافات الحديثة عما كانوا قد عابوا الرّعاة به استناداً إلى ما رواه مانيتون.

عد ٩٦

ندرة آثار الرُّعاة

وأما الذي تركه الملوك الرُّعاة من الآثار المخلَّدة لذكرهم أو المشرِّفة لبلاد تولّوا أمرها، وأما الذي أتوا به من المنافع العامّة أو التجارة بترويج سوقها أو بسط نطاقها بين مصر وفينيقية وسورية وبلاد العرب وغيرها؛ فكل ذلك ندرت آثاره والتاث الدليل عليه. فترى استيلاءهم على مصر مدة خمسة قرون أبكم، لم يفصح عما أتوه أو تأتّى عليهم. وقد اشتغل أهل البحث في الآثار المصرية في بيان علّة هذا الندور في آثار الرُّعاة، فنسبه أحدهم -العالِم فيادمان الألمانيّ (في كتابه تاريخ مصر) - إلى عدم الإهتداء حتى الآن إلى آثارهم قائلاً إنّ كشف مريات في تانيس عن بعض تماثيل الملوك الرُّعاة يبعثنا على الظنّ أنّ لهم آثاراً أخرى في محالّ أخرى. وأنكر ما أوجبه بعضهم من أنّ الدول التابعة قد محت آثارهم بغضاً بهم، وحاول أن يثبت أنّ هذه البغضاء لم تكن.

على أنّ العلّامة دي كارا ردَّ زعمه هذا مثبتاً وجود البغضاء والضغينة بين الفريقين، وهو أمر طبيعيّ، لكنه أنكر أن تكون هذه الضغائن حملت المصريين على إزالة آثار الرُّعاة، ورأى أنّ هذه الآثار قليلة بنفسها لكنها غير معدومة. وعلة ندرتها ما كانت عليه حالهم. فإنّ الملوك الأوّلين منهم أشغلهم عن اقامة الآثار جدّهم في بناء مدينة، وجعلها قلعة حصينة تقيهم وثبات أعدائهم المصريين وغيرهم عليهم، وهي مدينة آفارى (يرجَّح أنّ موقعها في قرب المحلّ المعروف الآن بتل الهر أو فرما في شرقي خليج السويس). ولم تكن لهم حاجة إلى بناء هياكل وقصور ملكيّة استغناء بما بناه قبلهم ملوك الدول السابقة ولاسيما الدولة الثانية عشرة. وإذا راعينا أنّ ملوك الدولة السادسة عشرة من الرُّعاة أصبحوا مصريين يستخدمون عملَة ومهندسين مصريين في الأبنية والتصوير والحفر والنقوش مقتفين آثار المدارس المصرية، ظهر لنا أنه لا يمكن تمييز آثار الرُّعاة عن آثار الملوك السابقين أو التابعين لهم، بل يلتبس بعض هذه الآثار ببعضها. وأما ملوك الدولة السابعة عشرة فانقضت مدتهم في الحروب مع ملوك تاب الوطنيين، فلم ينفسح لهم المجال للعناية بآثار مخلّدة أو منافع عامة.

عد ٩٧

حروب الملوك الرُّعاة

يظهر أنّ قبائل سورية وبلاد العرب لم تقلق خواطر الملوك الرُّعاة ولا سطت على أملاكهم في كل مدة ولايتهم على مصر، لما كان لهذه القبائل من جرّ النّفع والمغنم من قبل هؤلاء الملوك. فإنّ اشتراك الفريقين في اللغة والدم والوطن القديم كان ميسّراً لمَنْ جاؤا من سورية وبلاد العرب إلى مصر كسب المال ورواج سوق التجارة وأسباب العمل والراحة وحسن المعاملة حتى هاجر جمٌّ غفير من سورية والعربية إلى مصر، خاصة في أيام المحن والمجاعات. كما وقع لبني إسرائيل على أنّ الذين كانوا ينكدون عيش الرُّعاة ويسلبون راحتهم إنما هم الملوك الوطنيون الذين استمرّوا في تاب ليون مصر العليا والصعيد. ومن أغلاط الملوك الرُّعاة جعلهم عاصمة ملكهم في مصر السفلى في الطرف الشرقي من القطر أي في تانيس (مرّ أنها سان في ناحية دمياط)، وفي بوبست (في جانب الزقازيق). فكانوا بذلك نائين ومنفصلين عن مركز الشعب المصريّ، فلو أقاموا في مصر العليا لأكرهوا الملوك الوطنيين أن يتوغّلوا في البرية بعيدين عن الإتّصال بشعبهم، يتعسّر عليهم إجهاز العساكر واعداد الأزودة والعلوفات لها. فإبقاؤهم في تاب (طيبة) كان كأنه إبقاء مفاتيح البلاد في يدهم.

وأشهر الحروب بين الملوك الرُّعاة وملوك تاب الحرب الأخيرة التي استمرّ لظاها متسعّراً قرناً ونيّفاً. وكانت أسبابها القريبة على رأي جمهور المؤرّخين، مسائل دينيّة. ولا غرو فإنّ هذه المسائل كثيراً ما كانت سبباً لحروب عديدة بين كثير من الأمم كما أنبأتنا التواريخ. فقد كان الملوك الوطنيون يتأوّهون أبداً من استيلاء الأجانب على بلادهم، ويفترصون كل وسيلة لاسترداد شرف وطنهم. وكان يمالئهم على ذلك كثير من الولاة الوطنيين في مصر العليا والسفلى أيضاً.

وكان في بدء هذه الحرب أنّ أبابي،أحد الملوك الرُّعاة الآنف الذكر، أوفد إلى ملك تاب (طيبة) يطلب إليه أن يقرّ بشات أو شتخ معبود الرُّعاة مقدّماً إياه على آلهة مصر، فأبى الإذعان لطلبه وجعل ذلك وسيلة لتهييج قومه. وقد أجمع الباحثون في الآثار المصرية إلا مسبرو على أنّ البابير المنسوب إلى ساليار الأوّل السالف ذكره، ينطوي على ذكر صحيح الأسباب التي دعت إلى هذه الحرب.

وقال مسبرو إنّ ما في هذا البابير حكاية لا تاريخ وقول جمهورهم أظهر وأصحّ.

قد أنبأنا كاتب هذا البابير أنّ ملك تاب الذي أرسل أبابي الوفد إليه كان اسمه ساكن انده وتأويله الشمس المحاربة أو الظافرة، وأنه قد سُمِّي بهذا الاسم ثلاثة من ملوك تاب حاربوا جميعاً الملوك الرُّعاة. لكنّ الحرب القاضية كانت في عهد الثالث منهم المسمّى ساكن انره الأكبر. وفي عهد أحمس الأوّل من سلالة هؤلاء الملوك، وهو الذي أذلَّ الرُّعاة وطردهم من مصر. وكان أوّل ملوك الدولة الثامنة عشرة التي انبسطت ولايتها على مصر كلها. وهاك ما كتب في بابير سالياو (صفحة أولى): «كان هذا لما كانت النقم حالَّة على بلاد مصر وعند هذه الأحداث لم يكن سيد ولا حيوة ولا صحة ولا ملك. ولما كان الملك ساكن انده هيكاً أي ملكاً في أنحاء الجنوب كانت النّقم حالَّة في مدينة العَمُو (يُراد بهم السوريون أي الرُّعاة). وكان الأور (أي السيد أو الرئيس) أبابي في مدينة آفارى. وكان سكان البلاد كلّها يحملون إليه حاصلاتها. وكان أهل الشمال (يريد مصر السفلى) يأتونه بأحسن ما عندهم. وجعل أبابي الملك شت أو شتخ إلهه وربه. ولم يعبد أحداً من آلهة البلاد كلّها، وأقام له هيكلاً بديع الصناعة يدوم قروناً. وجعل أعياداً وعيَّن أيّاماً لتقدمة الضحايا كل يوم لشتخ» (صفحة ثانية): «وأراد أبابي أن يرسل وفداً إلى الملك ساكن انده في بلاد الجنوب. ودعا بعد أيّام كتبتَه العلماء يستثيرهم في الوفادة إلى ساكن انده الملك (وهنا عبارات ممحوَّة في البابير إلى أن يُقرأ).

لا أريد أن أعبد أحداً من آلهة البلاد كلها إلا آمون رع ملك الآلهة. وبعد أيّام طوال أرسل أبابي إلى رئيس الجنوب في بلاد الجنوب اعلاناً لقَّنه إيّاه كتّابه العلماء، فسار وفد أبابي إلى رئيس الجنوب ومثل بحضرته فسأل الوفد: مَنْ بعثكم إلى بلاد الجنوب، ولِمَ أتيتم لتجسوا البلاد؟ فأجابه الوفد: أوفدنا إليك الملك أبابي لنقول لك... لعمري لم أستطع أن أذوق طعم الوسن ليلاً ولا نهاراً... ولبث رئيس الجنوب برهة مرتعداً لا يدري ما يجيب به وفد أبابي الملك... (صفحة ثالثة): «ودعا رئيس الجنوب كبار قوّاده وعمّاله والخبراء في بلاده يكاشفهم بما بثَّه إليه وفد الملك أبابي، فلم يفه أحدهم ببنت شفة. وأخذ الرّعب والدّهش منهم كلّ مأخذ ولم يدروا ما يجيبون به إيجاباً أو سلباً الملك أبابي أرسل...» وهنا يقطع الكاتب الكلام ويأخذ في كلام آخر.

وعلى اختلاف الترجمة لهذا البابير لغموض بعض عباراته وتشويه يتبيَّن منه ما لا يمكن الامتراء بصحته؛ وهو أولاً وجود ملك من الرُّعاة أبابي، كما يقرأ اسمه على تمثاله الذي اكتشفه مريات في تانيس. ثانياً ملك من ملوك تاب يُسمّى ساكن انده يقرأ اسمه في بابير آخر يُعرف أبوّت. ثالثا اسم عَمُو مع اسم آفارى مدينة العمو أي الملوك الرُّعاة؛ وها دلالة واضحة على أنّ هؤلاء الملوك من سورية الشمالية أصلاً، لأنّ خطوط الثامنة عشرة سمَّت به سكان سورية الشمالية. رابعاً إنّ عبادة الإله شت أ خاصّة بالرُّعاة، وقد كانت قبلاً عند الحثّيين في شمالي سورية واستمرّ عندهم هنالك. خامساً إنه كان عند الملوك الرُّعاة صنائع وعلوم، دلَّ عليها هيكلاً بديع الصّناعة يدوم قروناً للإله شت، ووجود كتّاب علماء في د سادساً إنّ الحروب بين الفريقين ابتدأت في أيام أبابي ملك الرُّعاة وساك ملك الجنوب. والظاهر من آثار أخرى أنّ هذه الحروب استمرّت أعواماً وإن لم نفز حتى الآن بما يدلّ على تفصيل مواقعها وظروف مكانها وزمانه ظفرنا بآثار تدلّ على نهايتها كما سترى.

عد ٩٨

حصار آفارى محصن الرُّعاة

قد كُشف عن خطوط قديمة نُقشت على جدار أحد المدافن القديمة حذاء قرية الكاب في مصر، تنبئ تلك الخطوط بمواقع الحرب الأخيرة على الرُّعاة وحصار قلعة آفارى. وتشتمل على ترجمة رجل يُسمّى أحمس بن أب البحّارة الذي شهد هذه الحرب وتوغَّل في معامعها. وهاك ترجمة ما كتب مدفنه: «أحمس الربان ابن أبانا المغفور له إليكم أيها الناس أجمع أسوق لأقصَّ عليكم ما عرض لي. فقد نلت قلائد الذهب سبع دفعات على مشهد البلاد قاطبة، وكسبت عبيداً وإماءً عدداً عديداً، وما حزته بالسلاح من والفخر يدوم مخلَّداً في هذه البلاد. فقد جئت إلى الوجود (وُلدت) في سوبان (الكاب) وكان أبي عاملاً عند الملك ساكن انرة، وكان اسمه رونت. ودونك ما فعلته أنا إذ كنت ربّاناً مكانه في السفينة المسمّاة باماس

في زمان الملك نباهتبرا (أحمس الأوّل) المغفور له. وكنت بعد شاباً في سنّ لا أعرف النساءَ به وألبس ملابس الشبّان... أقمنا الحصار على مدينة آفارى وكنت أحارب مترجّلاً بحضرة جلالة الملك فأعلى رتبتي. وبينما نحن نحارب في جانب قناة بتنكو في آفارى قتلت عدوّاً. وعلم بذلك مخبر الملك فرفعه إليه، فتفضّل عليَّ بقلادة ذهب. وجاهدتُ مرّةً أخرى في هذا المحلّ وأخذت يداً (أي قتل عدوّاً وأخذ يده) فنلتُ مرّةً أخرى قلادة الذهب. ويوم كان الوغى في نوكامي جنوب هذه المدينة أخذت أسيراً حيّاً وألقيتُ نفسي في الماء بعيداً كي لا أمرَّ في طريق المدينة فعبرت الماء به. ودرى بذلك مخبر الملك فتحلّيت بالذهب مرّةً أخرى. وقد افتتحنا آفارى. وأخذت حينئذٍ رجلاً وثلاث نساء أربعة رؤوس أسرى فوهبتهم جلالته لي عبيداً. وحاصرنا شاروحانا (في فلسطين لا يُعلَم محلّها إلى الآن) في السنة الخامسة فافتتحتها عظمته. وأسرت منها امرأتين، وقتلت رجلاً فأعطيت أيضاً ذهباً ثميناً ووُهب لي الأسرى عبيداً.

وبعد أن فتكت عظمته بالماناساتي (أي الملوك الرّعاة) عادت حالاً تستأصل الأعداء في بلاد النوبة فعمل بهم مذبحةً». ويتبع كلامه في غارة أحمس الأوّل على جنوب مصر إلى الحبشة وهو يصحب الملك ويعدّد انتصارات أخرى له وفوزه بقلائد ذهب أخرى. ويقول إنّ الملك وهبه دفعتين في كل منها خمسة استا من الأرضين (وهو مقياس للأرض متعارَف عندهم)، وهذا مشعرٌ بشيء مما جاء في سفر التكوين من أنّ يوسف جعل أرض مصر ملكاً لفرعون يتصرّف به كيف شاء. إلى أن يقول صاحب المدفن إنه نال الحظّ بأن يصحب الملك أمنوفي الأوّل إلى الحبشة لإيساع تخوم مصر، وإنّ الملك أعلى مقامه وسمّاه محارب الملك ثم أمير البحرين. وإنه صحب توتمس الأوّل إلى بلاد النوبة إلى أن يقول: «وبعد هذا تحوّلت عظمته نحو الروتانو (سكان سورية) انتقاماً منهم (لعلّ أهلها أنجدوا الرّعاة أو قبلوهم بالترحاب بعد طردهم من مصر). فبلغ نهرينا (لعلّ المراد البلاد التي بين العاصي والفرات كما ورد أكثر من مرّة) حيث التقى بذاك الوغد الخسيس (لم يذكر اسمه). وأعدَّ نفسه للقتال فأثخنت جلالته في أرضهم واستاقت عدداً عديداً من الأسرى أحياء. وكنت أنا إذ ذاك على قيادة جيوشنا. وشاهد الملك أعمالي المشرّفة وأخذت مركبة مع خيلها ومَنْ كانوا فوقها أسرى أحياء وأتيت بهم إلى عظمته

فتكرّم عليَّ بالذهب دفعةً أخرى. وقد طعنتُ في السنّ وبلغت الشيخوخة... فهذا ذكر أعمالي الخطيرة وسأستريح في المدفن الذي أعددته لنفسي».

وقد وُجدت خطوط أخرى نُقشت في عصر الخطوط السالف ذكرها على صفيحة هي الآن في متحف اللوفر في باريس أخذت إليه عن مدفن رجل آخر اسمه أحمس أيضاً؛ فإنّ هذا الاسم كان يُسمّى به كثيرون في عهد الدولة الثامنة عشرة التي ابتدأت بانتصارات أحمس الأوّل على الرّعاة. ويُعرف صاحب الصفيحة بأحمس بنسوب وخلاصة ما كتب فيها: «إنه خدم أحمس الأوّل وأمانوفي الأوّل، وتوتمس الأوّل، وتوتمس الثاني، وإنه جاهد في حروبهم مع الرّعاة وفي النوبة والحبشة وبلاد العرب وسورية وقتل وأسر من الأعداء ونال قلائد الذهب». فهذه الخطوط وغيرها تثبت الحروب الأخيرة مع الرّعاة وحصار قلعتهم آفارى وشدّة دفاعهم أمداً مديداً. ولكن ليس فيها بيّنة قاطعة على افتتاحه عنوةً وقول أحمس أمير البحّارة إنهم افتتحوا آفارى لا يفهم على إطلاقه كما سترى.

عد ٩٩

استسلام آفارى وخروج الرّعاة منها

قال لانرمان (مجلد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ١٥٧) قال مانيتون في فقرة حفظها لنا يوسيفوس: «وغُلب الرّعاة أخيراً وطُردوا من أعمال مصر فتألّبوا في بقعة اتساعها عشرة آلاف أرور (مقياس للأرض) تُسمّى آفارى، وأحاط الرّعاة هذه البقعة بسور رفيع منيع احتفاظاً على أموالهم ومقتناهم. فحاول ابن الملك أخذ المدينة عنوةً فحاصرها محدقاً بها بأربعمائة وثمانين ألف رجل. ولما يئس من افتتاحها صالحهم على شرط أن يترك الأعداء أرض مصر ويذهبوا آمنين حيث شاءوا فخرجوا بأموالهم ومقتناهم، وكان عديدهم يبلغ إلى مئتين وأربعين ألفاً، وأخذوا طريق البريّة إلى سورية. ولخوفهم من دولة الآشوريين المستحوذة يومئذٍ على آسيا لبثوا في البلاد المسمّاة الآن اليهودية. وصوّب لانرمان شهادة مانيتون هذه لمطابقة الآثار لجوهر الخبر الذي روته. وذكر من هذه الآثار ما رويناه آنفاً مما كتب على مدفن أحمس أمير البحّارين. وقد لاحظ الأب دي كارا (صفحة ٣٥٠ من كتابه الملوك الرّعاة) أنّ استسلام الرّعاة في آفارى لم يكن إلا لمضايقتهم بقطع طريق الذخائر عنهم، إذ لم

يبقَ إلا مدينة آفارى وقلعتها. وأنّ قول أحمس أمير البحّارين إنهم افتتحوا آفارى وإنّ الملك فتك بالرُّعاة، فيه المبالغة المعتادة في بعض آثار الفراعنة. فلو كان فتك بهم أو قرضهم كما يمكن ترجمة كلمته، لما اضطرَّ بعد خمس سنوات أن يجيش الجيوش لإذلالهم في شروحانا وطردهم منها. ولولا خشيته من معاودة سطوتهم على بلاده مع استفحال أمره في مصر العليا والسفلى لما اضطرَّ إلى هذه الغزوة الحديثة. فقد خرجوا إذاً من آفارى مكرَهين ولكن غير مذلَّلين. ويؤيّده شهادة مانيتون وهو من خصومهم، كما مرَّ، على أنّ كثيرين من هذه العشيرة التي أقامت قروناً في مصر آثروا العبودية في مصر الخصبة على الارتحال والاغتراب، فاستمرّوا في ناحية مصر الشرقيّة مع غيرهم من العشائر السورية وبني إسرائيل، وسمح لهم أحمس كلفاً بالانتفاع بهم أن يمكثوا لحراثة الأرضين المسلَّمة إليهم، ولم يخرجوا بعداً كما خرج بنو إسرائيل. ولذا ذهب بعضهم ولاسيما لانرمان في تاريخه الشرقي أنّ من بقايا عشيرة الرُّعاة سكان القرى التي حول بحيرة المنزلة، مستدلّين على ذلك بهيئتهم الطبيعية أيضاً الممتازة عن هيئة سائر المصريين بقوة بنيتهم وطول وجوههم إلى غير ذلك من السمات المميَّزة لهم والتي يقولون إنها أشبه بهيئة بعض الملوك الرُّعاة في تماثيلهم التي وُجدت في تانيس كما مرَّ.

عد ١٠٠

موقع مدينة آفارى متحصَّن الرُّعاة

أطال الأب دي كارا (في فصل ١٧ من كتابه الملوك الرُّعاة) الكلام في اسم آفارى وموقعها فقال إنّ اسمها ورد في فقر مانيتون وفي ترجمة أحمس أمير البحارين الآنفة الذكر وعلى تماثيل الملوك الرعاة التي وُجدت في تانيس. وأورد أقوال العلماء في أصل هذا الاسم وموقع المحل المُسمّى به فقال ظنّ شمبوليون أنّ تأويل آفارى في اللغة المصريّة اللعن والتجديف أي المدينة الملعونة إشارة إلى مقتهم الرعاة، وأنّ اليونان سمّوها إيرابوليس. فكانت عنده آفارى وإيرابوليس واحدة وهذا خطأ ظاهر، ولا عجب فقد قال شمبوليون به قبل حلّه الرموز الهيروكليفيّة. وقال لبسيوس إنّ بالوس وآفارى مدينة واحدة موقعها في شرقي ترعة بوبست (تل البسطة) في جانب الزقازيق، وإنّ اسمها القديم آفارى ثم سُمّيت بالوس، وإنّ كلمة

بالوس ليست اللفظ اليوناني الذي معناه الطين أو الوحل كما وهم علماء اليونان وتابعهم العرب بتسميتها طينة، بل أُخذ هذا الاسم عن بالستين أحط الأبطال الذي ورد في الأقاصيص أنه أتى من سورية فأقام بقومه هناك. ورأى ليبسيوس أنّ أخربة المحلّ المُسمّى تل الهر، الممتدة إلى بالوس، هي أطلال آفارى. وعليه فتل الهر وآفارى مدينة واحدة في القدم. ووافقه على قوله شباس وبروغش الذي قال أيضاً إنّ بالوس كانت في محل القرية المسمّاة الآن فرما عن كلمة قبطيّة فرومى أي مدينة الوحل وفي اليونانيّة بالوس بمعنى الوحل. أما الأب دي كارا، فبعد إيراده هذه الأقوال وغيرها وتنديده بأكثرها، ذهب على سبيل الحدس والتخمين إلى أنّ آفارى وبالوس مدينة واحدة واسمهما واحد، وأنّ فرما قريبة منهما وليست إحداهما، وأنّ كلمة وار أو فار معناها في لغة مصر الهارب أو المرتحل. وعليه فمعنى آفارى بلد المرتحلين أو الهاربين إشارة إلى من ارتحلوا من سورية إلى هناك، وأنّ اسمها اليوناني بال مكسر فار بيدل الفاء بباء والراء بلام للقرب بين مخارج هذه الحروف، وأنّ موقع هذه المدينة ذات الاسمين في شرقي خليج السويس وفي الجنوب الشرقي من بورت سعيد، وأنّ موقع تانيس وهو سان الآن في الجنوب الغربي من بحيرة المنزلة وفي شرقي المنصورة.

مقالة في الفينيقيين

لما كان الفينيقيون فصيلة من قبيلة الكنعانيين استلزم مساق هذا التاريخ وبيانه أن نأتي أولاً على كلام موجز في الكنعانيين نجعله تمهيداً لكلامنا المخصوص بالفينيقيين.

الفصل الأول

الكنعانيون

عد ١٠١

أصل الكنعانيين ومهاجرهم الأولى وداعي ارتحالهم إلى سورية

مرَّ في عد ٥٤ ذكر العشائر التي توطَّنت سورية قبل أن يغشاها الكنعانيون. وأما هؤلاء فلا مرية أنهم ولد كنعان بن حام بن نوح وعليه صريح نصّ الكتاب (تك فصل ١٠). ولكن أين كانوا قبل أن هاجروا إلى سورية وأقاموا فيها رحالاً في بادئ أمرهم. فما رواه هيرودوت نقلاً عن تقليد الفينيقيين الذي تلقّاه في صور نفسها، وما ذكره استرابون من تقليد سكان بلاد العرب الجنوبية، وما جاء في بعض الآثار القديمة؛ كل ذلك مجمع على أنّ الكنعانيين قطنوا أولاً بجانب الكوشيين ولد عمّهم كوش على شاطئ خليج العجم من جهة بلاد العرب. وذكر بلين أنه كان هناك في أيامه عمل يسمّى بلاد كنعان. وروى استرابون أنّ هناك جزيرتين تسمّيان صور وارواد وهما من الجزائر المعروفة الآن بجزائر البحرين وقال: «إنّ فيهما هياكل

أشبه بهياكل الفينيقيين. وإذا صدَّقنا قول السكان هنالك كان سكان صور وارواد في فينيقية من منازيحهم». ويظهر منه أنهم سمّوا صوراً وارواد باسم محالّ مهاجرهم الأولى، ذاك شأن كثير من المهاجرين إلى الآن.

وأما ما كان الداعي إلى مهاجرة وطنهم وانتجاع سورية فقال هيرودوت إنّ زلازل توالت عليهم في بلادهم أكرهتهم على الاغتراب. وجاء في الكتاب السرياني الكلدانيّ الذي أُلِّف في بابل في صدر النصرانية موسوماً بالحراثة النبطية. (ذكره لانرمان في تاريخه مجلد ٦ صفحة ١٠٦ طبعة ٩) إنّ الكنعانيين طُردوا من أوطانهم لنزاع وقع لهم مع الملوك الكوشيين حكّام بابل من ذريّة نمرود. وتؤيّده أقوال كثير من المؤرّخين العرب الذين ذكروا مهاجرة الكنعانيين إلى سورية وسمّوهم العمالقة من نسل حام – تمييزاً لهم عن العمالقة من نسل سام – وجعلوا سبب انتزاحهم حرباً تلظّت بينهم وبين سلالة نمرود. رواه العالِم برسفال في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام[1]. وقال لانرمان (في المحل المذكور) أما مهاجرة الكنعانيين أوطانهم لداعي خصومة ونزاع فأمر قريب من الصواب، ويرجّح الظنّ صحّته. فإنّ أكثر ارتحالات الأمم كان لها مثل هذا الداعي. وأما أنّ هذا النزاع كان مع ابناء عمّهم الكوشيين فأمر يحقّ الامتراء فيه. وصوّب أن تكون علّة هذه المهاجرة غارة الملوك العيلاميين على بابل نحو سنة ٢٢٥٠ق.م وقرضهم دولة الكوشيين القديمة؛ فهذا من الأحداث التاريخيّة المهمة التي يرجّح أن كان من نتائجها إكراه العشائر الكنعانية الحاميّة على الرحيل من جانب الخليج العجمي إلى سورية. وسترى أنّ هذه المهاجرة كانت معاصرة لتاريخ الغارة السالفة الذكر.

عد ١٠٢
زمان ارتحال الكنعانيين إلى سورية

روى هيرودوت في تاريخه أنّ هيكل ملكرت الشهير في جزيرة صور مضى عليه إلى أيامه ٢٣٠٠ سنة بحسب أخبار الفينيقيين له. لكنّ هيرودوت وُلد سنة ٤٨٤ ق.م ونشر تاريخه سنة ٤٥٦ ق.م. وعليه فيكون ذلك الهيكل بُنيَ نحو سنة

Caussin de Perceval. Histoire des Arabes Avant L'islamisme to pa. 118. (١)

٢٧٥٠ ق.م وقد بناه الكنعانيون؛ وهذا غير صحيح بل هو محمول على تعظيم الفينيقيين قدم هيكلهم أو على حساب هيرودوت السنين بحسب المواليد، فلا يستقيم حسابه، ففي ذلك زيادة قرون. وأصحّ ما يظهر من البابير المحفوظ الآن في متحف برلين وقد ترجم أكثره العالِم شباس الإفرنسيّ. فهذا البابير ينطوي على تقرير رفعه عامل مصريّ أرسل في أيام الملك آمون أمهات الأوّل من ملوك الدولة الثانية عشرة في مصر إلى بلاد آدوم وجرار وغيرهما من الأعمال في جنوبي فلسطين، ليتجسَّس أخبار هذه البلاد ويسبر حالة سكانها. ففي هذا التقرير لا تجد أثراً لوجود عشائر الكنعانيين في فلسطين بل يظهر منه أنّ سكان هذه البلاد كلّهم من الساتي الذين كان يُراد بهم في أيام الدولة الثانية عشرة قوم ساميّون يسكنون هذه البلاد مع الرفائيم أي الجبابرة، وإن أطلق هذا الاسم في عهد الدول المتأخّرة على سكان سورية على اختلاف أصولهم. وقد وُجدت آثار أخرى منذ أيام الدولة الثانية عشرة أيضاً تصرِّح أنه لا مجاور للمصريين من جهة سورية في ذلك العهد إلا العشائر التي من ذريّة العمو. فكان بنو مصرائيم يسمّون ولد عمهم سام عَمُو، وهي كلمة ساميّة معناها الشعب وفي السريانية ܥܡܐ .

على أنّ الكتاب المقدَّس أنبأنا بأنّ انتجاع الكنعانيين سورية كان قبل أن يحتلَّها ابراهيم آتياً من أور الكلدانيين، فإنه قال (تك فصل ١٢ عد ٦): «واجتاز ابرام في الأرض إلى موضع شكيم وإلى بلوطة ممرة. والكنعانيون حينئذٍ في الأرض وسترى أنّ مهاجرة ابراهيم إلى سورية كانت في القرن العشرين أو الحادي والعشرين قبل الميلاد. ولم تبن آية الكتاب أَمن زمان مديد أَم وجيز كان الكنعانيون في الأرض التي بلغها ابراهيم والذي حدس فيه لانرمان وغيره أنّ حلول الكنعانيين في سورية كان بين سنة ٢٢٥٠ وسنة ٢٣٠٠ قبل المسيح. وقالوا إنّ هذا يطابق عصر ثورة العيلاميين على الملوك الكوشيين في بابل وأنحائها، إذ جعلوا مهاجرة الكنعانيين من مسبّبات تلك الحوادث.

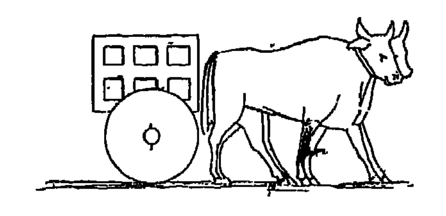
عد ١٠٣

المحال التي توطنها الكنعانيون في سورية

قد سلف في عد ٣٧ ذكر المحالّ التي احتلّتها عشائر الكنعانيين الإحدى عشرة في سورية. ونزيد على ذلك هنا أنّ الكنعانيين لم يكونوا أوّل السكان في سورية بل

سبقهم إليها الآراميون وغيرهم من العشائر الساميّة. وعند احتلال الكنعانيين هذه البلاد أزاحوا بعض السكان الأوّلين عن مواطنهم واستمرّ بعضهم في محالّهم الأولى. وذهب بعض العلماء منهم الأب مرتين اليسوعيّ في كتابه «تاريخ لبنان» الذي نشرت جريدة البشير قسماً منه من أمد قريب أنّ السكان الأقدمين في مملكتَي جبيل وبيروت لم يكونوا من الكنعانيين بل من الآراميين ولد آرام بن سام بن نوح. وأنّ بناء مدينة جبيل كان قبل حلول الكنعانيين في سورية. وقد أقاموا على ذلك حججاً وأدلّة نكتفي بذكر بعضها. فمنها؛ أولاً أنّ موسى جعل تخوم الكنعانيين صيدا شمالاً وجرار وغزة جنوباً (تك فصل ١٠ عد ١٩) وسنأتي على بيان ما يرد على هذا من قبيل اقامة عشائر كنعانية في الشمال أيضاً كالعرقيين والأرواديين وغيرهم. ثانياً أنّ اسم معبود الجبيليين والبيروتيين يختلف عن اسم معبود الكنعانيين؛ فهؤلاء كانوا يُسمّون معبودهم بعلاً وأولئك يُسمّون معبودهم إيل. فقد وُجدت آثار للآراميين نُقش عليها اسم إيل، وآثار أخرى للكنعانيين نُقش عليها اسم بعل. ثالثاً أنه قد أنبأت التواريخ والآثار بمحالفة أو عهدة بين الكنعانيين وبين الجبيليين والبيروتيين فيتبادر إلى الفهم من ذلك أنهم لم يكونوا من قبيلة واحدة أصلاً. وليس لقدماء هذه الأنحاء إلا أصلان آرام وكنعان. فإن لم يكن البيروتيون والجبيليون الأقدمون كنعانيين فلا يعدّون أن يكونوا آراميين. رابعاً أنه قد ثبت بالتواريخ وشهادة الآثار والأقاصيص التي لا تخلو غالباً من أصل تاريخيّ أنّ جبيل عريقة في القدم جداً وأنّ بيروت من مستعمراتها. ولا يحتمل الصحّة أنّ هذه السواحل البحريّة لبثت خالية خاوية من السكان إلى أن غشيها الكنعانيون بعد قرون من الطوفان وتفرّق القبائل. ولا نرى الكتاب ولا غيره ذكر مقاماً لإحدى عشائر الكنعانيين بين صيدا وعرقا. ولما كان الآراميون أشهر سكان سورية وقد انتشروا في هذه الأنحاء إلى دمشق، فيظهر من ذلك كلّه أنّ السكان الأقدمين في هذه السواحل وما جاورها من لبنان هم آراميّون أصلاً. يحملنا على هذا القول بيان ما نراه من الصواب لا غرض في النفس للفرار من وصمة لعنة كنعان. ومَنْ يعلم الآن أحاميّ هو أَم ساميّ أَم يافتيّ بعد كرور الدهور وتتالي الغزوات في سورية وتركها فيها بقايا من الفارّين. وأما جعل الكتاب صيدا تخماً لبلاد الكنعانيين من ناحية الشمال مع أنّ العرقيين والسينيين والأرواديين والصماديين والحماتيين كنعانيون أيضاً. وكانت مساكن جميعهم بعيدة عن صيدا نحو الشمال. ففيه أقوال وتفاسير متباينة نرى أظهرها

وأقربها إلى الصواب أنّ موسى قسم الكنعانيين إلى جنوبيين وشماليين وجعل صيداً تخماً شماليّاً للجنوبيين منهم خاصة، لأنّ أرضهم إنما هي الأرض التي ملكها بنو إسرائيل عند افتتاحها فلسطين، ولم يتجاوزوا تخومها قبل أن تملّك داود عليهم. ومهما يكن من تفسير الآية فيظهر منها أنّ سكان البلاد من تخوم صيدا جنوباً إلى تخوم عرقا شمالاً لم يكونوا كنعانيين لاسيما أنّ الممالك قي تلك الأيّام لم تكن إلا عبارة عن أعمال أو كُوَر وأصقاع. ولم يكن للكنعانيين مملكة واحدة بل لكل عشيرة أو صقع مملكة تستقلّ بتدبير شؤونها. وليس ما يمنع من تخلّل عشيرة آراميّة بين بلاد الكنعانيين الجنوبيين والشماليين. وأما قول لانرمان (في المجلد الـ ٦ من تاريخه الشرقي صفحة ١٢٠) إنّ مسكن السينيين كان في لبنان، فهو منقوض بقول نفسه (في المجلد ١ صفحة ٢٧٤) إنهم كانوا يسكنون في شمالي عرقا، وهذا يُستلمح من نظام ذكر الكتاب العرقيين ثم السينيين ثم الأرواديين ثم الصماريين. ومساكن كل عشيرة من هذه في شمالي مساكن الأخرى طالع ما ذكرناه في عد ٣٧. ولا يُعلَم إلى الآن متى اختلط هؤلاء بالكنعانيين ولا كيف كان ذلك. ويظنّ أنه جرى عند استفحال أمر الفينيقيين وانبساط سطوتهم واتساع نطاق تجارتهم.



صورة عربة كنعانية مأخوذة عن احد جدران تلاب (طيبة) في مصر

عد ١٠٤

حال الممالك الكنعانية

قد مرّ أنّ كل عشيرة من الكنعانيين كانت تستقلّ بتدبير شؤونها فيلي أمرها أمير يُسمّونه ملكاً بل كان أحياناً لكل عمل أو مدينة أيضاً ملك. ولا علاقة سيادة أو خضوع بين هؤلاء الملوك. ولم تكن تتّحد كلمتهم إلا إذا فاجأتهم غارة أو حلَّت بهم نكبة عامّة. ولم يكونوا مع هذا ليتألّبوا دائماً عند حلول النّوائب بل كثيراً ما تركوا العدوّ ينكّل ويفتك بهم تباعاً. ولم يكن عندهم عصبيّة ولا تناصر بل توفّرت بينهم العداوات والحروب الأهليّة، حتى بعد أن انضمّ بعض العشائر إلى بعضها بعهدة كما صنع الفينيقيون. فلم يكن للعشيرة الواحدة على الأخرى سيادة تامّة أو مطلقة بل كانوا أحلافاً يتناصرون. وللملك العاصمة المقام الأوّل والكلمة الأولى بينهم ويُستثنى من هذه العشائر الحثّيون؛ فإنه كان لهم دولة كبرى، وأهميّة سياسيّة، وعصبيّة شديدة، وجنديّة منظّمة لم تكن لسواهم من عشائر الكنعانيين، كما رأيت. وامتاز الفينيقيون بذكاء العقل والكبّ على التجارة والكدّ في الصناعة وتحمّل مشاقّ الاغتراب وركوب مخاطر الأسفار البحرية وإيثار السلم وأرباح التجارة على معاندة الغزاة في مواطنهم. فكانوا يستسلمون غالباً لكلّ غازٍ قدير. وامتاز الحويّون بأنه لم يكن في مدنهم ملوك يلون أمرها، بل كان فيها نوع من الجمهورية البلدية تسوس الأهلين بمقتضى سنن أشبه بسنّة بني إسرائيل في أيّام القضاة.

وهم بعض المؤرّخين أنه كان في فلسطين أيضاً عشيرة تُعرف بالفرزيين وأنها الثانية عشرة من عشائر الكنعانيين؛ وهذا خطأ ظاهر لأنّ موسى لم يذكر لولد كنعان في سفر التكوين إلا إحدى عشرة عشيرة. وأما اسم الفرزيين الوارد في آيات أخرى من الكتاب فيُراد به سكان القرى تمييزاً لهم عن سكان المدن، لا فرع آخر من بني كنعان. وعليه فالفرزيون بمعنى القرويين كذا قال لانرمان في المجلد السادس من تاريخه الشرقي صفحة ١٢٠. وعن كلمت في معجم الكتاب (في كلمة الفرزيين). أنّ الفرزيين شعب قديم كان يقطن بفلسطين مختلطاً مع الكنعانيين. ويظهر من أدلّة كافية أنهم من نسل كنعان، لكنهم لم يكن لهم مستقرّ بل كانوا رحّالاً يقيمون تارةً في هذا الصّقع وأخرى في غيره. وتأويل اسمهم المشتّتون والمفروزون أو سكان المزارع والقرى. وكانت محالّهم في عبري الأردن ينتخبون

الحزون والسهول. وقد جاء ذكرهم دفعات في الكتاب مع الكنعانيين. منها في التكوين (فصل ١٣ عد ٧) حيث قيل: «وكانت خصومة بين رعاة ماشية أبرام ورعاة ماشية لوط. والكنعانيون والفرزيون حينئذٍ مقيمون في الأرض». ومنها في سفر يشوع بن نون (فصل ١٧ عد ١٥) حيث جاء أنّ بني يوسف شكوا إلى يشوع أنّ أرضهم ضاقت عليهم «فقال لهم يشوع إذا كنتم شعباً كثيراً فاصعدوا إلى الغاب ومهّدوا لأنفسكم هناك في أرض الفرزيين والجبابرة (رافائيم)». ويظهر أنهم استمرّوا في فلسطين بعد أن عاد بنو إسرائيل من سبي بابل. فقد جاء في سفر عزرا (فصل ٩ عد ١) أنّ الرؤساء أتوا يشكون إلى عزرا «أنّ شعب إسرائيل والكهنة واللاويين لم ينفرزوا عن شعوب الأرض ورجساتهم من الكنعانيين والحثّيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين».

وبعد أن طرد المصريون الملوك الرُّعاة من أرضهم، كما مرَّ في آخر المقالة في الحثّيين، أخذ ملوك الدولة الثامنة عشرة في مصر يشنّون الغارة على سورية والكنعانيين فينكّلون بهم ويثخنون في أرضهم ويفترضون عليهم الجزية، لكنهم كانوا يتركونهم وما يدينون، ولا يعترضونهم في شرائعهم ولا في ولاية شؤونهم ولا يزعونهم عن المحاربات الأهليّة ولا عن محاربة ملك منهم لآخر، ولا يصدّونهم عن عقد عهدات بينهم، بل كانت الدولة المصريّة تكتفي بأن يعطيها هؤلاء الجزية ويفتحوا أبواب بلادهم لجنودها وينجدوها في حروبها مع أعدائها إذا دعتهم إلى ذلك. فلم يصنع المصريون ما صنعه بعد ذلك الرومانيون من أنهم إذا أخضعوا بلاداً جعلوها اقليماً رومانيّاً وأقاموا عليها والياً رومانيّاً. ولذلك لم تكن عُرى الصداقة بين المصريين والكنعانيين وثيقة بل كان أن كلما مات ملك في مصر أو كُسرت جنوده أو شاع خبر انكسارها أو سمع خبر اضطراب في مصر تمرّد الكنعانيون وأبوا دفع الجزية أو ثاروا.فعاد ذلك الملك أو خلفه إلى الاقتصاص منهم وكبتهم للعودة إلى الطاعة. ويُستثنى من هذا صيدا فإنها قلّما دخلت في ثورة، بل كانت تؤثر الرّاحة والسكينة على العصاوة والخسارة. انتهى ملخّصاً عما رواه مسبرو في تاريخه القديم لشعوب المشرق في كلامه على الدولة الثامنة عشرة في مصر.

عد ١٠٥

تشتّت الكنعانيين وجالياتهم

إنّ ما أوهن الكنعانيين ولاسيما الجنوبيّين وشتَّت شمل السواد الأعظم منهم إنما هو افتتاح يشوع بن نون بلادهم، وقهره ملوكهم، وتمليكه أرضهم لبني إسرائيل، كما سترى في تاريخ العبرانيين. فقد ضرب واحد وثلاثين ملكاً (يشوع فصل ١٢) ودمّر مدنهم، ومع هذا بقيت منهم بقايا في السواحل البحريّة خاصة. ولم يتخطَّ يشوع حدود صيدا في لحاقه ملوك الكنعانيين. ولذلك تزاحمت أقدام الفارّة من الكنعانيين في صيدا وضاقت بهم الأرض فارتحلوا إلى آفاق عديدة. فكان منهم جاليتان خاصتان؛ إحداهما ارتحلت إلى تاب في بلاد اليونان وهي المعروفة بجالية قدموس لأنه كان في مقدّمة هؤلاء المرتحلين، وهو على رأي جمهور العلماء، واضع الحروف اليونانية، وحكم في تلك الأصقاع، لكنه لم يستمرّ آمناً في ولايته. وخلفه أحد السبرتيين وكان ذا قرابة لأسرة قدموس. ثم استردَّ الكنعانيون الولاية لعشيرتهم فولي أمرهم بوليدوس. وقال بعضهم إنه ابن قدموس. واستمرَّت ولاية تاب تتنازعها سلالتان؛ إحداهما كنعانيّة والأخرى سبرتيّة أو وطنيّة، نحواً من ثلاثة قرون. هذا ملخّص ما رواه لانرمان في مجلد ٦ من تاريخه الشرقيّ صفحة ٤٩٧ وهو قول جمهورهم – وقد مرَّ بك في المقالة في الحثّيين عد ٨٧ قول دي كارا إنّ قدموس كان حثّياً وإنه ارتحل بقومه إلى بلاد اليونان قبل افتتاح يشوع بن نون بلاد فلسطين بقرون.

وأما جالية الكنعانيين الثانية فتوطَّنت في إفريقية في المغرب حيث تونس الآن وقرطاجنّة القديمة. وكان لهم هناك من قبل مستعمرة تجارية. وتبعهم غيرهم من الفينيقيين، كما سترى، واختلطوا مع عشائر الليبيين اليافتيين فكان منهم تلك الأمّة التي صارت شهرتها في حروبها وإتقان أهلها الحراثة، وقد تسمَّت بالأمّة الليبيّة الفينيقية وكسبت قرطاجنّة تلك الشهرة العظمى خاصة في حروبها مع الرومانيين. وكانت تتكلَّم اللغة الفينيقية أو فرعاً منها يُسمّى البوني أو الفينيقية إلى أيّام القديس أغوسطينوس أسقف هيبونا التي وضع الكنعانيون أسسها. ثم إنّ احتلال الفينيقيين جنوبي البلاد المنسوبة إليهم أزاح مَنْ كان بقي ثمة من الكنعانيين عن مواطنهم. وانضمَّ مَنْ بقي منهم في سواحل فلسطين وفي شماليّها حتى أرواد وفي بعض لبنان

إلى عهدة واحدة مؤلَّفة من عدّة عشائر كنعانيّة. وسُمِّيت أرجاؤهم فينيقية وسُمّوا هم فينيقيون. وعليهم مدار كلامنا في بعض الفصول التابعة. وقد بقي بقايا من الكنعانيين في فلسطين إلى أيام المخلِّص. فقد ذكر متى (فصل ١٥ عد ٢٢) خبر المرأة الكنعانيّة التي وافت المخلِّص في تخوم صور وصيدا تبتهل إليه ليبرئَ ابنتها. ولما قال لها المخلِّص لا يجب أن يؤخَذ خبز البنين ويُعطاه الكلاب أجابته بذكائها والكلاب أيضاً تلتقط خبز البنين المتساقط عن الموائد.

الفصل الثاني

اسم فينيقية وتخومها وأشهر مدنها

عد ١٠٦

اسم فينيقية

تُسمّى هذه البلاد فونيقية وفينيقية. وتوفَّرت الأقوال وتضاربت في أصل هذا الاسم وتأويله. وقد أكثر الأب مرتين اليسوعيّ في كتابه «تاريخ لبنان» (الذي نشرت جريدة البشير قسماً منه) من ذكر هذه الأقوال. ومن المعلوم أنّ اسم فينيقية وضعه لها اليونان حتى لا تجد هذا الاسم في الأسفار المقدَّسة التي كُتبت بالعبرانيّة، بل تُسمّى هذه البلاد كنعان وبلاد الكنعانيين، ولكن تجده في سفرَي المكابيين وأسفار العهد الجديد التي كُتبت في اليونانية، وترى متى يسمّي المرأة الآنفة الذكر كنعانيّة، لأنّ إنجيله كتب بالعبرانيّة السريانيّة (لغة اليهود من عهد المخلِّص). ولكن ترى مرقس (فصل ٧ عد ٢٦) يقول إنها(من فينيقية سورية) لأنّ إنجيله كتب باليونانيّة. واسمها في الآثار المصريّة كفتا وزاهي وفي الآثار الآشوريّة أحارى أي بلاد المغرب.

ومن الأقوال العديدة في سبب تسمية اليونان هذه البلاد فينيقية لا نرى إلا قولين يقربان من الصواب. أوّلهما لمسبرو أوجب به أنّ اسم فينيقية وفينيقيين أُخذ عن كلمة فون أو بون التي عبَّرت بها أقدم الآثار المصريّة عن بلاد العرب الشرقيّ وشاطيء خليج العجم من حيث أتى الكنعانيون، كما مرَّ، وألحق العرب بالاسم حرفي النسب كما هما في اللغات الأعجميّة. فصار فينيقية أو بونيقي، ويسمّون أيضاً بوني وبونيين كما سمّي أهل مستعمراتهم في إفريقية . وعليه فاسم فوني أو بوني صحب الكنعانيين من شاطئ خليج العجم إلى سورية، وفينيقيّو سورية أوصلوه إلى إفريقيا، وبونيّو إفريقيا أوصلوه إلى مستعمراتهم الشاسعة (مسبرو في التاريخ القديم لشعوب المشرق صفحة ١٨٢ طبعة ٤). وتابع لانرمان (في مجلد ٦ من تاريخه الشرقيّ صفحة ٤٧٣) مسبرو في قوله هذا. وقال بِرُو (في كتابه «تاريخ الصناعة» في القدم صفحة ١٢) إنّ أشهر العلماء الآن يصحّحون هذا القول. وأما القول الثاني فهو لكثير من العلماء القدماء والحدثاء، ومقتضاه أنّ اسم فينيقية يونانيّ تأويله النخل، سُمّيت به هذه البلاد لكثرة هذا الشجر قديماً فيها، ويؤيّده وجود صورة هذا النخل على بعض المسكوكات القديمة في فينيقية وبعض مستعمراتها أيضاً رمزاً إلى بلادهم. فهذا القولان أدنى إلى الصواب من سائر الأقوال مثل قول بوشار Bochart إنّ فينيقية سُمّيت كذلك نسبةً إلى بني عناق. وقول بعضهم إنّ الكلمة في اليونانيّة معناها الأحمر وإنّ الفينيقيين سُمّوا بذلك لأنهم هاجروا من جانب البحر الأحمر أو نسبة إلى البرفير الأحمر الذي كان من مصنوعاتهم وسلع تجارتهم.

عد ١٠٧

تخوم فينيقية

لم تكن تخوم فينيقية في كل عصر واحدة فقد كانت قبل افتتاح يشوع بن نون فلسطين تمتد من تخوم أنطاكية إلى غزّة، كما يتلخّص من كلام هيرودوت (كتاب ٤ فصل ٣٩) وكانوا يقسمونها إلى فينيقية البحريّة وتشتمل على مدن سورية الساحليّة، وفينيقية لبنان ويشمل اسمها بعلبك ودمشق وغيرهما حتى تدمر. على أنه بعد طرد يشوع الكنعانيين من جبال فلسطين وانحصار السواد الأعظم

منهم في السواحل البحريّة أصبح اسم فينيقية لا يشمل إلا الأصقاع الساحليّة من عكاء أو جبل الكرمل جنوباً وإلى أرواد شمالاً مع ما يجاور هذه السواحل من جبل لبنان.

عد ١٠٨

مدن فينيقية

قد مرَّ في عد ٥ ذكر اسماء بعض مدن فينيقية بين اسماء مدن سورية. فنذكر هنا مدن فينيقية خاصة بأكثر تفصيل مبتدئين بها من الشمال إلى الجنوب. وأولاً أرواد وكانت عاصمة الأرواديين من بني كنعان وكان موقعها في الجزيرة المعروفة حتى الآن بأرواد نحو الشمال من طرابلس. وروى مسبرو في التاريخ القديم لشعوب المشرق (صفحة ١٨٢) أنّ أهليها كانوا أبداً يكلفون بالقلق والثوران على مجاوريهم وحكّامهم الأجانب من المصريين والآشوريين والفرس. وقد بسطوا ولايتهم على سكان السواحل وداخليّة البلاد فتولّوا جبلة شمالاً، وخضعت لهم حماه مدة ما. هذا ما عدا أملاكهم في اليابسة تجاه جزيرتهم منها طرسوس المسمّاة قديماً أنتيرواد أي قبالة أرواد وعمريت الآتي ذكرها.

وتلي أرواد جنوباً ماراتوس المعروفة اليوم بعمريت وقد بقي فيها حتى الآن أخربة وأطلال ناطقة بعظمتها في العصور الخالية. وقال فيها لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٧٦) إنها أهمّ ما بقي من آثار أبنية الفينيقيين. وجعل بعضهم موقع ماراتوس في شمالي أرواد حيث مصبّ نهر مرقية الآن. وذكر لانرمان (في المحلّ السالف ذكره) بعد عمريت سيميرا وقال إنها في الجنوب من عمريت قريبة من مصبّ النهر الكبير، وأنها عاصمة الصماريين وأنها لم تدخل في عهدة الفينيقيين. ويتبيَّن لي أنّ الأظهر ما قلناه في عد ٣٧ اعتماداً على أنّ استرابون ذكر سيميرا بين المدن الواقعة بين النهر الكبير جنوباً واللاذقيّة شمالاً. وذكر أرتوسيا (طرسوس) قبلها من جهة الجنوب ثم استئناساً بما في معجم الكتاب لكلمت من أنّ موقع سيميرا بين النهر الكبير جنوباً ونهر مرقيّة (في شمالي أرواد) شمالاً. ويؤيّد ذلك أنّ هناك أي في الشمال من أرواد لجهة المرقب وبلدة زمرين أو صمرين ووادي صفرة أو

سمرة – والكلمتان تقربان من سميرا أو صميرا – وربما أشعر بشيء من ذلك قول لانرمان نفسه بأنّ سميرا لم تدخل في عهدة الفينيقيين إذ يكون وجهه كونها خارجة عن تخومهم التي لم تمتد شمالاً إلا إلى أرواد.

ويلي النهر الكبير إلى الجنوب عرقا المعروفة حتى اليوم بهذا الاسم وكانت عاصمة العرقيين. وجعل لانرمان موقع أرتوسيا هناك على شاطئ البحر، وقال إنّ الآثار الآشوريّة تسمّيها شمرون وإنها كانت من مدن فينيقية الكبيرة، ويحتمل أن صارت عاصمة العرقيين من أقدم الأيّام لبعد عرقا عن البحر. لكن المعلوم أنّ أرتوسيا يُراد بها طرطوس أو بلدة أخرى قديمة تقرب منها. ويلي عرقا من جهة الجنوب طرابلس. ولا يُعرف ما كان اسمها قبل أن يُسمّيها اليونان تريبوليس أي المدن الثلاث. بل المعروف أنّ الأرواديين والصيداويين والسوريين بنوا هناك ثلاثة أحياء لكل فريق حيّاً منفصلاً عما سواه، فسُمّيت باليونانيّة تريبوليس أي المدن الثلاث، فجعلها العرب طرابلس وزادوا الهمزة في أوّلها تمييزاً لها عن طرابلس المغرب، ويميّزها بعضهم عن تلك بطرابلس الشام.

ويلي طرابلس نحو الجنوب أيضاً قلموس، ويرجّح أنها في محلّ القلمون الآن، ثم جيغارتوس ويُحتمل أن كان موقعها في القرية المعروفة اليوم بأنفة. وذكر بوليب وبلين واسترابون مدينة أخرى صغيرة بين جبيل وطرابلس وسمّوها ترياريس ولا يُعلم موقعها حتى الآن. ويلي هذه المدن المحلّ الذي سمّاه اليونان ثأوبروسبون أي وجه الله. ويظهر أنهم ترجموا الاسم الفينيقي وهو «فاني بعال» أي وجه بعل، كأنه كان هناك هيكل أو معبد، ويُسمّى هذا المحلّ اليوم وجه الحجر. وفي جانب وجه الحجر من جهة الغرب الجنوبي البترون، وليست عريقة في القدم، إذ روى يوسيفوس عن بعض القدماء أنّ إيتوبعل ملك صور بناها.

ويلي البترون من جهة الجنوب جبيل وهي أقدم المدن، حتى كان من تقليداتهم أنّ الإله إيل بناها، وفي اسمها أقوال. فمن قائل إنه مركّب كذلك من جب بمعنى قبر أو مدفن ومن ايل بمعنى الإله أي مدفن الإله، يريدون به أدونيس أو تموز لاشتهار أهلها بعبادته، ومن قائل إنه مركّب كذلك، ولكن جب بمعنى حصن وتأويله حصن الإله. ومن قائل إنه بمعنى الجبل لأنّ موقعها كان على الآكام القريبة منها أو لأنّ سكانها الأوّلين أتوها من الجبل، وسمّاها اليونان بيبلوس. وروى مسبرو

عن رنان أنه كان على الأكمة التي تعلو أخربتها الآن هيكل كبير بديع الصّناعة كانت تزدحم به أقدام الحجّاج من كل صوب، إذ كانت المدينة المقدَّسة عندهم حتى سمّاها رنان أورشليم لبنان. وكان في جنوبي جبيل مدينة أخرى أو ضاحية سمّاها اليونان بالي بيبلوس أي جبيل القديمة. وفي موقعها أقوال بين أن كانت على مقربة من جبيل في جنوبها أو حذاء نهر ابراهيم وهو نهر أدونيس عندهم أو في طبرجة أو في صربا بجانب جونية.

وفي جنوبي جونية نهر الكلب وهو المعروف بليكوس عند القدماء. وهناك الممرّ الشهير حيث ترك لنا أكثر غزاة فينيقية حتى بعض الملوك الرومانيين تماثيلهم ذكرى لهم. وفي جنوبيه بيروت قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٧٦): «قد أسَّسها الجبيليّون وكانت مدينة ملكيّة في كل عصر، وكانت لها أهميّة كبرى في مراكبها البحريّة وتجارتها المتّسعة النطاق، وتأويل اسمها أبار وأرضها تتاخم بلاد عشيرة صيدون بكر كنعان كما سمّاه الكتاب». وعن مسبرو (في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٨٤) إنّ بيروت كانت تتفاخر كجبيل بأنّ الإله إيل بناها. وكان للمدينتين أهميّة كبرى في السياسة بعد بلوغ الكنعانيين إلى سورية فلم تتمكّنا من المحافظة عليها، ولكن لم ينحطّ لذلك شأنهما، واستمرّتا إلى منتهى أيّام الوثنيّة أشدّ استمساكاً بعُرى أحد المذاهب الدينيّة السوريّة. قلنا: لكنّ أهليهما آمنوا بالإنجيل عند بزوغ أنواره. وأقام القديس بطرس الرسول نفسه أسقفين فيهما كما حقَّقه كثير من أصحاب التواريخ البيعيّة.

ويلي بيروت جنوباً خلدوا. ويظهر أن قد كان موقعها في محلّ خلده الآن على بعد نحو من ساعتين عن بيروت، ثم يورفيريون، ويُظنُّ أن قد كان موقعها في محل الجيّة اليوم. والاسمان لليونان، ولا يُعلم ما كان الفينيقيون يُسمّون هاتين البلدتين به.

ويلي ما مرَّ جنوباً صيدا وصيدون أقدم مدن الفينيقيين. وكانت تُسمّى أم المدائن، ما عدا جبيل المقدَّسة، ولذلك سمّاها الكتاب صيدون الكبيرة (يشوع فصل ١١ عد ٨). وكانت منقسمة إلى محلتين صيدون الكبرى على شاطئ البحر، وصيدون الصغرى على مسافة منه نحو الجبل. وأنكر بعضهم أن يكون أصل لذلك إلا قول الكتاب الآنف الذكر «صيدون الكبيرة». فتوهَّم بعضهم أنه سمّاها الكبيرة

تمييزاً لها عن صيدون أخرى صغيرة. فقالوا ما قالوا ولم يحقّق أحد الجغرافيين وجود صيدونين (عن كلمت في معجم الكتاب في كلمة صيدا). وسترى كلاماً مطوّلاً في صيدا وسؤددها. ويلي صيدا جنوباً سربتا المعروفة الآن بصرفند، ويظهر أنها كانت في الأعصر القديمة ذات غنىً وأهميّة كبرى، لكنها منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد خضعت لصور. وكان بين صرفند وصور عدّة مدن صغيرة منها نازانا التي سُمّيت بعد ذلك قيصريّة، وأفاقا حيث الآن أخربة عدلون، بل كان هذا الشاطئ معمّماً بمحطّات التجارة ومستودعاتها. ويلي ذلك جنوباً صور ومعنى اسمها في الفينيقيّة صخر أو حجر، وجعلها الجغرافيّون القدماء مدينتين؛ إحداهما موقعها في جزيرة صغيرة غير بعيدة عن الشاطئ وكانت محصّنة كأرواد، والأخرى في اليابسة. وجعل لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٧٧) موقعها في محلّ راس العين الآن، وأنها كانت تُسمّى بالي تير أي صور القديمة، وأنها لم تكن في أوّل أمرها إلا أكواخاً من قصب يتّخذها الصيّادون. وسنجيء بكلام مسهب في صور وملوكها وعظمتها وتجّارها وحروبها. ويلي صور جنوباً سرعة وكانت من نواحي صور، ولا يُعلم من أمر موقعها إلا أنه كان قريباً من صور، ثم أوس وسمّاها اليونان اسكندرونة وهو اسمها الآن أيضاً، وذكرت في الآثار المصريّة باسم أوس ثم كيكنا وهي المسمّاة في أيّام السلوقيين اللاذقيّة، والآن تُسمّى أم العواميد، ثم أكديبا وهي المعروفة اليوم بالزيب. ويلي هذه جنوباً عكا وهي التخم الجنوبي لبلاد الفينيقيين وسمّاها اليونان بتولمايس، ثم عادت إلى اسمها القديم وهو أكو أو عكو. فهذه أخصّ مدن الفينيقيين. وسترى ذكر كلّ منها مردّداً بذكر ما كان من الأحداث فيها.

الفصل الثالث

الصيدونيون واختراعهم الملاحة ومستعمراتهم وحالتهم السياسية

عد ١٠٩

اختراع الصيدونيين الملاحة وانكبابهم عليها

كان السؤدد في الفينيقيين بل في أكثر العشائر الكنعانيّة في بادئ أمرها للصيدونيين. فهم الذين رقّوا الأمّة أوّلاً في مدارج الحضارة، واخترعوا فيها الملاحة، وذلّلوا تيّار البحور ساعين فوق الأمواج بسلع مصنوعاتهم، وافتتحوا الجزر والبلاد الشاسعة، وأقاموا فيها المستعمرات العديدة؛ فبينما كان ابناء عمّهم الحثّيون يشنّون الغارة على مصر فيستحوذون على أرضها الخصبة ويُجلسون قادتهم على منصّات الفراعنة، كان الصيدونيّون يغالبون البحر لينتصروا عليه ويمتطوه ويذلّلوا أمواجه كلفاً بالتجارة واعتياضاً بها وبالصناعة عن حراثة الأرضين التي لم يكن لهم منها ما يكفيهم ويكفي سائر العشائر المرتحلة معهم والمحتلّة البلاد قبلهم. فلم يكن لهم في كل غربهم يبس بل ماء. وكان السواد الأعظم من ساكنيّ شطوط البحر المتوسط على حالة الهمجيّة المعروفة بالعصر الحجريّ. فلم يكن لهم خبر بعمل زورق تقلّه الأمواج والبلاد المتقدّمة بالحضارة كمصر نفسها، لم يكن من أهليها مَنْ يجسر أن يركب خشباً يطفو به فوق الماء ولو مرمى حجر. فكان الصيدونيّون أوّل مَنْ أجاد على المعمور بهذا الاختراع الخطير الذي تشذّ منافعه عن كل عد، فركبوا البحر معاندين الرياح والعواصف، يتطلّبون في شاسع الأرض المعادن والأخشاب والحجارة الثمينة، ويستجلبون المواد الأولى اللازمة للصناعة، وينقلون إلى الآفاق مصنوعاتهم، وينشرون معارفهم. وقد احتكروا هذه الصناعة فلم يكن فيها مبارٍ قروناً.

وهاك ما كتب فيهم العالِم بوجولا الإفرنسيّ (في كتابه المعروف بمراسلات المشرق رسالة ١٣٧): «إنّ ما يُدهش في أعصر صيدا القديمة إنما هو ذكاء أهليها القدير على الاختراع وعلمهم بالصناعة. وقد أطرى هوميروس الصيدونيين بأنهم أهل لكلّ شيء. فأقدم التواريخ تقلّد ابناء صيدون فخراً ومجداً. فكانت أرضهم أوّل مهد للعلوم البشريّة وأوّل مهد للصناعة، فهيّأت بذلك أسباب الحضارة في المعمور. فقد يمكن أن يكون الفينيقيون أخذوا عن الهنود والفرس البابليين بعض المعارف الأولى وبعض التقليدات النافعة، لكن ما لم يخترعوه قد كمّلوه. فقد أخذوا شرارة فصيَّروا منها شمساً. والحق يقال إنّ هذا الشعب جاد علينا بأكثر المنافع. فمصر القديمة جعلت حكمتها وعلومها أسراراً فكانت تحجب مصباحها لئلا ينبعث نوره لأرض سواها، وأما فينيقية فلم تكن لتألو جهداً في تسطيع أنوار معارفها في كل صوب، فتتراءى لي مصر في أعصرها الخالية بهيئة كاهن لا ينطق بشيء بل يخبّئ نوره المقدَّس في أعمق خفايا هيكله. وأما فينيقية فأراها بهيئة أولئك القدماء الذين كانوا يقلّون على رؤوسهم منارة في وسط البحور. وأخصّ ما يحقّ لفينيقية الفخار به اختراعان؛ أعني اختراع الملاحة واختراع الكتابة» انتهى.

قال لانرمان (في مجلد ٦ صفحة ١٨١) ما ملخَّصه إنّ تنقيب العلماء في مصنوعات الأوّلين أكسبنا العلم ثلاثة أمور لا مرية فيها؛ أوّلها: أنّ المصنوعات المعدنيّة في آسيا هي قديمة قدماً مستغربة. ثانيها إنّ المصنوعات النحاسيّة أقدم كثيراً من المصنوعات الحديدية. ثالثها أنه منذ اهتدى الناس أن يذيبوا النحاس ويصنعوا منه أدوات شعروا بالاحتياج إلى ما يجعله أكثر صلابةً ومتانة بأن يذوبوا به شيئاً آخر. وعلموا أنّ مزج القصدير بالنحاس يصلح هذا الخلل إذ يتركَّب منهما البرونز وهو الصفر (أي النحاس الأصفر) التي وُجدت تلك الأدوات مصنوعة منه. فالمصريون والبابليون كانوا يجدون النّحاس في أرضهم أو ما جاورها. وأما القصدير اللازم لتركيب الصفر فلم يكن إلا في بلاد شاسعة إذ لم يكن منه إلا في جبل قاف وفي الهند واسبانيا. وقد وجدوا في منف أدوات وآنية من الصفر مدفونة هناك منذ عهد الأهرام، فنتجوا أن لا بدّ من تجارة في تلك الأعصر المتناهية في القدم. كانت تجلب القصدير من تلك الأمصار القاصية إلى فراعنة مصر لخلوّ أرضهم وجوارها منه.

وقد جنح بعض العلماء إلى القول بأنّ القصدير الذي كانت تستعمله الأمم المتمدّنة في الشرق أي المصريون والكلدان والآشوريون والفينيقيون كانوا يستجلبونه من جنوب سيباريا ومن بلاد الصين الغربية ومن شبه جزيرة ملاكا حيث توفّرت معادن القصدير. ولا يخفى ما كان من المخاطر على القوافل في أسفارها بين قبائل رُحّل دأبهم السطو على ابناء السّبيل. وقد كانت الحروب والعداوات تقطع أحياناً الطرق قطعاً على السالكين فحملت الضرورة الفينيقيين الذين لا معاش لهم إلا بالتجارة والصناعة أن يستنبطوا وسائل لاستجلاب القصدير وحاصلات المشرق لأنفسهم ولغيرهم كالمصريين، وأن يستطرقوا طرقاً آمنة لا معتدٍ ولا منازع لهم فيها، فاهتدوا إلى الملاحة وأخذوا أولاً يسيّرون سفائنهم إلى جزر البحر المتوسط، إحداها بعد الأخرى إلى أن بلغت أسفارهم إلى البحر الأسود، وأقاموا لهم في تلك الجزر وفي اليابسة محطّات لم تلبث أن أصبحت مستعمرات لهم كما ترى في العدد التالي.

عد ١١٠

مستعمرات الفينيقيين في مدة سؤدد صيدا

كانت قبرص أوّل محاط الفينيقيين في البحر لقربها من شطوطهم. وعن مسبرو (في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ٢٣٧) عن اسطفان البيزنطي:

إنّ الجبيليين سبقوا الصيدونيين إليها لكن جبيل كانت مدينة هياكل ومعابد يهمّها الدين أكثر من التجارة. فلم يكن لها أملاك مهمّة في الجزيرة بل أقامت هيكلاً فسيحاً في بافوس (الباف) في غربي الجزيرة. وكان عمّال بعض أصقاعها المسمّون ملوكاً يخضعون أولاً لجبيل إلى أن ذلّ جميعهم لسلطة صيدا، وكثر منازيح الصيدونيين بين أظهرهم حتى أصبحت الجزيرة بلداً فينيقيًا. وكانت غنيّة في المعادن خاصة الحديد والنحاس. وكانت أكمات تامازوس مفعمة بالنحاس حتى اعتاد الرومانيّون أن يصفوا هذا المعدن بالقبرصي Cyprium. وشاع هذا الوصف في سائر لغات أوروبا. انتهى ملخّصاً.

وعن فردينند هوفر Ferd. Hocfer في تاريخ فينيقية أنّ هذه الجزيرة افتتحها أولاً

الحثّيون Chittiens والحماتيّون من عشائر الكنعانيين. وبنوا أخصّ مدنها وهي شيتيوم وحماتونة (أو حماسيا). ثم استحوذ عليها الصيدونيّون على عهد ملكهم بالوس. وتجد صورتها على بعض الآثار القديمة ناطقة بأنها من مستعمرات صيدا القديمة». وهذا يطابق ما ذكرناه في مقالة الحثّيين من قول دي كارا إنّ قبرص كانت مستعمرة حثّية لا يونانيّة (طالع عد ٨٥). وأرى القول بأنّ الحثّيين بنوا شيتيوم التي سُمّيت الجزيرة كلها باسمها أظهر من قول لانرمان وغيره، بأنّ الصيدونيين بنوها وغيرها في القرن السابع عشر إلى الرابع عشر قبل الميلاد، لأنّ أوّل مدن الجزيرة التي سُمّيت باسمها يلزم أن يكون قبل هذا التاريخ، ولأنّ اسم شيتيوم لا يحتاج إلا بدل الشين بالحاء ليكون حيتيوم وحثيم إشعاراً بأنها من أبنية الحثّيين وحماتونة أو حماسيا كما سمّاها بعضهم مشعرة باسم حماه مدينة الحثّيين.

وانتقل الفينيقيون من قبرص إلى رودس دون أن تكون لهم حاجة إلى كولمبوس. فسيرهم نحو الشمال على جانب الشاطئ أدّاهم إلى مدخل الأرخبيل وهو رودس. وعن مسبرو (صفحة ٢٨٤ من تاريخه المذكور) عن سالون الآتيني (صولون الأثيني). فالعلاقة لإحداهما بالأخرى، وأنّ بعض العشائر كان ينضمّ إلى بعضها الآخر فيقرّ ملوكها بالسيادة والتقدّم لملك عاصمتهم، وكانت هذه السيادة أولاً لملك صيدا. ولما كان الملوك الرّعاة يلون مصر كان ملوك سورية ناعميّ البال لا يخشون غارة، ولا يتّقون سطواً من قبل مصر بل كانت لهم ملجأً وملاذاً في كل نازلة ونائبة إذ كان الرّعاة سوريين. ولكن منذ طُرد الرّعاة من مصر واستتبّ ملك الدولة الثامنة عشرة فيها طمحت أبصار ملوكها إلى الاستيلاء على سورية ولا أقلّ من تذليل ملوكها خيفة أن يتألّبوا مع الملوك الرّعاة ويعاودوا الغارة على مصر.

وعليه فقد غزا آمون هوتاب الأوّل (ويسمّيه اليونان أمانوفيس) سورية الجنوبيّة. ثم أكمل توتمس الأوّل خلفه اخضاع العشائر الكنعانيّة في فلسطين وتوغّل في البلاد حتى وصل إلى أنحاء دمشق. وكانت له وقائع عديدة مع الروتانو السالف ذكرهم فانتصر عليهم وأراد تذليلهم كي لا يعاودوا العداوة له، فوطئ بجحافله بلادهم كلها حتى انتهى إلى الفرات وأقام على ضفّته على مقربة من كركميش نصباً لذكرى انتصاره. ويظهر أنّ الصيدونيين ومَنْ جاورهم من العشائر خضعوا حينئذٍ لفراعنة مصر، وأخلصوا في الطاعة لهم حتى لم يشتركوا أو لم يجاهروا

بالعداوة لتوتمس الثالث عند غزوته للروتانو والسوريين. ولم يدخلوا حرب مجدّو (اللجون) (طالع عد ٦٢)، واستسلموا لرعمسيس الأوّل أوّل ملوك الدولة التاسعة عشرة عند غارته على الحثّيين، ولم يعترضوا طريقه عند مروره بهم (طالع عد ٦٣). وكذا فعلوا مع ابنه ساتي الأوّل عند حروبه في سورية مع الحثّيين وأدّوه الجزية ونجدوه بذخائرهم (طالع عد ٦٤). وكانوا يمالئون ابنه رعمسيس الثاني عند معاداته الحثّيين أيضاً (طالع عد ٦٥). وعليه فالصيدونيّون ومَنْ جاورهم سالموا فراعنة الدول ، الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين مؤثرين راحتهم ونجاح تجارتهم على العصاوة والخسارة، وهذا بيِّن من الآثار المصريّة التي جئنا بترجمة بعضها في الأعداد التي ذكرناها هنا. فإنك لا تجد فيها ذكراً للصيدونيين ومدنهم في عداد مَنْ ثاروا أو جاهروا بالعداوة للملوك المذكورين، مع أنّ سائر العشائر الكنعانيّة حتى مَن انضمّوا بعد ذلك إلى العهدة الفينيقية كالأرواديين والصمريين حازبوا أعداء مصر. وتجد الآثار الهيروغليفيّة تكثر من الكلام في صناعة الفينيقيين وثروتهم.

إنّ في المتحف البريطاني بابيراً يشتمل على حكاية سفر عامل مصريّ في سورية للسنين الأخيرة من ملك رعمسيس الثاني بعد عقده عهدة الصلح مع الحثّيين. فهذا البابير ينبئنا حالة سورية في زمان كتبه، ولذا كان له أهميّة تاريخيّة. فهذا العامل كان في بلاد الحثّيين وانتهى إلى حلبون (حلب). وعند عوده منها وقبل أن يبلغ إلى فلسطين مرَّ بفينيقية وذكر جبيل وأسرارها وأهميّتها الدينيّة، ثم بيروت ثم صيدا، ثم صربتا أي صرفند، ثم شاطئ تاوانا (معبر نهر الحيصراني)، ثم أوالتا حيث كانت أخربة عدلون. ثم أتى «صور البحريّة» وكلامه فيها مشعر بأنها كانت حينئذٍ قرية على صخر في وسط البحر. وقال: «إنّ الماء يجلب إليها بالسفن وإنه يتوفَّر فيها السمك». وإنه سار بعد ذلك قليلاً إلى الجنوب فبلغ إلى سعره، وإنّ اسمها بالفينيقية معناه الزنبور اللسّاع. وإنه انتهى بعد ذلك إلى كايكنا المعروفة اليوم بأم العواميد، ثم إلى أخريب وهي المعروفة الآن بالزيب، وإنه من هناك ترك الساحل وسار في الجبل قاصداً حازور. ويظهر أنه أتمَّ سفره هذا آمناً لا معارض له كأنه في وادي النيل، بل كان يستعمل السلطة أحياناً آمراً ناهياً لأنه عامل مصريّ. ومن هذا أيضاً يظهر أنّ الصيدونيين والبيروتيين والجبيليين استسلموا لحكومة مصر مذ تولّت سورية مخلصين الطاعة والإنقياد لها. وبدلاً من أن يناوئوها لنيل الاستقلال الكامل

لهم اجتزأوا بأن يبقى لهم حكّامهم الوطنيّون وحريّة العمل بسننهم وعدم الاعتراض لهم بأسفارهم وتجارتهم لمصر إنّ الكاريين سكان الجزيرة حينئذٍ اختلطوا بالفينيقيين فزوَّجوهم وتزوَّجوا بناتهم حتى أصبحوا شعباً واحداً يُسمّى كاريون وفينيقيون. ورقّوا الحضارة درجات في الجزر والبلاد القريبة منهم. ولما تقهقرت حالة الفينيقيين تقهقرت حالهم أيضاً. وتوصَّل الفينيقيون من جهة إلى أكريت فبنوا فيها مدينة إيتانوس ومن أخرى إلى جزيرتَي ثارة وقيثارة فأدخلوا فيهما عبادة عشتروت أي الزهرة الفينيقية، فكان ذلك أصلاً تفرَّعت عنه عبادة أفروديت القيثاريّة معبودة اليونان. ونرى آثار اقامتهم في أولياروس وأنتيباروس ويوس وسيروس (سيرا).

وعن اسطفان البيزنطي أنّ أولياروس كانت للصيدونيين ومالوس للجبيليين. واكتشف الفينيقيون معدن الفضة في جزيرتَي سيغنوس وسيمولوس أو جعلوا سكانهما يكتشفونها. وكل هذه الجزائر هي من الأرخبيل في بحر الروم في شمالي رودس وغربي الأناضول. ثم توصَّلوا إلى جزيرة تاسوس (بولاية الجزر في قرب شاطئ الروملي) فاستحوذوا عليها طمعاً بمعدن الذهب الذي كان فيها. وقد شهد هيرودوت هذه الجزيرة بعد عشرة قرون وقال إنه دُهش مما رآه في آثار الأعمال الكبيرة التي أجراها الفينيقيون في استخراج هذه المعادن.

ولم يقف الفينيقيون عند تاسوس بل كان ملّاحوهم يعدّون ذخائرهم هناك ويسيّرون سفائنهم إلى الشمال أيضاً، فيعبرون بوغاز الدردنيل وبحر مرمرا والبوصفور. فيتصلون إلى البحر الأسود غير مبالين بعواصفه التي يخشاها بحّارة سفائن هذا العصر نفسه، حتى انتهوا إلى جنوب جبل قاف. وكانت سفنهم تشحن من هناك المعادن الثمينة ولاسيما الذهب المشهور معدنه في تلك البلاد، والقصدير اللازم لصناعتهم في عمل الصفر. وكان الإيباريّون سكان تلك الأمصار يستخرجونه من سلسلة جبل قاف ويأتون تجّارهم به وبالرصاص والفضّة لوجودهما في أنحاء أخرى من هذه البلاد. وكان للفينيقيين محاطّ ومستعمرات في سواحل هذه البحار وجزرها بقيت آثارها إلى الأعصر التاريخيّة فأوصل القدماء أخبارها إلينا.

وكان تجّار الفينيقيين في ذلك العصر نفسه يجدّون في تسيير سفنهم على شطوط الأيبر (البانيا الجنوبيّة شمالي بلاد اليونان) وإيطاليا الجنوبيّة وجزيرة صقلية وصار لهم فيها ولاسيّما في الأيبر مستعمرات ومحال تجاريّة. ولم تنحصر تجارة

الفينيقيين في هذه البحار وسواحلها بل كان لهم في مصر أيضاً تجارة واسعة. وأقام كثير من تجارهم في مدن مصر السفلى وكان لهم في منف حي خاص بهم. وكانت سفائن الصيدونيّين والبيروتيّين تسير على شطوط افريقيا حتى قرطاجنة حيث ولاية تونس الآن، وبنوا هناك مدينتين؛ كمباه حيث بُنيت قرطاجنة في ما بعد، وهيبون على مقربة منها. (لانرمان مجلّد ٦ صفحة ٤٨٩). وبينما كانت سفائن الفينيقيين تمخر البحور كانت قوافلهم تطوي البيد أيضاً، فيغترب تجّارهم طلباً للرزق والانتفاع. وقد تطرقوا إلى سائر أنحاء سورية وإلى بلاد العرب والكلدان وأرمينيا أيضاً، وجميع الطرق التجاريّة من الشرق الأقصى (أي من الهند وتركستان وبلاد الكلدان) حتى أنحاء جبل قاف كان اتجاهها نحو المغرب ومؤداها في صيدا وصور، وكان للفينيقيين في هذه الطرق محاطّ ثم مستعمرات ؛ أخصّها في حماه شاطىء العاصي، وتبساك على شاطىء الفرات من جهة بادية تدمر، ونصيبين على مقربة من ينبوع دجلة ، إلى غيرها من المحال التي كان يتفاخر قدماؤها بأنهم من الفينيقيين. (مسبرو عن موفر واسطفان البيزنطي صفحة ٤٣٤ من تاريخه لشعوب المشرق).

عد ١١١

الحال السياسيّة على عهد الصيدونيين

قد مرّ أنّ الكنعانيّة كانت تنقسم إلى ممالك عديدة قلّما كان من السؤدد السامي، والفراعنة رغبوا في تنويلهم كلّ ما شاءوا لحاجتهم إليهم، إذ لم يكن في شعب مصر من يحسن نظيرهم الملاحة والتجارة. (لانرمان مجلّد ٦ صفحة ٤٨٥).

عد ١١٢

قيام الفينيقيين بعمارة مصر البحريّة

قال لانرمان (مجلّد ٦ صفحة ٤٩١) لم يحسن المصريون الملاحة بل كانوا مغضّين لها كالآشوريين والفرس، وكانوا يمقتون البحر ويحسبونه نجساً يليه إله السوء؛ فإذا ركب المصري البحر في سفينة خال نفسه على ظهر عدو يهدّده ويلحق به نجاسة دينيّة. فتشبّثهم بهذه المعتقدات الباطلة حرّم عليهم أن يكون منهم

بحّارون. ثم انه لم يكن للآشوريين عند استفحال أمرهم أسطول بحري في بحر الروم إلا سفن كيليكيا وفينيقية، وإن لم يكن للفرس من السفن إلا ما ركبه اليونان والفينيقيّون والكيليكيّون. فبأولى حجّة لم يكن لفراعنة مصر من سفن إلا ما قام فيها الفينيقيون والصيدونيّون خاصة. وقد تبيّن بالآثار والتواريخ المصريّة أنه كان لمصر في عهد توتمس الثالث، أحد ملوك الدولة الثامنة عشرة، أسطول ينفّذ سلطته ويجبي له الجزيات من الأمصار الشاسعة. وما تلك الأمصار إلا البلاد التي كان الصيدونيّون يتعاطون التجارة فيها، أو حلّ فيها جالية منهم؛ كقبرص وكريت وجزائر الأرخبيل وشطوط افريقيا الشماليّة وغيرها.

وإذا كان جنود الفراعنة في البحر المتوسّط فينيقيين فلا يعدو أن يكون كذلك جنودهم في البحر الأحمر. وعليه، فقد كان الصيدونيّون ينقلون العساكر المصريّة إلى بلاد العرب الجنوبيّة لتدويخها، أو لرد أهليها إلى الطاعة. وهم كانوا يلون السفن التي تنقل إلى مصر حاصلات الهند وبلاد العرب من معادن وأحجار وأخشاب ثمينة وعاج وغيره. والأسفار في البحر الأحمر محفوفة بالأخطار فتستلزم ملاّحين ماهرين. حتى إنّ الدولة السادسة والعشرين أرادت أن تسيّر سفناً، فلزمها أن تلتجيء إلى الفينيقيين. ونرى من جهة أخرى الكتاب يُنبئنا أن السفائن التي بناها سليمان في ايله بعد معاهدته لحيرام، ركبها ملاحون صوريّون ليسيروا إلى أوفير لجلب الذهب. ونجاح هذه السفن منذ أوّل أسفارها دليل على إنّ البحّارة الصوريين كان لهم خبرة سابقة في تلك البحار وسواحلها، تلقّوها عن أسلافهم الصيدونيين من لدن اشتراكهم مع المصريين. انتهى.

عد ١١٣
تقهقر صيدا وسقوطها

قد كشفت لنا الآثار المصريّة التاريخيّة عن خطوب كبيرة، حدثت في القرن الخامس عشر قبل الميلاد على عهد ساتي الأوّل أو قبيله؛ وهي أنّ عشائر البلاسج (قدماء بلاد اليونان) أحدثوا سفائن في البحر المتوسّط ، وبعض فصائل الليبيين اليافثيين غشوا افريقية بحراً وحلوا على شواطيء بحيرة تريتون المسمّاة بحيرة فرعون في بلاد المغرب. فعقدت عهدة بين البلاسج سكان جزر الأرخبيل وبلاد اليونان

وإيطاليا وسكان كريت وصقلية وسردينيا وبين الليبيين في افريقيا، ودامت هذه العهدة قروناً، ولم يكن توسّط البحر بين المتحالفين بمانع لهم عن المواصلات المستمرّة في أمور التجارة وغيرها؛ وهذا تقتضي بلا بدّ مهارة قوم من المتحالفين في الملاحة وإدارة السفن. وعظمت صولة أصحاب هذه المعاهدة، وانبسطت سلطتهم حتى غزا الليبيون في أيّام منفتاح (فرعون الخروج) مصر السفلى إلى ما وراء منف بالإتّفاق مع بعض الإيطاليين واليونان. فنجاح البلاسج في الملاحة كان جرحاً مثخناً في نفوذ الصيدونيين، الذين لم يكن لهم قبل ذاك مزاحم ولا مبارٍ في البحر. ولم يكتفِ هؤلاء بالمزاحمة بل كان الطبع نفسه يحملهم على معاداة الصيدونيين، ليأخذوا منهم جزر الأرخبيل وما جاورها في بلادهم، ويمنعوهم استفراغ معادن الذهب والفضّة التي هم بها أولى. فابتدأ لصوص البلاسج يعتدون على سفن الصيدونيين في بحر الروم، وشرع أعداؤهم يثيرون السكان الوطنيين على جاليتهم، وينجدونهم عليهم. فاضطرّ الفينيقيون أن يتركوا مستعمراتهم في الأرخبيل، الواحدة بعد الأخرى. فلم يبقَ لهم منها إلا ثارة ومالوس وتاموس لتمكّنها من الدفاع. ولم ينجد فراعنة مصر الفينيقيين مسوّديهم على أعدائهم، بل أغضوا عن كل مساعدة لهم ماديّة أو معنويّة. ولم يقف البلاسج عند هذا الحدّ، بل قطعوا على الفينيقيين طريقهم في الدردنيل والبوسفور ليمنعوهم البلوغ إلى البحر وإلى المراسي التي كانوا يتلقّون فيها المعادن وذهب كولشيد (معاملة في جنوب جبل قاف) خاصة، وتطرّقت سفن اليونان إلى تلك الأمصار كلفاً بإحراز معادنها النفيسة.

وعَقَبَ ذلك افتتاح بني إسرائيل بلاد الكنعانيين وطرد يشوع بن نون لهم من مواطنهم، وتمليكه أراضيهم لشعبه، فهو لم يحارب ملك صيدا لكنّ غزوته غيَّرت حالة البلاد، وأضنكت صيدا، إذ دمَّر إحدى وثلاثين مملكة صغيرة، وقتل ملوكها، وقد كانوا عضداً للصيدونيين. وتزاحمت أقدام الفارّة في ساحل صيدا، فضاقت الأرض بهم وأثقلوا كاهل أهلها وكانوا عليهم وبالاً، وأكرهوا على أن ينتزح منهم كثيرون إلى جهات عديدة. والمشهور من هؤلاء المنازيح الجاليتان الآنف ذكرهما في عد ١٠٥؛ أي جالية قدموس إلى بلاد اليونان، وجالية الجرجسيين، واليابوسيين خاصة إلى بلاد المغرب، حيث أملاك تونس الآن. وأعقب غزوة يشوع بن نون حلول الفلسطينيين في جنوب بلاد الكنعانيين. وسترى في تاريخ العبرانيين أنّ هؤلاء

الفلسطينيين أتوا من كريت وغيرها من جزر بحر الروم وسواحله بحراً، قاصدين أن يستحوذوا على مصر، وكانوا من أصحاب العهدة السالف ذكرها؛ أي البلاسج والليبيين، فهبَّ رعمسيس الثالث لمقاومتهم فانتصر عليهم، وأسر السواد الأعظم منهم، وأسكنهم في التخوم الفاصلة بين سورية ومصر، أي في غزة وأسدود وعسقلون وغات وعقرون. وكان ذلك في أثر تملّك بني إسرائيل أرض الموعد. ويظهر أنه لحقهم إلى هناك قوم من جلدتهم، فتكاثر عديدهم، واشتدَّ ساعدهم. ولم يمرَّ عليهم قرن حتى كان منهم جنود مدرَّبون في القتال يروّعون مَنْ جاورهم. وبنوا سفناً بحريّة، وعظمت سطوتهم وصولتهم، وأعانهم على ذلك خمول ملوك الدولة العشرين في مصر، حتى سوَّلت لهم أنفسهم الاستيلاء على سورية الجنوبيّة كلها، فضايقوا بني إسرائيل سنين طوالاً، وأذلّوهم نحواً من نصف قرن، وسطوا على الصيدونيين أيضاً ونكّلوا بهم. وفي نحو سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد سيَّروا أسطولهم من عسقلون على حين غفلة إلى صيدا إذ لم تكن مستعدَّة للقتال فافتتحوها عنوةً، ودمَّروا المدينة، وأبسلوا مَنْ وجدوا من أهلها. فكانت بذلك نهاية سؤدد صيدا (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٥٠٠).

الفصل الرابع

الفينيقيون في عصر سيادة صور إلى بناء قرطاجنة

عد ١١٤

جعل صور عاصمة للفينيقيين وانضمامهم إليها

قد سُرَّ الفلسطينيّون بقهرهم ملكة البحر، وتشتيت شمل أهليها. وأملوا أن ترثها عسقلون مدينتهم. لكنهم لم يتولّوا شؤون الفينيقيين، بل اكتفوا باقامة حرس في بلاد العبرانيين، فكان بذلك فرجة للصيدونيين ومندوحة لنهوضهم بعد سنين قليلة

من ورطة مصابهم. والذين ركنوا إلى الفرار من صيدا اجتمعوا في صور حول هيكل ملكرت الذي كان مركز الأمّة الديني. ولم تكن صور إذ ذاك إلا مدينة ثانويّة، فزادت هذه الأحداث في عداد شعبها، ورقّتها إلى أعلى مقام في الأمّة، فخلفت صيدا في سؤددها، وأصبحت عاصمة الفينيقيين سياسةً وديناً، وكان ذلك في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ولم يميّز بعضهم بين بناء صور وسؤددها، فجعلوا بناءَها في تاريخ سؤددها، ومنهم يوسيفوس فإنه قال (في ك ٨ فصل ٢ من تاريخ اليهود) إنّ صور لم تُبنَ إلّا لمئتين وأربعين سنة قبل هيكل سليمان. وادَّعى بعضهم أن يوفِّقَ بين القولين بأنّ صور القديمة التي كانت في اليابسة وهي عريقة في القدم، وصور الحديثة هي التي كانت في الجزيرة وهي التي ذكرها يوسيفوس، لكنّ الآثار القديمة تخالف هذا التوفيق وتثبت أنّ صور البحريّة أقدم كثيراً من التاريخ الذي ذكره يوسيفوس، وصور البحرية هي التي كانت مصايب صيدا فوائد لها، فإنه لم يكن في الإمكان توسيع نطاق الجزيرة لسكنى الغارّة فيها. ولم يكن فيها ماء صالح للشرب، كما مرَّ آنفاً، في حكاية سفر العامل المصري. وكان في شمالي الجزيرة وجزيرة ملكرت مرفأ طبيعيّ يسع سفناً عديدة. وعليه فكانت صور ذات ثلاثة أحياء يفصل الماء أحدها عن الآخر؛ أي الحيّ البريّ، وهو المدينة حقيقة، وأكثرهم أجمع على أنّ موقعها كان في محل راس العين الآن، ثم الحيّ البحريّ، وهو الجزيرة الأولى، ثم الحيّ الكهنوتيّ حول هيكل ملكرت في الجزيرة الثانية في جانب الأولى. وقد سمّى اشعيا النبي (فصل ٢٣ عد ١٢) صورانيّة صيدا إذ قال لها لا تعودين تفتخرين أيتها المنهتكة العذراء بنت صيدون. فعصر سيادة صور هذا افتتح سنة ١٢٠٩ق.م (على ما ذكر لانرمان)، واستمرَّ خمسة قرون؛ أعني إلى أن حاصر سرغون ملك الآشوريين صور. وفي هذا العصر خاصة استحكم اتحاد الفينيقيين وتوثّقت عُرى عهدتهم. فإنّ الكنعانيين بعد أن استحوذوا على أكثر أعمال سورية زماناً طويلاً أصابتهم في القرنين الرابع عشر والثالث عشر نكبات عديدة متتالية انتزعت أكثر أملاكهم. فافتتح بنو إسرائيل فلسطين وطردوهم منها وغنموا ما كانوا يملكون وأخرب الفلسطينيون صيدا واستردَّ الآراميّون حماه منهم وأذلّوا مَنْ كان فيها من الكنعانيين، وفصلوا بذلك بين الكنعانيين الذين كانوا يسكنون لبنان وجواره واخوانهم الحثّيين سكان شمالي سورية وجبل اللكام. فهذه المحن حملت مَنْ بقي من الكنعانيين في شمالي فلسطين على الانضمام. فاتّحد سكان صور وعكا

ومَنْ بقي من الصيدونيين. ثم غيرهم من العشائر كالعرقيين والصماريين والسينيين والأرواديين الذين كانوا يسكنون السواحل البحريّة إلى ارواد. فتألّف منهم شعب واحد وعصبة واحدة وسمّوا فينيقيين. على أنّ مدنهم الشهيرة كبيروت وجبيل وسيميريا وغيرها حفظت لنفسها استقلالها المحليّ، وهيئة حكومتها التي كانت الملكيّة مقيَّدة بمجالس عامّة مؤلّفة من أغنياء الشعب، ومرتبطة بمشورة الكهنة والقضاة الذين كان لهم الكلمة النافذة.

وكان هؤلاء القضاة يمشون في الحفلات العامة بجانب الملوك، وكان الملوك يفاوضونهم في أمر بعث السفراء إلى صور مركز الأمة. وكان للكهنة نصيب وافر في تدبير شؤون الحكومة. على أنه لا سبيل إلى القطع بما كانت تتصل إليه سلطتهم، ولكن إذا راعينا ما كان يجريه كهنة بعل في اليهوديّة علمنا أنّ مقدرتهم كانت عظيمة. وكانت نظامات جبيل دستوراً ومثالاً لهذه الحكومات الملكيّة المقيّدة بآراء الكهنة والأشراف. وكان ملوك المدائن الفينيقية، على استقلالهم بتدبير شؤون ولايتهم، يُقرّون لملك صور بالسيادة على الأمة كلّها. وكان يُسمّى حينئذ ملك الصيدونيين وإن أقام في صور، وله أن يبت جميع المسائل المتعلّقة بالمصالح العامّة، وأن يُوقّع على العهود مع الأجانب ويُخضع لإمرته الجنود البحريّة والبريّة. وكان لديه مبعوثون من كلّ من مدن فينيقية. وبقي الأرواديّون على شيء من الإنفصال عن سائر مدن فينيقية وإن كانوا من حلفائها، ويُقاسمونها منافع التجارة والأسفار البحريّة؛ فأصبحت صور لذلك المرفأ الأوّل للتجارة والمركز العام للسياسة. ولم يكن السكان فيها وفي سائر المدن يكفون للاقامة على تجارتهم وأعمالهم ولتعاطي الملاحة في السفن وللخدمة في الجنديّة براً وبحراً؛ فلزمهم أن يستأجروا بحّارة أجانب خاصّة من بلاد الأرواديين. وكان أكثر جنودهم مستأجرين، حتى كان حرس صور نفسها من الأرواديين، وباقي الجنود من الشعب الليبي الفينيقي السالف الذكر من سكان سواحل افريقية، وكان فريق منهم من ليديا من آسيا الصغرى. (لانرمان مجلد ٦ من تاريخه صفحة ٥٠٦). وقد أشار إلى ذلك حزقيال النبي بقوله (فصل ٢٧) لصور: «سكان صيدون وأرواد كانوا قذّافين لكِ، شيوخ جبَل وحكماؤها كانوا فيك جلافطة لخصاصك (أي يضعون القِير في خروق سفنك أو غيرها)... فارس ولود وفوط كانوا في جيشك رجال حربك... بنو أرواد مع جيشك كانوا على أسوارك من حولك».

عد ١١٥

مستعمرات الفينيقيين في مدة سيادة صور

إنّ انضمام الفينيقيين إلى صور جدَّدَ قواها وشدَّدها، ويسَّر أسفارها التي كان عراها بعض الوقوف من قبل خراب صيدا واعتراض سفن البلاسج لها. ولما كانوا يئسوا من معاودة الاستيلاء على الجزر المجاورة بلاد اليونان، ولم يكن باقياً لهم منهم إلا ثارة وميلوس وكاميروس وتاسوس، وإلا مدينة يالبسوس في جزيرة رودس، لزم أن تكون أسفارهم وأتجارهم في وجهة أخرى لا يلقون لهم بها منازعاً. وقد مرَّ أنه قد كان حلَّ منهم نزلاء في المغرب وعمَّروا مدينة هيبونا وكمباه في أملاك تونس الآن. وتفرَّع منهم ومن السكان القدماء الأمة المعروفة بالليبيّة الفينيقيّة. فأمّوا تلك البلاد في هذا العصر الصوريّ، وعمَّروا سنة ١١٥٨ق.م مدينة أخرى سمّوها أوتيك، وكان موقعها على شاطئ البحر في الشمال الغربي من قرطاجنّة. وأخذت سفنهم تتقدَّم من ثمة نحو المغرب وتتجر وتقيم نزلاء في نوميديا (محل معاملة قسطنطينية الآن في جزائر الغرب وقسم من أملاك تونس)، وفي موريتانيا (المعروفة الآن بمملكة فاس وبعض جزائر الغرب). وتطرَّقوا من هناك مرحلة مرحلة إلى أن اكتشفوا اسبانيا، وعمَّروا قادس مدينة في اسبانيا، وتواترت أسفارهم، وتوفَّرت جالياتهم في تلك البلاد. ولما كانوا يسمّون أهليها يسمّون أنفسهم تورتي أو توردا تاني غلب على لفظهم اسم ترسيس أو ترشيش فجعلوه علماً لهذه البلاد. وكثرت مستعمراتهم فيها. فهم الذين بنوا فيها ملاكا المعروفة حتى الآن بهذا الاسم، وسكس المسمّاة الآن مُرتيل في شرقي ملاكا، وأبدار المعروفة الآن بالماريا على شاطئ البحر المتوسط إلى الجنوب الشرقي من مدريد على مسافة ٤١٠ كيلومترات. ويظهر أنّ من مستعمراتهم كرتايا المسمّاة الآن الجزيرة (كلّها سمّيت بذلك في عهد ولاية العرب اسبانيا)؛ وهي في غربي جبل طارق على بعد ثمانية كيلومترات. وعمَّر الفينيقيون هنالك مدناً أخرى عديدة أقلّ أهميّة شهدت بأصلها الفينيقي أسماؤها التي ذكرها قدماء الجغرافيين. وذكروا لهم مستعمرات أخرى في شمالي هذه البلاد ووجدوا اسماء مدن أخرى كثيرة في الجهة الشرقيّة من اسبانيا حتى سفح جبال البيرينيه تدلّ تلك الاسماء على أنّ تلك المدن عمَّرها الفينيقيون. ولم ينقضِ قرن بعد أن عمَّر الفينيقيون قادس حتى تولّوا أخصب الأرضين وأغناها في اسبانيا؛ أعني

أعمالها الجنوبيّة المسمّاة باتيك، وهي الاندلس في عهد ولاية العرب. وعمروها بنزلاء أتوا بأكثرهم من الأمّة الليبيّة الفينيقيّة السالفة الذكر لحراثة الأرض، فاختلطوا بالوطنيين حتى قال استرابون: إنّ أكثر السكان في تلك الأنحاء كانوا في أيامه كنعانيين أصلاً. وأنبأتنا بعض الآثار التي اكتشفت هناك أنّ استعمال اللغة الفينيقيّة استمرَّ إلى أيام ولاية الرومانيين في قادس وملاكا وسكس وأبدار السالف ذكرها (لانرمان في تاريخه مجلد ٦ صفحة ٥٠٩).

وأما ما كان يستجلبه الفينيقيّون من اسبانيا فهو المعادن خاصة أي الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس والقصدير ثم العسل والشمع والزفت. فقد قال حزقيال النبي (فصل ٢٧ عد ١٢) لصور: «ترشيش متجرة معك في كثرة كل غنى وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقامت أسواقك». وكانت تجارة الفينيقيين في اسبانيا رابحة أيّ ربح. فقد قال أرسطو الفيلسوف الشهير (الذي وُلد سنة ٣٨٤ ق.م وقوله الآتي من كتابه في المعجبات فصل ١٤٧): «إنّ الفينيقيين الأوّلين الذين أتوا ترشيش استبدلوا زيتهم وغيره من بضاعتهم بمقدار كبير من الفضة حتى لم تسعه سفنهم. فصنعوا أدواتهم وآنيتهم كلها حتى أناجر سفنهم من الفضة». وروى ديودوس الصقلي (مجلد ٢ صفحة ٣٦ من ترجمة هوفر): «شبَّت نار في أحد محالّ جبال البيرينيه فأذابت مقداراً كبيراً من معدن فضة، وكان سكان تلك الأصقاع يجهلون بما يستعمل ذلك المعدن فباعوا الفضة للتجّار الفينيقيين، فكان هؤلاء يجلبون إلى آسيا وبلاد اليونان وآفاق أخرى، من الفضة ما أكسبهم غنى وثروة تشذّ عن الحصر. وكان من شدّة حرص هؤلاء التجّار أنهم بعد أن شحنوا سفنهم من الفضة قطعوا رصاص أناجرهم واستبدلوه بمراس من فضة».

ولذا أصبحت تجارة الفينيقيين في افريقية واسبانيا من جلّى مهامهم. وكان لا بدّ لها من محطة بين فينيقية ومستعمراتها الشاسعة، فاختاروا لذلك مالطة ونعمَ الاختيار. فاحتلَّت جالية منهم فيها في آخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكان فيها قبلهم ليبيّون، فاختلطوا بنزلائهم الذين استتبعوا جزيرة كولوس (المسمّاة الآن كوزو) لمالطة لقربها منها. وقد وُجدت أطلال الهياكل الفينيقيّة في مالطة وهي محفوظة إلى الآن. وتخلف للفينيقيين في الجزيرتين سكان قرطاجنّة. وقال ديودوروس الصقلي (في مجلد ٢ صفحة ١٢ في مالطة): «إنّ سكانها جالية فينيقيّة انبسطت تجارتها

إلى الأوقيانوس الغربي. فكانت لهم هذه الجزيرة أوفق محطة من حيث موقعها ومرفئها الأمين. فأصبح سكانها في أمد وجيز أصحاب ثروة وشهرة. والجزيرة الثانية تُسمّى كولوس على مقربة من الأولى وهي أيضاً مستعمرة فينيقيّة» (هوفر في تاريخ فينيقية).

أما سكان صقلية القدماء فيستدلّ ببعض الآثار أنهم كانوا من الإيباريين والليكوريين قدماء اسبانيا وجنوبي إفرنسة وإيطاليا وقد انضمّوا إلى عهدة الليبيين والبلاسج الآنفة الذكر، وشاركوهم في غزواتهم البحرية، ولكنهم لعلّة يعلمها الله شقّوا العصا مع اليونان وخالفوهم، وأعرضوا عن الملاحة وطلب الرزق في البحر، وانكبّوا على المشاغل في البرّ. فافترص الفينيقيّون فرصة هذه الحال فتولّوا التجارة في صقلية. وبعد أمدٍ وجيز توفّر عداد محالّهم التجاريّة في شواطئ هذه الجزيرة الخصبة التربة. ولم يكن لهم حينئذٍ من مزاحم. فإنّ اليونان لم يعودوا إلى هنالك إلا بعد ثلاثة قرون (ملخّص عن لانرمان مجلد ٦ صفحة ٥١٠). وعن هوفر (في تاريخ فينيقية) إنّ الفينيقيين عمّروا مدناً عديدة في صقلية منها ماكارا التي تسمّيها آثارهم راس ملكرت المعروف عند اليونان بهرقل Hercule. ولذلك سمّى اليونان هذه المدينة هرقلية. ومنها بانورم المسمّاة الآن بالرم وتُسمّى في آثارهم مخنات. وذكر بعضهم أنها كانت مركز عبادة الزهرة الصوريّة إلى غيرها من المدن. واستحوذ الفينيقيّون أيضاً على جزيرة قسورة المعروفة الآن بباتلريا وهي جزيرة صغيرة بين صقلية وإفريقية قريبة من شاطئ إفريقية، وجعلوها مستودعاً للذخائر والأدوات اللازمة في الأسفار.

وكانت سفن الفينيقيين التي تسافر من المغرب إلى اسبانيا لا بدَّ لها من المرور بجانب سردينيا فعمّروا هناك مدينة كراليس حيث الآن كلياري لتكون مستودعاً لتجارتهم وذخائرهم، ثم نوروا على شاطئ الجزيرة الغربي. وكان قبلهم فيها قوم من جملة أصحاب المعاهدة الليبيّة البلاسجيّة السالفة الذكر. وكانت لهم عناية كبرى في الماشية ولاسيما الأغنام، وكان للاتّجار بصوفها سوق رائجة. وفي الجزيرة معادن نحاس ورصاص فتوفّرت فيها محالّ تجارة الفينيقيين حتى استحوذوا علة الجزيرة. وقد اكتشفت فيها كتابة فينيقيّة منذ عصر ولاية الصوريين يُدعى بها معبود أهل الجزيرة سردوس باتر، وفي الفينيقيّة أب سردون. وتُشاهد صورة على نقود الجمهورية الرومانيّة (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٣١١). ويظهر أنه كان لهم معاهد

في كورسيكا أيضاً، وأنهم تطرّقوا من هذه الجزر إلى شطوط إيطاليا الجنوبيّة وإلى توسكانا وغيرها من أعمال إيطاليا. وسترى في الكلام على تجارة الفينيقيين أنّ تجّارهم لم يقتصروا على إبلاغ سلعهم إلى مدن أوروبا التي على سواحل البحر فقط، بل توغّلوا في إفرنسة وألمانيا إلى بحر البلتيك برّاً وإلى جزر بريطانيا. فكانوا يستبدلون في هذه الأمصار عروض تجارتهم ومصنوعاتهم بحاصلات البلاد ومستخرجات معادنها.

قد روى استرابون وغيره من القدماء أنه كان للفينيقيين أو الأحرى أن يُقال لجاليتهم في قرطاجنّة مستعمرات عديدة في مراكش وفي ما وراء بوغاز جبل طارق على شطوط افريقية الغربيّة؛ ومن ذلك ما جاء ذكره في درج حنون Perible de Hanon الذي يظهر أنه خلاصة كتاب مهمّ كُتب في الفينيقيّة ولم يبقَ منه إلا خلاصة موجزة في اليونانيّة بلغت إلينا في بعض كتب القدماء أخصّ انبائها: إنّ أهل قرطاجنّة الليبيّون الفينيقيّون أرسلوا حنون هذا بستين سفينة مشحونة بجالية منهم إلى ما وراء بوغاز جبل طارق لتحتلّ تلك الثغور. فذهب بهم وأخذ يحلّ في كلّ محلّ قوماً منهم مُسمّياً المدن والقرى والجزائر التي توصّل إليها وما شاهده فيها. ولم يتّفق العلماء على مواقعها ولا على بعد إحداها عن الأخرى إذ مقياسه مدة السفر في البحر بالشّراع. ولا ينفسح لنا مجال هنا للتطويل في ذلك، بل نجتزئ بأن نقول إنّ هذا الدّرج يثبت وجود مستعمرات للفينيقيين في ما وراء جبل طارق غربي إفريقية، وإنّ زمان كتابته غير مُتّفق عليه. فجعله بعضهم في نحو ألف سنة قبل الميلاد، وبعضهم أقلّ من ذلك. والأظهر أنه كتب في القرن السادس قبل الميلاد.

هل دارت سفن الفينيقيين حول قارة إفريقية ؟ هذا سؤال من جملة ما ذكرَه هوفر (في كتابه تاريخ فينيقية صفحة ٤٩). وأجاب عليه جواباً موجباً اعتماداً على ما رواه هيرودوت أبو التاريخ (ك ٤ فصل ٤٢) حيث قال ما ملخّصه: «ليس مَنْ يجهل أنّ قارة إفريقية تحيطها الأمواه إلا عند الخليج الذي يصلها بقارة آسيا (هذا قبل فتح خليج السويس). فنكو ملك مصر هو على ما نعلم أوّل مَنْ استوضح هذا الأمر. فإنه بعد أن رغب عن تكملة القناة الموصلة بين النيل والخليج الغربي، سيّر سفناً ملّاحوها فينيقيّون، فسار هؤلاء الفينيقيّون أولاً من البحر الأحمر ثم في البحر

الجنوبي (أي الأوقيانوس الهندي). وإذا نفذت ذخائرهم أقاموا وزرعوا الأرض وانتظروا حصادها، فإذا جمعوا غلّتها عاودوا سفرهم. وبعد أن سافروا كذلك بلغوا في السنة الثالثة أعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) فاجتازوا البوغاز واتصلوا إلى مصر. وأخبرني بعضهم أمراً لم أصدقه وربما صدَّقه غيري؛ وهو أنّ الشمس كانت على يمين المسافرين في دورانهم حول إفريقية». فهذا مثبت أنّ الفينيقيين داروا حول هذه القارّة. ويؤيّده ما لم يصدّقه هيرودوت وما لم يمكن اختراعه؛ وهو أنّ كل مسافر حول افريقيا مبتدئاً من البحر الأحمر تكون الشمس على يمينه عند مروره بطرفها الجنوبي. وعليه فالفينيقيون تقدَّموا البرتوغاليين ألفي سنة في الدوران حول قارة إفريقية.

عد ١١٦

اتفاق الفينيقيين وبني إسرائيل

إنّ افتتاح بني إسرائيل فلسطين كان في عهد سيادة ملوك صيدا كما مرَّ. ولا جرم أنّ الصيدونيين كانوا إذ ذاك من جملة المتضافرين على مقاومة بني إسرائيل. على أنّ يشوع بن نون قائدهم وقتئذٍ لم يخترق تخوم صيدا. فاستمرَّت على استقلالها مع ما يليها من المدن الشماليّة خاصة. وما برحت العداوة بين الفريقين تشبّ نارها لكلّ داعٍ أعواماً طوالاً إلى أن استفحل أمر الفلسطينيين وقويت شوكتهم، وحاولوا الأستيلاء على جنوبي سورية برمّته، وأخربوا صيدا وأزالوا سؤددها. فقضت الضرورة على بني إسرائيل والفينيقيين أن يغادروا ما كان بينهم من الإحن والضغائن، وأن يعمدوا إلى الائتلاف بينهم. واتفق أيضاً أن كان الآراميّون أخذوا في تلك الأثناء يوسّعون تخوم ولايتهم نحو الشمال فتغلّبوا على الكنعانيين في حماه، واستحوذوا عليها وعلى بني إسرائيل في عبر الأردن الشمالي فطردوهم منه. فكان ذلك داعياً آخر للوفاق والاقلاع عن العداوة التي استمرّت نحواً من ثلاثة قرون. واتّفق أيضاً أن كانت دولة مصر ودولة آشور في تلك الحقبة على غاية من الضعف والوهن اتفاقاً لم يكن له نظير في الدولتين معاً. ولذا توارد على خاطر الفريقين أنّ ما تلك إلا فرصة سعيدة ثمينة يلزم اغتنامها لتشييد أركان مملكة وطنيّة مستقلّة كل الاستقلال في سورية دعائمها الاتحاد الصحيح والمعاهدة المخلصة بين

مملكة بني إسرائيل الجبليّة ومملكة صور الساحليّة. وعليه فلما انقضى النزاع الذي أفضى إلى قتل شاول ملك إسرائيل وتمليك داود. وفي السنة نفسها التي أخذ داود أورشليم من اليابوسيين وجعلها قاعدة لملكه أرسل إليه حيرام الأوّل ملك صور وفداً يوقّع على عهدة الصداقة والاتفاق بينهما. وكان ذلك في نحو سنة الألف قبل الميلاد إذ قال الكتاب (ملوك ٢ فصل ٥ عد ١١): «ووجّه حيرام ملك صور رسلاً إلى داود وأخشاب أرز ونجّارين ونحّاتين فبنوا بيت داود». فالظاهر أنه بعد التوقيع على عهدة الاتفاق سأل داود حيرام أن يرسل إليه مهندساً لبناء القصر الذي عزم على بنائه في مدينة صهيون، وأن يصحبه عملَة ماهرون نجّارون ونحّاتون، وأن يأذن بقطع أخشاب من غياض لبنان الشهيرة لزينة قصره. فأتمّ حيرام كل ما سأله داود. ويتحصّل من ذلك أنّ الحروب في عصر القضاة ومضايقة الفلسطينيين لبني إسرائيل أعواماً عديدة أغفلتهم عن الصنائع التي كانوا يحسنونها أيام خروجهم من مصر، بدليل إتقانهم عمل خباء المحضر أي قبّة العهد. واستمرّ حيرام هذا ما حيي مسالماً داود. وتوفي فخلفه ابنه أبيبعل، وكان على شاكلة أبيه في موادّة داود الملك. وقد سُرَّ وشعبه في إذلال داود الفلسطينيين واخضاعه الآراميين والحثّيين واستيلائه على دمشق وحماه وانبساط ملكه في سورية إلى الفرات. ثم مات أبيبعل وخلفه ابنه حيرام الثاني لسنة ٩٧٨ قبل الميلاد على ما روى لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥١٣).

عد ١١٧
حيرام الثاني وسليمان الملك

قد جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ٥ عد ١): «وأرسل حيرام (الثاني) ملك صور عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنه مَسح ملكاً مكان أبيه» ليهنّئه ويوثقَ عُرى الاتحاد بينهما. وينبئنا الكتاب أنّ الوفاق تمكّن بين الفريقين إذ قال إنّ سليمان أرسل يقول لحيرام: «مر بأن يقطع لي أرز من لبنان وعبيدي يكونون مع عبيدك وأجرة عبيدك أؤدّيها إليك... لأنك تعلم أن ليس فينا مَنْ يعرف بقطع الخشب مثل الصيدونيين. فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح فرحاً عظيماً وقال مبارك اليوم الرب الذي رزق داود ابناً حكيماً على هذا الشعب الكثير». إلى آخر ما قاله الكتاب من عناية حيرام بقطع الأخشاب وجعلها أطوافاً في البحر إلى الموضع الذي

عيّنه سليمان وأداء سليمان إلى حيرام عشرين ألف كر من الحنطة وعشرين ألف كر من الزيت. وسترى ذلك بأكثر تفصيل في كلامنا في تاريخ العبرانيين.

وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٢) إنّ رسالتي سليمان وحيرام الأصليّتين كانتا محفوظتين حتى أيامه في خزائن أوراق الهيكل وفي خزائن سجلات الصوريين قائلاً: «إنّ مَنْ رغب في تحقيق ذلك فما عليه إلا أن يسأل حافظيّ هذه الخزائن اطّلاعه على ذلك، فيرى أني كنت في نقلها أميناً مجانباً الخلل. رأيت أن أقول هذا لأعلن أني وأيم الله لا أزيد على الحقيقة شيئاً. وأني لرغبتي في الاقبال على تاريخي دأبت أن لا أروي إلا ما كان صحيحاً. ولذلك أرجو ممّن يطالعه أن يطمئنّ إلى صحته ويوقن أني أحسب نفسي مرتكباً جريمة كبرى تستحقّ الاعراض عن كتابي إذا لم أبذل الكدّ والجدّ في إثبات الحقائق بحجج زاهنة». وروى رسالة سليمان كما رواها الكتاب، ثم رسالة حيرام مطابقة لجوهر نص الكتاب وهاكها كما رواها: «من الملك حيرام إلى سليمان الملك أني لأسديَنَّ الله شكراً لا ينقضي على أنك ورثت تاج الملك أبيك الذي كان عاهلاً تسامت حكمته وعظمت فضيلته. وسأتمّ بطيبة قلب ما سألتنيه. وسوف آمر أن يقطع لك من غياضي مقدار ما تحبّ من الأرجوزة والجزوع من السرو والأرز وأجعلها في البحر أطوافاً إلى المحلّ الذي تراه أكثر ملاءمة لنقلها منه إلى أورشليم. وأسألك أن تعوّضني من ذلك مقداراً من الحنطة. فأنت تعلم حاجتنا إليها في هذه الجزيرة.

وروى يوسيفوس أيضاً (في ك ١ من ردّه أقوال أبيون فصل ٥): «إنّ الصوريين كانوا شديديّ الحرص على حفظ السجلات الرسمية القديمة التي كتب فيها ما جرى بينهم... ومن جملتها أنّ الملك سليمان بنى هيكلاً في أورشليم لسنة مئة وثلاث وأربعين وثمانية أشهر قبل أن يبني أسلافهم قرطاجنّة».

ثم روى فقرة من هذه السجلّات وهذه ترجمتها: «إنّ حيرام أحد ملوكهم كان يخلص الوداد لداود الملك وواصل اخلاصه لسليمان الملك ابنه. وإثباتاً لمودّته له أهدى إليه عند بنائه الهيكل مئة وعشرين وزنة (وأنبأنا الكتاب ذلك إذ قال في سفر الملوك الثالث فصل ٩ عد ١٥) وأرسل حيرام إلى سليمان الملك مئة وعشرين قنطاراً ذهباً وجزوعاً من أفخر الخشب أمر بقطعها من جبل لبنان لسقف الهيكل وزينة جدرانه الفاخرة. فأهدى سليمان إليه هدايا نفيسة عديدة وكانت محبة

الحكمة تزيد في الوفاق بين هذين الملكين. وكانا يتطارحان الألغاز لحلّها. وكان سليمان يعلو على حيرام في ذلك». وأردف يوسيفوس هذا بقوله: «إنّ الصوريين يحفظون حتى اليوم بحرص شديد رسائل عديدة كان ينفّذها كلٌّ من هذين الملكين لصاحبه. وأستشهد الله على نفسي أني دقّقت في ما نقلت عن تواريخ الفينيقيين توثيقاً للقرّاء وهوذا ما كتب فيها: «ولما مات الملك أبيبعل خلفه ابنه حيرام الذي زاد كثيراً في مدن ملكه التي كانت في المشرق وألحق بمدينة صور أبنية عديدة... وقد حقّقوا أنّ سليمان ملك أورشليم كان يرسل إليه بعض ألغاز ويجعل جائزة لحلّها».

يظهر أنّ المهندس ومديري البناء والبنّائين والنحّاتين الذين أرسلهم حيرام إلى سليمان كانوا جميعاً من جبيل. فإنّ عملَة هذه المدينة كانوا أشهر أصحاب الصنائع في فينيقية. ولما كان شحن الأخشاب منها ظهر أنّ الأرز الذي قُطعت منه كان في جبال ناحية جبيل العليا لا في نواحي جبّة بشري حيث الأرز الآن. وإلا للزم شحن هذه الأخشاب من طرابلس أو البترون أو من فرضة أخرى بينهما. وقد حقّقَ بعض سكان ناحية جبيل العليا أنّ في غابهم حتى اليوم أثراً لأشجار الأرز.

قد أراد سليمان أن يعطي حيرام عشرين مدينة وقرية متاخمة لأرض صور جزاء صنعه المعروف في تيسير زينة الهيكل. فأبى حيرام قبولها مخافة أن تكون هذه القرى مندوحة للخصام بين أهل المملكتين. وذاك دليل على تضلّعه بفنّ السياسة. وآثر على ذلك أن يرسل إليه سليمان كل سنة ما دام الاشتغال ببناء الهيكل العشرين ألف كر بُر والعشرين ألف كر زيت السالف ذكرها لتكون مؤونة لعاصمته ولأسطوله.

ورغب سليمان في توثيق عُرى الاتحاد بينه وبين مملكة صور فتزوّج بإحدى بنات حيرام وكان قد تزوّج قبلها بإحدى بنات فرعون، ثمّ بإحدى بنات ملك الحثّيين الشماليين. فكان زواجه بالأميرتين الكنعانيّتين وسيلة لدخول عبادة بعل وعشتروت في أورشليم. وقد عقد سليمان وحيرام شركة في تسفير السفن إلى أوفير لاستجلاب الذهب وغيره من النفائس. وكان الفينيقيّون، من أقدم الأيام، يتجرون ببضائع الهند الثمينة. فكانت سفن الهنود تقلّ حاصلات بلادهم إلى سواحل اليمن وخليج العجم. وكان في العربيّة الجنوبيّة عدد غفير من تجّار الفينيقيين فيتلقّون ثمة بضائع الهند فتحملها قوافلهم برّاً إلى فينيقية وسائر أعمال سورية وإلى مصر وما بين

النهرين. ولما كان الصيدونيّون يسافرون في البحر الأحمر لجلب هذه البضائع إلى مصر في عهد الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، لم تكن سفنهم تتجاوز اليمن. وأما سليمان وحيرام فكان غرضهما تسيير السفن من مرافئ الخليج العربيّ توّاً إلى سواحل الهند فأصابا الغرض وكلّل النجاح مشروعهما. فقد جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ٢٨) إنّ ملّاحي هذه السفن «أتوا أوفير وأخذوا من هناك أربعمائة وعشرين قنطاراً (أو وزنة والوزنة ٤٣ كيلو) من الذهب وأتوا بها الملك سليمان. على أنه لم يدم هذا النجاح إلا ما دام ملك سليمان.

وقد سمّى الكتاب سفن هذه الشركة سفن ترسيس أو ترشيش لمشابهتها السفن التي كان الصوريّون يسافرون بها إلى اسبانيا المسمّاة ترشيش. ونرجئ الكلام في أوفير وموقعها إلى المقالة في العبرانيين.

ومات حيرام سنة ٩٤٤ق.م قبل سليمان. ويظهر أن قد بقي الوفاق بين مملكة صور ومملكة بني إسرائيل إلى ما بعد انقسامها إلى مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل، إذ لا نرى في الكتاب ولا في غيره أثر حرب بينهما في هذه الحقبة. بل نرى آحاب بن عمري ملك إسرائيل تزوّج بإيزبال ابنة إيتو بعل ملك صور. ويعلم قرّاء الكتاب المقدّس ما كان للأميرة الصوريّة من السطوة المخزنة على زوجها الضّعيف، وكم عززت كهنة بعل بالنفوذ السياسيّ والدينيّ في مملكة إسرائيل أولاً ثم في مملكة يهوذا بعد وفاة يوشافاط. والحاصل أنّ مملكة صور كانت شديدة النفوذ في مملكتي العبرانيين، حتى أنّ سلالة إيتو بعل الصوريّة استخلفت يوماً لبيت داود نفسه في أورشليم بواسطة عتلية. واستمرّ هذا النفوذ لصور في مملكة إسرائيل إلى أن توفّي يورام سنة ٨٣٠ ق.م. وفي مملكة يهوذا إلى أن رُقّي يواش منصّة الملك سنة ٨٢٣ق.م. وسنجيء على ذكر هذه الأحداث بأكثر تفصيل عند كلامنا في تاريخ العبرانيين.

عد ١١٨

ملوك صور وما كان من الأحداث في أيامهم إلى بناء قرطاجنّة

إنّ تاريخ صور منذ عقد ملوكها العهدة مع العبرانيين إلى بناء قرطاجنّة معلوم حقّ العلم، مما كتب في تواريخ صور التي ترجمها مينندر المؤرّخ اليوناني الأفسسيّ. وحفظ لنا يوسيفوس فِقَراً من ترجمته في كتاب ردّه أقوال أبيون. وأوّل مَنْ نعرفه

من ملوكهم هو حيرام الأوّل صديق داود الملك. وقد كان مالكاً في نحو سنة الألف قبل الميلاد وخلفه بعد وفاته ابنه أبيبعل. ولا يعلم شيء من الأحداث في أيام ملكه إلا محافظته على عهدة الوفاق مع بني إسرائيل. وقد وُجد اسمه محفوراً على حجر كريم محفوظ الآن في متحف فيرنسا بإيطاليا. وبعد وفاته خلفه ابنه حيرام. فقد جاء في فِقَر ميناندر: «وبعد موت أبيبعل قبض على صولجان الملك ابنه حيرام، فعاش ثلاثاً وخمسين سنة، وملك أربعاً وثلاثين منها، وجدَّد بعض الأبنية في صور، وأقام عمود الذهب الذي يشاهد في هيكل المشتري Jupiter، وأمر بقطع أخشاب الأرز من جبل لبنان لسقف الهياكل، وهدم الهياكل القديمة، وأقام هيكلَي هرقل Hercule وعشتروت، فدشَّن الأوّل لهرقل في شهر باريتوس (يوافق بدء هذا الشهر أواسط شباط) والثاني لما زحف بجنوده إلى الشيتين (سكان قبرص)، لأنهم أبوا أداء الجزية إليه، فردَّهم إلى الطاعة له. وكان لديه شابّ يُلقَّب بابن عبديمون اتصل إلى أن يحلَّ جميع الألغاز التي كان يلقيها سليمان ملك أورشليم».

وجاء مثل ذلك في فِقَر لديوس حفظها لنا يوسيفوس حيث يُقال: «خلف حيرامُ الملك أبيبعل، وعمَّر الأحياء الشرقيّة من المدينة، وزاد كثيراً في أبنيتها، وأدخل فيها هيكل المشتري الأولمبي (المؤلف يوناني فيسمّي الآلهة باسم آلهته فهو هيكل ملكرت) الذي كان منفرداً في جزيرة. فردم الفسحة التي بين الجزيرة واليابسة». ويظهر من كلام بعض الروايات أنّ حيرام هذا هو الذي كان في زمان داود وعلى عهد ابنه سليمان؛ ومؤدّاه أن ليس إلا حيرام واحد لا حيرامان. لكن الأرجح والأقرب إلى الصواب أنّ حيرام الأوّل كان في أوائل ملك داود وخلفه ابنه أبيبعل فملك في أكثر مدة ملك داود. ثم خلفه ابنه حيرام الثاني فكان حليف داود وسليمان وصديقهما. ومما يؤيّد ذلك أنّ جميع الروايات القديمة أي روايات يوسيفوس وروفينوس وأوسابيوس وسنشلوس والرواية المجهولة المؤلِّف أجمعت على أنّ مدة ملك حيرام هذا كانت أربعاً وثلاثين سنة. ومن المعلوم أنّ داود ملك أربعين سنة. ويظهر من الكتاب (ملوك ٢ فصل ٥ عد ١١) أنّ حيرام كان صديقاً لداود منذ افتتح أورشليم. فلا يمكن أن يكون حيرام واحد في أيام داود وأيام سليمان، بل الأظهر أن حيرام الأوّل كان مالكاً في صور عندما ملك داود في بني إسرائيل، وحيرام الثاني ملك في صور في آخر مدة ملك داود وفي مدة من ملك سليمان.

ويشعر بذلك قول الكتاب (ملوك ٣ فصل ٥): «إذ كان حيرام لم يزل محبّاً لداود كل أيامه» أي أيام داود. وقول سليمان لحيرام: «قد علمت أنّ داود أبي لم يقدر أن يبني بيتاً لاسم الرب إلهه». وقول حيرام: «مبارك الربّ الذي رزق داود ابناً حكيماً على هذا الشعب الكثير». فكل هذا مؤذن بأنّ حيرام صديق سليمان كان صديق أبيه داود. وكان يعلم أنّ داود لم يقدر أن يبني بيت الرب. وقد يسَّر بأنه رُزق ابناً حكيماً. ولا يمكن أن يكون حيرام واحداً في المدة التي هي من فتح داود أورشليم إلى بناء سليمان الهيكل فيها مع أنه لم يملك إلا أربعاً وثلاثين سنة كما مرَّ.

ثم مات حيرام الثاني سنة ٩٤٤ق.م قبل سليمان وحيث إنه ملك أربعاً وثلاثين سنة فيكون ارتقى منصّة الملك سنة ٩٧٨ في عهد داود الذي توفي سنة ٩٧٣ على ما روى لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥١٦). وخلف حيرام الثاني ابنه بعلعزار إذ قال ميناندر في الفِقَر التي رواها يوسيفوس (في ك١ ضد أبيون فصل ٥): «ولما مات حيرام الملك خلفه ابنه بعلعزار (أو قلاعزار) ثم مات وعمره ثلاث وأربعون سنة ولم يملك إلا في سبع منها». هذا في رواية يوسيفوس وروفينوس. ولكن في روايتي تاوافيلوس وأوسابيوس أنه ملك سبع عشرة سنة. ولم نجد ذكراً لشيء من أعماله. وخلفه بعد وفاته ابنه عبد عشتاروت فملك تسع سنين بإجماع الروايات. فقال ميناندر في المحل السالف ذكره: «وخلف بعلعزار ابنه عبد عشتاروت ولم يعش إلا تسعاً وعشرين سنة وولي الملك في تسع منها. وقد تآمر عليه ابناء ظئره الأربعة فقتلوه غيلةً وملك مكانه أكبرهم مدة اثنتي عشرة سنة». ولم يذكر ميناندر ولا غيره اسم الملك. وكان مقتل عبد عشتاروت لنحو سنة ٩٢٨ق.م أي في نحو الوقت الذي شقّ فيه ياربعام بن ناباط مملكة بني إسرائيل فانقسمت إلى مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل. وقد جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ١١ عد ٤) أنّ ياربعام هرب من وجه سليمان إلى شيشاق ملك مصر ومكث هناك إلى وفاة سليمان، وعاد بعدها فشقّ الأسباط العشرة عن مملكة راحبعام بن سليمان. فيتحصَّل من ذلك أنّ شيشاق ملك مصر كان ينوي غزوة إلى سورية، ومن معدّاته لها دسيسته لقتل ملك مصر ولشقّ مملكة العبرانيين إلى شطرين. وقد تيسَّرت له بذلك هذه الغزوة إذ قال الكتاب (ملوك ٣ ف ١٤ عد ٢٥): «ولما كانت السنة الخامسة للملك رحبعام

صعد شيشاق ملك مصر على أورشليم فانتهب ما في خزائن بيت الرب وخزائن دار الملك وأخذ الجميع وأخذ كل مجان الذهب التي عملها سليمان».

ولم يستتبّ الملك لابن الظبر، قاتل عبد عشتاروت، بل استمرَّ الشّغب والهرج في الإثنتي عشرة سنة التي قضاها على منصّة الملك، إلى أن تيسَّر لعليّة الصوريين أن يجلسوا عليها عشترتوس بن بعلعزار أخا الملك القتيل، إذ قال مينندر: «وملك عشترتوس بن بعلعزار اثنتي عشرة سنة وعاش أربعاً وخمسين سنة». ولما مات عشترتوس لم يخلفه ابنه بحسب شريعة مملكة صور بل خلفه أخوه المسمّى عشتاريم ثالث ابناء عبد عشتاروت. وقال مينندر: «وخلف عشترتوس عشتريم أخوه وعاش أربعاً وخمسين سنة ملك في تسع منها، ثم قتله أخوه فالس وأخذ ملكه وعاش خمسين سنة لم يملك إلا في ثمانية أشهر منها. قتله إيتوبعل كاهن الربّة عشتاروت، وملك مكانه اثنتين وثلاثين سنة». فإن راعينا أنّ ما جرى من هذا الهرج والقلق في مملكة صور كان مثله في وقته في مملكة إسرائيل إذ باد فيها بيتي ياربعام وبعشا أحدهما بعد الآخر. رأينا شدة العلائق السياسية بين مملكتي صور وإسرائيل.

وكان ملك إيتوبعل في صور معاصراً الملك عمرى، وابنه احاب في اسرائيل. وكان كلاهما أصلاً لسلالة ملكيّة في قومه. وزوّج ايتوبعل ابنته إيزابال باحاب بن عمرى ملك اسرائيل الذي رُقّي منصّة الملك سنة ٨٧٣ق.م. وكان ايتوبعل صار ملكاً في صور سنة ٨٩٤ق.م، وايتوبعل هذا بنى مدينة البترون إذ قال مينندر في فقرة رواها يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ ف ٧) إنّ ايتوبيل «هذا هو الذي بنى مدينة بتريس (البترون) في فينيقية» التي استمرّت زماناً طويلاً محصناً لردّ غارات اللبنانيين على تلك السواحل الفينيقيّة. ثم قال مينندر: «ومات ايتوبعل وعمره ثماني وستّون سنة وخلفه ابنه بعل عزور، فعاش خمساً وأربعين سنة ملك في ستّ منها، فخلفه ابنه موتون أو موجم فعاش اثنتين وثلاثين سنة ملك في تسع منها، فخلفه ابنه بيكماليون وعاش ستاً وخمسين سنة ملك في سبع وأربعين سنة منها، وفي السنة السابعة من ملكه فرّت أخته ديدون إلى افريقية وعمّرت قرطاجنة في ليبيا». انتهى كلام مينندر كما رواه يوسيفوس الذي قال بعد ذلك: «تبيّن مما مرّ أنّ من ملك حيرام إلى بناء قرطاجنة مئة وخمساً وخمسين سنة وثمانية أشهر، وأنه لما كان بناء هيكل اورشليم في السنة الثانية عشرة لحيرام فيكون بين بناء الهيكل وبناء

قرطاجنة مئة وثلاث وأربعون سنة وثمانية أشهر. مع إنه إذا حُسبت مدّات هؤلاء الملوك كما رواها يوسيفوس عن مينندر لا تبلغ إلا مئة وسبعاً وثلاثين سنة، فالثماني عشرة سنة التي هي الفرق حاصلة من اختلاف الرواية في تعيين مدّة بعض الملوك؛ مثلاً قد عيّن لملك موتون تسع سنين مع إنّ روايات أخرى جعلت مدّة ملكه خمساً وعشرين سنة.

عد ١١٩

بناء قرطاجنة

توفي موتون ملك صور عن ولدين؛ أحدهما بيكماليون وعمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة، والثاني بنت اسمها اليسار ويُسمّيها الشعراء اليسّا تكبر أخاها ببعض سنين. وأوصى موتون أن يشترك ولداه في إرث ملكه، ولكنّ الشعب كان يرتقب فرصة لتبديل هيئة الحكومة لتغلّب سلطة الأشراف فيها، فثار القوم ونادوا باسم بيكماليون وأجلسوه على منصّة الملك وحده، وأقاموا له ندوة مشورة أكثر رجالها من الشعب، وأسقطوا أليسار أخته من عرش الملك. فتزوّجت بزيكار بعل وسمّاه فرجيل سيكا، وسمّاه غيره أشرباس أو أشربال. وكان خال أليسار وأعظم كهنة ملكرت، وله المقام الثاني بعد الملك فكان لذلك رئيس حزب الأشراف. ولما مرّت على ذلك مدة أرسل بكماليون فقتل زيكار بعل إما بدسيسة من رجال حزب الشعب وإما طمعاً بأخذ ماله إذ كان غنيّاً، فاستاءَت أليسار حتى طارت نفسها شعاعاً من قتل أخيها زوجها وهمَّت بإنشاء ثورة لتثأر لزوجها وتثلّ عرش أخيها وتعيد نفوذ حزب الأشراف. ومالأها في ذلك ثلاث مئة عضو من رجال الندوة كانوا من حزب الأشراف. فتغلَّب عليهم الحزب الشعبي حتى يئس الثائرون من الفوز بما يبتغون. وآثروا مغادرة وطنهم على أن يُذَلّوا لبكماليون وحزب الشعب. فاستولوا بغتةً على سفن عديدة كانت مُعدَّة للسّفر فركبتها أليسار وألوف من رجالها وساروا ينوون أن يعمّروا صوراً أخرى تحت جوٍّ آخر. فأكسبها سفرها على هذه الحال لقب «ديدو» وتأويله الفارّة أو الهاربة. وعن يوستينوس المؤرّخ اللّاتيني الذي كان في القرن الثاني وكتب قصّة هذه الأحداث أنّ أليسار سارت أولاً بجاليتها إلى قبرص ثم إلى سواحل إفريقيا حيث كانت جالية صيدونيّة عمَّرت

كمبه منذ نحو من ستة قرون في محل تونس الآن أو على مقربة منه كما مرّ (عد ١١٠). وكانت الجالية الفينيقيّة القديمة انحطّ قدرها. وكانت تؤدّي الجزية حينئذٍ إلى ملك من الليبيين يُسمّى جابون فاشترت أليسار منه أرضاً لجاليتها وعمّرت فيها مدينة سمّتها «قرية حديثا» أي المدينة الجديدة. فكسر اليونان هذا الاسم وجعلوه «كرشيدون» وجعله الرومانيّون «كرتاكو» Carthago وفي الإفرنسيّة كرتاج Carthage. وسمّاه العرب قرطاجنّة؛ فهذه المدينة بُنيت سنة ٨٢٢ ق.م وعلى قول آخرين سنة ٨٦٠ ق.م للسنة السابعة من ملك بكماليون.

قد كثر ما نظمه الشعراء في أليسار ويُسمّونها بلقبها ديدون حتى أفعموا تاريخها من الأقاصيص الموضوعة. على أنّ ما رويناه تاريخ حقيقيّ. وقد جعله كذلك كاتون القديم (هو مؤلّف لاتينيّ كان في القرن الثالث قبل المسيح) وبومبايوس تروك (هو كاتب رومانيّ كان في القرن الثاني للنصرانية)، بل القديس أغوسطينوس أيضاً (في تفسير المزمور ٦٨) اعتماداً على تواريخ قرطاجنّة. وأما ما ذكروا عن ملئها أكياساً رملاً وإيهامها وفد أخيها الملك بأنها أكياس مُلئت بمال زوجها وطرحها في البحر بحضرتهم كبتاً لطمع أخيها، ثم طلبها أن تشتري في إفريقيا أرضاً بمقدار جلد ثور وقدّها الجلد سيوراً رقيقة مستطيلة وأخذها أرضاً بطولها لبناء مدينتها، ثم انتحارها فراراً من عقدها الزّواج مع هيرباس ملك المكسيتانيين. فكل ذلك من الأقاصيص والحكايات الموضوعة.

الفصل الخامس

الفينيقيون وملوك الآشوريين

عد ١٢٠

أول مَنْ غزا فينيقية من الآشوريين

وُهِمَ بعض العلماء القدماء أنّ نينوس باني نينوى - على زعمهم - أخضع لسلطته فينيقية وآسيا الصغرى، اعتماداً على ما رواه كتاسياس اليوناني الذي كان عند أحد ملوك الفرس في آخر القرن الخامس ق.م، ونقله عنه ديودوروس الصقلّي ذاكراً حكاية سميراميس امرأة نينوس وأنها ولدت في عسقلان مدينة سورية. وجعل يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ فصل ٩) أمرفال ملك شنعار وكدرلاعومر ملك عيلام وحلفاءهما (الذين حاربوا بارع ملك سدوم وأحلافه في عهد ابراهيم الخليل) آشوريين أخضعوا جنوبي فلسطين بل سورية كلّها. وذكر مثل ذلك أبو الفرج بن العبريّ في تاريخه السريانيّ، وجاء في الكتاب المسمّى قانون أوسابيوس أنّ الآشوريين حاربوا الفينيقيين في القرن السادس عشر قبل الميلاد. وفي تاريخ ابن العبريّ الآنف ذكره: «أن قد كانت حرب عوان بين الكلدانيين والفينيقيين» في ذلك القرن. وظنّ بعضهم أنّ كوشان رشعتائيم ملك آرام النهرين الذي تعبّد له بنو إسرائيل ثماني سنين في أيام قضاة إسرائيل (قضاة فصل ٣ عد ٥ إلى ٨) إنما هو ملك آشوريّ. ولم يستعبد بني إسرائيل فقط بل استعبد الفينيقيين أيضاً (هوفر في تاريخ فينيقية). فكل هذه الأقوال كان يستمسك بها قبل الاكتشافات الحديثة وكانت تُظنّ صحيحة لا يرد عليها من اعتراض. على أنّ الاكتشافات الحديثة أثبتت أنّ نينوس الذي سمّاه القدماء آشوريّاً تقدّم دولة الآشوريين بقرون. وعند أكثرهم ومنهم لانرمان أنه لم يوجد بل هو عبارة عما كان لنينوى التي نسبوها إليه

ولبابل من السطوة والاقتدار. فجعل القدماء الحكاية تاريخاً وكذا وضح الآن أنّ ملك شنعار وملك عيلام وأحلافهما لم يكونوا آشوريين؛ وإن كان بعضهم ملك البلاد التي ملك فيها بعدهم الآشوريون. وقد يحتمل الصحّة أنّ كوشان رشعتائيم كان من أسلاف الملوك الآشوريين لكنّ الكتاب لم يصرّح بأنه فعل في الفينيقيين شيئاً.

إنّ الذي علم إلى اليوم من الآثار أنّ أوّل ملوك الآشوريين حقيقة الذي جاوز الفرات غازياً إلى سورية إنما هو تجلت فلاصّر الأوّل الذي ارتقى منصّة الملك سنة ١١٢٠ ق.م. واستمرّ فيها إلى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد. وقد كشف عن آثار له تبيّن حروبه سنة فسنة. قال لانرمان (مجلد ٤ صفحة ١٤٦) إنّ الذي يظهر من هذه الآثار أنه لم يتجاوز بغزواته (التي ذكرناها في عد ٧٠) جبل اللكام ولم يرَ البحر المتوسط. وزعم بعض المؤرِّخين أنه استحوذ على كيليكيا ودمَّر سواحل البحر المتوسط وأدَّت إليه مصر الجزية. لكن الذي حملهم على هذا القول إنما هو اعتمادهم على أثر محطَّم يُعرَف عندهم بالصفيحة المكسَّرة ذكرت بها حروب في فينيقية وصيدا في البحر المتوسط فنسبوها إلى تجلت فلاصّر الأوّل وليست له، لمخالفتها الأثر الذي نُقشت عليه تواريخ غزواته كلها ولاكتشافها في كوينجك حيث لم يوجد حتى اليوم أثر آخر له. والصحيح أنّ الصفيحة المكسَّرة تشتمل على ذكر غزوات آشور نزيربال ولاسيما أنّ تجلت فلاصّر عدَّد اثنين وأربعين شعباً خضعوا لسلطته «من مجرى الزاب السفلى إلى شط الفرات، ومن بلاد الحثّيين إلى البحر الأسود». ولم يذكر فينيقية ولا البحر المتوسط. وزاد لانرمان على ذلك في حاشية علَّقها على صفيحة ١٥٤ «أنه وجد أثر لتجلت فلاصّر الأوّل كتب فيه أنه ملك البلاد حتى سواحل البحر المتوسط. وعبَّر عنه «بتامدي رابيتي أحارى» أي بحر فينيقية الكبير. وقال لكنني لا أظنّ ما عبَّر به عن هذه التخوم الغربية التابعة لملكه يلزم فهمه بحسب منطوق حروفه.

على أنّ الأب فيكورو قال (في مجلد ٤ من مؤلّفه الكتاب والاكتشافات الحديثة صفحة ٣٦) إنّ تجلت فلاصّر «هو أوّل ملك من هذه الأمّة جاوز الفرات واتصل بسلاحه إلى سورية حتى جبل لبنان والبحر المتوسط. وقد أقام تمثالاً لنفسه عند منبع دجلة ومثاله في لندره وعليه خطوط هذه ترجمتها: «بعون آشور وشماس

وبان كبار الآلهة أسيادي أنا تجلت فلاصّر ملك آشور (يعدّد آباءه) ملكت من البحر الكبير في أرض أحارى (المغرب أي فينيقية) حتى إلى بحر أرض نهري (آخر مملكته في الشرق لعلّ المراد البحر الأسود أو بحر قزوين). واشتملت صفائح هذا الملك على تفاصيل غزواته الخمس الأولى وعدَّد فيها نصراته على الآراميين، لكنه لم يتكلَّم كلاماً مخصوصاً في حربه في فينيقية بل ذكر خشب الأرز (من لبنان) بين الجزيات التي افترضها على البلاد التي افتتحها وأنّ أسلافه الملوك وآباءه لم ينتصروا على هذه البلاد»؛ وعليه فإتيان تجلت فلاصّر الأوّل إلى فينيقية غير مجمع عليه حتى الآن لعدم وجود آثار تصرّح به.

لكنّ المجمع عليه أنّ آشور نزيربال غشى فينيقية بعساكره؛ فإنه فضلاً عما كتب على صدر تمثاله القائم الآن في المتحف البريطاني كما مرَّ (في عد ٧٢) قد نُقشت أخبار غزوته لفينيقية على صخر كالح حيث يقول إنه لم يخضع لسلطته سورية الشمالية، وبلاد الحثّيين، وجبال اللكام، وشواطيء العاصي فقط، بل يقول أيضاً إنه نزل بنفسه إلى فينيقية، وإلى ساحل البحر المتوسط، وأخذ الجزية من صور وصيدا وجبيل وأرواد. وقد كتب على صخرة نمرود: «وفي هذا الزمان أخذتُ نواحي جبل لبنان، وذهبتُ نحو بحر فينيقية الكبير، وترنّمتُ على أعالي الجبال بتسابيح الآلهة العظام، وقدّمتُ لهم المحرقات، وأخذتُ الجزية من ملوك بلاد البحر، من سكان صور، وصيدا، وجبيل، ومحالا، ومَيزا، وكيزا (لا يُعرف موقع هذه المدن الثلاث)، وأرواد التي هي في وسط البحر. فقد أتوني بالفضة والذهب والرصاص والنحاس والحديد وبمنسوجات الصوف والكتّان وبأخشاب ثمينة وجلود حيوانات بحريّة، وقبّلوا قدمي». وفي أثر آخر وهو الصفيحة المكسّرة السالف ذكرها قال: «إنه ركب السفن التي أخذها من مرفأ أرواد، ومضى للنزهة في البحر فقتل دُخَساً (الدلفين)، وأنه قضى بعد ذلك أياماً يصطاد في جبال لبنان الوعرة فقتل جواميس وخنازير بريّة، وقبض على كثير منها حيّاً وأخذه إلى بلاد آشور. ويتفاخر بأنه قتل ماية وعشرين أسداً». وقد كانت غزوة آشور نزيربال هذه نحو سنة ٨٦٥ ق.م في أيام إيتوبعل ملك فينيقية. واكتفى بما أخذه من الجزية والتقادم من مدن فينيقية المشهور انصباب أهلها على التجارة وإيثارهم مثل هذه الجِزى على معاناة الحروب ووقوف حركة تجارتهم وقفل آشور نزيربال عائداً إلى بلاده.

عد ١٢١

الفينيقيون وسلمناصّر الثالث وخلفاؤه إلى تجلت فلاصّر الثاني

قد ذكرنا في العدد ٧٣ أنّ سلمناصّر الثالث هو ابن آشور نزيربال وخلفه، وأنه قبض على صولجان ملك آشور من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٨٢٣، وأبنّا ما كان له مع الحثّيين من الحروب الهائلة والمواقع العديدة. وسوف نذكر في تاريخ العبرانيين ولاسيما عند الكلام في تاريخ آحاب ملك إسرائيل الحروب التي انتشبت بينه وبين ملوك سورية وملك إسرائيل. ومن أخبار أعماله مع الفينيقيين ما نقشه على مسلة نمرود حيث قال: «في غزوتي الثامنة عشرة عبرتُ الفرات المرة الواحدة والعشرين، وسرتُ بجنودي على مدن حزائيل ملك دمشق، وأخذتُ الجزية من صور وصيدا وجبيل». على أنه في محالفة الاثني عشر ملكاً في سورية على سلمناصّر هذا لا نجد من اسماء ملوك فينيقية إلا اسم ماتينبعل ملك أرواد. ولم يكن معه من الجنود إلا مئتا رجل. وإن وجدنا بين عداد هؤلاء الملوك المتحالفين اسم آحاب ملك إسرائيل وأنه كان معه ألفا مركبة وعشرة آلاف رجل فيظهر أنّ الفينيقيين استسلموا إلى سلمناصّر على عادتهم المستمرّة ولاسيما أنه ورد في آثار هذه الغزوة أنها انتهت بخسارة ابن هدد ملك دمشق رئيس هذه المحالفة وعشرين ألفاً وخمس مئة رجل من رجاله تجندلوا في ساحة الحرب. واضطرَّ ابن هدد أن يفرَّ في البحر مع رؤساء عماله وسلمناصّر يتفاخر بأنه ركب السفن في نخبة من جنوده وتأثره في وسط تيار البحر فلم يدركه (طالع عد ٧٣). وتأثر سلمناصّر لملك دمشق كان ولا بدّ من مدن فينيقية وذلك مؤذن بلا إشكال أنّ هذه البلاد استسلمت له. وقد جرت هذه الأحداث في فينيقية على عهد موتون أو ماتان بن بعلعزار بن إيتو بعل ملك صور الذي ابتدأ ملكه سنة ٨٣٨ وانتهى ٨٢٩ – على ما روى لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥١٧) وفي أيامه خسر الفينيقيّون أملاكهم في جزيرتّي مالوس وثاره ومدينتَي كاميروس وياليسوس في جزيرة رودس. أخذها من يدهم الدورويّون إحدى عشائر اليونان الأربع بعد حصار عنيف – على ما قال لانرمان في المحل السالف ذكره.

وخلف سلمناصّر الثالث ابنه شمسي رامان ودام ملكه من سنة ٨٢٢ إلى سنة ٨٠٩ ق.م. ولم يوجد له أثر ينبئ أنه غزا سورية أو فينيقية. ولكنّ ابنه وخلفه

راماِن نيرار الثالث (الذي رُقّيَ منصّة الملك سنة ٨٠٩ واستمرَّ فيها إلى سنة ٧٨٠ق.م) غار على بلاد الحثّيين ثم على فينيقية وبلاد عمري أي مملكة إسرائيل وبلاد آدوم وفلسطين ودمشق. فإنه قد عدَّ في أثر له البلاد التي تؤدّي له الجزية كل سنة فذكر كلّ ما ذكرنا من البلاد في سورية، ومن جملتها «فينيقية برمّتها بلاد صور وصيدا». على أنّ خلفاء هذا الملك كانوا على غاية من الوهن. فبات الفينيقيّون وسائر السوريين ناعميّ البال من قبل الآشوريين– كما أسلفنا (في عد ٧٤) – إلى أن استوى على عرش الملك تجلت فلاصّر الثاني سنة ٧٤٥ إلى سنة ٧٢٦ ق.م. وغزا سورية غزوات إحداها سنة ٧٤٣ انتصر فيها على بيزيريس ملك الحثّيين. واستدعى إليه إلى تل أرفاد في جانب حلب ملوك سورية فأتوه بالتقادم. ومن جملتهم حيرام (الثالث) ملك صور. والثانية في السنة التالية أي سنة ٧٤٢ تألّب فيها عليه ملوك سورية فحاصر تل أرفاد ولم يفتتحها إلا بعد سنتين لكنّ افتتاحها يسَّر له قهر سائر ممالك سورية. فجلا منها ألوفاً وأدّى له ملوكها الجزية. وعدَّد اسماءهم في أحد آثاره متفاخراً. فكان بينهم حيرام ملك صور، وسيبيتي بعل ملك جبيل وستة عشر ملكاً آخرون. والغزوة الثالثة كانت سنة ٧٣٤ انتصر فيها على عساكر رصين ملك دمشق وفاقح ملك إسرائيل. وقتل رصين. ويُظنّ أنّ قتل هوشع لفاقح ملك إسرائيل كان بإيعازه (ملوك ٤ فصل ١٥ و١٦). واتصل بغزوته إلى غزّة فهرب ملكها حنون إلى مصر وعاقب شمسة ملكة العرب وجلا كثيرين من بني إسرائيل وغيرهم إلى بلاده. وأدّى له آحاز ملك يهوذا الجزية. ولما هَمَّ تجلت فلاصّر بالعود إلى نينوى استدعى الملوك الذين أخضعهم فكانوا خمسة وعشرين ملكاً منهم كثير ممن ذُكرت أسماؤُهم آنفاً. وفي جملتهم سيبيتي بعل ملك جبيل وماتان بعل ملك أرواد. وأما صور فأرسل إليها قائداً آشوريّاً. ويظهر أنّ حيرام الثالث كان قضى نحبه فخلفه مياب بعل الذي دفع إلى القائد مئة وخمسين وزنة من ذهب افتدى ملكه بها (لانرمان مجلد ٤ صفحة ٢٢٤ عن آثار هذا الملك). ويظهر أنّ مياب بعل هذا غير موتون ابن حيرام الثالث الذي خلفه نحو سنة ٧٣٨. وكان في هذه الأثناء نزاع لا نعلم داعيه ولا تفصيله حمل الصيدونيين على أن يغشوا أرواد ويفتتحوها برضى ملك صور، وأقاموا جالية منهم فيها فأصبحوا أسيادها.



صورة ملكَي الآشوريين

عد ١٢٢

الفينيقيون وسلمناصّر الخامس وسرغون ملكَي الآشوريين

إنّ سلمناصّر الخامس (على ما وصفه لانرمان أو الرابع على ما وصفه فيكورو) استوى على منصّة الملك خمس سنين فقط، أي من سنة ٧٢٦ أو سنة ٧٢٧ إلى سنة ٧٢١ أو سنة ٧٢٢ق.م. ولا يُعلم هل كان نسب بينه وبين تجلت فلاصّر سالفه ولا كيف رُقّيَ عرش آشور، وقد وُجد اسمه في كثير من الآثار الآشورية. ولكن لم يوجد له إلى اليوم أثر تاريخيّ يُنبئ بأعمال خطيرة له. وعزا لانرمان ذلك إلى قصر مدة ملكه وإلى أنه لم يكن من عادة ملوك آشور أن ينقشوا ما يخلّد ذكرى أعمالهم وغزواتهم الحربيّة إلا بعد مرور بضع سنين من ملكهم. على أنه قد ورد اسمه مكرّراً في الكتاب لتنكيله ببني إسرائيل وحصاره السامرة (ملوك ٤ فصل ١٧). وحفظ لنا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٩ فصل ١٤) خلاصة عن ميننڈر كاتب تواريخ صور أنبأتنا بما كان بين هذا الملك والفينيقيين؛ وهذه ترجمة كلام ميننڈر: «إنّ إلوُلا (ملك صور) ملكَ ستاً وثلاثين سنة. ولما تمرّد عليه الشيتيّون (في قبرص) مخر إليهم بأسطول فدانوا لسلطته طائعين. وأرسل ملك آشور عليهم عسكراً واستحوذ على فينيقية كلّها[1]. ثم عقد عهدة صلح وعاد إلى بلاده. على أنّ سكان عكا (وصيدا في ترجمة هوفر) وصور القديمة ومدناً أخرى عديدة ثاروا على الصوريين وخلعوا نير طاعتهم واستسلموا إلى ملك الآشوريين. فلم يبقَ على نبذ طاعته إلا الصوريّون في الجزيرة. فألّب ملك آشور ستين سفينة مفعمة بالفينيقيين وفيها ثماني مئة مجذف فأرسل الصوريّون اثنتي عشرة سفينة فقط لمناصبة هذا الأسطول، فشتّتوه، وأخذوا خمسماية أسير من جنوده وبحّارته. فأكسبهم هذا الانتصار فخاراً وأعلى شأنهم. فعاد ملك الآشوريين عنهم تاركاً جنوده لحراسة النهر وأقنية الماء ليمنعوا الصوريين الاستقاء. ودامت هذه الحال خمس سنين فاضطرّ الصوريّون أن يحتفروا آباراً للاستقاء».

---

(١) كذا في ترجمة يوسيفوس الافرنسية عن النسخة المطبوعة في باريس سنة ١٧٠٠ ولكن ترى هذه الفقرة في ترجمة هوفر في تاريخ فينيقية (وارسل سلمناصر ملك الآشوريين إليهم وفداً واستحوذ على فينيقية كلها) فلعل المراد انه ارسل وفداً إلى الشيتيين ليجرئهم على مقاومة الولا .

فالظاهر من هذه الأحداث أنّ شعوب سورية الغربيّة لما قبض تجلت فلاصّر انتهزوا فرصة موته ليخلعوا نير عبوديّة آشور. فتحالف ملك إسرائيل وملك فينيقية وغيرهما على الخروج من طاعة الآشوريين. وقبل أن تكمل معدّاتهم لذلك دهمهم سلمناصّر، فاستسلموا إليه، وأدّوا له الجزية. فعاد إلى نينوى، لكنهم أضمروا العود لمناوأته مستنجدين بشباك ملك مصر الذي يسمّيه الكتاب (سؤ). وهذا بيِّن مما جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٧ عد ٣) حيث قال في هوشع ملك إسرائيل: «وصعد عليه سلمناصّر ملك آشور. فكان هوشع عبداً له وكان يؤدّي له جزية. وعلم ملك آشور أنّ هوشع محالف عليه. وقد وجّه رسلاً إلى سؤ ملك مصر ولم يؤدِّ الجزية إلى ملك آشور». فعاد سلمناصّر ثانية إلى سورية فقبض عليه وأرسله مكتوفاً إلى السجن وصعد ملك آشور على الأرض كلها وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين». وحينئذٍ استسلمت إليه مدن فينيقية ولم يبقَ على مناوأته منها إلا الصوريّون الذين في الجزيرة. فكان قول ميننذر إنّ سلمناصّر عقد عهدة صلح مع ملوك سورية وعاد إلى بلاده. ثم رجع ثانية إلى سورية مطابقاً لنصّ الكتاب. على أنّ سلمناصّر لم يفتتح السامرة بل فتحها بعده خلفه سرغون الذي كان قائداً لجيوشه، كما سترى في كلامنا على العبرانيين. ولم يفتتح هو ولا خلفه سرغون صور، بل استمرّت تتحمّل شديد الحصار إلى أن رأى سرغون أنّ لا نفع من حصارها. وآثر عليه التوقيع على عهدة صلح تقضي على صور بدفع فدية سنويّة. فاستردّ جنوده عنها وعاد إلى آشور فنجت صور من هذه النازلة متفاخرة بثباتها ونصرها.

ولا نرى بعد ذلك في آثار سرغون ذكراً لفينيقية. ففي غزوته لأزورى ملك أشدود الذي كان قد عزم أن لا يؤدّي الجزية، وأغرى الملوك مجاوريه بالعصاوة، نجد ذكراً لملوك فلسطين ويهوذا وآدوم وموآب أنهم نووا العصاوة وراسلوا ملك مصر. ولكن لا ذكر لأحد ملوك الفينيقيين لا بالمؤامرة ولا بما أجراه سرغون على رؤساء العصاة، إذ هزم أزورى إلى مصر وألحق به ياوان الذي أقامه العصاة على عرشه، وأخذ امرأته وبنيه وبناته وأمتعته وخزائن قصره، وخرّب مدن فلسطين، وجلا كثيراً من سكانها إلى بلاده. وأقام مكانهم جالية من بلاد الكلدان. وتمّت بذلك نبوّة اشعيا التي نطق بها قبل سبع عشرة سنة من هذه الغزوة؛ أي سنة ٧٢٧ حيث

قال (فصل ١٤ عد ٢٩-٣٠): «لا تفرحي يا فلسطين بأنّ قضيب ضاربك انكسر... بينا أنا مميت أصلك بالجوع وبقيتك تقتل. ولول أيها الباب اصرخي يا أيتها المدينة قد ذبت يا فلسطين بأسرك لأنّ قتاماً وافد من الشمال وليس مَنْ ينفرد عن عصائبه».

لكننا نجد سرغون قد ضمّ قبرص إلى مملكته إما بغارته عليها بنفسه وإما بإرساله إليها أحد قوّاده. فقد وُجدت في أخربة شيتيوم (لرنكا) أشهر مدن قبرص في ذلك العصر صفيحة هي الآن في متحف برلين تُسمّى صفيحة لرنكا تبيَّن منها أنّ سرغون غزا قبرص وأضافها إلى أملاكه، وأنّ ذلك كان في السنة الحادية عشرة لملكه؛ أي نحو سنة ٧١٠ ق.م. وجعل سرغون مدن فينيقية تؤدّي الجزية إليه توّاً منفصلة عن صور التي خسرت في مدة الحصار بعض مستعمراتها في جزر البحر المتوسط فقلَّ نفوذها وإن علا شأنها بثبات أبطالها في جزيرتهم. على أنّ مقتل سرغون في نينوى سنة ٧٠٤ وما كان من الاضطراب بسببه كان فرصة اغتنمها ألولا ملك صور لاعادة سؤدده على مدن فينيقية، وكفَّها عن أداء الجزية للآشوريين. إلا أنه ما عتَّم أن نزلت به داهية أخرى دهماء كما سترى.

عد ١٢٣
الفينيقيون وسنحاريب ملك آشور

إنّ سرغون اغتاله جنديّ أو أحد سفلَة الناس سنة ٧٠٤ فهبَّ ابنه سنحاريب الذي كان يلي بلاد الكلدان من بابل إلى نينوى. فاستوى على منصّة الملك إلى سنة ٦٨٠. فتكون مدّة ملكه أربعاً وعشرين سنة. وبعد أن أخمد نار الثورة في بلاد الكلدان ومادى وأرمينيا زحف بعسكر جرّار نحو سنة ٧٠٠ ق.م ينوي إذلال ملوك سورية وتمكين سلطته فيها بل يطمح بصره إلى الاستيلاء على مصر أيضاً. وأوّل البلاد التي وطئتها جنوده فينيقية. فكان مجرّد دنوّه من أكثر مدنها كافياً لاستسلام ملوكها إليه ودفعهم الجزية له. فكذا فعلت أرواد وملكها عبديليت، وشمرون وملكها مناحيم، وجبيل وملكها أورملك. ومشى على أثر هؤلاء صيدا وسربتا (صرفند) وأكو (عكاء) وأكذيب (الزيب) وغيرها من مدن فينيقية. وأما ألولا ملك صور الذي كان يُسمّى حينئذٍ ملك الصيدونيين فأقام في صور البحريّة أي الجزيرة

وهمَّ بتحصينها رجاء أن يسعدَه الحظّ بالدفاع كما أسعده في عهد سرغون فخاب أمله. وافتتح سنحاريب المدينة ولجأ ألولا إلى الفرار فأقام سنحاريب مكانه أميراً يُسمّى إيتوبعل فأقرَّ له بالسيادة، وتعهَّد بأداء الجزية إلى ملك آشور، فكان هذا إيتوبعل الثاني بهذا الاسم من ملوك فينيقية. وهذه ترجمة ما كتبه سنحاريب في أثره المسمّى صفيحة تيلور في هذا الشأن: «في غزوتي الثالثة مشيتُ على بلاد الحثّيين أي (سورية) فراعت رهبة عظمتي لولى (أي ألولا) ملك صيدا ففرَّ إلى محل شاسع في وسط البحر. فأخضعت بلاده لسلطتَي صيدون الكبرى وصيدون الصغرى وسرييتا (صرفند) وبيت زيتي ومحاليبا وحصا (هذه المدن الثلاث لا يُعرف موقعها بتأكيد) وأكسيب (الزيب) وأكو (عكا). فإنّ مخافة جنود آشور سيدي حلَّت في مدنه المحصَّنة وقلاعه المسوَّرة وفي مخازن عدده وذخائره وفي مراعي مواشيه. فخضع كل ذلك لسلطاني وأقمتُ توبعل على العرش الملكيّ ملكاً عليهم. وافترضت عليهم جزية سنوية دائمة بمنزلة فدية تقدَّم لعظمتي. وأما مناحيم ملك شمشيمونا (وهي شمرون السالف ذكرها في شمالي فينيقية وموقعها الآن غير مؤكد)، وتوبعل ملك صيدا، وعبدليت ملك أرواد، وأور ملك جبيل، ومتينتي ملك أشدود، وبودويل ملك بيت عمون، وكموش نداب ملك مواب، ومليكرام ملك آدوم، وجميع ملوك أحارى (المغرب)، وكل ملوك ساحل البحر (المتوسط). فهؤلاء جميعاً قدَّموا لي تقادمهم النفيسة وهداياهم الثمينة وقبّلوا أقدامي». ويستتبع كلامه في ملوك آخرين وفي حزقيّا الملك، كما ستراه في تاريخه. ولسنحاريب أثر آخر يُعرف بصفيحة القسطنطينية لوجوده في متحفها، اختصر فيه تاريخ هذه الأحداث بأبلغ عبارة فقال: «أما لولى ملك صيدون فأخذتُ ملكه وأقمتُ توبعل على عرشه وفرضتُ عليه جزية». وقد نقش سنحاريب صورته على صخر عند معبر نهر الكلب ذكرى لاخضاعه سورية وفينيقية. فتراها إلى اليوم بين صور غزاة بلادنا من كل صوب.

قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٢٥) ما ملخَّصه إنّ في أخبار الحروب التي جرت بين سرغون وسنحاريب وألولا ملك صور عبرةً يُتَّعَظ بها. فإننا رأينا المدن الفينيقيّة تغادر صور عاصمتها منفردة، وتفتح أبوابها لملك آشور، بل تغدر بملكها وآله وأهل عاصمته بإنجادها الآشوريين عليهم بسفنها وملّاحيها. وما الخوف من

الجنود الآشوريّة بكافٍ لارتكاب هذه الخيانة والغدر، فلا جرم أنّ الحسد والإحن حملت الفينيقيين على خيانة عاصمتهم التي أثقلت نير سؤددها عليهم، واحتجنت لنفسها أرباح التجارة برمّتها، وعاملت غير الصوريين معاملة خدم لها ولمحالفيها كجعلهم بحّارة في سفنها وجلافطة لخصاصها وعملَة في معاملها. فكانوا يهوون أن يروها مدحورة مذلّلة لينتفعوا بخرابها، ويثأروا لنفوسهم منها وتستوي وسائر مدن فينيقية. فهذا سرّ تصرُّف صيدا وجبيل وعكا في هذه الأحوال. لكن سوء العاقبة عمَّ الطرفين، فخسرت صور سؤددها بتكبّرها وتجبّرها، وأضاعت سائر مدن فينيقية استقلالها لتتشفّى من غيظها وكمدها، وثقل على الجميع نير آشور، واشتدَّت وطأته، وتوفَّرت جزياته وبئس المصير. على أنّ صور بعد ثلّ عرش ألولا وتخلّف إيتوبعل له أذعنت لقضاء الحال. وقلَّ ما نراها بعد ذلك حاولت استرداد سيادتها الغابرة.

عد ١٢٤
الصيدونيون واسرحدّون

إنّ سنحاريب قتله ابناه أدرملك وشراصار وهو ساجد في بيت نصروك إلهه، كما أنبأنا الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٩ عد ٣٧). وكان ذلك سنة ٦٨٠ ق.م. ووقع الخلاف والنزاع بين ابنائه على ملكه ففاز به ابنه آسرحدّون إذ انتصر على أخويه القاتلين. فرُقّيَ منصّة الملك من سنة ٦٨٠ إلى سنة ٦٦٧ ق.م. فملك اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة. وتأويل اسمه «آشور أعطى أخاً». فأخمد جذوة الشَّغب الذي حصل عند مقتل أبيه في بلاده. واستتبّت الراحة على يده في بلاد الكلدان. وكان عبد ملكوت ملك صيدا وغيره من ملوك سورية استغنموا فرصة مقتل سنحاريب فهمُّوا بالتملُّص من سلطة آشور وأداء جزياتها. ومنَّى ملك صيدا نفسه أنه يستقلّ ويخلف صور في سيادتها. فنُبِّئَ اسرحدّون بما يأتمرون وما يتوخّون، فحشد الجنود، وأعدَّ العدد، وغشا سورية بنفسه وسار لا يلوي على شيء حتى بلغ إلى صيدا فحاصر المدينة برّاً فافتتحها عنوةً. فلجأ عبد ملكوت وبعض قومه إلى الفرار بحراً بسفنه آملين النجاة والعود إلى وطنهم بعد جلاء الآشوريين عنه. فأخذ آسرحدّون سفناً من مدن فينيقية الأُخرى وتتبّع سفن صيدا التي حملت الفارّين.

فانتصر عليها وقبض على الملك وقتله ودمَّر المدينة وغنم جنوده بما فيها وجلا بعض الصيدونيين إلى آشور.

وهاك ما نقشه اسرحدّون على إحدى صفائحه: «ضربتُ مدينة صيدون التي على ساحل البحر، وأهلكتُ سكانها، ودمَّرتُ أسوارها ومنازلها، وألقيتُ موادَّها في البحر، ونقضتُ الهياكل. وفرَّ ملكها عبد ملكرت في البحر كسمكٍ ليختفي عن وجه عزّتي، فاجتذبتُه إليَّ من بين الأمواج، واستحوذتُ على خزائنه من ذهب وفضة وحجار كريمة وكهرباء وصندل وأبنوس ومنسوجات من الصوف والكتّان، وكل ما حواه قصره، وجلوتُ إلى آشور جمّاً غفيراً من الرجال والنّساء، وأخذتُ أيضاً بقراً وغنماً ودوابَّ الركوب والحمل، وأقمت سكان ساحل سورية في أنحاء شاسعة، وبنيتُ في وسط بلاد الحثّيين مدينة سمَّيتُها دراسرحدون (أي مدينة أو قلعة آسرحدّون)، وأسكنتُ فيها القوم الذين قهرهم ذراعي في الجبال التي في جهة جبال مشرق الشمس، وأقمتُ عليهم أحد عمالي حاكماً». فالمراد بهذه العبارات الأخيرة أنه جلا السوريين إلى آشور وجلا أقواماً آخرين من شرقي آشور، فأسكنهم في سورية. ولا يُعلم زمان هذه الغزوة، ولكن لا بدّ أنها كانت بين سنة ٦٧٨ إلى سنة ٦٧٣ ق.م.

وقال في أثر آخر أنه دعا إليه الملوك الخاضعين له في بلاد الحثّيين، أي في سورية وفينيقية وفي الجزر، فكانوا اثنين وعشرين ملكاً وعدّهم هكذا: «بعل ملك صور، منساملك يهوذا، قدموه ملك آدوم، موصورى ملك مواب، زليبيل ملك غزّة، ميتينتي ملك عسقلون، إيتوزو ملك عقرون، ملكي آصاف ملك جبيل، ماتان بعل ملك أرواد، أبيبعل ملك شمرون، بودويل ملك بيت عمون، أحى ملك أشدود». ثم يعدّد عشر ملوكٍ في مدن قبرص.

وهذا الملك توغَّل في بلاد العرب إلى حيث لم يسبق إليه أحد ملوك آشور. وحاول البلوغ إلى أوفير بلاد الذهب، فمنعه من ذلك الحرّ الشديد وصعوبة المسالك وقلّة الماء فيها. لكنه استحوذ على بلاد العرب، وأخضع مصر، وهزم ترهاقة ملكها الذي كان من الدولة الحبشيّة التي وليت مصر، وأخذ منف وتاب (طيبة) وأقام في أعمال مصر أقيالاً يؤدّون الجزية إليه. ولم يجسر منسا ملك يهوذا أن يقاومه بل ذُلّ له وأعطاه الجزية، كما سترى في كلامنا عليه في تاريخ العبرانيين.

وجاء هذا الظافر أخيراً فنقش صورته على صخر عند معبر نهر الكلب، ونقش تحتها أخبار غزواته وإذلاله مصر. وكان رعمسيس الثاني ملك مصر نقش قبله صورته هناك، كما أسلفنا، ذكراً لاستيلائه على سورية. فكان آسرحدّون أراد أن يوعز إلى الأجيال المتخلّفة له أنّ مصر وأخلاف رعمسيس أنفسهم دانوا لعظمته، وذُلّوا لسطوته. ولكن في آخر مدة ملكه عاد ترهاقة فتغلّب على مصر وقتل الحرس الآشوريّ. وكان آسرحدّون قد أعيته الأتعاب والمرض ولم يرَ من نفسه المقدرة على غزو مصر ثانية فتنازل عن الملك لابنه آشور بانيبال.

عد ١٢٥
الفينيقيون وآشور بانيبال ملك آشور

أقام اسرحدّون حفلة المبايعة لابنه آشور بانيبال بالملك في الثاني عشر من شهر ايرو (يوافق بعض شهر نيسان وبعض شهر أيار) لسنة ٦٦٧ قبل الميلاد. ولا نعلم العلم الأكيد مدة استوائه على العرش لانقطاع الأثر الذي أنبأنا بسنيّ ملوك آشور السالف ذكرهم. والأظهر أنّ آشور بانيبال استمرّ ضابطاً صولجان الملك زهاء ثلاثين سنة، أي إلى سنة ٦٣٧ ق.م. وكان همّاماً قاسياً محبّاً العلم وراغباً في المحافظة على الآثار القديمة. وترك من الآثار ما لم يبارِه أحد من ملوك آشور. وما عتّم بعد تتوّجه أن سار بجيشه الجرّار يؤمّ مصر تداركاً لغارة ترهاقة عليها بعد انخذاله. وعند مروره في فينيقية وسورية تسارع إليه اثنان وعشرون ملكاً منها ومن جزيرة قبرص لتحيّته والاعتراف بالأمانة لعرشه واعطائه الجزية. فلم يكونوا لينسوا ما أنزله بهم أبوه وأجداده. وقد اكتشف عن أثر له مشوّه، ولكن تظهر منه اسماء هؤلاء الملوك فترى بينهم: «بعل ملك صور، ومنسا ملك يهوذا، وملكي آصاف ملك جبيل، ويكينلو ملك أرواد، وأبيبعل ملك شمرون». ولا بدَّ أن مدَّ هؤلاء الملوك آشور بانيبال برجالهم أيضاً لمحاربة مصر. وانتصر على ترهاقة في موقعة كربنيت على ضفة النيل. فانهزم إلى تاب فلحقه آشور بانيبال إليها ففرَّ إلى الحبشة. فأعاد ملك آشور الأقيال الذين كان نصبهم أبوه إلى ولاياتهم. وأكثر الحامية الآشوريين في محاصن مصر، وقفل إلى نينوى، لكنه لم يصل إليها إلا وثار عليه هذه المرّة الأقيال أنفسهم وفي مقدّمتهم نكو أحد هؤلاء الأقيال. فقبضت عليه الجنود الآشوريّة وعلى قيلين آخرين

وأرسلوهم مكبَّلين إلى آشور. فاعتمد آشور بانيبال هذه المرَّة الحلم. فأكرم مثواهم وأفاض نعمه على نكو خاصة وردَّهم إلى ولايتهم. لكنه اضطرَّ بعد أمد وجيز أن يعود للقتال في مصر. لأنَّ ترهاقة توفّي فجدَّد ابنه أوردامان الذي خلفه في عرش الحبشة الاعتداء على أملاك مصر. ولا يعدو أن كان آشور بانيبال في غزواته هذه يثقل الفينيقيين عند ممرّه بأرضهم باعداد الذخائر وإمداد جنوده برجالهم.

ولا نعلم ما الذي جرَّأ بعل ملك صور على المجاهرة بالعصيان على آشور بانيبال في السنة الثالثة لملكه، أي سنة ٦٦٤ ق.م، ولا كيف مالأه على ذلك غيره من ملوك فينيقية حتى هبَّ عليهم آشور بانيبال فحاصر مدنهم وافتتحها. ودام حصار صور سنين عديدة، واشتدَّ الضّيق على أهلها حتى ساقهم الظمأ أن يشربوا ماء البحر، واضطرَّهم العوز إلى القوت أن يفتحوا أبواب محصنهم. وهاك ما كتبه آشور بانيبال على إحدى صفائحه: «ذللتُ بعلاً (ملك صور)، وجعلته يعرض عن طماحه ويخضع عنقه لنيري. وأشخصت لديَّ بناته وأخوات أخيه ليكنَّ لي إماء. وأتى ياملك ابنه يدي خضوعه لي ويقدّم لي تقادم لم يسبق إليَّ مثلها. ويدفع إليَّ رهينة بنته وبنات اخوته. فعفوتُ عنه ونصبتُه ملكاً على البلاد». وكل ملوك سواحل فينيقية الذين مالأوا بعلاً أُلجِئوا إلى طرح أسلحتهم صاغرين طوعاً أو كُرهاً. ويكينلو ملك أرواد الذي كان يحسب أمواج البحر تسعفه على حفظ استقلاله أُلجِىءَ أن يرسل ابنته لتكون مخفورة بين حرم الغازي في نينوى. ثم أُلجِىءَ إلى الانتحار فراراً من وقوعه بيد الآشوريين. وأسر آشور بانيبال ابناءه الثمانية فقتل سبعة منهم واستحيى أكبرهم اذبعل فأقامه ملكاً على أرواد. واستمرَّ الفينيقيّون على طاعة ملك آشور حتى نهاية ملك آشور بانيبال.هذا ما رواه لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٢٧). لكنه كان روى في (مجلد ٤ صفحة ٣٤٤): أنّ ابناء يكينلو عشرة وأنهم بعد أن كانوا فرّوا إلى قبرس على ما يظهر عادوا صاغرين إلى آشور بانيبال بتقادم عديدة، وقبّلوا قدميه فعفا عنهم، وأقام أكبرهم ملكاً على أرواد. فلا نعلم أيّ الروايتين أحقّ بالاتّباع. وكانت في هذه الأثناء غارة التتر الشهيرة، فإنهم جاءوا جمّاً غفيراً من بلادهم في الشمال، فخيَّموا في آسيا الصغرى وسورية، وبلغوا تخوم مصر حيث أقاموا مدة، ثم انقلبوا نحو الشمال، فأضرّوا بالمزارع والحقول في فينيقية، لكنهم لم يدنوا من المدن المحصَّنة إلا عسقلون، فإنهم دخلوها وانتهبوا كل ما كان فيها حتى

هيكل الزهرة أقدم هياكلها، لأنّ هيكلها في قبرص وجزيرة قيثارة بُنيا بعد هذا الهيكل بزمن طويل كما روى هيرودوت (ك ١ فصل ١٠٥).

الفصل السادس

الفينيقيون في مدة ملوك الكلدان والفرس

عد ١٢٦

انقراض دولة الآشوريين وخلافة دولة الكلدان لها وغزوة نكو ملك مصر لسورية وفينيقية

خلف آشور بانيبال بعد وفاته ابنه آشور أديليلان، كذا وُجد اسمه مكتوباً على قطعة من آجرّ في كالح: «أنا آشور أديليلان ملك العساكر ملك آشور بن آشور بانيبال». وكان هذا الملك واهن العزيمة مع أنّ ملكه انبسط حتى لم يمكن ضبطه. ونشأ في شرقيه دولة ضمَّت إليها عشائر الماديين كلها. وتعاقبت الحروب بين الآشوريين والكلدان في بابل، إلى أن ولّى آشور أديليلان ملك آشور نبوبلاسر الكلدانيّ على بابل وأعمالها أو جعله قائداً لجنوده هناك. ولما رأى من نفسه القوة ومن ملك آشور الوهن سمّى نفسه ملك بابل، وحالف شيكسر ملك الماديين، ونكو الثاني ملك مصر على الخروج على ملك آشور وقرض دولته وخراب نينوى. فجيَّش شيكسر جنوده وسار بها نحو نينوى فلم يلقَ معارضاً إلى أن بلغ أبواب المدينة وأقام عليها الحصار. ولولا أنّ غارة التتر السالف ذكرها تكرهه على العود إلى مملكته لافتتحها حينئذٍ. على أنه بعد أن فتك بالتتر وطردهم من مملكته عاد إلى حصار نينوى بجنوده وجنود نبوبلاسر ملك بابل. ولم تنبئنا الآثار كيف كان سقوط نينوى بل أنبأنا قدماء المؤرِّخين أنّ الحصار دام سنتين. فلم تمكّن مناعة أسوارها أعداءها من افتتاحها. على أنّ دجلة طغى يومئذٍ طغياناً فوق عادته فأقلب جانباً من الأسوار.

فتيسّر الفتح للأعداء فدخلوا المدينة. ولما يئس ملكها ألقى النار في قصره فاحترق هو ونساؤه وخزائنه. فدكَّ الظافرون أبنية المدينة كلّها دكّاً حتى أسسها. وكذا زالت عظمة هذه المدينة وانقرضت دولتها كما تنبّأ عليها الانبياء. ولم تقم من ورطتها، بل لم يعد يعلم أين كانت إلا في هذه السنين الأخيرة. فإنه ظهر أنها كانت في محل كوينجاك الآن. وكان خرابها سنة ٦٢٥ ق.م على قول بعضهم، أو سنة ٦٠٦ على قول آخرين وهو الأظهر. وسنجيء على تفصيل ذلك في تاريخ العبرانيين. واقتسم ملك بابل وملك مادي أملاك دولة الآشوريين.

عفواً من القرّاء عن تخطّي سبيل الغرض رغباً في توفّر الفوائد وفي التمهيد لإدراك الكلام الآتي حقَّ إدراكه، لم تنجُ فينيقية من القلق والمشاقّ من جري هذه الأحداث. فإنّ نكو الثاني ملك مصر خرج على سورية إما بقضاء المحالفة مع نبوبلاسر ملك بابل على قول بعضهم، أو طلباً لنصيبه من تركة ملك آشور على قول غيرهم. فسار نكو بجيش جرّار من منف في فصل الربيع من سنة ٦٠٨ ق.م في طريق أسلافه. فالتقاه يوشيا ملك يهوذا في مجدّو (اللجون) يريد منع عبور العساكر المصريّة حفظاً لأمانته للملك آشور فقتله نكو وبدَّد شمل عساكره. ولما رأى ملك صور وسائر ملوك فينيقية ما حلَّ بملك يهوذا تلقّوا جنود مصر بالترحاب، وخضعوا لنكو ملك مصر متذكّرين ما أنزله الآشوريّون بهم من الضنك والعسف والخراب، وما كان لصيدا في أيام سيادة مصر عليها من النجاح والفلاح. وتوصَّل نكو ملك مصر بغزوته هذه إلى كركميش على الفرات. ونكو هذا هو الذي جعل ملاحّي السفن الفينيقيّة يسافرون على نفقته حول قارّة إفريقية مبتدئين من البحر الأحمر وعائدين إلى مصر في طريق بوغاز جبل طارق كما مرَّ (عد ١١٥). إلا إنّ هذا السفر لم يكرَّر ولم يعنَ بحفظ مذكّرات المسافرين فلم يكن منه النفع المرغوب فيه للتجارة.

إنّ تذليل الآشوريين لملوك فينيقية والاستيلاء على بلادهم لم يوقفا حركة تجارتهم، ولا نقّصا غنى صور، ولا أخمدا حميّة الفينيقيين ورغبتهم في الاتّجار والاغتراب، بل أقاموا جاليات عديدة منهم في غربي البحر المتوسط أي في أوروبا. ولما انتقص القصدير في معادن اسبانيا في الأيّام التي نكتب تاريخها أمعن تجّارهم في المغرب حتى بلغوا جزائر بريطانيا طلباً للقصدير من معادن كورنويل الشهيرة.

ذكر ذلك استرابون (ك ٣ من تاريخه). وسنجيء على الكلام في تجارة فينيقية في فصل مخصوص.

عد ١٢٧

الفينيقيون وبختنصّر وحصاره صور

قد مرَّ أنّ نكو ملك مصر بلغ بجنوده ظافراً إلى كركميش. فشقَّ على نبوبلاسر أن يستحوذ على سورية كلها. وخشي أن يملك ما بين النهرين كأسلافه توتمس وساتي ورعمسيس. وكانت الشيخوخة والمشاقّ أضعفت عزيمته فلم يرَ من نفسه المقدرة على إدارة جيشه في مقاومة ملك مصر. فأشرك في ملكه ابنه نبوكدنصّر الذي يسمّيه العرب بختنصّر (وتأويله الإله نبو يحفظ الاكليل). وفي سنة ٦٠٦ ق.م خرج بختنصّر لمقاومة ملك مصر في كركميش على ضفّة الفرات. فكان بين الجيشين المصريّ والبابليّ موقعة هائلة دارت الدوائر بها على المصريين فتتبّعهم الكلدان على أعقابهم في سورية كلّها. وفتحت مدن سورية وفينيقية أبوابها للكلدان مستسلمة لهم كعادتها المستمرّة. وبلغ بختنصّر بجحافله إلى تخوم مصر يريد الاستيلاء عليها. لكنه اضطرَّ أن يعود إلى بابل لوفاة والده سنة ٦٠٤ ق.م. وروى باروز أنه نظم حينئذٍ سورية والبلاد التي استولى عليها باقامة قوّاد مخلصين لحاميته التي تركها في المدن التي خضعت له، ورؤساء يخفرون الأسرى العديدين ويقتادونهم إلى بابل. وأجدَّ السير بشرذمة من جنده إلى بابل حيث كُلِّل ملكاً سنة



صورة رأس بختنصر وجدت منقوشة على خاتم في اسيا والأصل محفوظ في متحف برلين وترجمة ما كتب حولها في العلامات المسمارية «بختنصر ملك بابل صنع هذا المرداخ سيده» على رأسه خوذة لا تاج وهو بهيئة شاب

٦٠٤. واستوى على منصّة الملك وحده إلى سنة ٥٦١ ق.م. فيكون ملك ٤٣ سنة وحده وسنتين مع أبيه.

إنّ بختنصّر عاد إلى سورية سنة ٦٠٢ ليقتصَّ من يواقيم ملك يهوذا، لدخوله في المحالفة عليه مع نكو ملك مصر، ويزيل آثار الثورة من سورية. فأكره يواقيم على الخضوع لملك بابل وعلى أداء الجزية إليه. وأخذ بختنصّر بعض آنية الهيكل. ولا نرى ذكراً في غزوته هذه لملوك فينيقية. فيظهر أنهم أظهروا له الخضوع وأدّوا إليه الجزية، وعهدوا إليه بحفظ الأمانة، فلم يضرَّ بهم على أنّ يواقيم ما برح سهل الانخداع بدسائس ملك مصر، ولذلك عاد يسعى بخلع نير بابل طبق ما جاء في الكتاب (ملوك ٤ فصل ٢٤ عد ١) حيث قال فيه؛ «وفي أيامه صعد نبوكدنصّر ملك بابل فكان يواقيم عبداً له ثلاث سنين. ثم عاد فتمرَّد عليه». فهبَّ بختنصّر هذه المرّة الثالثة إلى سورية سنة ٥٩٩ ق.م. فتوفّي في تلك الأثناء يواقيم وخلفه ابنه يوياكين. فلم يمكنه أن يقاوم جنود ملك بابل أكثر من ثلاثة أشهر وأُلجِىءَ أن يسلِّمَ نفسه وآله إلى يد عدوِّه. فأخذهم بختنصّر أسرى إلى بابل، وجلا معهم عشرة آلاف رجل من نخبة بني يهوذا، ودخل أورشليم واستلب كلّ ثمين في الهيكل وقصر الملك، وأقام متنيا عم يوياكين ملكاً مكانه وسمّاه صدقيا. وفي هذه الغزوة أيضاً لا نجد ذكراً في الكتاب ولا في الآثار ولا في كتب المؤرِّخين لملوك فينيقية ومدنها. فظهر أنهم ما برحوا على طاعة ملك بابل. فكانوا أحكم من بني يهوذا مع إنذار ارميا لهم بالإذعان لملك بابل وعدم الاتّكال على مصر.

على أنّ بختنصّر اضطرَّ أن يعود بعد تسع سنوات إلى سورية، أي سنة ٥٩٠ ق.م. وكان إذذاك ملكا صور وصيدا وغيرهما من ملوك فينيقية شركاء في المحالفة مع ملك مصر وصدقيا ملك يهوذا وملكَي العمونيين والموابيين أيضاً. وزيَّن لهم الإقدام على هذه المحالفة نفرة وقعت بين ملك بابل وملك مادى إذ كان مات شيكسر ملك مادى حليف بختنصّر وحموه. وخلفه ابنه استياج فنشأ الخلاف بينهما شأن كل دولتين قويَّتين متجاورتين. فاغتنم ملوك سورية ومصر فرصة هذا الخلاف لخلع طاعة ملك بابل فهبَّ عائداً إلى سورية. وأنبأنا حزقيّال النبي أنه وقف قليلاً يفكر أيّ الطريقين يسلك أولاً أَطريق أورشليم أَم طريق صور؟ إذ قال النبي (فصل ٢١ عد ٢١): «إنّ ملك بابل وقف عند أم الطريق في رأس الطريقين ليباشر

عرافة... فإذا العرافة في يمينه أورشليم لينصب المجانيق عليها» فقسم جحافله إلى قسمين سار برأس أحدهما إلى أورشليم وسيَّر الآخر إلى صور. فأقام الحصار عليها. وسنأتي في تاريخ العبرانيين على ذكر ما كان من حصاره أورشليم، ووقوفه عنه قليلاً حتى هزم خفرع ملك مصر أحد ملوك الدولة السادسة والعشرين فيها، الذي كان يظهر أنه أتى لنجدة صدقيا ملك يهوذا، ثم عوده إلى حصار أورشليم الذي استمرَّ ثمانية عشر شهراً، وهرب صدقيا والقبض عليه وإشخاصه أمام بختنصّر الذي فقأ عينيه وذبح ابناءَه بحضرته وأخذه مكبَّلاً في السلاسل إلى بابل. وجلا معه كل عليّة القوم في يهوذا، وحرق الهيكل وقصر الملك، وقتل عظيم الكهنة وستين رجلاً من الأعيان وولّى جدليا على أورشليم.

وأما صور فأقامت جنود بختنصّر الحصار عليها، وحان إتمام ما تنبّأ عليها به حزقيال النبي إذ قال (فصل ٢٦ عد ٢ وما يليه): «بما أنَّ صور قالت على أورشليم نعمّا قد انكسرت مصاريع الشعوب وتحوَّلت إليَّ. فأنا أمتلئ أما هي فخربت لذلك. هكذا قال الرب هأنذا عليك فاصعد عليك أمماً كثيرة، كما يصعد البحر أمواجه، فيدمّرون أسوار صور ويهدمون بروجها، واسحي غبارها عنها واجعلها صخراً عارياً فتصير مبسطاً للشباك في وسط البحر... هأنذا أجلب على صور نبوكدنصّر ملك بابل من الشمال ملك الملوك، بخيلٍ وعجلات وفرسان وجمع وشعب كثير، فيقتل بناتك في الصحراء بالسيف، ويجعل عليك مترسة، ويركم عليك تلاًّ، ويرفع عليك المجنب، ويلقي على أسوارك صدمات منجنيقه، ويهدم بروجك بأدوات حربه. ولكثرة خيله يغطيك غبارها. ومن صوت الفرسان والعجلات والمراكب ترتعش أسوارك، إذ يدخل أبوابك دخول مدينة قد ثغرت، وحوافر خيله تطأ جميع شوارعك، ويقتل شعبك بالسيف وأنصاب عزّتك تهبط إلى الأرض، ويسلبون ثروتك، وينهبون تجارتك، وينقضون أسوارك ويهدمون بيوتك الشهيّة، ويلقون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه، وأبطل زجل أغانيك وصوت كناراتك لا يسمع من بعد، واجعلك صخراً عارياً فتكونين مبسط شباك ولا تبنين في ما بعد». ودام الحصار على صور ثلاث عشرة سنة وملكها إيتوبعل الثالث وأبطاله يبدون آيات الشجاعة والتجلّد والثبات. وأُلجِئَ الصوريّون أن يغادروا المدينة البريّة

أولاً، وأن يتحصّنوا في المدينة الجزريّة. فدكّت جنود بختنصّر أبنية المدينة حتى جعلوها قاعاً صفصفاً وكلّوا عن افتتاح الجزيرة.

وكان بختنصّر قد مضى إلى بابل. فعاد إلى صور سنة ٥٧٤ ق.م. وشدّد الحصار بنفسه. فقيل إنه افتتح الجزيرة عنوةً. وقيل إنّ إيتوبعل الثالث سئمت نفسه هذا الحصار الطويل ورأى الخراب الملمّ بشعبه لانقطاعهم عن التجارة والأشغال. فاستسلم لبختنصّر واعترف بسيادته عليه. وذكر لانرمان الروايتين الأولى في المجلد السادس (صفحة ٥٣٠) والثانية في المجلد الرابع)صفحة ٤٠٢). وأسر بختنصّر إيتوبعل وكثيراً من أعيان قومه وقادهم إلى بابل. وفرّ فريق من المحاصرين بسفنهم إلى قرطاجنّة. ولم تعد صور منذ يومئذٍ إلى مجدها واتساع تجارتها وأسفار جالياتها. وأقام بختنصّر على صور ملكاً اسمه بعل. واستسلمت له سائر مدن فينيقية وذُلَّ أهلها له صاغرين.

عد ١٢٨

الحرب البحرية بين أسطول خفرع ملك مصر والأسطول الفينيقي من قبل بختنصّر

إنّ خفرع ملك مصر أبطأ كثيراً على صور بإنجاده لها كما أبطأ على أورشليم. ولم تتكامل معدّاته الحربيّة إلا بعد افتتاح صور. وكانت سلطة الكلدان توطّدت في فينيقية وسورية فلم يجرؤ خفرع على إيقاد نار الحرب برّاً. فجهّز أسطولاً بحريّاً لم يكن لمصر مثله منذ عهد توتمس الثالث. واستأجر له بحّارة وجنوداً يونانا وكاريين (هم سكان كاريا في آسيا الصغرى تجاه جزر الأرخبيل). وسيّرا أسطوله نحو فينيقية آملاً أن يهيّج مدنها على ثورة يخرجون بها عن طاعة الكلدان على أنّ توفّر جنود بختنصّر في فينيقية ومخافة أهلها أن يحلَّ بهم ما حلَّ في صور قبلهم خيّبا مسعى خفرع، بل انقلب الفينيقيّون عليه «وجهّزوا سفنهم البحريّة، وضمّت إليها سفائن جزيرة قبرس، وسيّروها تعترض مسير الأسطول المصريّ. فكانت موقعة هائلة بين الأسطولين في أمواه قبرص، وكان النصر فيها لأسطول مصر فتتبّع الأسطول الفينيقي حتى أتى يتطلّب غرامة الحرب من المدن الساحليّة. وافتتح صيداءَ عنوةً لأنّ ملكها

كان رئيس الأسطول ونهبها، وغنم ما فيها، وأخذ أيضاً خفرع أرواد وجبيل وسالمته باقي مدن فينيقية. وقد وُجدت أطلال أبنية في جبيل وأرواد على نمط الصناعة المصريّة. واكتُشف فيها آثار كُتب عليها اسم هذا الملك كأنه بانيها. على أنّ تسلّطه على فينيقية لم يثبت إلا زماناً وجيزاً، أي نحواً من ثلاث سنين أو أربع، لأنّ بختنصّر عاد إلى فينيقية وأخضعها، بل قصد مصر أيضاً فاستولى عليها، وثلّ عرش خفرع، وأقام مكانه ملكاً يُسمّى أحمس. وقد تفاخر بختنصّر كاتباً في أحد آثاره أنه نزل إلى مصر وقلب ملكها عدوّه عن منصّته، وأقام عليها ملكاً آخر، وقهر المصريين وأثخن في أرضهم. وكان كل ذلك مصداقاً لنبوّات حزقيال في الفصول ٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ من سفر نبوّته حيث يهدِّد مصر باستيلاء بختنصّر عليها وخرابها وإذلال ملكها المتكبّر، ولنبوّات إرميا حيث قال (فصل ٢٤ عد ٣٠): «هكذا قال الربّ هآنذا أجعل فرعون خفرع ملك مصر في أيدي أعدائه وطالبي نفسه كما جعلتُ صدقيا ملك يهودا في يد نبوكدنصّر ملك بابل عدوّه وطالب نفسه». وقال في ذلك أيضاً (فصل ٤٦ عد ٢٤): «قد أخزيتُ بنت مصر وجعلتُ في أيدي شعب الشمال... وافتقد فرعون وجميع المتوكّلين عليه واجعلهم في أيدي طالبي نفوسهم في يد نبوكدنصّر ملك بابل وأيدي عبيده».

عد ١٢٩

حالة صور في عهد ملوك بابل بعد فتح بختنصّر لها

قد مرَّ بك أنّ بختنصّر أقام بعلاً ملكاً على صور بعد إذلاله لها. وحفظ لنا يوسيفوس (في كتاب رده أقوال أبيون ك ١ فصل ٧) فقرة من تواريخ صور التي ترجمها مينندر إلى اليونانية، تيسّر لنا بها استقراء تاريخ ملوك مصر في باقي مدة ولاية البابليين. فقال مينندر: «حاصر بختنصّر مدينة صور على عهد إيتوبعل ملكها الذي خلفه بعل، فملك عشر سنين. وبعد وفاته انتقل الملك من الملوك إلى قضاة. فولّى القضاة أكنيبعل بن بالوق شهرين ووليه كالب بن عبداي عشرة أشهر، ثم آبار عظيم الكهنة ثلاثة أشهر، ثم موتون وجيروست ابنا عبد ريم ست سنين، ثم بلاتور سنة. وبعد ذلك استدعى الصوريّون موربعل من بابل وملّكوه، فملك أربع سنين وخلفه أخوه حيرام وملك عشرين سنة. وكان إذذاك كورش ملك الفرس مالكاً في

البلاد. وإذا جمعت هذه المدّات معاً كان مجموعها أربعاً وخمسين سنة وثلاثة أشهر (بعضها من مدة إيتوبعل). وحصار صور بُدِىءَ فيه للسنة السابعة لبختنصّر. وكورش ملك الفرس رُقّي منصّة الملك للسنة الرابعة من ملك حيرام» (لعلّ الأصل الرابعة عشرة من ملك حيرام) انتهى كلام ميننذر. والظاهر منه أنه بعد أن وُلّي بعل صور مدة عشر سنين، أي من سنة ٥٧٣ إلى سنة ٥٦٣ ثار الصوريّون عليه وثلّوا عرشه، واستبدلوا الحكومة الملكيّة بحكومة جمهوريّة يُسمّى رئيسها شفط أي حاكماً أو قاضياً. فلم تستقرَّ لهم حال بل تتالى الحكّام فيهم تتالي الأشهر كما رأيت. ومدة هذه الثورة توافق مدة جنون بختنصّر، فكأنّ الصوريين انتهزوا فرصة جنون ملك بابل وما صحبه من القلق والاضطراب ليتملّصوا من ولاية بابل، ويردّوا على أنفسهم استقلالهم. ولما لم تستقم حالة الجمهورية استدعوا موربعل الذي يظهر أنه كان من سلالة ملوك صور، وكان سجيناً في بابل أو أرسله إليهم نابونيد ملك بابل حينئذٍ، فملك في صور سنة ٥٥٥ ولكن لم يدم ملكه إلا أربع سنين كما مر. وتوفي سنة ٥٥١ وخلفه أخوه حيرام الرابع، وأقام على منصّة الملك أربع عشرة سنة خاضعاً لسلطة بابل. ثم خضعت فينيقية لكوروش ملك الفرس بعد ظفره بملك بابل سنة ٥٣٧ فعاش حيرام خاضعاً لكورش ست سنين وتوفّي سنة ٥٣١ ق.م وخلفه ابنه موتون.

عد ١٣٠

الفينيقيون في عهد ملوك الفرس

إنّ بختنصّر اعتراه الجنون في آخر ملكه حتى حسب نفسه ثوراً يُعلَف بعشب الأرض ويمشي على الأربع ويأوي البراري، إلى أن مات سنة ٥٦٢ أو سنة ٥٦١ ق.م. وسوف نبسط الكلام في ذلك في تاريخ العبرانيين. وخلفه ابنه أويل مروداك الذي أطلق يوياكين ملك يهوذا من السجن وعظم مثواه (ملوك ٤ فصل ٢٥ عد ٢٧). ولم يملك إلا سنتين. وقتله صهره زوج أخته وملك مكانه وسمّي نرغل سار سور (أي الإله نرغل يحفظ الملك). فملك أربع سنين فقط وقتل في موقعة مع كورش والفرس سنة ٦٥٥. وخلفه ابنه بلابار اسكون ولم يستقم الملك له إلا أشهراً وحطه أشراف المملكة وبايعوا نابونيد بالملك.



وبينما كان يعنى بتجديد معابد الآلهة والآثار القديمة كانت في بلاد مادي أحداث مهمّة. فإن كورش ملك الفر س انتصر علي حميه استياج ملك مادي وثلّ عرشه. وحكم في كل البلاد التي في شمالي بلاد الكلدان وشرقيها. فلم يعد مفرّ من انتشاب الحرب بينه وبين الكدان. وكان حينئذٍ أن وقعت نفرة بين الملك وأشراف مملكته فآثر العزلة متنحّياً عن العناية بالمملكة، وعاهداً بتدبيرها إلى ابنه بلشصّر. وكان كورش يقترب من بلاد الكلدان فأُلجِىءَ بلشصّر أن يلي بنفسه إمرة جيشه لمناوأته. فعبر كورش دجلة ولم يغادر نابونيد عزلته إلا للسنة السابعة عشرة من ملكه. فتولّى قيادة جيوشه لكنه غُلب وأُخذ أسيراً. واستمرَّ بلشصّر محارباً إلى أن افتتح كورش بابل ليلة الوليمة التي صنعها بلشصّر لألف من عظمائه. وشرب الخمر في آنية الذهب والفضة التي أخذها بختنصّر من الهيكل في أورشليم. وظهرت له اليد التي كتبت على الحائط: «منامنا ثقل وفرسين» (دانيال فصل ٥)، أي جعل الله أيامك معدودة ووزن أعمالك وفصلك من الملك. وسترى ذلك بأكثر إسهاب في تاريخ العبرانيين.

وانقرضت بذلك مملكة بابل وخلفتها مملكة الفرس سنة ٥٣٧ق.م. وإذ انتهينا من بيان ذلك فنرى الآن ما كان للفينيقيين مع كورش وخلفائه.

أسلفنا الكلام في أنّ حيرام الرابع ملك صور خضع لكورش. فإنّ المدن الفينيقيّة كلها خضعت له دون مقاومة بعد افتتاحه بابل، وكانت تؤدّي له الجزية التي كانت تؤدّيها إلى الكلدان. وقد عدَّ كورش في أحد آثاره «جميع ملوك فينيقية» بين الملوك الذين قدَّموا له جزياتهم النفيسة في بابل. وقال في هذا الأثر: «وقد جمعتُ هؤلاء الشعوب (أي المسبين إلى بابل) وأعدتهم إلى بلادهم» فكان ذلك مصداقاً لما جاء في الكتاب أنّ كورش أمر بعود اليهود المسبيين إلى فلسطين وبتجديد بناء الهيكل. وعاش كورش بعد فتح بابل ثماني سنين ومات قتيلاً في الحرب التي كانت له مع بعض قبائل التتر في الشمال سنة ٥٢٩ ق.م. وخلفه ابنه كمبيس. وبعد أن ثأر لأبيه من التتر وقتل أخاه سمرديس حشد جنوده قاصداً مصر فاجتاز سورية وفينيقية، فلم يلقَ إلا التجلّة والإذعان لسلطته، بل نَجَدَه ملوك فينيقية بأسطولهم لافتتاح مصر التي استولى عليها، وأثخن في أرضها، وقتل ملكها أحمس، وتوغَّل فيها حتى الصعيد، بل قصد أن يغزو الحبشة فكانت هذه الغزوة وبالاً عليه، إذ عاد منها مدحوراً بل فاقداً رشده.

ولما خضع له سكان ليبيا في غربي مصر طمع أن يستولي على قرطاجنّة. فأمر جنوده البحريّة أن تسافر إليها بالسفن. فأبى الفينيقيّون الإذعان لأمره لأنّ سكان قرطاجنّة أقرباؤهم. وكانت بين الفريقين محالفة اخاء فترفَّعوا عن الاخلاف بإيمانهم وحقوق نسبهم. ولما تمنَّع الفينيقيّون من المسير أصبح باقي الأسطول غير كافٍ لهذه الغزوة. ولم يرَ كمبيس من السّداد أن يغالظ الفينيقيين الذين انقادوا إليه طائعين. وكانت نخبة جنوده البحريّة وملّاحيه منهم. ونشأت ثورة على كمبيس في بلاده فاضطرّ أن يعود مسرعاً. ولدى امتطائه جواده متلهوجاً سقط على سيفه فجرحه، فلم يبالِ بجرحه، وداوم سفره فأصابته الغنغريّة في جرحه. فمات في الطريق في محلّ يسمّى عقبتان، اختلف في موقعه فقيل في جهة جبل الكرمل وقيل في جهة حماه.

وكان أحد المجوس الذي سمّى نفسه سمرديس بن كورش ولي البلاد بضعة أشهر فقتله داريوس (ويسمّيه العرب دارا كما سترى في تاريخ العبرانيين). وارتقى

منصّة الملك من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ق.م. واستمرَّ الفينيقيّون على جادة الطاعة له، ولم يشتركوا في الثورة التي نشأت عليه في أكثر أقاليم ملكه. وقسم داريوس مملكته إلى تسع عشرة ستراپي، أي ولاية. وكانت الخامسة منها فينيقية وسورية وفلسطين وجزيرة قبرص. وكانت الجزية المفروضة عليها ثلاث مئة وخمسين وزنة من فضة تؤدّيها كل سنة؛ وقد أُلحق بهذه الولاية عشائر العرب في بريّة سورية وتخوم مصر. وكان هؤلاء معفين من الجزية.

وبعد وفاة داريوس خلفه ابنه كي خسرو (كذا يسمّي العرب كسركس) من سنة ٤٨٥ إلى سنة ٤٦٥ ق.م واشتهر في حروبه مع اليونان. وحفظ الفينيقيّون الأمانة ولم يكن في بلادهم ما يستحقّ ذكراً. إلا إنّ اليونان بعد حربهم الشهيرة معه في سلمينا سنة ٤٨٠ أرسلوا أسطولهم يهدّد قبرص وساحل آسيا الصغرى بالتنكيل بهما والاستيلاء عليهما. ورُقّي ابنه أرتحششتا (ويسمّيه ابن خلدون أرتخشار) الأوّل منصّة الملك سنة ٤٦٥ إلى سنة ٤٢٥. فكان الأسطول اليوناني في أيامه يسطو على سواحل فينيقية إنجاداً للمصريين على الفرس. وكان والي سورية وفينيقية إذ ذاك رجلاً يُسمّى بيفابيس كانت له موقعة هائلة عند مصبّ النيل مع القائد اليوناني فانتصر عليه، لكن هذا الوالي عصى بعد ذلك ملكه أرتحششتا وظفر بالجيش المنفّذ لإخضاعه. وتوفّي أرتحششتا وخلفه ابنه كي خسرو الثاني. فلم يملك إلا خمسة وأربعين يوماً وقتله أخوه وملك مكانه. ولم يدم ملكه إلا ستة أشهر وثلَّ عرشه أخ آخر له وسمّي داريوس الثاني فملك إلى سنة ٤٠٥ ق.م. وخلفه ابنه أرتحششتا الثاني فعصى عليه أفاغوراس ملك سلمينا، وبسط ولايته على جزيرة قبرص برمّتها، وأخذ أسطوله ينكّل بسكان سواحل كيليكيا وسورية.

ولما استراح أرتحششتا من حربه مع اليونان همَّ باخضاع أفاغوراس فأقام الحصار على قبرص ست سنوات. وكان ينجدها هاكورى ملك مصر إلى أن أقرَّ أفاغوراس بسيادة ملك الفرس عليه فأبقاه في ملكه، وفرض عليه جزية سنويّة. وكان ذلك سنة ٣٨٠ (ملخَّص عن لانرمان مجلد ٦ صفيحة ٥٢ و٥٣). وخلف أرتحششتا الثاني ابنه أرتحششتا الثالث الملقَّب أوكوس. وقبض صولجان الملك من سنة ٣٥٩ إلى سنة ٣٣٨ ق.م. وهام في أن يوطِّد ولايته في مصر فانتصر على جنوده نكتانبو ملك مصر. فثار على أرتحششتا ملوك قبرص وتاناس والي فينيقية وغيرهم. أما

القبرسصّون فردَّهم بعض عمّال ملك الفرس إلى طاعته. وأما الفينيقيّون ومَنْ حازبهم فزحف أرتحششتا إليهم بجيش جرّار مؤلّف من ثلاثمائة ألف رجل من المملكة ومن عشرة آلاف مستأجر يونانيّ، وأقام الحصار على صيدا حيث تحصَّن تاناس والي فينيقية، فدافع أهلوها بعض الدفاع ثم طلبوا الأمان، وعرضوا على الغازي الاستسلام فلم يجب متمنّاهم.

وروى ديودوس الصقلّي أنه اجتمع منهم إذذاك أربعون ألفاً في بيوتهم وألقوا فيها النار مؤثرين الاحتراق على نحر الفرس لهم، فبادوا عن آخرهم. فعادت سورية إلى طاعة الفرس زماناً طويلاً، وغشى أرتحششتا مصر فاستظهر على نكتانبو ملكها. وفتحت له مدن مصر أبوابها، وأركن ملكها إلى الفرار، وأقام ملك الفرس عمالاً في البلاد التي دانت له وكان ذلك لسنة ٣٤٥ ق.م. فعاودت العزة والعظمة مملكة الفرس. على أنّ ذلك لم يكن إلا لزمن وجيز لأنّ أرتحششتا الثالث مات مسمّماً سنة ٣٣٨ ق.م. ولم يستمرّ ابنه أرسيس على منصّة الملك إلا سنة. وقضى قتيلاً بدسيسة بغواس وزيره. وخلفه داريوس الثالث الملقّب كودمان سنة ٣٣٧. وفي هذه السنة نفسها رُقّي اسكندر بن فيلبوس المكدوني منصّة ملك اليونان، فسلبَ داريوس ملكه. وكان اليونان يُكثرون التطاول على فينيقية، ولكن لم يتمّ استيلاؤهم على مدنها إلا في سنة ٣٢٢ حين ذُلّت صور لاسكندر الكبير.

عد ١٣١

فهرس اسماء ملوك مصر نقلاً عن لانرمان

ذكر لإنرمان في حاشية علّقها على المجلد السادس من تاريخه القديم للمشرق فهرساً لملوك مصر، فآثرنا تعريبه هنا، كما رواه، والعهدة إليه في تعيين سنيّ الملوك.

حيرام الأول	ملك نحو سنة ١٠٠٠ ق.م
أبيبعل	... لا تُعرف سنوّ ملكه
حيرام الثاني	٩٤٤
بعل عازر	٩٤٤ إلى سنة ٩٣٧
عبد عشتروت	٩٣٧-٩٢٨

دليل عشتروت	لا تُعرف سنوّ ملكهم	
عشتروتي	لا تُعرف سنوّ ملكهم	
عشتوريم	لا تُعرف سنوّ ملكهم	
فاليا	لا تُعرف سنوّ ملكهم	
إيتوبعل الأول	ملك سنة ٨٨٤ إلى سنة ٨٤٤	
بعل عازر الثاني	٨٤٤	٨٣٨
ماتان	٨٣٨	٨٢٩
بيكماليون	٨٢٩	٧٨٩
حيرام الثالث	نحو ٧٧٠	
موتون الأول	٧٣٠	
ألولا	٧٢٤	
إيتوبعل الثاني لا تُعرف مدة ملكه ...		
بعل	نحو ٦٧٠	
ياملك	٦٥٠	
إيتوبعل الثالث	٥٩٠	
اتبعل	٥٧٤	
بعل الثاني	٥٧٤	٥٦٣
قضاة	٥٦٣	٥٥٩
بعل لاتور	نحو ٥٥٦	
موربعل	٥٥٥	٥٥١
حيرام الرابع	٥٥١	٥٣١
موتون الثاني	نحو ٥٣١	

ومن بعد هذا الملك الأخير أمست فينيقية ولاية من ولايات الفرس كما رأيت.

الفصل السابع

تجارة الفينيقيين

عد ١٣٢

تجارة فينيقية وصور خاصة على ما ذكرها حزقيال النبي

قضت على الفينيقيين حالة بلادهم أن يكبّوا على التجارة. فإنّ موقعها على ساحل البحر المتوسط بين المشرق والمغرب جعلها محطة للتجارة بين سكان قارّتي آسيا وأوروبا، وتوسّطها بين مصر وما يليها غرباً وجنوباً، وبين فلسطين وسورية وبلاد العرب جنوباً وشرقاً، وبين سورية الشمالية وآسيا الصغرى وما يليهما شرقاً وشمالاً، صيّرها نقطة الدائرة للمعمور المعروف وقتئذٍ. وقلّ ما كان من أراضيها خصيباً، خاصة بعد أن استحوذ بنو إسرائيل على أكثر ما كان منها سهلاً وصالحاً للزراعة، وحصروا الفينيقيين في مدنهم الساحليّة، ويسير من السهول المجاورة لبعضها، ومن هضاب لبنان. وألجأتهم هذه الحال نفسها إلى إتقان الصنائع والحِرَف، والإكباب على العمل، وعلى نقل مصنوعاتهم إلى الآفاق التي كان أكثر سكانها على حالة الهمجيّة وقلّة الإلمام والإهتمام بالصنائع. وكانوا يستبدلون مصنوعاتهم بما يحتاجونه إليه أو يعود بالنّفع الأوفر عليهم من حاصلات غيرهم. فانبسطت تجارتهم إلى كل أفق، وضرب تجّارهم في كل صوب، وعظمت ثروتهم، وتوفّر غناهم. ولا نرى أليق بهذا المقام من ذكر ما رواه حزقيال النبي في تجارة صور التي يُراد بها كل مملكة صور، أي فينيقية لا مدينة صور وحدها. فقد قال هذاالنبي في الفصل السابع والعشرين من نبوّته: «ترشيش (ويريد بها اسبانيا) متّجرة معك في كثرة كل غنى وبالفضّة والحديد والقصدير والرصاص اقامت أسواقك». ثم ذكر النبي ياوان وأراد بها جزائر اليونان وبلادهم وتوبل وماشك، وأراد بها سكان البلاد الواقعة في

الشمال من بلاد آشور وما بين بحر الخزر والبحر الأسود حيث كرجستان (طالع عد ٤١) فقال: «ياوان وتوبل وماشك متَّجرون معك وبنفوس الناس وآنية النحاس أقاموا موسمك». ثم ذكر آل توجرمة وأراد بهم سكان أرمينيا (طالع عد ٤١ أيضاً) فقال: «آل توجرمة بالخيل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك». وذكر بني ددان وأراد بهم سكان جنوب العربيّة (طالع عد ٣٣)، وجزائر البحرين فقال: «وبنو ددان متَّجرون معك وجزائر كثيرة تجار يدك. وقد أدَّت قرون العاج والأبنوس قياضاً لك». ثم ذكر آرام وأراد بها بلادهم في سوريا وما بين النهرين فقال: «آرام متَّجرة معك في كثرة صنايعك وبالبهرمان والأرجوان والوشي والكتان والمرجان والياقوت أقامت أسواقك». ثم ذكر فلسطين فقال: «يهوذا وأرض إسرائيل متَّجرتان معك وبحنطة منيَّت (محلٌّ اشتهر بجودة حنطته) والحلاوى والعسل والزيت والبلَسان أقامتا موسمك». ثم ذكر دمشق وما يليها فقال: «دمشق متَّجرة معك بكثرة صنايعك من أجل كثرة كل غنى لك بخمر حلبون (حلب) وبالصوف الأبيض». ثم ذكر دان وياوان وأراد بهما على الراجح جزائر البحر المتوسط وبلاد اليونان فقال: «دان وياوان بالغزل أقامتا أسواقك. وكان في موسمك حديدهما المصنوع وقصب الزريرة (وهو قصب يتداوى به). ثم ذكر ددان والراجح أنّ المُراد به شعبٌ كانت مساكنه في أطراف العربيّة من جهة الهند فقال: «ددان متَّجرة معك بالنمارق (وهي الطنافس التي توضع فوق الرّحل) للركوب». ثم ذكر العرب فقال: «العرب وجميع رؤساء قيدارهم تجّار يدك بالحملان والكباش والتيوس، فإنهم اتَّجروا معك». ثم ذكر شبا ورعمه وأراد بهما سكان حضرموت وسكان الشاطئ العربي من خليج العجم (طالع عد ٣٣) فقال: «تجّار شبا ورعمه متَّجرون معك وبأفضل كل طيب وكل حجر كريم وبالذهب أقاموا أسواقك».واتّبع النبي كلامه ذاكراً عدة مدن في بلاد العرب والجزيرة والعراق فقال: «حاران وكنة وعادان وتجّار شبا وآشور وكلمد متَّجرون معك. هؤلاء يتَّجرون معك بالأنسجة الفاخرة بأردية من السمنجوني والوشي وبالنفائس من الثياب المبرمة المشدودة بالجبال المعكومة (المشدودة بثوب) بين بضائعك». ثم ذكر سفن ترشيش وأراد بها السفن التي كانت تسير إلى أوفير استجلاباً للذهب فقال: «سفن ترشيش سيّارةٌ لك لموسمك وقد امتلأتِ وصرتِ ذات مجد عظيم في قلب البحار».

إنّ في أقوال النبي حزقيال هذه ما يغني عن البيان في سعة تجارة فينيقية ووفرة موادها، وكلفا في زيادة التفصيل نأتي في الأعداد التالية على تجارتها في آسيا ثم في إفريقيا ثم في أوروبا.

عد ١٣٣

تجارة فينيقية في آسيا نسبة إلى الجهات الثلاث التي كانت تسير فيها

كان لتجارة الفينيقيين في آسيا ثلاثة فروع؛ فتسير أحدها في الجنوب، وثانيها في المشرق، وثالثها في الشمال. فكانت قوافلهم تسير جنوباً حتى اليمن وحضرموت وعمّان، فتنقل مصنوعاتهم، وتجيء من هذه البلاد بالذهب والحجار الثمينة والبخور والمرّ إلى غيرها من سلع التجارة، وتأتي من مواني عدن وكنّه ببضائع الهند والحجار الثمينة والعاج والأخشاب ذات الرائحة الزكيّة، وتتلقّى من أطراف اليمن بضائع الحبشة وحاصلاتها وهي الذهب والعاج والآبنوس وريش النعام. وكان عملتهم في نقل هذه البضائع عشيرة قيدار في بريّة العربيّة، والمدينيين والآدوميين في العربيّة الحجريّة. وكانت قوافل اليمن تسير إلى الشمال فتجاوز مكّة ويثرب، وتصل إلى حجر مدينة العربيّة، وتنتهي إلى فينيقية في طريق بلاد مؤّاب وعمّون. وأما قوافل حضرموت وعمان فكانت تمرّ على جرّه؛ وهي مرفأ على خليج العجم ترسو به السفن الآتية من الهند. وكانت قوافل أخرى تقلّها من هناك مجتازة بلاد العرب في طريق الحجّاج في هذه الأيام إلى أن تنتهي إلى صور.

وأما الفرع الثاني من تجارتهم فكان في شرقي بلادهم أي في بابل ونينوى. وكان السوريون عملة هذا الفرع كما كان العرب والمدينيّون عملة الفرع الأوّل. فكانت قوافلهم تعدو لبنان وبعلبك فتنتهي إلى حمص. وتأخذ من ثم القوافل الميمّمة نينوى الطريق المستطرق الآن أيضاً؛ أي تجاوز حماه وحلب والرها ونصيبين. فتصل إلى بلاد الآشوريين حيث كان نزّالة فينيقيون يتلقّون بضائع بلادهم فيبيعونها هناك، ويبعثون إلى زملائهم في فينيقية بضائع آشور وحاصلاتها. وأما القوافل التي تيمّم بابل فكانت تسير في البريّة مارّة بتدمر، وتسير توّاً إلى تبسك على الفرات. فإنّ هذه المدينة كانت محطة للتجارة تأتيها بضائع بابل بالفرات، وبضائع سورية وفينيقية وفلسطين على القوافل. ولم ينبئنا حزقيال النبي ما كانت تجلبه صور من

بابل. على أن تجارة بابل في تلك الأيام معروفة ومدارها على الأنسجة القطنيّة والصوفيّة الفاخرة، وعلى الحلى والأثاث التي مهرَ البابليّون في صياغتها وحفرها، وعلى العطور التي كانوا يستقطرونها. وكان استعمالها عاماً في المشرق وعلى الحجارة الثمينة إلى غيرها. وكانت قوافل بابل تجيء بحاصلات آسيا الدّاخلة من بخارى، فيتلقّاها الفينيقيّون من أيديهم، ويوصلونها إلى بلادهم. وبهذه الوسيلة عرف السوريون الحرير الذي جاء ذكره في نبوّة حزقيال.

وأما الفرع الثالث وهو تجارة الفينيقيين في الشمال فكان مجهولاً، لولا أن يصرّح به حزقيال النبي بذكره تجارة صور مع توبل وماشك وآل توجرمة بنفوس الناس أي الرقيق، وآنية النحاس والخيل والبغال. ولا مراء بأنّ هذه البلاد يُراد بها الأقاليم الشماليّة المجاورة البحر الأسود وبحر قزبين، ومنها كرجستان أي بلاد الكرج المعلوم الاتجّار فيها بالفتيات. وتوجرمة هي أرمينية، والحاصلات التي يشير النبي إليها هي حاصلات هذه البلاد إلي اليوم. إلا إنّ غزوات روسيا المتأخّرة حظّرت الاتّجار بالرقيق في تلك البلاد. وبلاد الأرمن مشهورة حتى الآن بغناها بالخيل الجياد حتى كان الآشوريون والفرس لا يبتاعون خيل مركبات ملوكهم إلا من أرمينيا. وقد علمت مما مرَّ أنّ جالية الفينيقيين اتصلت إلى جنوبي جبل قاف، وكانت لهم مستعمرات عديدة على ساحل البحر المتوسط وفي أكثر جزره وإلى شطوط البحر الأسود.

ولا مرية في تسيير الفينيقيين سفنهم في خليج العرب وخليج العجم والأوقيانوس الهندي للاتّجار. وحسبك في الدلالة على ذلك ما جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ٢٦ وفصل ١٠ عد ١١ وعد ٢٢) حيث قيل إنّ سليمان اشترك مع حيرام ملك صور في عمل سفن في عصيون جابر بجانب أيله على خليج عقبة من البحر الأحمر. وسيَّر هذه السفن إلى أوفير لجلب الذهب، وأنّ سفن سليمان وحيرام لم تكن تأتي إلا مرّة في كل ثلاث سنين ولو مخرت في البحر الأحمر وخليج فارس فقط لما اقتضى لسفرها كل هذا الزمان. فكانت تسير إذاً في بعض الأوقيانوس الهندي أيضاً، ولا علم مفصَّل لنا بمواد هذا الاتّجار إلا بما ذكره الكتاب حيث قال: «فأرسل حيرام عبيده في السفن مع عبيد سليمان قوماً ملّاحين عارفين بالبحر. فأتوا أوفير وأخذوا من هناك أربع مائة وعشرين قنطاراً من الذهب،

وأتوا بها الملك سليمان». وقال بعد ذلك: «وكذا سفن حيرام التي كانت تحمل ذهباً من أوفير جاءت منها بخشب صندل كثير جدّاً وبحجارة كريمة». إلى أن يقول إنّ هذه السفن كانت تأتي «حاملةً ذهباً وفضّة وعاجاً وقِرَدة وطواويس». وسنزيد كل ذلك بياناً في كلامنا على سليمان في تاريخ العبرانيين. ولا يعدو أن كانت سفن الفينيقيين تقلّ إلى بلاد أوفير مصنوعاتهم وما يرغب فيه من حاصلات بلادهم.

عد ١٣٤

تجارة فينيقية في افريقية

قد كان لتجارة فينيقية في مصر رواج لا مزيد عليه. فكان للفينيقيين أحياء برمّتها في مصر السفلى والعليا. وكان كل ما يحتاج إليه المصريّون من وراء البحار جلبه لهم الفينيقيّون، إذ لم يكن منهم ملّاحون، بل كانت البحّارة نجسة عندهم – كما مرّ. وروى هيرودوت (في الكتاب الأوّل من تاريخه) أنّ الفينيقيين وحدهم كانوا ينقلون بضائع مصر وحاصلاتها إلى جميع الأمم. وقال النبي حزقيال (فصل ٢٧ عد ٧) مخاطباً صور: «البزّ الموشّى من مصر كان ما نشرته شراعاً لك». فكان هذا البزّ (وهو نسيج من قطن موشّى) من سلع تجارتهم. ولم يقف تجّار فينيقية على حدود مصر، بل حفظت لنا في حطام المؤرّخين القدماء آثار تنبئنا بتواصل مستعمراتهم ومحاط تجارتهم من تخوم مصر إلى ما وراء بوغاز جبل طارق خاصة بعد أن عمّروا قرطاجنّة. وأهمّ الجاليات الفينيقيّة الافريقيّة هي التي أقامت على ساحل الاتلنتيك في أعمال مراكش. حتى روى استرابون (ك ١٧ فصل ٣) أنّ الصوريين عمّروا هناك ثلاثمائة مدينة. ولما تركت صور جاليتها هذه في أيام الآشوريين استحوذ عليها البربر سكان تلك البلاد. ولما سيّر أهل قرطاجنّة حنون السالف الذكر بجالية فينيقيّة حديثة وجد هناك بعضاً من النزّالة القدماء.

ومَنْ شاء زيادة التفصيل في مستعمرات افريقية الفينيقيّة التجاريّة فليطالع كتاب هوفر في تاريخ فينيقية (فصل ٣). وكانت فصيلة الفينيقيين المسمّاة الليبيين الفينيقيين تنقل سلع تجارتهم من آنية وأنسجة وحلى إلى داخليّة إفريقية. وتجلب لهم من هنالك حاصلات تلك البلاد من معادن وأخشاب ثمينة وجلود وعاج لكثرة الأفيال في صحارى افريقية.

عد ١٣٥
تجارة فينيقية في أوروبا

قد مرَّ بك ذكر جاليات الفينيقيين العديدة في أوروبا، وكان أخصّ داعٍ لاغترابهم الاتّجار، وقد تطرَّقوا إلى أوروبا بطريقين؛ أحدهما من جهة جزر البحر المتوسط التي كانت لهم محاط تجارة في أكثرها، فتوصَّلوا منها إلى بلاد اليونان، ومن صقلية وسردينيا وكورسيكا إلى شطوط إيطالية وافرنسة، وأمعن تجّارهم في هذه البلاد. والثاني من جهة إفريقيا وبوغاز جبل طارق، وتوصَّلوا به إلى اسبانيا، وعمَّروا مدناً كثيرة فيها كما رأيت عند ذكر جالياتهم، وتطرَّقوا من هناك إلى البرتغال وإلى بعض جزر الأتلنتيك. ولم يقف الفينيقيّون عند تجارتهم في مدن أوروبا الساحليّة، بل أشغلوا قوافل كانت تتوغَّل في البلاد فتبلغ أقصاها، فتجوب افرنسة وجرمانيا، وتتصل إلي البلتيك، فالكهرباء كانت من بضائع الفينيقيين منذ عهد سيادة صيداء، وهي لا توجد إلا على شطوط البلتيك، فتعيَّن أن يكونوا قد جلبوها من هنالك. وكذا كانوا يجلبون القصدير من كورنويل في انكلترا. ولا يظنّ أنّ سفنهم كانت تتوصَّل حينئذٍ إلى البلتيك وإن قال به بعضهم.

قال لانرمان (مجلد ٦ صفيحة ٥٤٥) ما ملخَّصه وُلِدت الحضارة في مصر وآشور، ولكن كان الفينيقيّون دعاتها ورسلها. فلا تجد بلداً من جزر اليونان حتى بوغاز جبل طارق إلا رأت فيه آثار تعليمهم، وما كان لأسفارهم فيه من بثّ مبادئ التمدّن. فقد جعل نفوذهم ونشاطهم بلاد اليونان وإيطالية وفرنسة واسبانيا تغادر حالتها الأولى البربريّة وتصبح آسيويّة، إلى أن أحرزت بنفسها النجاح الذي رقّاها الفينيقيّون أوّل درجاته. فلا يمكن أن يقدّر الفينيقيين حقّ قدرهم في ما تفضَّلوا به على العالم القديم، وما سبقت خُطاهم إليه في مدارج التمدّن. ولا يبعد عندي أن يتحقَّق ذات يوم ما يراه الآن بعض العلماء وأجنح أنا إليه؛ وهو أنّ سكان صيدا وصور هم أوّل مَنْ باح بأسرار العمل بالمعادن إلى شعوب أوروبا الغربيّة. فإذا استقرينا آثار عصر النحاس في بلادنا فلا نجد جيلاً جديداً أدخله وأزال عصر الحجر، بل نجد النفوذ الفينيقي علَّم قدماءَنا العمل بالنحاس قبل الحديد. فكانت الآنية والأدوات والأسلحة تُعمل من حجر. فأخذوا يعملون من النحاس ما عملوه بعداً من الحديد. فكذا كان في اسبانيا وإيطاليا وغاليه أي افرنسة وجرمانية وجزر

بريطانيا وباقي البلاد الشمالية؛ ودليل ذلك أنّ هيئة هذا المتاع واحدة، والنقوش عليها واحدة، حتى تحسبها خرجت من معملٍ واحد وهيئة كلها آسيويّة. فالفينيقيّون كانوا يحتاجون المعادن الثمينة لأنفسهم ولتجارتهم؛ وهذه علّة امتدادهم السريع في مستعمراتهم في اسبانيا.

يكاد البنادقة والهولنديّون والإنكليز أنفسهم في هذه الأعصر لا يُساوون الفينيقيين في أعصرهم بامتداد تجارتهم. وكانوا أينما حلّوا عمَّروا محاطاً لتجارتهم، وأصبحت معاملهم بعد ذلك مدناً كبيرة. فإنّ السكان الذين كانوا على جانبٍ من الهمجيّة كانوا يجتمعون حول المعامل الفينيقيّة كلفاً بالنّفع منها وبالعيشة الحضريّة وبتعلّم الصنائع. فالشعب الغير المتمدّن يكتسب شيئاً فشيئاً خصال المتمدّنين. ويجري على أثرهم بمقتضيات عيشه وراحته، فتتوفَّر حاجاته فيسعى بإيجاد ما يقيم بها من حرفةٍ أو صناعةٍ أو تجارة أو زراعة، فتحصل الحضارة والعمران. وكما نرى اليوم جيلنا يقتدي بالأوروبيين هكذا كان الأوروبيّون يقتدون بقدمائنا لعمران بلادهم. فقد أخذوا عنّا الصّناعة فنستردّها الآن منهم مكمّلةً. وليس مَنْ يقيم نكيراً على أنّ الفينيقيين أدخلوا الحضارة والتمدّن في أوروبا وغيرها. فقد كان مهد الصنائع والعلوم والتمدّن مصر وبلاد الكلدان وفينيقية. على أنّ الفينيقيين كانوا رسل هذا التمدّن والتقدّم في المعمور كلّه. فلا ينكر العالم القديم فضلهم.

إنّ هذه التجارة التي استمرّت قروناً وانبسطت إلى آفاق المعمور حينئذ أفعمت مدن فينيقية بالثروة والغنى. فكان ذلك نفسه أكبر معين على سقوطها وزوال مجدها لوجهين؛ الأوّل: أنّ هذه الثروة هاجت مطامع الملوك الآشوريين والكلدان والفرس فكلّفوا بالاستيلاء عليها. والثاني أنها حملت الفينيقيين على البذخ وأفسدت آدابهم فساداً لا يقدَّر. ولهذا قال حزقيال النبي (ف ٢٨ عد ١٣) لملك صور أي لأهل مملكتها: «كنت في عدن جنّة الله وكان كل حجر كريم كساءً لك من الياقوت الأحمر والياقوت الأصفر والماس والزبرجد والجزع واليشب واللازورد والبهرمان والزمرد وصنعت بيوت حجارتك من ذهب... من كثرة اتجارك امتلأ باطنك جوراً وخطئتَ... بكثرة آثامك في ظلم اتجارك دنّست مقادسك فأخرجت من وسطك ناراً فأكلتك وجعلتك رماداً على الأرض على عيني كلّ مَنْ يراك.

الفصل الثامن

صناعة الفينيقيين

عد ١٣٦
البرفير ويُعرف بالأرجوان

لم يكن الفينيقيّون تجاراً فقط يضربون في الأرض قياضاً لبضاعتهم بغيرها، بل اشتهروا أيضاً بالصناعة، فكان لهم مصنوعات عديدة نأتي على ذكر أخصّها. فإنهم لم يكونوا يتّجرون بمصنوعات الآشوريين والكلدان والمصريين فقط، بل كان لهم تجارة واسعة من صنع أيديهم، ولبعض مصنوعاتهم منزلةٌ كبرى من الاعتبار في العالم القديم.

ومن أوّل مصنوعاتهم وأفخرها صبغ البرفير أي الأرجوان، الذي كان يرغب فيه قدماء الشعوب، وكان ملبس الملوك وموضع الإسراف. وليس من نكير أنّ أوّل مَنْ اخترعه الكنعانيّون سكان ساحل البحر المتوسط أي الفينيقيّون. ونُسب اختراعه في الأقاصيص الوثنيّة إلى ملكرت معبود الصوريين. وكانوا يأخذون مادة هذا الصبغ من حيوانات بحريّة من ذوات الصدف. وقد أطال أرسطو وبلين في الكلام على البرفير وصبغه وعلى الحيوانات التي يؤخذ من حشائها وعلى وقت اصطيادها وكيفيّة أخذ هذه العصارة من أحشائها. ولون الأرجوان كان أحمر بنفسجيّاً وحمرته تكون ناصعة أو يخالطها لونٌ آخر صادرٌ من خاصة في الحيوان الذي تؤخذ الصبغة منه. وأجود البرفير وأثمنه وما كان منه ملبس الملوك هو ما أُخذت صبغته عن الحيوانات العائشة في البحر بجانب صيدا وصور وجوارها. وكان يستعمله خاصة ملوك آشور وآرام وبابل وفارس ومدين، كما جاء في نبوات حزقيال وارميا ودانيال. وكان ملوك

آسيا يسرفون باستعمال البرفير في ملابسهم وفي زينة قصورهم. ولم يكن الفينيقيّون يأخذون هذا الصبغ من البحر المجاور مدنهم فقط، بل يجلبونه أو يعملون به في أنحاء أخرى أيضاً. وأخصّ مصائدهم لهذا الحيوان ومعاملهم للصبغ كانت صور على ما ذكر استرابون، وصيدا على ما ذكر اكليمنضوس الإسكندري، وصارفند، وقيسارية اللدّ، وقبرص، وشطوط الموره في بلاد اليونان والجزر: قيثاره، وكريت، وررودس وغيرها. وقد ذكر حزقيال النبي أرجوان جزاير اليونان لصور إذ قال (ف ٢٧ عد ٧) «والسمنجوني والأرجوان من جزاير أليشة كانا غطاءَك». وكانوا يصبغون بهذه الصبغة أنسجةً من قطن وصوف وحرير، وخاصةً أنسجة الصوف الناعم الرقيق الذي كان يستجلب من بريّة سورية. ولما كانت مادة هذا الصبغ غالية الثمن فلم يكونوا يصبغون بها إلا أجود النّسيج. وكان لهم بهذا الاختراع ثروةٌ كبرى وأرباح لا تُقدَّر.

عد ١٣٧
صنع الفينيقيين الزجاج

أشهر مصنوعات الفينيقيين الزجاج، وقد عزا كثير من القدماء استنباطه إليهم. فقد سبقهم المصريّون إلى اختراع نوع من الزجاج، لكنه لم يكن شفّافاً، وكانوا يصطنعون منه آنية صغيرة، أو يطلون به الآنية الخزفيّة، ويصنعون منه حليّ كالعقود التي يحبّ السودان إلى اليوم التحلّي بها. وترى آثاراً لمصنوعاتهم هذه من أقدم الأيام. على أنّ الزجاج الشفّاف اخترعه الفينيقيّون على الأرجح. وفي متاحف أوروبا كثير من مصنوعاتهم هذه الزجاجيّة لا ينحطّ اعتباراً عن مصنوعات البندقيّة (فانيسيا) في القرون الوسطى. وقد روى بلين (في التاريخ الطبيعي فصل ٣٦) كيف وفّق الفينيقيّون إلى اختراع الزجاج فقال ما ملخَّصه: «إنّ في فينيقية المتاخمة لليهودية عند ذيل جبل الكرمل مستنقعاً يُظنّ أنّ منه أصل نهر بالوس (المعروف الآن بنهر النعمان) الذي يصبّ في البحر المتوسط غير بعيد عن بتولمايس (عكا). وأمواه هذا النهر عميقة غير سريعة الجري. وليس على ضفّتَي النهر من رمل إلا عند مصبّه. وهناك تغسله أمواه البحر وتنقّيه فيصبح أبيض نقيّاً خالصاً بعد أن كان لا يصلح لشيء. وحكوا أنّ بعض المتّجرين بالنطرون (ملح البارود) حلّوا في هذا

الموضع، وأرادوا أن يطبخوا لهم طعاماً فلم يجدوا حجارة ليجعلوها أثافي فجعلوها من قطع النطرون المشحونة سفينتهم به. ولما أضرموا النار رأوا الملح يذوب وينصبّ على الرمل فيتكوّن منه سائل برّاق. فاستغربوه وهداهم إلى اصطناع الزجاج؛ فهذا هو أصل الزجاج».

فلهذه الحكاية أصل تاريخيّ. فالتجّار الفينيقيّون أضرموا النار في خرق صخر يجمع لهيبها بادئ بدء على تزجزج ملح النطرون؛ وبهذا قام اختراعهم. فمَنْ عرفوا الزجاج قبل الفينيقيين كانوا يستعينون على صنعه بمحلول البوتاس (القلي) مأخوذاً من حرق بعض النبات. فلم يكن زجاجهم شفّافاً. أما الفينيقيّون فاعتاضوا عن القلي النباتيّ بالقلي المعدني فكان زجاجهم شفّافاً. وكان مركز معامل الزجاج عند الفينيقيين صيدا وصرفند، كما كان مركز معامل الصباغة حول صور. وكان أجود الرمل الذي يتخذونه لصنع الزجاج رمل نهر بالوس (النعماني). فكان أشبه برمل فنتنبلو في افرنسة في هذه الأيام. وفي متاحف أوروبا كثير من مصنوعات الفينيقيين الزجاجيّة وهي شاهدة لهم بطول الباع والمهارة العجيبة بهذه الصناعة.

عد ١٣٨

اصطناع الفينيقيين المتاع والآنية الخزفية والمعدنية وغيرها

اشتهر الفينيقيّون أيضاً في عمل المتاع والآنية الخزفيّة. وكانت هذه الآنية من أخصّ أصناف تجارتهم، واستمرّوا على ذلك عندما تناهت أسفارهم إلى جزر بريطانيا بالأتلنتيك. فكان من مشحونات سفنهم هذه الآنية يعطون أهل تلك البلاد إياها قياضاً بالقصدير. وقال برّو (في كتابه في الصناعة في القدم السالف ذكره مجلد ٣ صفيحة ١٦٨) ما ملخّصه: «كانت معامل الآنية من أرواد إلى صور، وكان يشحن من هذه الفرض في ربيع كل سنة مقدار وفير من الجرار والقدور والكؤوس والصّحاف إلى غيرها من المتاع فتوزّع في الآفاق حتى على شواطئ الاتلنتيك».

وذهب أكثر العلماء إلى أنّ الفينيقيين علّموا اليونان هذه الصناعة مستدلّين بأنّ مصنوعات اليونان القديمة من هذه الآنية إن هي إلا منقولة عن مثال فينيقية. وما

وُجد منها في بعض جزر الأرخبيل خاصة في ثارة ومالوس يظهر أنه من صنع الفينيقيين أنفسهم عند احتلالهم هذه الجزر. وقد مرّ بك في مقالة الحثّيين أنّ الأب دي كارا يرى أنّ سكان بلاد اليونان القدماء تلقّوا هذه الصناعة عن الحثّيين؛ على أنّ الحثّيين ظعنوا من جوار فينيقية، أي من سورية الشمالية إلى آسيا الصغرى، ثم إلى بلاد اليونان على مذهبه. فتعود هذه الصناعة إلى أصل واحد. وليس من نكير أنّ اليونان حسّنُوا وكمّلوا مصنوعاتهم الخزفيّة. فترى عليها رسوم هندسيّة مدقّقة وأمثلة أزهار وهيئات تطابق قوانين الصّناعة. مع أنّ مصنوعات الفينيقيين نراها ضخمة متينة لا دقّة في صناعتها؛ ولا بدع فإنّ غرض الفينيقيين إنما كان التجارة والربح، وأن يصنعوا لعملائهم البرابرة آنية متينة لا يسهل انكسارها في استعمالها اليوميّ. ولم يتعمّدوا إتقان الصّناعة والظّرف لما يقتضي لصنعه من الوقت الطويل فيغلى ثمنه فلا تروج البضاعة.

اشتهر الفينيقيّون أيضاً بالمصنوعات المعدنيّة. ولكن يظهر أنهم لم يعملوا بالحديد ولا بالفولاذ، بل كانوا يأخذون المصنوعات الحديديّة من البلاد التي يسهل صنعها بها لوجود معادن الحديد فيها، لكنهم حازوا قصبات السَّبق في العمل بالصفر، أي النحاس الأصفر. وحسبك شاهداً لذلك ما جاء في الكتاب عما صنعه الصوريّون من الآنية وأثاث الزّينة في هيكل سليمان وبلاطه (سفر الملوك الثالث فصل ٧ من عد ١٣ إلى عد ٤٦). وكثيراً ما جاء في الخطوط الهيروكليفيّة على عهد الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في مصر ذكر آنية الصّفر من صنع الفينيقيين. وكان يقدّم للفراعنة من جملة مواد الجزيات المقدَّمة لهم آنية من هذه توصف بالظّرف وبديع الصّناعة. وقال استرابون (في ك ٣) إنّ التجّار الفينيقيين كانوا يشحنون إلى جزائر بريطانيا أسلحة من الصفر مع الآنية الخزفيّة. ولا غرو أن كانت هذه الأسلحة مثالاً لما استدلّ به على العصر النحاسيّ في أوروبا.

وقد ذكر هوميروس الشاعر مرّات الكؤوس التي يصنعها الصّاغة الفينيقيّون من معادن ثمينة. وأبان شديد رغبة اليونانيين في نوالها. وقد وُجد بعضها في جزيرة قبرص وفي توسكانة في إيطاليا نقلها التجّار أو الجالية الفينيقية إليها. وفي متحف الواتيكان في رومة واللوفر في باريس شيء كثير وجميل منها. وقد اكتُشف منذ

بضع سنوات في عمريت وطرطوس قطع كثيرة من الحلى مرصَّعة بجواهر فشهدت بمهارة الصّاغة الفينيقيين ونبوغهم في صنع الحلى.

وذكر حزقيال النبي مهارة الصوريين في صنع العاج أيضاً يزخرفون به المساكن والمتاع بأشكال بديعة. وكانوا يستجلبون أسنان الأفيال اللازمة لذلك بطريقين. فكانت قوافل اليمن تأتيهم من الهند بشيء من ذلك، وسفنهم في المتوسط تأتيهم بشيء منه من شمالي افريقيا، إذ كانت الأُفيال حينئذٍ كثيرة في نواحي مراكش والجزائر وتونس لا كما أصبحت الآن محصورة في الأنحاء الواقعة تحت خط الاستواء. وأكثر مصنوعات العاج التي كُشف عنها في أطلال قصور الآشوريين صنعتها أيدي الفينيقيين.

لم يكن للفينيقيين أرض كافية لتحصيل قوتهم بالزراعة، ولذلك أكبّوا على الملاحة والتجارة والصناعة. ومع هذا أجادوا كثيراً استثمار ما كان لهم من الأرضين. فقد توفَّرت في جوانب صور وصيداء وبيروت وجبيل كروم العنب، فكانوا يعصرون منها ومن عنب لبنان خمرهم التي طارت شهرتها. حتى كان يرغب فيها في رومة في أيامها وفي بلاد اليونان وبارتها في الشهرة خمر حلب. (ملخَّص عن لانرمان مجلد ٦ صفيحة ٥٤٧ وما يليها). وروى رنان أنه وجد في ضواحي صور آلات للحراثة أكمل وأمتن منها في أيامنا (كتاب بعثة إلى فينيقية صفحة ٦٣٣). وقد اشتهروا أيضاً بتقديد الاسماك، أي جعلها قطعاً وتمليحها ووضعها في الهواء لتجفّ فتحفظ مؤونةً وزاداً. فقد سبقوا في ذلك الهولاندي الذي نصب له كرلوس الخامس ملك المانيا تمثالاً. وكان لمصايد صور وبيروت دخل كبير من صنف تجارتهم هذا. وقد اشتهر الفينيقيّون أيضاً بهندسة الأبنية وتحصين الحصون، فكانوا أساتذة لغيرهم من القبائل في هذا الفنّ. ومزيّة أبنيتهم ضخامة حجارها وحسن تنجيدها. وهم أوّل مَنْ عُنيَ بتبليط الأزقّة والشوارع في المدن. فإنّ شوارع صور وقرطاجنّة بلِّطت عند بنائها كما يظهر من أشعار فرجيل. ولا حاجة إلى القول إنهم أوّل مَنْ صنع السفن وعلَّم الناس صنعها. (عن هوفر في تاريخ فينيقية فصل ٤).

الفصل التاسع

اختراع الفينيقيين الكتابة بالحروف ولغتهم وعلومهم

عد ١٣٩

إن الفينيقيين أخذوا حروف الكتابة عن الخطوط الهيروغليفية

سلف لنا كلام في عد ٥٢ أن قد أجمع القدماء على أنّ الفينيقيين أوّل مَنْ وضع الكتابة بالحروف، ولم يخالف الحدثاء القدماء في هذا، بل زادوه إثباتاً وشفعوه ببيان لهم أخذوا حروفهم عن الخطوط الهيروكليفيّة. فقد صرّح شمبوليون الكاشف عن كنوز الخطوط الهيروكليفيّة أنّ الحروف الفينيقية اشتقّت من هذه الخطوط. وقد أطال وأجاد العالِم عمنويل دي روجه بإثباته هذا الاشتقاق، وبيان طريق التوصّل إليه. فقال إنّ العلاقات السياسيّة والتجاريّة بين المصريين والسوريين كانت كثيرة متلاحقة. فكان يضطرّ الكاتب في كل هنيهة أن يرسم بالخطوط المصريّة كلمات أو اسماء أعلام مأخوذة عن اللغات الساميّة. فاستلزم الأمر استلزاماً طبيعيّاً لا مناص منه الاصطلاح على روابط مقرّرة ليكون بين اللفظ الساميّ واللفظ المصريّ ما أمكن من المشابهة. وقد كان بين اللغتين بعض تهجيات متشابهة. وما لم يكن مُتشابهاً اصطُلح على تأدية لفظه بالخطوط المصريّة اصطلاحاً ثابتاً لا يتغيّر.

وبعد أن وضع روجه هذا الأساس لغرضه أخذ يطالع ويعارض بين الحروف الفينيقية والعلامات المصريّة المرسومة في أقدم الأيام، فتيسّر له أن ينظّمَ جدولاً يضع فيه الحروف الفينيقية على جانب الخطوط المصريّة. فظهر به اشتقاق الأولى من الثانية لأنّ الحروف الفينيقية اثنان وعشرون حرفاً كعدد حروف لغتنا السريانيّة. فوضع تجاهها اثنتين وعشرين علامة هيروكليفيّة تشابه تلك الحروف بلفظها. فكانت صورة خمس عشرة علامة منها أشبه بصور خمسة عشر حرفاً من الحروف

لفظها	اسماء الحروف	حروف فونيقية	حروف مصرية
الف	ا		
بت	ب		
كومل	ج		
دوات	د		
هاء	ه		
واو	و		
زين	ز		
حط	ح		
طاط	ط		
يود	ي		
كوف	ك		
لومد	ل		
ميم	م		
نون	ن		
سمكة	س		
عين	ع		
فاء	ف		
صادي	ص		
قوف	ق		
ريش	ر		
شين	ش		
تاو	ت		

الفينيقية. والحروف السبعة الباقية تبعد صورها عن العلامات الهيروكليفيّة المقابلة لها، ولكن يمكن ردّها إليها. وإليك هذا الجدول في الصورة عد ٧. فمَنْ أمعن النظر فيها لم يمترِ أنّ الفينيقيّين أخذوا حروفهم عن الخطوط الهيروكليفيّة.

وقد قال دي روجه إنّ هذا الاختراع كان في عهد ولاية الملوك الرُّعاة في مصر التي دامت على القول الأظهر من القرن الحادي والعشرين إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد. ونعم الاختراع الذي اعتيض به باثنتين وعشرين علامة بسيطة عن ألوف علامات يحتاج الكاتب تعلّمها وإتقان فنّ التصوير. فإنّ أكثر العلامات الهيروكليفيّة صور طيور وحيوانات وهيئات بشريّة. فجاد الفينيقيّون على العالم كلّه بهذا الاختراع، وزادوا فضلهم فضلاً بنشرهم حروف كتابتهم مع بضائع تجارتهم في جهات المعمور المعروف يومئذٍ، كما سترى في العد الآتي. قال رنان كانت حروف هجاء الفينيقيين صنفاً من البضائع التي يشحنونها.

عد ١٤٠

إن حروف كتابة الفينيقيين أصل لحروف الكتابة في كل اللغات

قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٥٣) لا نعرف أحرفاً للكتابة سبق وجودها حروف الفينيقيين، بل نعلم أنّ كل ما بقي له أثر من الحروف، وجميع الحروف المستعملة اليوم في كل اللغات، قد صدرت توّاً عن الحروف التي وضعها الفينيقيّون أو تفرّعت عن أحد فروعها. فالحروف الفينيقية أم وحروف سائر اللغات أولادها. إنّ العلماء الباحثين في أصول اللغات ومعارضة بعضها ببعض قسموا اللغات وحروف كتابتها إلى طوائف. كما قسم علماء البوتانيك النبات، وعلماء الفزيولوجية الحيوان، إلى طوائف، مراعين في ذلك درجات البنوّة بين الحروف الأُصليّة التي هي الفينيقية وبين حروف سائر اللغات.

فالحروف المعروفة يسهل ردّها إلى خمس طوائف مطابقة للجهات الخمس التي ضرب بها الفينيقيّون للاتّجار. وهذه الطوائف هي الساميّة بفرعيها العامّين؛ السريانيّ والعربيّ، ثم اليونانيّة الإيطاليّة بفرعيها؛ اليونانيّ واللّاتينيّ، ثم الإيباريّة وهي كتابة الإيباريين سكان اسبانيا، ثم الطائفة الشماليّة. وتشتمل على الكتابات القديمة عند

لفظها بالعربية	حروف لاتينية	حروف يونانية	حروف عبرانية	حروف فونيقة
ا	A	A	א	𐤀
ب	B	B	ב	𐤁
ج	C	Γ	ג	𐤂
د	D	Δ	ד	𐤃
ه	E	E	ה	𐤄
و	V	Υ	ו	𐤅
ز	Z	Z	ז	𐤆
ح	H	H	ח	𐤇
ط	«	Θ	ט	𐤈
ي	I	I	י	𐤉
ك	K	K	כ	𐤊
ل	L	Λ	ל	𐤋
م	M	M	מ	𐤌
ن	N	N	נ	𐤍
س	S	Σ	ס	𐤎
ع	O	O	ע	𐤏
ف	P	Π	פ	𐤐
ص	»		צ	𐤑
ق	Q		ק	𐤒
ر	R	P	ר	𐤓
ش	»		ש	𐤔
ت	T	T	ת	𐤕

الإسكندينافيين (وهم جالية أتت من آسيا فحلّت في شمالي أوروبا في أسوج ونروج)، والجرمانيين، والصقالبة قبل تنصّرهم، ثم الطائفة الهنديّة الحميريّة. وقد امتازت بأن زاد ذووها على حروفها خطوطاً اصطلحوا عليها لتدلَّ على حركة الحروف، فغيّرت هذه الزيادة هيئتها. ويظهر أنّ مصدر هذه الطائفة كان بلاد العرب الجنوبيّة، فتفرّعت من هناك إلى إفريقيا من جهة، فتكون منها كتابة الأحباش والليبيين. فكانت مع كتابة الحميريّين قدماء سكان اليمن طائفة مستقلّة. وامتدَّت من جهة أخرى إلى أريا (وهي اقليم من بلاد فارس حيث خراسان الآن) فتكون منها نوع كتابة مخصوص، ثم إلى الهند الذي ردَّ العالِم البراش وبر (Albrecht Weber) أقدم حروف كتابته إلى مصدر فينيقية. وتفرّع من هذا الأصل فروع عديدة ترد إلى خمس طوائف نضرب عن تفصيلها هنا طلباً للإيجاز.

إنّ لكل هذه الطوائف من الكتابة أمّاً واحدة؛ هي حروف الفينيقيين أوصلوها إلى الآفاق مع بضائع تجارتهم. فالطائفة الساميّة نتجت من تجارة الفينيقيين مع بلاد آرام وشطوط الفرات ودجلة، والطائفة اليونانيّة الإيطاليّة مصدرها أسفار الصيدونين لتجارتهم في الأرخبيل وغيره من جزر البحر المتوسط وفي بلاد اليونان، واليونان أنفسهم يعزون دخول حروف الكتابة عندهم إلى جالية قدموس الفينيقي ويُسمّون الحروف فينيقية، ثم الطائفة الإيباريّة مصدرها تجارة صور مع اسبانيا الجنوبيّة. وأما مصدر طائفة الكتابة الشماليّة فيظهر أنه كان من الأنحاء المجاورة البحر الأسود حيث كان قدماء الجرمانيين والإسكندنافيين قبل مهاجرتهم إلى أوروبا.

وقد مرَّ بك أنّ الفينيقيين اتصلوا بتجارتهم إلى تلك الأنحاء، فأوصلوا حروفهم إلى سكانها، فحملوها معهم إلى أوروبا عند مهاجرتهم. وأما الطائفة الأخيرة وهي الهنديّة الحميريّة فلا مراء أنّ مصدرها تجارة الفينيقيين مع سكان جنوبي العربيّة، وبواسطتهم مع سكان الهند من جهة وسكان إفريقية الشرقيّة من أخرى. وترى مثالاً لذلك في الجدول التالي عد ٨ المنطوي على الحروف الفينيقيّة والعبرانيّة واليونانيّة واللاتينيّة. فيظهر لك ما بينهما من المشابهة فتقيس غيرها عليها. أما الحروف العربيّة التي نستعملها الآن، فالمشهور أنّ عبد الحميد الكاتب البغداديّ إنما هو الذي أكسبها الهيئة التي تراها في أيامنا والحروف السريانيّة التي تجدها الآن

في كتبنا البيعيّة قد أُخذت عن الحروف المسمّاة استرنكليّة وهي أشبه بالفينيقيّة. وكان ذلك في نحو القرن الثاني عشر للميلاد.

عد ١٤١
الحروف الفينيقية وما طرأ عليها من التغيّر

إنّ الحروف الفينيقية على ما توصّلت إلينا بالخطوط التي كُشف عنها في صيداء وشيتيوم، أي لرنكا في قبرص، وفي هذه الجزيرة، ومالطة، ومرسيليا؛ هي الحروف نفسها التي كانت تستعمل في كتابة اللغة العبرانيّة والفروع الصادرة عنها؛ كلغة الموابيين وغيرهم من شعوب فلسطين. وقد ثبت ذلك بالكتابات القديمة التي وُجدت على عين شيلوحا وعلى صفيحة ميشع في بلاد مواب (وسنأتي على ذكر هذين الأثرين في تاريخ العبرانيين) وعلى فصوص خواتم وأختام لبعض اليهود القدماء. على أنّ هذه الحروف قد طرأ عليها بعض التغيّر بكرور الأيام. فلا تمكّننا ندرة الآثار الفينيقية من تفصيل ما طرأ على كل حرف منها من التبدُّل في كل مكان وزمان. لكنه يتيسّر لنا مراعاة هيئات هذه الحروف في ثلاثة أعصر:

العصر الأوّل، كانت فيه على هيئتها الأوّليّة. ومدّة هذا العصر من عهد ولاية الرعاة في مصر إلى القرن السادس قبل الميلاد. وكان يكتب هذه الحروف لا الكنعانيّون فقط، بل جميع الشعوب الآراميين أيضاً. وفيها كُتبت الآثار السالف ذكرها، وصفيحة من الصفر دالّة على تقدمة من أحد ملوك صيدا المسمّى حيرام إلى بعل لبنان. وتمتاز هذه الكتابة عما سواها خاصة بأنّ بعض أحرفها معوجّ ملتوٍ كثير الزوايا، وقد أمسى بعد ذلك مستديراً مستقيماً.

وأما العصر الثاني، فنقسم فيه كتابة الفينيقيين إلى صيدونيّة وقرطاجنيّة. فالصّيدونيّة التي استعملت من القرن السادس قبل الميلاد إلى صدر النصرانيّة، تجد مثالها في الآثار التي وُجدت في قبرص وصيداء، وفي صفيحة يهو ملك جبيل، وفي مسكوكات المدن الفينيقية في ساحل سورية وقبرص، وفي الكتابة التي نُقشت على مدفن تبنيت ملك صيدا، وفي ما كُتب على مدفن ابنه وخلفه أشمون عازر. وهاتان الكتابتان كُشف عنهما من أمد قريب في صيدا، وقد كُتبتا في أواسط

القرن الرابع قبل الميلاد. وتمتاز حروف هذه الآثار عما قبلها بكونها أكثر استدارة وأقلّ تعرّجاً، ويكون أوسطها ضخماً وطرفها رقيقاً. وأما الكتابة القرطاجنّيّة فتجد مثالها على مسكوكات قرطاجنّة وصقلية، وعلى ما وُجد من الآثار فيهما وفي الكتابات القديمة التي وُجدت في مرسيليا وفي سردينيا، وهي قريبة كثيراً من الكتابة الصيداويّة وأشبه بها، لكنّ حروفها غير منسوقة على خط مستقيم، بل محدبة تحديباً لطيفاً.

وأما العصر الثالث فتُسمّى أحرفه البونيّة، أي الفينيقيّة الحديثة، وكانت تستعمل على الساحل الغربي من البحر المتوسط منذ زهاء مئتي سنة قبل الميلاد، واستمرّ استعمالها مدّة بعد استيلاء الرومانيين، ولها مثال في صفائح وُجدت في قرطاجنّة ومالطة وصقلية وسردينيا، وفي بعض مسكوكات اسبانيا. ويظهر منها جليّاً أنّ الكتّاب أرادوا وقتئذٍ جعل الحروف بسيطة، فترى أكثر الحروف في هذه الكتابة استغني عنها بخط واحد منها، وأخذ في تعليق الحرف الواحد بالآخر فتعسّر قراءة ما كُتب فيها.

عد ١٤٢

لغة الفينيقيين

إنّ لغة الفينيقيين ساميّة، فهي أخت اللغة العبرانيّة التي تكلّم بها العبرانيّون، والعربيّة التي تكلّم بها العرب؛ وهؤلاء ساميّون بلا مراء. ولذلك عقّب بعض الجاحدين على موسى بجعله الكنعانيين والفينيقيين من ذريّة حام ولغتهم ساميّة. فيلزم أن يكونوا من ذريّة سام. ولكن طاش سهم الجاحدين فأخطأ الغرض. فلا تدلّ اللغة دلالةً أكيدةً على الأصل أبداً؛ فإن قدماء سكان بابل وآشور حاميّون، وكان يملك فيهم نمرود بن كوش بن حام. وما من قائل بأنّ اللغة الكلدانيّة أو الآشوريّة حاميّة بل هي ساميّة، والسكان القدماء في اليمن وحمير هم من نسل حام، وكانوا هناك قبل أن يحلّ بينهم بنو قحطان الساميّون. وما من منكر أنّ اللغة الحميريّة من فروع العربية فهي ساميّة. وقد أثبت كثير من العلماء حتى رنان نفسه أنّ الفينيقيين وسائر الكنعانيين، وإن كانت لغتهم ساميّة هم أقرب أصلاً إلى المصريين من الساميين. وبين المصريين والفينيقيين اشتراك في كثير من العقائد الدينيّة والمعبودات.

وقد ثبت بالتقليد المستمرّ عند الفينيقيين أيضاً أنهم أتوا سورية من ساحل خليج العجم ولم يكن هناك إلا ولد حام. ويستدلّ من بعض الآثار المصريّة أنّ شعب كفتا الذي يعبّرون به عن الفينيقيين يقرب منهم أصلاً، لأنّ بعض الخصال والسمات الطبيعيّة مشتركة بين الفريقين. ولنا ما لا يحصيه عاد من أمثال مَنْ حلّوا في بلد وتكلّموا بلغة أهله. والظاهر أنّ سكان سورية قبل الفينيقيين ساميّون، فأخذوا لغتهم. فمن الثابت إذاً ثبوتاً علميّاً أيضاً أنّ الفينيقيين وسائر الكنعانيين حاميّون أصلاً ولغتهم ساميّة. (عن لانرمان مجلد ١ صفحة ٢٧٥).

ليس مَنْ يمتري أنّ لغة الفينيقيين لا تختلف عن لغة العبرانيين إلا اختلافات قليلة كما مرّ (في عد ٤٩)؛ فليستا لغتين، بل هما فرعا لغة واحدة، وبين أصول الفرعين وألفاظهما مطابقة تامّة يُسند القول بها إلى المعارضة بين الآثار التي اكتُشفت مكتوبة بالفرعين؛ ككتابة عين شيلوحا، وصفيحة ميشاع بالعبرانيّة، وكتابة الآثار الفينيقيّة باللغة الفينيقيّة. وقد مرّ أنّ اشعيا النبي سمّى اللغة العبرانيّة كنعانيّة. وترى في كتب العلماء اليونان اسمَي اللغتين الفينيقيّة والعبرانيّة مترادفين، ينزل أحدهما منزلة الآخر. وقد سلف لنا كلام في فروع اللغة الفينيقيّة في عد ٤٩ فطالعه. وقد استمرّت اللغة الفينيقية في سورية فلم تنسخها غزوة اسكندر الكبير ولا ولاية خلفائه. فقد كثر استعمال اللغة اليونانيّة في المدن وبين عليّة القوم وعلمائهم. ولكن ما برح السواد الأعظم من الأهلين يتكلّمون باللغة الساميّة. ووُجدت مسكوكات منقوش عليها بالفينيقية والعبرانيّة حتى أيام القياصرة الرومانيين الأوّلين. وكذا استمرّ استعمال اللغة البونيّة أي الفينيقيّة في قرطاجنّة أزمنة متطاولة حتى روى بروكوب والقديسان أوغوسطينوس وإيرونيموس أنّ سكان قرطاجنّة وما جاورها من البلاد ما فتئوا يتكلّمون باللغة البونيّة الفصحى حتى القرن الثاني بعد الميلاد.

عد ١٤٣

آثار الفينيقيين

قلَّ كثيراً ما بلغ إلينا من آثار الفينيقيين. ولسوء البخت لم نتوصّل إلى ما كان منه كبير فائدة. فنقضي العجب من أنّ هذا الشعب الذي أوجد الكتابة بالحروف ونشرها في المعمور كله لم يخلّف لنا من آثاره إلا ما ندر، وكان قليل الفائدة يسير

العائدة. ونرى المصريين والآشوريين على تعسّر رسم علاماتهم واعتياص حلّ رموزها ملأُوا صخور المدافن وحجارة الهياكل وصفائح القصور من الآثار الجزيلة النَّفع، واحتفروا في الآجرّ ما يساوي كتباً ضخمة مشتملة على تواريخهم وأنسابهم وعلومهم بكلّ فنّ. فهل أغفل الفينيقيّون طمعهم بالأرباح عن تخليد ما ترتاح إليه الأرواح أو استلبت صروف الحدثان ما خلّفوه لنا، فلم ننعم بالحظوة به؟.

فالآثار الفينيقيّة المكتوبة التي جُمعت إلى الآن كثيرة تتجاوز بعض ألوف. ولكن ندر ما كان منها غير مكتوب على تمثال أو نصب أُقيم لأحد الآلهة أو على مدفن كُتب عليه اسم مَنْ دُفن فيه، وبعضها فينيقي وبعضها قرطاجنّي وهو أكثرها. ولا يختلف بعضه عن البعض الآخر إلا في اسماء الأعلام. وقد عُنيت جمعيّة الكتابات الساميّة والصنائع الجليلة بجمع هذه الكتابات القديمة ونشرها. وطُبع منها القسم الأوّل في الخطوط الفينيقيّة والقرطاجنّيّة؛ فكان شاهداً مصرِّحاً بقصور هذه الآثار عن تبيان حقائق تاريخيّة مهمّة. فجلّ ما اشتمل عليه من البيّنات التاريخيّة هو صفيحة يهو ملك قبل جبيل، ولا تحوي إلا اقامة هذا الملك نصباً تكرمةً لعشتروت بعلة جبيل. والصفيحة مشوَّهة كثيراً والملك الذي نصب هذا التمثال كان بعد كورش وقبل اسكندر الكبير، وهو ابن يهربعل وحفيد أروملك. ثم ما كُتب على مدفن تبنيت وابنه أشمون عازر ملكَي صيدا، ولا يتحصَّل منه إلا الدعوات على مَنْ يجترئ أن يسطو على مدفن الملكين. ثم قطعة من الصفر محفوظة في مكتبة الأمّة في باريس لا يُفهَم منها إلا أنّ ملكاً اسمه حيرام ملك صيدا قدَّم تقدمةً لبعل لبنان. ولا يُعلم منها أَهو حيرام صديق سليمان أَم هو حيرام آخر. ثم وُجد في صور أثر ذكرت فيه تقدمة لبعل شمائيم (أي إله السموات) قدَّمها عبدليم بن ماتان بن عبدليم بن بعل شمار؛ وهذا الأثر هو بعد عهد اسكندر الكبير؛ فهذا أخصّ ما وُجد في فينيقية حتى الآن من الآثار المهمّة، ووُجدت فيها بعض مسكوكات لكنها متأخّرة عن عهد اسكندر الكبير.

على أنه قد وُجد في قبرص أكثر مما وُجد في فينيقية من هذه الآثار. ولكن ليس منها ما تقادم عهده على القرن الرابع قبل الميلاد. فقد اكتشف بوكوك في لرنكا ثلاثة وثلاثين أثراً مكتوباً. واكتشف لويس روس الألماني ثلاثة آثار أخرى في جوار لرنكا، ولكن قلَّ فيها ما يهمّ؛ فبعضها دالّ على تقادم لعشتروت وللإله

راسف او رسبو مشبهاً بابلون ومؤرِّخ بعهد الملك ملكياتون وبومياتون وغيرهما من أمراء هذه السلالة، وبعضها الآخر يحتوي حساب نفقة بعض الهياكل، كما وُجد مثل حساب هذه االنفقات في بلاد اليونان. وقد وُجد في مصر بعض آثار فينيقيّة مكتوبة خاصة على أسوار هيكل أوزوريس وفي أبيدوس وغيرها، وليس فيها ما يهمّ. ووُجد في جزيرة والوس وفي أثينا آثار دالّة على تقادم للآلهة مكتوب عليها بالفينيقيّة واليونانية. ووُجدت في مالطة آثار؛ فأحدها دالّ على تقدمة لملكرت إله صور، وبعضها كُتب عليه «تقدمة لملك بعل تقدمة لملك عشتروت تقدمة لملك أوزوريس». ووُجد مثل هذه الآثار الدالّة على تقادم في صقلية وفي بالرمو خاصة وفي سردينيا وفي إفريقيا أيضاً.

على أنّ الأثر الذي اكتُشف في مرسيليا سنة ١٨٤٥م يستحقّ ذكراً خاصّاً لقدمه ولطول عبارته. فيظهر أنه كتب في القرنَ الخامس قبل الميلاد وأحسن ترجمة لهذا الأثر ما عُني به الأب برجيس معلّم اللغة العبرانيّة في كليّة باريس. وخلاصة ما كتب فيه حساب هيكل بعل صافون في قرطاجنّة في زمان الحاكم (شفط) ألس بعل بن بودتانيت، وألس بعل بن بودشمون. وقد عيّن فيه ثمن المحرقة إن كانت ثوراً أو خروفاً أو جدياً أو عصفوراً، ثم ثمن الحليب والدهن وكل ما يدخل في تضحية الذبائح وتقدمة التقادم للآلهة. ويُضاف إلى ما مرَّ من الكتابات تكملةً لذكر كل ما نعلمه من اللغة الفينيقيّة بعض المئات من الكلم. والأعلام التي ذكرها الكتّاب اليونان واللّاتينيّون ولا يؤمن فيها من التحريف والتصحيف، ثم أبيات شعر وردت في رواية لبلوت مصحوبة بترجمتها اللّاتينيّة لا يؤمن فيها غلط النسّاخ، وقد جدَّ بعضهم في إصلاحها ولا يُعلم هل أجادوا؛ فهذا ما نعلم من آثار الفينيقيين.

عد ١٤٤

علوم الفينيقيين

لا جرم أنّ الفينيقيين مهروا ببعض العلوم، وإن ندر كثيراً ما بقي لنا من حطام آثارهم العلميّة. فقد كان لاخوانهم العشائر الكنعانيّة كتب وتأليف في علوم وفنون عديدة قبل غزوة يشوع بن نون لبلادهم أيضاً. فإننا نرى في سفره (فصل ١٠ عد

١٥) أنّ كالب بن يفنا «صعد إلى سكان دبير وكان اسم دبير قبلاً قرية سفر»، أي قرية الأسفار والكتب، وهي في جوار الخليل. فإن كان للكنعانيين من تلك الأعصر أسفار وكتب علميّة يجمعونها في مكاتب، فالفينيقيّون أولى بمثل ذلك لسبقهم سائر قبيلتهم إلى الحضارة والتمدّن. ونرى في الآثار المصريّة اسم شاعر مجيد كان من المقرَّبين إلى ملك الحثّيين عند محاربته رعمسيس الثاني على أسوار قادس. وكما كان للبابليين كتب أوانس، وللمصريين أسفار طوت الحاوية شرائعهم ورسوم دينهم، كان للفينيقيين أسفار تنطوي على شرائعهم ورسوم دينهم وقانون أحكامهم على سبيل وصايا سماوية مقدَّسة. وكانوا يعزون هذه الأسفار إلى إله لهم يسمّونه تاوت، ولعله طوت إله المصريين. وكان في مدن فينيقية خزائن تُحفظ فيها سجلات ترقم بها بغاية الضبط الأحداث المهمّة وتواريخ المملكة وما يجري لها، كما رأيت مرّات في فِقَر ميننذر المأخوذة عن سجلات صور. وكان للفينيقيين مقالات دينيّة وجغرافيّة غير داخلة في أسفار تاوت القانونيّة، وكتب أخرى عمليّة موضوعها الزراعة والصنائع والحِرَف النافعة. وقد ذكرنا آنفاً (في عد ١١٥) رحلة حنون مع جاليته في الأتلنتيك، وقد كتب أخبارها في درجه.

ولما شرع علماء اليونان في عهد خلفاء اسكندر الكبير يكتبون تواريخ شعوب آسيا ترجم باروز تاريخ بابل، ومانيتون تواريخ مصر، وكتب غيرهما تواريخ فينيقية نقلاً عن سجلّاتها وآثارها؛ ومن هؤلاء ثيودت وهيبسيكرات وموخ أو موكوس. ولم تُبقِ لنا الأيام مما كتبه هؤلاء إلا اسماءَهم، بل بقي لنا شيء مما نقله ميننذر وديوس عن تواريخ صور قد مرَّ معنا ذكره. وأحسن ما بلغنا من كتب الفينيقيين المترجَمة إلى اليونانية إنما هو ترجمة فيلون الجبيلي (غير فيلون اليهودي) لكتاب سنكونياتون البيروتي المشتمل على الكلام في أصل العالم وموالد الآلهة. فسنكونياتون ألّف هذا الكتاب وجعله تقدمةً لأبيبعل ملك بيروت، فتقبَّله بالمسرَّة. وحفظ لنا أوسابيوس القيصريّ (في كتابه الاستعداد الإنجيلي ك ١ فصل ٦) فقرات من ترجمة فيلون الجبيلي. وهاك ما علّقه أوسابيوس عليها: «إنّ هذه الأمور عُني بشرحها سنكونياتون وهو مؤلّف قديم جداً يقال إنه كان قبل حرب ترويا. ورووا أنه كتب التاريخ الفينيقي متحرّياً الصدق. ونشر فيلون الجبيلي جمع مصنَّفات هذا المؤرِّخ بعد أن ترجمها من الفينيقيّة إلى اليونانية. وذكر ذلك خصمنا المعاصر لنا يريد به (برفير

الفيلسوف الشهير الذي كتب خمسة عشر كتاباً يضادّ النصرانيّة فيها). وروى أوسابيوس عن برفير أنّ سنكونياتون بيروتي موطناً، وأنه أخذ مادة تاريخه عن إيروبعل كاهن الإله ياهو. وقدّم كتابه لأبيبعل ملك البيروتيين فسُرَّ به، وأنه كان قبل حرب ترويا قريباً من عصر موسى، كما يظهر من تواريخ الملوك الفينيقيين.

ثم ذكر أوسابيوس بعض ما كتبه فيلون الجبيلي في مقدمة ترجمته، وخاصة أنه عُني بها بياناً لضلال مَنْ زعموا أنّ قصص الآلهة ليست حقيقيّة، بل هي رموز مجازيّة دالّة على حوادث طبيعيّة وتقلّبات فلكيّة؛ ثم كلفاً بمعرفة تاريخ الفينيقيين بغير كتب اليونان الذين قلّما وافق بعضهم بعضاً، بل آثروا انتقاد أحدهم كلام الآخر على توحيد مساعيهم للتوصّل إلى الحقائق. ومما مرَّ يظهر أنه لم يصب مَنْ زعم أنّ سنكونياتون كان بعد عصر اسكندر الكبير، فهو أقدم منه كثيراً، بل الواضح أنّ فيلون الجبيليّ كان في عهد خلفاء اسكندر. ومَنْ شاء الاطّلاع على فِقَر سنكونياتن هذه فليطالعها في كتاب أوسابيوس السالف ذكره أو في تاريخ فينيقية لهوفر (ف ٤). وقد روى الأب مرتين اليسوعيّ أكثرها في كتاب تاريخ لبنان (جزء ٢) الذي نشرت جريدة البشير قسماً منه، وقد أضربنا نحن عن إثباتها هنا طلباً للإيجاز ولأنها أقاصيص لا ينتفع بها إلا بمعرفة خرافاتهم بموالد الإلهة وبدء العالم. وقد استشهدنا ونستشهد بما صلح منها.

الفصل العاشر

ديانة الفينيقيين

عد ١٤٥

الوثنية عند الفينيقيين وغيرهم

قضت جميع القبائل العريقة في القدم أن لا بدّ للعالم من موجد ومدبّر. وحملهم على ذلك النظر البديهيّ إلى هذا الكون وما اشتمل عليه، وإلى أنه لا يمكن أن يكون علّة لنفسه، ثم تقليد الآباء القدماء بأنّ الله خلق العالم وكل ما فيه. ولذا رسخ تصوُّر الإله في أذهان جميعهم. فلا نرى قبيلة لم تقر بوجود الله أو لم يكن لها مساجد ومعابد. على أنّ الجهل غشّى بصائرهم فلم يدركوا أنّ هذا الإله روح بسيط وأزليّ تعالى عن مدارك البشر، بل جعلوه كالهيوليّات أو جعلوها صادرة من جوهره بغير طريقة الخلق. ونظروا إلى أسمى الكائنات فتوهّموها هذا الإله السامي فعبدوها. ولذا لم تخلُ قبيلة من عبادة الشمس إذ رأوها أسمى الكائنات، واتّبعوا بها القمر وسائر الكواكب السيّارة وغيرها من النجوم. فاختلفت اسماء المعبودات باختلاف القبائل، وقلّما اختلف موضوع العبادة. فعبد المصريّون الشمس يسمّونها رع أو عمون رع. وعبدها السوريّون يسمّونها بعل شمائيم أي رب السموات. قال برو (مجلد ٣ صفحة ٧٦) إذا تفحّصنا في ديانة الفينيقيين نجد أنهم أخذوا معبوداتهم واسماءها عن الكلدان لأنهم أتوا من جوارهم وكسوها بملابس مصريّة، لأنهم كانوا في أوّل أمرهم يخضعون لمصر. هذا ولا يختلف دينهم عن سائر أديان الشعوب في سورية عدا اليهود إلا في أمور خارجيّة وطفيفة.

ونجد هذه الأديان ودين البابليين والآشوريين كأنها صادرة عن مبدأ واحد، وهو

تصوّر إله وحيد وقدير سمّاه كل من العشائر اسماً دالّاً على إحدى صفاته. فسمّاه الحثّيون الشماليّون ست أو ستخ وتأويله القدير على كل شيء، ودعاه الآراميّون هداد (ولعله حاد حاد) وتأويله الوحيد أو الواحد الأحد، والعمونيّون ملوك أي الملك والمتسلّط، والموابيّون كموش أو كموس وتأويله الضابط أو المتولّي، والفينيقيّون بعلاً وتأويله السيّد أو الربّ، وسائر العشائر الكنعانيّة بعلاً أو إيلاً وتأويله الإله، كما كان البابليّون يسمّونه إيلو ويواه أي الموجود بالإطلاق والأزليّ؛ وهذا أشبه بإطلاق العبرانيين كلمة يهوه على الله. فليس بعل الفينيقيين إلا بيل الكلدانيين. وليست عشتروت عند أولئك إلا أستار أو أشتار عند هؤلاء (برو في مجلد ٣ من تاريخ الصناعة في القدم صفحة ٦٨). وليست عشتروت سورية إلا فانوس أي الزهرة عند اليونان الذين أخذوا معبوداتهم عن الفينيقيين. إنّ إله الفينيقيين وجميع المشركين القدماء كان واحداً ومتعدّداً معاً. فإنّ الإله الواحد عندهم كان ذا أقانيم عديدة يسمّونها بعليم، أي الآلهة، وليست إلا ألوهيّات ثانوية صادرة عن الإله الساميّ، وهي صفات وقوّات متألّهة صادرة عن الإله غير المدرك. فكان عند جميعهم الإله الساميّ ومن دونه آلهة آخرون، وكذا كان مذهب البابليين والآشوريين. وانفرد الفينيقيّون بأن جعلوا تعدّد الآلهة غالباً من قبل المحلّ لا من قبل الصّفات. فالبعل الذي كان يعبد في صور وصيدا ولبنان وحرمون وغيرها تعدّد؛ فكان بعل صور وبعل صيدا وبعل لبنان وبعل حرمون إلى غيرها. وقد أحكم العالِم دي فوكوا إذ قال: «إنّ هذه التسميات المخصوصة كانت تمحو من ذهن عامّتهم الخاصّة الأوليّة للمعبود وهي الوحدانيّة، ولا تترك لها إلا تصوّراً مشوّشاً». ولكنّ الوحدانيّة هي الحقيقة؛ مثلاً ملكرت إله صور الأعظم، الذي بثّت جالياتهم عبادته في أقصى الآفاق ليس هو إلا بعل. فقد وُجدت صفيحة في مالطة كُتب عليها: «تقدمة إلى الربّ ملكرت بعل صور»، فهو إذاً الإله السامي معتبراً إلهاً محليّاً لصور واسمه دالّ على ذلك، فإنّ أصله «مالك قريت» ملك المدينة أي ربها فجُعل ملكرت أو ملقرت.

عد ١٤٦

معبودات الفينيقيين

أكثر الفينيقيّون كالبابليين من رصد الكواكب ومراقبة حركاتها، فأدهشهم نظام

الكواكب وفعل الشمس في الكون والناميات خاصة، فعزوا كل ما في الطبيعة إلى الكواكب لاسيما ملكتها وهي الشمس، فعبدوها لا بما أنها مظهر للقدرة الربانيّة بل لاعتقادهم إيّاها إلهاً، فصار بعل عندهم كناية عن الشمس يسمّونه بهذا الاعتبار بعل شمائيم، أي رب السموات. وأشهر معبوداتهم خاصة في جبيل أدونيس ويُسمّى تموز أيضاً. ومعنى أدون أو أدونيس كما سمّاه اليونان السيّد أو الربّ، وهو بمقتضى أقدم تقليداتهم الإله الشمس يتصوَّرونه يموت في الخريف إذ تجفّ نضارة النبات وتذوي ثماره، ويحيى في الربيع إذ يعاوده الخصب والازدهار فيدنو إيناع ثمره، فيحتفلون لعيده في الخريف، فتلبس نساؤهم كلها ملابس الحداد ويذهبْنَ إلى ضفّة نهر أدونيس (وهو نهر ابراهيم الآن) فينحْنَ على تموز أي على موت الطبيعة المجمّلة بأزهارها وثمارها. وكانت النّساء في جبيل يجززْنَ شعرهنَّ إشعاراً بالحداد، أو يطفْنَ وشعرهنَّ مسترسل حائراتٍ بائرات يتغنَّيْنَ بالمراثي على تموز حسرات. فإذا جاء الربيع احتفلوا بعيد قيامة أدونيس أي بعود نضارة النّبات وازدهائه بالأزاهر والثمار، وأكثروا من الملاهي والطّرب والمزح؛ فهذا سرّ هذا الاحتفاء الذي لم تكن عامّتهم لتدركه بل كانت تحسبه واقعيّاً.

وكانت نساء العبرانيين يشارِكْنَ الفينيقيّات في الرثاء والحداد ولا يتَّعظْنَ بنصائح الأنبياء ومنهم حزقيال إذ قال (فصل ٨ عد ١٤): «ثم أتى بي (الملاك) إلى مدخل باب بيت الربّ الذي هو جهة الشّمال، فإذا هناك بنساءٍ جالساتٍ يبكينَ على تموز». وأصبح تموز في عهد ولاية اليونان صيّاداً في سورية مغرَماً بأمه عشتروت. وبينما كان يوماً يصطاد في غاب لبنان غير بعيد عن جبيل حسده الإله آراس اليونانيّ، فتقمَّص بخنزير برّي ورصد له في طريقه، فكان عراك شديد بينهما أفضى إلى قتل أدونيس. وقد مرَّ أنّ حكاية قتله نُقش مثالها على صخر في قرية الغينة في الفتوح حيث ترى صورة وحش يفترسه وبجانبها صورة عشتروت وهي الزهرة تبكيه، ثم أعادته من الموت. وصورة قيامته منقوشة على صخر في المحلّ المعروف بالمشنقة في بلاد جبيل.

وقد جعلوا السيّارات السّبع المعروفة عندهم بُعولاً أي آلهة، وأطلقوا على جميعها اسم كبيريم جمع كبير ومعناه القدير. وكان عددها عند الفينيقيّين ثمانية أي الكواكب السيّارة السبعة مع العالم المكوَّن من مجموعها. وسمّوا أبا هذه الآلهة

زديق ومعناه البارّ. وجعلوا الكبير الثامن وهو كناية عن مجموع أفلاك الكواكب كوكب القطب الشمالي (الذي تسمّيه العامّة المسمار)، وكانوا يتّخذونه هادياً في أسفارهم وسمّوه أشمون أي الثامن، وكانت الحيّة مثالاً له ولباقي الآلهة الكوكبيّة لحسبانهم أنها تمثّل بتعرّجها حركة الكواكب في الأفق. وكانوا يربّون حيّات في هياكل أشمون تلحس جراح مَنْ استشفع به فتبرئها، إذ كان من معتقداتهم أنّ أشمون وسائر الكبيريم أوجدوا عقاقير الطبّ. وإلى ذلك يُعزى ما ذكره دانيال النبي في نبوّته عن التنّين في هيكل بابل.

ولم تكن الآلهة عندهم ذكوراً فقط بل كان لهم آلهة إناث أيضاً. فكانت عشتروت زوجاً لبعل وكان لكلّ من البعول الثانويّة بعلة. وكلما كان للبعل خاصّة شمسيّة كان للبعلة خاصّة قمريّة. ولذا كانت عشتروت عندهم القمر ويجعلونها من جملة الكبيريم. على أننا نجد الآثار القديمة الفينيقيّة تصف الآلهة أو البعلة بأنها «مظهر» أو «وجه» الإله الذكر. فيظهر أنهم كانوا يعتقدون الاثنين واحداً لا يمتاز أحدهما عن الآخر إلا بما يصلح به أن يكون زوجاً للآخر. والألوهيّة واحدة بينهما مثنّاة بالتجلّي الخارجيّ فكأنهما أقنومان لذات واحدة. وما ذلك إلا أثر الاعتقاد الأوليّ بالوحدانيّة مشوّشاً. وكانوا يدعون البعلة ملكات شمائيم أي ملكة السموات كما يدعون الإله بعل شمائيم أي رب السموات. وكان من هذه الأزواج في صيداء بعل صيدون وعشتروت، وفي جبيل تموز وبعلة، وفي صور ملكرتن وعشتروت، وفي قرطاجنّة بعل حمون وتانيت التي تسمّيها الآثار «فني بعل» أي وجه بعل. وكان عند الحثّيين الشماليين سات وساتة، وعند الآراميين في دمشق هدد وأترغات. وكانت عبادة عشتروت أعمّ من جميع عبادة الآلهات. فقد ورد ذكرها على اختلاف أسمائها في كثير من الآثار التي كشف عنها في فينيقية وقبرص ومالطة وصقلية وسردينيا وقرطاجنّة.

ومن الغريب أننا نجد عندهم نوعاً من الثالوث، فتراهم يعبدون في كل مدينة ثلاثة من الآلهة. فكان لهم في صور ملكرت وبعل عشتروت، وفي صيدا بعل وعشتروت وأشمون، وفي قرطاجنّة تانيت وبعل حمون وأشمون، وفي جبيل إيل وأدونيس وبعلة جبيل. وكان في مصر ثالوث لكل مدينة من مدنهم الكبيرة. فكان في تاب أمون رع الإله الأعظم وزوجه مُوت وابنه خنُسو فيتألّف ثالوثهم من أب

وابن وزوجة، ويعتقدون الثلاثة إلهاً واحداً (لانرمان مجلد ٣ صفحة ٢٠٨ و١٧٤). وكان للنار دخل في عبادتهم ينزلونها منزلة مبدأ الحياة وينبوع كل فاعليّة، لنسبتها إلى الشمس، ومصدر كل ولادة وإبادة. وكانت عندهم الآلهة الشمسيّة والكوكبيّة ناريّة طبعاً. وكان يختصّ بذلك بعل ملوك. كما سيأتي بعيد هذا ومثله بعل حمون الذي تأويله الإله المحرق؛ وهو أحد معبودات قرطاجنّة، ومثله الإله راسف وتأويله الصاعقة أي النار السموية وسمّاه اليونان بعد ذلك أبولون وثاوس، والآراميّون في دمشق آدار وهو من معبودات الآشوريين. وكان الحجر الناريّ رمزاً للإله الناريّ. وكان الصوريّون يسجدون لملكرت ممثّلاً بحجر لمّاع. وكان عند الفينيقيين والعرب نوع من العبادة للحجارة، وكانوا يسمّون هذه الحجارة المكرّمة بيت إيل أي مسكن الله، متوهّمين أنّ الله يسكنها لاسيما الحجارة التي يروي بعضهم أنها نزلت من الجوّ ملتهبة، فيعتبرونها نزلت من الكواكب. وكان لون هذه الحجارة المكرّمة غالباً أسود فيستدلّون بذلك أنّ أصلها ناريّ. وجاء في الخطوط المسماريّة ذكر سبعة حجارة سوداء كانت تعبد في هيكل أرك في بلاد الكلدان. وعبادة حجر حمص استمرّت شهيرة حتى أيام الملوك الرومانيين. وقد وُجدت صورة هذا الحجر منقوشة على مصكوكات في سورية وحمص وسلوقيّة والرّها وغيرها.

عد ١٤٧
ذبائح الفينيقيين

لم تكن في الوثنيّة قبيلة لم تعتد تقدمة الضحايا لآلهتها، بل كانت تقدمة الذبائح والضّحايا منذ أوّل العالم وعند كل أمّة. فنرى هابيل وقايين ابتدآها. ونرى نوحاً قدّم ذبائحه لله إثر نجاته من الطوفان. على أنّ الفينيقيين امتازوا عن سائر الأمم القديمة بتقدمة الضحايا البشريّة. قال برو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم مجلد ٣ صفحة ٧٤) لم نجد أثراً عند المصريين أو الكلدان للتضحية بالناس تكرمةً للآلهة، بل انفرد السوريّون بهذه العادة السيّئة التي حملتها جالياتهم إلى مستعمراتهم وإلى قرطاجنّة خاصّة. وأسوأ الصّنيع في ذلك تقدمة الضحايا تكرمةً لبعل ملوك، إذ كان الآباء أنفسهم يطرحون أولادهم في النار المضطرمة، ومصدر هذا الصّنيع المخيف

تصوّرهم طبع الإله ناريّاً واعتقادهم شيئاً من الألوهيّة في النار. فيضحّون بأولادهم ليشتركوا في شيء من الألوهيّة، أو يسترضوا الإله المتغضّب. وكانت الضحايا البشريّة عندهم أعظم الضحايا، ويقدّمون بها غالباً بكر أولادهم أو أحدث مولود لهم معتقدين أنهم بذلك يكرّمون الإله بأنفس ما يملكون.

وقد استمرّت هذه العادة عندهم إلى النهاية. على أنهم دخلوا من قديم الدهر طريقة البدل. فكانوا يستبدلون الضحيّة البشريّة بالتضحية بحيوان أو طير من الأوالف، كثور أو خروف أو جدي أو حمامة إلى غير ذلك. وقد تبيَّن في الصفيحة التي وُجدت في مرسيليا (قد مرَّ ذكرها عد ١٤٣) ما يصلح لهذه الضّحايا من الحيوان والطائر وما الثمن المفروض لكلّ منها. ولم تكن البقرات تصلح لهذه الضحايا إذ قال برفير (ك ٢ فصل ٢) إنّ المصريين والفينيقيين لو خُيِّروا بين أكل لحم البشر أو لحم بقرة لاختاروا أكل لحم البشر. ولذلك لم تكن البقرة تصلح عندهم ضحيّة (رواه هوفر في تاريخ فينيقية فصل ٤).

وكان الفينيقيّون يستبدلون أيضاً الضّحايا البشريّة باقامة نصب كعمود أو تمثال تكرمةً للآلهة، ويعتاضون أحياناً عنها بنذرهم أن يخدموا في أحد الهياكل عمرهم أو مدّة منه. فكل ما مرَّ ينبئنا بما كان أحكم تونيب الأنبياء لبني إسرائيل على اتّباعهم عادات الكنعانيين، وتقديم العبادة لآلهتهم، والاقتداء بهم، وتحذيرهم إياهم من ذلك أشدّ التحذير. ومع هذا حدث مثل هذه الفظائع أحياناً في شعب إسرائيل، كما سترى في تاريخ العبرانيين. وامتدَّت هذه البربريّة من أقدم الأيام إلى جزر البحر المتوسط وبلاد اليونان وغيرها مع الجاليات الفينيقيّة. فقد أوصل الفينيقيّون ديانتهم ومعبوداتهم وعاداتهم إلى حيث أوصلوا بضائعهم وحروف كتابتهم وتمدّنهم؛ فكانوا موصلاً بين المشرق والمغرب لما حسن ولما قبح. فأخذوا عن الكلدان والمصريين معتقداتهم الدينيّة ومعبوداتهم فبثُّوها في الآفاق. ولذا كانت الأديان الوثنيّة ومعبوداتها واحدة أصلاً وجوهراً، وإن داخلها اختلاف في الاسماء أو زيادات على الأصل أو تغيّرات اقتضتها حالة البلاد أو الجهل بالأصل أو الأهواء الشخصيّة.

عد ١٤٨

كهنة الفينيقيين وهياكلهم

كان كهنة بعل وعشتروت عند الفينيقيين في أعيادهم يلبسون ملابس النساء، ويخضّبون وجوههم بالحمرة، ويزجّجون حواجبهم، ويكحّلون عيونهم، ويعرّون أيديهم إلى الكتف، ويحملون بأيديهم سيوفاً أو يتنكّبون حراباً ويتأبّطون دفوفاً أو معازف يضربون بها، ويرقصون ويضجّون ويدورون على عقبٍ واحد، وينعطفون برأسهم إلى الأرض عند دورانهم فيمرغون شعورهم بالوحول، ويعضّون أذرعهم، ويخدّشون أجسامهم بسيوف وحراب، كما جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٨ عد ٢٨) فإذا سال دمهم قدّموه ضحيّة لآلهتهم االدمويّة. وكان كثير منهم يعوّهون أعضاءهم عند صنع هذه المجانّ والشعوذات. ومع هذا كان هؤلاء الكهنة نفّاذين في أمور مملكتهم. يصغي لهم الحكّام ويستشيرونهم، ويعملون بمشورتهم، ويحملون الأمّة على ما شاءوا، ويكثرون من الحيل، خدعة للشعب في أمر عبادة الآلهة وفي ما يهوون. ولم يخزهم ويفضح مكرهم وينكّل بهم مثل ايليا النبي عندما جعل آحاب ملك إسرائيل يجمع أربعمائة وخمسين نبيّاً أو كاهناً من كهنة بعل وأربعمائة من كهنة عشتروت، ويمتحنهم بأن يقدّموا ضحيّة لبعل ويستميحونه آية يثبت بها أنه الإله الحق ففعلوا، وأكثروا من الهتاف والتضرّع إليه ومن تخديش أجسامهم على عادتهم بالسيوف والحراب حتى سالت دماؤهم. فلم يكن من مُجيبٍ ولا مصغٍ، فقبض عليهم إيليا وذبحهم عن آخرهم حذاء نهر قيشون بجانب الكرمل (ملوك ٣ فصل ١٨). ولا تسأل عما كانت خصالهم وآدابهم. فإنهم كانوا يبيحون أعظم المنكرات بل يجعلون بعض الرذائل فضائل ولاسيما في أمر الشهوات البدنيّة. ولنا بكل ذلك عبرة لَمن يعتبر. فهو شاهد كأنه محسوس وبرهان كأنه ممسوس. على أنّ العقل البشريّ إذا ترك وهواه، ولم يهده وحي سماويّ، تسكّع في دياجير الظّلمة، وتاه في بيداء الجهل، ولو كان ثاقباً ومتوقّداً، وركب الغرور، وقادته أمياله فاستحسن ما ظهر قبحه، واقترف الفظائع يظنّها فضائل، وأضاع رشده، وسوّد محامده، وغشّى محاسنه بأطمار خلاعته. فاهدنا اللهمّ الصواب فأنت منبع كل حقّ وخير وليس من دونك سداد ولا رشاد.

ويظهر أنه لم يكن للعشائر الكنعانيّة في أقدم أيامها هياكل ومعابد، بل كانوا

يعبدون آلهتهم على قمم الجبال والمشارف، فيقيمون هناك عموداً أو نصباً أو صخراً يسمّونه بيت إيل، أي مسكن الربّ، فيعبدونه ويجلّونه. وعنهم أخذ بنو إسرائيل المشارف التي ورد ذكرها مكرّراً في أسفار الملوك وأخبار الأيّام حيث كانوا يتعبّدون عند جحودهم وتركهم عبادة الله الحقّة. على أنّ المدائن الشهيرة كان فيها من أقدم الأيّام هياكل، فإنّ هيكل ملكرت في صور كان معاصراً بناء المدينة. وقال هيرودوت إنّ كهنة صور أنبأوه أنه قد مضى على بنائه إلى أيامه ٢٣٠٠ سنة، كما مرّ. على أنّ أطلال الهياكل والمعابد الباقية من قبل عهد ولاية اليونان في سورية مؤذنة بأنّ الفينيقيين اتّبعوا فيها هندسة الهياكل في مصر. وعليه فيكونون قد شرعوا في بناء الهياكل بعد ولاية المصريين عليهم، ولا أقل في أن يكون ذلك بعد ترددهم إلى مصر. على أنّ هيئة هذه الهياكل كانت حجرة ضيّقة لكن محوطة بأسوار فسيحة، يتكوّن ضمنها عرصة مكشوفة. وقد يكون فيها أحياناً رواق من خشب. ودلّنا على ذلك أخربة هيكل الزهرة في الباف في قبرص والمعابد الباقية في مالطة التي يسمّونها كازا الكرندي، أي البيوت الكبيرة. وما جاء في الكتاب عن هيئة هيكل سليمان الذي كان مهندسوه فينيقيين، وما بلغته إلينا حطام بعض المؤلّفين القدماء عن هيئة هيكل ملكرت في صور. وكان أمام هياكلهم غالباً رواق أرفع من سائر البناء، ويليه معبد تقدّم به الضّحايا والتقادم، ثم معبد آخر، ثم قدس أقداس لا يحلّ للعامّة ولا لجميع الكهنة الدخول إليه. وكان بجوانبه مخادع للخدّام. فكذا كان هيكل صور. وكذا تنبئنا أطلال هيكل الباف السالف الذكر. وكذا كان هيكل أورشليم، كما أنبأنا الكتاب، على أنه لم يكن في قدس الأقداس في هيكل الله إلا تابوت العهد. وأما في هياكل الفينيقيين فكان مثال الآلهة السريّ لا تمثال بهيئة بشريّة بل حجر أو صخر يسمّونه بيت إيل، أي مسكن الله، كما مرّ. وكان في هيكل ملكرت قطعة كبيرة من الزمرّد تمثّل بلمعانها طبيعة الإله الناريّة. وكانوا ينزلونها منزلة كوكب سقط من السّماء فالتقطته عشتروت. وكان الحجر الممثل عشتروت في هيكل الباف مخروطيّ الشّكل. ولهم بهذا الشّكل إشارة يستحى ببيان المراد بها ويدلّون بها على تواصل الخصب والنموّ.

ولم يبقَ لنا من أطلال الهياكل المهمّة في فينيقية إلا أخربة هيكل عمريت المعروف هناك بالمعبد. وقد اعتبره العلماء الباحثون في الآثار أشبه بالهياكل المصريّة.

ففي وسط عرصته مخدع أو معبد كانوا يضعون فيه تمثال المعبود. وجدران هذا المعبد وسقفه أربع بلاطات كبيرات، ثلاث قائمة مقام الجدران والرابعة سقف للمعبد. وكانت الجهة الرابعة تُحجَب بستائر تمنع نظر العامّة إلى الحجر الإلهي المنحدر من الجوّ. ويتلخَّص من صفيحة يهوملك المارّ ذكرها أنّ هيكل بعلة جبيل كان مبنيّاً على هذا النمط، وكان له رواق وأعمدة. وكانت نقوش الهياكل الداخليّة تُطلى بالذهب ولكنّ مذابحها كانت من الصفر.

عد ١٤٩

آثار أبنية الفينيقيين

شكا أهل العلم بالآثار ندرة آثار الأُبنية في فينيقية، كما شكوا ندور خطوطها القديمة. فوجدوا بين دجلة والفرات وفي وادي النيل، أطلال القصور وأخربة الهياكل والأهرام والمدافن مرّت عليها القرون، وحدثانها. فاستعصت عليها واستمرّت إلى اليوم تشهد لمَن بناها. وتبين أسلوب الصّناعة في تلك الأيّام وكثيراً من الحقائق. وأما فينيقية فكانت أفقر البلاد بهذه الآثار فندر ما كان منها فيها. وهل علّة هذا الندور أنه لم تقم فيها آثار في الأعصر الأولى، أو دكّت هذه الآثار ومحقت بعد إنشائها؟ فالذي أراه أنه لم ينشأ في فينيقية آثار بمقدار ما أنشئ منها في ما بين النهرين ومصر، إذ لم يكن في فينيقية ملوك؛ مثل فراعنة مصر وسلاطين آشور وبابل وفارس الذين انبسط ملكهم، وعظمت سطوتهم، وشذّت عن العدد شعوبهم، وتسامت ثروتهم، وتوفّر عدد الأسرى عندهم يشغلونها ببناء الآثار. ولم يكن لملوك فينيقية – على ضيق بلادهم وقلّة شعبهم – ميل إلا إلى التجارة والصناعة، فجعلوا فخرهم بها وببعثهم الجاليات لا بالعساكر الغازية إلى الآفاق. على أنهم لم يخلوا من اقامة آثار كثيرة بالنسبة إلى ضيق بلادهم وقلّة عددهم. وقد روى العالم برو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم مجلد ٣ صفحة ٩١) علّة ندور ما نشاهده الآن منها نقلاً عن رنان (في كتاب بعثه إلى فينيقية) فقال ما ملخَّصه: «إنّ الآثار الفينيقيّة أندر من غيرها من الآثار،والعلّة في ذلك توفّر سكانها في كل عصر،على ضيق أرضها. فقد توالى فيها اليونان والرومانيّون والبيزنطيّون والصليبيّة إلى سكانها الآن. وكلّما شاءوا البناء استيسروا كسر الحجارة القديمة أو نقلها على قطع حجارة حديثة، فدكّوا على

ذلك كثيراً من هذه الآثار لاسيما في عصر الصليبيين، إذ كانت الحال تضطرّهم إلى اقامة أسوار منيعة. ولم يكن الوقت يسعفهم على قلع الحجارة أو قطعها من مقطعها. على أنّ الآثار الجبليّة كانت أوفر حظّاً من الساحليّة لسهولة نقل حجارة هذه بالسفن، كما يصنع حتى اليوم، وصعوبة نقل ما لا يحمله الجمل في الجبل مع كثرة الصخر فيه. فمن ذلك ما صنعه أحمد باشا الجزّار وعبدالله باشا واليا عكا في أبنيتهما، وما صنعه قبلهما الأمير فخر الدين المعني. على أنّ تتالي المذاهب الدينيّة في هذه البلاد ساعد أيضاً على تدمير بعض هذه الآثار؛ من ذلك هدم المسيحيين بعض معابد الوثنيين، ويلحق بذلك جهل بعض السّفل الذين يهدمون أو يكسرون بعض هذه الآثار ليستطلعوا من تحتها الخبايا والكنوز. ولهذه الأسباب لم يبقَ لنا من الآثار الفينيقيّة القديمة إلا ما قلّ، ومنه ما هو في أم العواميد وعمريت». وأشهر ما يُعرف من صنع الفينيقيين بقايا أسوار جزيرة أرواد وبقايا هيكل سليمان وأسواره في أورشليم، فإنّ مهندسيها وعملَتها فينيقيّون، ثم الطبقة الأولى من بناء بعلبك، وما سلف ذكره من آثار أم العواميد في جنوبي صور وآثار عمريت في جنوبي أرواد، وجميعها دالٌّ على أنّ من سمات أبنية الفينيقيين ضخامة حجارها ومناعة بنائها.

على أنّ آثار الفينيقيين الباقية في مستعمراتهم أكثر منها في أوطانهم. فيرى منها في قبرص وما يليها من جزائر البحر المتوسط، وفي بلاد اليونان وصقلية وسردينيا ومالطة وقرطاجنّة وأنحائها. وأوّل ما اصطنعوه نقر مساكنهم في الصخور. فكانوا يوسعون المغاور الطبيعيّة ويهدمونها أو ينقرون في الصخور مسكناً يأوون إليه في الشتاء. وترى كثيراً من مدافنهم منقوراً في الصخور، فلم يصنعوا كل ما تراه حيّاً بالموتى، بل نقروا كثيراً منه لسكناهم. وروى برو (مجلد ٣ صفحة ١٠١) إنّ في عمريت بيتاً مؤلّفاً من عدة مساكن منقورة في صخر واحد طول واجهته ثلاثون متراً وعرضه كذلك، وعلوّ جدرانه نحو ستّ أمتار. ومثل هذا المحل المعروف بدير رهبان مار مارون في جانب منبع العاصي، حيث تجد مخادع عديدة منقورة في صخر واحد، فتنسبها العامّة إلى هؤلاء، وهي من صنع الأقدمين، ولعلّ بعض الرهبان اتخذها مسكناً. وترى كثيراً من هذه المخادع في لبنان وسواحله. وقد قسم رنان وتابعه في ذلك برو (مجلد ٣ صفحة ١١١) الآثار الباقية في فينيقية إلى ثلاثة أقسام: آثار فينيقيّة محضة ومنها آثار عمريت، وآثار داخلها النمط اليونانيّ الرومانيّ

ومنها صخر نُقر فيه جرن للعماد وُجد في جبيل، وآثار يونانيّة رومانيّة محضة ومنها آثار المشهد الذي وُجد في البترون وبعض الآثار التي وُجدت في بيروت.

قلَّ ما استعمل الفينيقيّون العقد في أبنيتهم، فلم يوجد له حتى الآن مثال إلا في مدفنين أو ثلاثة بين مدافن صيدا؛ ومنها مدفن أشمون عازر السالف ذكره. ولم تُبْنَ هذه المدافن المعقودة قبل عهد اسكندر، بل كانوا يعتاضون من العقد حيث لزم مثلاً في الأبواب أو السقوف بحجارة طويلة أو عريضة كمقتضى الحال. قال رنان (في كتاب بعثة إلى فينيقية صفحة ٤٠٨): «لم يكن قدماء الفينيقيين يعرفون عقد الأبنية». وقلَّ ما تجد في الأبنية الفينيقيّة المحضة من الأعمدة إلا ما كان قصيراً. فيظهر أنهم كانوا يستعملون الأعمدة للزّينة أو يلصقونها بالعضائد، لا كما يستعملها المصريّون والفرس واليونان، ليحملوا عليها أعالي البناء وسقوفها. ولم يوجد حتى اليوم قاعدة فينيقيّة للأعمدة، ووُجد لها تيجان مختلفة الأشكال والنقوش اختلاف سائر نقوشهم على أبواب الهياكل أو المساكن وفي رفارف الأبنية (كرنيش) وغيرها لا محلّ لتفصيلها، بل نكتفي إيجازاً بما لخَّصناه هنا عن تاريخ الصناعة في القدم للعالم برو المكرَّر ذكره.

عد ١٥٠

مدافن الفينيقيين

أكثر ما بقي لنا في مدن الفينيقيين من آثارهم المدافن فقد وُجد كثير منها في جبيل وبيروت وصيدا وصور، ولاسيما عمريت وأكثر هذه المدافن مؤلَّف من عدّة قبور منقورة في الصخر كأمثالها في اليهودية وبلاد العرب ومصر. فتجد في محالّها مخدعاً أو عدّة من مخادع ينفتح في جوانبها ألحاد تُضمّ فيها الجثة محنَّطة ضمن نعش. وللمدافن التي اكتُشفت إلى الآن في عمريت وصيدا وصور وعدلون نمط واحد؛ فكلّها تُحفر في الأرض ينحدر إليها بجبّ، هي أقدمها عهداً، أو يُنزل إليها بمدرج وفي الأسفل فسحة تنفتح في جوانبها ألحاد الموتى. وتختلف مدافن جبيل عن هذه بأنها منقورة في صخور يتوصَّل إليها دون حاجة إلى جبّ أو مدرج. وكان غالباً لكل أسرة مقبرة على حدتها. ومَنْ كان من الموتى حسيباً أو ذا أهميّة وُضع في ناووس وسط المخدع المُعدّ له. قال لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه الشرقي

صفحة ٥٨٨) لم يكن مثل الفينيقيين شعب دفن مع موتاه أشياء نفيسة. على أنه ندر أن تجد مدفناً من هذه لم يُسلب منه ما كان فيه من الحلي أو الأشياء الثمينة، ولو بقيت لنا منها أدلّة مهمّة على صناعة القدماء وأحوالهم. وما بقي من هذه المدافن نفسها يُخشى عليه أن يحطّمه مَنْ ينتبشون الكنوز فلا يجدونها ويخسروننا كنوزاً لا يعلمون قيمتها.

على أنّ المدافن التي كُشف عنها في فينيقية كانت قليلة النّفع للعلم، إذ قلَّ ما كُتب عليها إلا اسم المدفون فيها. على أنّ مدفنَي تبنيت وابنه أشمون عازر ملكَي صيدا السالف ذكرهما، كُتب عليهما مطوّلاً. ولكن أكثر ما اشتملت عليه تلك السطور إنما هو دعاء على مَنْ يسطو على قبرَيْهما. فظهر أنّ تحطيم المدافن وسرقتها كانا منذ عهدهما، لأنّ أشمون عازر كُتب على مدفنه: «لا تفتحنَّ قبري متطلّباً كنوزاً فليس ثمة كنز». ويظهر أنه خشي أن لا يصدِّقه السارقون فيقولون له دعْنا نرَ إن كنتَ صادقاً في ما تقول. ولذلك لجأ إلى وسيلة أخرى وهي الاستغاثة بعشتروت وغيرها من الآلهة أن تعاقب مَنْ يجسرون أن يرفعوا الغطاء عن ناووسه بموتهم دون عقب وباعدامهم الراحة في الرّقاد الأخير، لأنهم لم يحترموه في غيرهم، وقد كرّر هذا الدّعاء مرتين. روى ذلك برو (في مجلد ٣ صفحة ١٣٨) وقال مَن اهتمَّ بهذا المقدار بصيانة مدفنه، ومَنْ سمّى الموت رقاداً فهو، بلا مراء ممن يعتقدون أنّ النّزول إلى القبر لا يُعدم الإنسان كل شيء. ونتج منه أنّ الفينيقيين كالمصريين والكلدان اعتقدوا الموت رقاداً في القبور، وأنّ لهم بعد ذلك حياة أخرى، وأنّ هذا محصَّل من آي عديدة في الكتاب ينهي بها الله والأنبياء بني إسرائيل عن التشبّه بالأمم المجاورة لهم بالعرافة وسؤال الموتى عن أحوال وأحداث، ومن ذلك سؤال شاول العرّافة ذات التابعة في عين دور أن تصعد له صموئيل من بين الموتى (ملوك ١ فصل ٢٨).

إنّ الناووسَيْن اللذين وُجدت بهما جثّتا ملكَي صيدا أُتي بهما من مصر، إذ ليس من نوع حجرهما في سورية، وعلى غطائها صورتا الملكَيْن مجسّمتين. وقد وُجد مثل هذه الصّور على أغطية القبور في أكثر البلاد التي استوطنتها جاليات فينيقيّة؛ فبعضها حُفر فيه الرأس وحده، وبعضها جُعلت اليدان فيه طويلة بطول الجسم كله. وكان الفينيقيّون يضعون في مدافن موتاهم قارورات صغيرة من زجاج

أو خزف وأصناماً صغيرة من خزف تمثّل عشتروت وبعل أوباس الإله المصري أو غيرها. وكانوا يدرجون الجثة بلفائف ويغطّون غالباً الوجه والعينين بغشاء رقيق من ذهب. وكان الأغنياء يلقون الجثّة كلها بغشاء من ذهب ويرسمون عليه سمات الوجه؛ وكل هذا من عادات المصريين التي استمسك بها الفينيقيّون شديد الاستمساك. ويوجد في قبورهم أيضاً كثير من الحلي يدلّ على مهارة عجيبة في الصناعة. ولم يوجد حتى الآن في مدافنهم ما يدلّ على أنه كان يُوضع فيه مآكل كمدافن المصريين.

ولم يكن من عادة الفينيقيين أن يقيموا أصناماً في هياكلهم، ولكن كان لهم أصنام عديدة يقيمونها في بيوتهم للعبادة لها، وينصبون على أسوار الهياكل خاصة أوثاناً على سبيل النذر. ولم يتّجد حتى الآن من نحت الفينيقيين إلا قليل من الأصنام الكبيرة ومن الصّور على المدافن. ولكن كثر في متاحف أوروبا العامّة والخاصّة وجود الأصنام الصغيرة من حجر أو خزف أو نحاس تمثّل الآلهة وتشبه كلّ الشّبه التماثيل التي وُجدت في مدافن الفينيقيين وجالياتهم. على أنّ هذه التماثيل الصغيرة يُرى بعضها بديع الصّناعة بالغاً حدّ الاعجاز في الإتقان، وبعضها مشوَّشاً غير محكَم الصّناعة وهو غالباً من حجر أو خزف أو نحاس.

والوجه في ذلك أنه كان متحتّماً على كل أهل بيت من الفينيقيين أن يكون لهم صنم. فالبيوت الفقيرة التي كانت تستغني بهذه التماثيل السافلة صناعةً، لقصر يدها عن الحصول على تمثال من صنع عامل ماهر. وذكر برو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم) وجهاً آخر؛ وهو أنّ هذه التماثيل السافلة لم توجد في فينيقية نفسها، بل في مستعمراتها. فيظهر أنّ سكانها الأوّلين قلّدوا صناعة نزلائهم بعمل هذه التماثيل فلم يحكموا. والثابت الآن عند مشاهير العلماء أنّ الفينيقيين أخذوا في صناعتهم شيئاً عن المصريين وشيئاً عن الكلدان والآشوريين. فكان لهم نمط خاصّ بهم قائم بنفسه، أدركوا به قصبات السّبق، ولاسيما في المصنوعات الدقيقة الصغيرة.

مثال للحروف والهجاء المسمارية

א، أ، ا.

ב، ب، ب، با؛ اب، بِ؛ يب، بو؛ وب.

ג، ج، جا؛ اج؛ جي؛ يج؛ جو؛ وج.

ד، د، دا؛ اد، دي؛ يد، دو؛ ود.

ה، ه، .....

ו، و، وا.

ז، ز، زا، از؛ زي؛ يز، زو؛ وز.

ח، ح؛ حا؛ اح؛ حي؛ حو؛ وح.

ט، ط، طاء.

י، ي، يا.

כ، ك، كا؛ اك؛ كي، يك؛ كو؛ وك.

ל، ل، لا؛ ال؛ لي؛ يل، لو؛ ول.

מ، م، ما؛ ام؛ مي؛ يم؛ مو؛ وم.

נ، ن، نا؛ ان؛ ني؛ ينا؛ ين؛ نو؛ ون.

ס، س، سا؛ اس؛ سي؛ يس؛ سو؛ وس.

ע، ع، .....

פ، ف، فا؛ اف؛ في؛ يف؛ فو؛ وف.

צ، ص، صا؛ اص؛ صي؛ يص؛ صو؛ وص.

ק، ق، قا؛ اق؛ قي؛ يق؛ قو؛ وق.

ور ، ؛ رو ، ؛ ير ، ؛ ري ، ؛ ار ، ؛ را ، ر ، ר

وش ، ؛ شو ، ؛ يش ، ؛ شا ، ؛ شي ، ؛ اش ، ؛ شا ، ش ، ש

تو ، ؛ يت ، ؛ تي ، ؛ ات ، ؛ تا ، ت ، ת

وت ،

مثال للحروف الهيروكليفية

أ
إ
عا
ي
و
اوف ق
اوق باء
پ

م
ن
رل
ة
ح
ك
س

ش
ق
ج
خ
ت
ت د
ث

تهجيات هيروكليفية

أ

آ
اع
اب
اپ
ام
ان
ار
اس
ات
اد

إ

إس
إد

عا

عا
عب
عف
عم
عن
عر
عس
عك
عد

ي

اي

و

وا
وع
واب
وإب
ون
ور
وه
وس
وث

ب

باء
بح

كم

كن

كر

س

سا

سو

سب

سپ

سم

سن

سر

سخ

سخ

ست

ستم

ش

شا

شو

شن

شف

شپ

شر

شس

شتپ

خ

خب

خپ

خم

خن

خس

نس

نت

نش

ر

رر

رح

رس

رد او رت

ه

هب

هن

حاء

حاء

حع

حو

حب

حپ

حم

حن

حر

حخ

حس

حق

حث

ك

كا

كع

كو

كب

كپ

بس

بت

ث

ثا

ثو

ثوت

پ

پاء

پر

پخ

پك

پق او پخ

پد او پت

م

ما

ما

مع

مو

من

مر

مخ

مس

مت

ن

نو

نب

نو

نم

نن

نر

نخ

ج

جر

ق

قا

ت

تا

تاء

تي

تپ

تم

تن

تر

تس

د

دو

دب

دپ

دم

دن

دود

ث

ثا

ثر

ثد